# سورة الشعراء

**مكية إلا أربع آيات فإنها مدنية وهي ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] إلى آخرها**

**وهي مئتان وست أو سبع وعشرون آية**

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

الطاء إشارة إلى طرب قلوب العارفين، والسين سرور المحبين، والميم مناجاة المريدين.

**وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ قتادة (باخع نفسه) على الإضافة، وقرئ (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعَةً).

المسألة الثانية: البخع أن يبلغ بالذبح البخاع، وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وذلك أقصى حد الذابح، ولعل للإشفاق.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ معناه: آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين، وتمام تقريره ما مر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] ولا شبهة في أن المراد بالكتاب هو القرآن والمبين وإن كان في الحقيقة هو المتكلم فقد يضاف إلى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه، فإن قيل: القوم لما كانوا كفارًا فكيف تكون آيات القرآن مبيِّنة لهم ما يلزمهم، وإنما يتبيَّن بذلك الأحكام؟ قلنا: ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر ما لا يقدر العباد على مثله، فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الإعجاز، ويعلم به بعد ذلك أنه إذا كان من عند الله تعالى فهو دلالة الأحكام أجمع، وإذا ثبت هذا صارت آيات القرآن كافية في كل الأصول والفروع أجمع، ولما ذكر الله تعالى أنه بيَّن الأمور قال بعده: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ منبهًا بذلك على أن الكتاب وإن بلغ في البيان كل غاية فغير مدخل لهم في الإيمان لما أنه سبق حكم الله بخلافه، فلا تبالغ في الحزن والأسف على ذلك؛ لأنك إن بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك أصلاً فصبره وعزاه وعرفه أن غمه وحزنه لا نفع فيه كما أن وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا نفع لهم فيه، ثم بيَّن تعالى أنه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون، فإن قيل: كيف صح مجيء ﴿خَٰضِعِينَ﴾ خبرًا عن الأعناق؟ قلنا: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين، فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع، ثم ترك الكلام على أصله، ولما وصفت

بالخضوع الذي هوَّ للعقلاء، قيل: ﴿خَٰضِعِينَ﴾ كقوله: ﴿لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقيل: أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما يقال: هم الرءوس والصدور، وقيل: هم جماعات الناس، يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم.

المسألة الرابعة: نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦] وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

**وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ من تمام قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم﴾ [الشعراء: ٤] فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالإلجاء، رحيم بهم من حيث يأتيهم حالاً بعد حال بالقرآن، وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الإعراض والتكذيب والاستهزاء، ثم عند ذلك زجر وتوعد؛ لأن المرء إذا استمر على كفره فليس ينفع فيه إلا الزجر الشديد فلذلك قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ أي بلغوا النهاية في رد آيات الله تعالى ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وذلك إما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨] وقد جرت العادة فيمن يسيء أن يقال له: سترى حالك من بعد، على وجه الوعيد، ثم إنه تعالى بيَّن أنه مع إنزاله القرآن حالاً بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالاً بعد حال فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ والزوج: هو الصنف (مِنَ النَّبَاتِ) والكريم: صفة لكل ما يُرْضَى ويُحْمَد في بابه، يقال: وجه كريم إذا كان مرضيًا في حسنه وجماله. وكتاب كريم: إذا كان مرضيًا في فوائده ومعانيه، والنبات الكريم: هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع. وفي وصف الزوج بالكريم وجهان: أحدهما: أن النبات على نوعين نافع وضار، فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار. والثاني: أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعًا بالكرم، ونبه على أنه ما أنبت شيئًا إلا وفيه فائدة وإن غفل عنها الغافلون؟

أما قوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فهو كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والمعنى أن في ذلك دلالة لمن [illegible] ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أي مع كل ذلك يستمر أكثرهم على

كفرهم، فأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإنما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم؛ لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل: إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعًا. والمراد أنهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات، ثم من إعطاء الصحة والعقل والهداية.

المسألة الثانية: أنه تعالى وصف الكفار بالإعراض أولاً، وبالتكذيب ثانيًا، وبالاستهزاء ثالثًا وهذه درجات من أخذ يترقى في الشقاوة، فإنه يعرض أولاً ثم يصرح بالتكذيب والإنكار إلى حيث يستهزىء به ثالثًا.

المسألة الثالثة: فإن قلت: ما معنى الجمع بين كم وكل، ولم لم يقل: كم أنبتنا فيها من زوج كريم؟ قلت: قد دل كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة، فهذا معنى الجمع (رتَّبهُ) على كمال قدرته، فإن قلت: فحين ذكر الأزواج ودل عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب فكيف قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ وهلا قال: لآيات؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون ذلك مشارًا به إلى مصدر أنبتنا، فكأنه قال: إن في ذلك الإنبات لآية أي آية. والثاني: أن يراد أن في كل واحد من تلك الأزواج لآية.

المسألة الرابعة: احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ فقالوا: الذكر هو القرآن لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾[الأنبياء: ٥٠] وبيَّن في هذه الآية أن الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين أن القرآن محدث، وهذا الاستـ[illegible]ـه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا﴾[الزمر: ٢٣] وبقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۢ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾[المرسلات: ٥٠] وإذا ثبت أنه محدث فله خالق فيكون مخلوقًا لا محالة. والجواب: أن كل ذلك يرجع إلى هذه الألفاظ ونحن نسلم حدوثها إنما ندعي قدم أمر آخر وراء هذه الحروف، وليس في الآية دلالة على ذلك.

## القصة الأولى قصة موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾

اختلف أهل السنة في النداء الذي سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى، هل هو كلامه القديم أو هو ضرب من الأصوات، فقال أبو الحسن الأشعري: المسموع هو الكلام القديم، وكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الأشياء، مع أن الدليل دل على أنها معلومة ومرئية فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والأصوات مع أنه مسموع، وقال أبو منصور الماتريدي: الذي سمعه

موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والأصوات، وذلك لأن الدليل لما دل على أنا رأينا الجوهر والعرض، ولا بد من علة مشتركة بينهما لصحة الرؤية، ولا علة إلا الوجود، حكمنا بأن كل موجود يصح أن يرى، ولم يثبت عندنا أنا نسمع الأصوات والأجسام حتى يحكم بأنه لا بد من مشترك بين الجسم والصوت، فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعًا فظهر الفرق، أما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك المسموع ما كان إلا حروفًا وأصواتًا، فعند هذا قالوا: إن ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى، فصار معجزًا علم به أن الله مخاطب له فلم يحتج مع ذلك إلى واسطة، وكفى في الوقت أن يحمله الرسالة التي هي ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن في بدء البعثة يجب أن يأمره بالدعاء إلى التوحيد، ثم بعده يأمره بالأحكام، ولا يجوز أن يأمره تعالى بذلك إلا وقد عرفه أنه ستظهر عليه المعجزات إذا طولب بذلك.

**أما قوله تعالى:** ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالمعنى أنه تعالى سجل عليهم بالظلم، وقد استحقوا هذا الاسم من وجهين: من وجه ظلمهم أنفسهم بكفرهم، ومن وجه ظلمهم لبني إسرائيل.

**أما قوله:** ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ فقد عطف (قَوْمَ فِرْعَوْنَ) على (الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) عطف بيان، كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد.

**وأما قوله:** ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فقرئ (أَلاَ يَتَّقُونِ) بكسر النون، بمعنى ألا يتقونني، فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة، وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كلام مستأنف أتبعه تعالى إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم، تعجيبًا لموسى عليه السلام من حالهم (التي شفت) في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم (وحذرهم من أيام اللَّه)، ويحتمل أن يكون ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ حالاً من الضمير في (الظَّالِمِينَ) أي يظلمون غيرِ متقين الله وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال، ووجه ثالث وهو أن يكون المعنى ألا يا ناس اتقون، كقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ [النمل: ٢٥]. وأما من قرأ (أَلاَ تَتَّقُونَ) على الخطاب، فعلى طريقة الالتفات إليهم وصرف وجوههم بالإنكار والغضب عليهم، كما يرى من يشكو ممن ركب جناية والجاني حاضر، فإذا اندفع في الشكاية وحمي غضبه، قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنفه به، ويقول له: ألا تتقي الله ألا تستحي من الناس.

**فإن قلت:** فما الفائدة في هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه السلام في وقت المناجاة، والملتفت إليهم غائبون لا يشعرون؟ قلتُ: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم؛ لأنه (مُبَلِّغُهُمْ) ومنهيه إليهم، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية نزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرًا لها واعتبارًا بمواردها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝١٤﴾

**وفي الآية مسائل:**

**المسألة الأولى**: اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى قوم فرعون، طلب موسى عليه السلام أن يبعث معه هارون إليهم، ثم ذكر الأمور الداعية له إلى ذلك السؤال وحاصلها أنه لو لم يكن هارون، لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام، وذلك من وجهين: الأول: أن فرعون ربما كذبه، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسة؛ لأن عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية إلى باطن القلب، وإذا انقبضا إلى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة في اللسان، فالتأذي من التكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب للحبسة، فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب، ثم ثنى بضيق الصدر، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان. وأما هارون فهو أفصح لسانًا مني وليس في حقه هذا المعنى، فكان إرساله لائقًا. الثاني: أن لهم عندي ذنبًا فأخاف أن يبادروا إلى قتلي، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة. وأما هارون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة.

**المسألة الثانية**: قرئ (يَضِيقُ) و(يَنْطَلِقُ) بالرفع؛ لأنهما معطوفان على خبر (إنَّ)، وبالنصب لعطفهما على صلة أن، والمعنى: أخاف أن يكذبون، وأخاف أن يضيق صدري، وأخاف أن لا ينطلق لساني، والفرق أن الرفع يفيد ثلاث علل في طلب إرسال هارون، والنصب يفيد علة واحدة، وهي الخوف من هذه الأمور الثلاثة، فإن قلت: الخوف غم يحصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلاً، فكيف جاز تعلق الخوف به؟ قلت: قد بينًا أن التكذيب الذي سيقع يوجب ضيق القلب، وضيق القلب يوجب زيادة الاحتباس، فتلك الزيادة ما كانت حاصلة في الحال بل كانت متوقعة، فجاز تعليق الخوف عليها.

**أما قوله تعالى**: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ فليس في الظاهر ذكر من الذي يرسل إليه، وفي الخبر أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام إليه. قال السدي: إن موسى عليه السلام سار بأهله إلى مصر والتقى بهارون وهو لا يعرفه، فقال: أنا موسى، فتعارفا وأمره أن ينطلق معه إلى فرعون لأداء الرسالة، فصاحت أمهما لخوفها عليهما فذهبا إليه، ويحتمل أن يكون المراد أرسل إليه جبريل؛ لأن رسول الله إلى الأنبياء جبريل عليه السلام، فلما كان هو متعينًا لهذا الأمر حذف ذكره لكونه معلومًا، وأيضًا ليس في الظاهر أنه يرسل لماذا، لكن فحوى الكلام يدل على أنه طلبه للمعونة فيما سأل، كما يقال: إذا نابتك نائبة، فأرسل إلى فلان أي ليعينك فيها وليس في الظاهر أنه التمس كون هارون نبيًا معه، لكن قوله: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] يدل عليه.

أما قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ فأراد بالذنب قتله القبطي، وقد ذكر الله تعالى هذه القصة مشروحة في سورة القصص.

واعلم أنه ليس في التماس موسى عليه السلام، أن يضم إليه هارون ما يدلُ على أنه استعفى من الذهاب إلى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه في الوصول إلى المراد، واختلفوا فقال بعضهم: إنه وإن كان نبيًّا فهو غير عالم بأنه يبقى حتى يؤدي الرسالة؛ لأنه إنما أمر بذلك بشرط التمكين، وهذا قول الكعبي وغيره من البغداديين؛ لأنهم يجوزون دخول الشرط في تكليف الله تعالى العبد، والذي ذهب إليه الأكثرون أن ذلك لا يجوز لأنه تعالى إذا أمر فهو عالم بما يتمكن منه المأمور وبأوقات تمكنه، فإذا علم أنه غير متمكن منه فإنه لا يأمره به، وإذا صح ذلك فالأقرب في الأنبياء أنهم يعلمون إذا حملهم الله تعالى الرسالة أنه تعالى يمكنهم من أدائها وأنهم سيبقون إلى ذلك الوقت، ومثل ذلك لا يكون إغراء في الأنبياء وإن جاز أن يكون إغراء في غيرهم.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: قول موسى عليه السلام: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ هل يدل على صدور الذنب منه؟ جوابه: لا والمراد لهم عليَّ ذنب في زعمهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أن موسى عليه السلام طلب أمرين: الأول: أن يدفع عنه شرهم. والثاني: أن يرسل معه هارون فأجابه الله تعالى إلى الأول بقوله: ﴿كَلَّا﴾ ومعناه ارتدع يا موسى عما تظن وأجابه إلى الثاني بقوله: ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هارون فإن قيل: علام عطف قوله: ﴿فَاذْهَبَا﴾ قلنا: على الفعل الذي يدل عليه (كَلَّا) كأنه قال: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون.

وأما قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ فمن مجاز الكلام يريد: أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه، إذًا أحضر وأستمع ما يجري بينكما فأظهركما عليه وأعليكما وأكسر شوكته عنكما، وإنما جعلنا الاستماع مجازًا؛ لأن الاستماع عبارة عن الإصغاء وذلك على الله تعالى محال.

وأما قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ففيه سؤال وهو أنه هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] جوابه من وجوه: أحدها: أن الرسول اسم للماهية من غير بيان أن تلك الماهية واحدة أو كثيرة والألف واللام لا يفيدان إلا الوحدة لا الاستغراق، بدليل أنك تقول:

الإنسان هو الضحاك ولا تقول: كل إنسان هو الضحاك ولا أيضًا هذا الإنسان هو الضحاك، وإذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد إلا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وثانيها: أن الرسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ[1]

فيكون المعنى إنا ذو رسالة رب العالمين. وثالثها: أنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوة كأنهما رسول واحد. ورابعها: المراد كل واحد منا رسول. وخامسها: ما قاله بعضهم: أنه إنما قال ذلك لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله: ﴿إِنَّآ﴾ فكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٢] وهو ضعيف.

**وأما قوله:** ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فالمراد من هذا الإرسال التخلية والإطلاق كقولك: أرسل البازي، يريد خلهم يذهبوا معنا.

**قوله تعالى:** ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

اعلم أن في الكلام حذفًا وهو أنهما أتياه وقالا ما أمر الله به فعند ذلك قال فرعون ما قال. يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب: إن هاهنا إنسانًا يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه، فأديا إليه الرسالة؛ فعرَّف موسى عليه السلام فعدد عليه نعمه أولاً، ثم إساءة موسى إليه ثانيًا، أما النعم فهي قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ والوليد: الصبي لقرب عهده من الولادة ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ﴾ وعن أبي عمرو بسكون الميم. (سِنِينَ) قيل: لبث عندهم ثلاثين سنة، وقيل: وكز القبطي وهو ابن اثنتي عشرة سنة وفر منهم (على أثرها)، والله أعلم بصحيح ذلك، وعن الشعبي (فِعلتك) بالكسر وهي قتله القبطي؛ لأنه قتله بالوكز وهو ضرب من القتل، وأما الفعلة فلأنها (كانت) وكزة واحدة عدد عليه نعمه من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك (وفظعه) بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾.

**وأما قوله:** ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ففيه وجوه: أحدها: يجوز أن يكون حالاً أي: قتلته وأنت بذاك من الكافرين بنعمتي. وثانيها: وأنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة، وقد افترى عليه أو جهل أمره؛ لأنه كان (يعاشرهم) بالتقية فإن الكفر غير جائز على الأنبياء قبل النبوة وثالثها: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معناه وأنت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولي نعمته. ورابعها: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بفرعون وإلهيته أو من الذين (كانوا) يكفرون في دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها، يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]

---

(١) هذا البيت للشاعر كثير عزة وقد تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾

اعلم أن فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة، لا جرم أن موسى عليه السلام ما أنكرها، ولم يشتغل بالجواب عنها؛ لأنه تقرر في العقول أن الرسول إلى الغير إذا كان معه معجز وحجة لم يتغير حاله بأن يكون المرسَل إليه أنعم عليه أو لم يفعل ذلك، فصار قول فرعون لما قاله غير مؤثر ألبتة، ومثل هذا الكلام الإعراض عنه أولى ولكن أجاب عن القتل بما لا شيء أبلغ منه في الجواب وهو قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤول إليه من القتل؛ لأنه فعل الوكزة على وجه التأديب، ومثل ذلك ربما حسن وإن أدى إلى القتل فبيَّن له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو يعد منه كافرًا أو كافرًا لنعمه، فأما قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ فالمراد أني فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكًا وكان مني في حكم السهو، فلم أستحق التخويف الذي يوجب الفرار ومع ذلك فررت منكم عند قولكم: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] فبيَّن بذلك أنه لا نعمة له عليه في باب تلك الفعلة، بل بأن يكون مسيئًا فيه أقرب من حيث خُوِّف تخويفًا أوجب الفرار، ثم بيَّن نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار، فكأنه قال: أسأتم وأحسن الله إليَّ بأن وهب لي حكمًا وجعلني من المرسلين، واختلفوا في الحكم والأقرب أنه غير النبوة؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه، والنبوة مفهومة من قوله: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فالمراد بالحكم العلم ويدخل في العلم العقل والرأي والعلم بالدين الذي هو التوحيد، وهذا أقرب؛ لأنه لا يجوز أن يبعثه تعالى إلا مع كماله في العقل والرأي والعلم بالتوحيد وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ كالتنصيص على أن ذلك الحكم من خلق الله تعالى، وقالت المعتزلة: المراد منه الألطاف وهو ضعيف جدًا؛ لأن الألطاف مفعولة في حق الكل من غير بخس ولا تقصير، فالتخصيص لا بد فيه من فائدة، فأما قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فهو جواب قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] يقال: عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدًا، فإن قيل: كيف يكون ذلك جوابه ولا تعلُّق بين الأمرين؟ قلنا: بيان التعلق من وجوه: أحدها: أنه إنما وقع في يده وفي تربيته؛ لأنه قصد تعبيد بني إسرائيل وذبح أبنائهم، فكأنه عليه السلام قال له: كنت مستغنيًا عن تربيتك لو لم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى أسلافنا. وثانيها: أن هذا الإنعام المتأخر صار معاضًا بذلك الظلم العظيم على أسلافنا وإذا تعارضا تساقطا. وثالثها: ما قاله الحسن: إنك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت عليَّ فلا نعمة لك بالتربية. ورابعها: المراد أن الذي تولى تربيتي هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك علي؛ لأن التربية كانت من قبل أمي وسائر من هو من قومي ليس لك إلا أنك ما قتلتني، ومثل هذا لا يعد إنعامًا. وخامسها: أنك كنت تدعي أن بني إسرائيل

عبيدك ولا منة للمولى على العبد في أن يطعمه ويعطيه ما يحتاج إليه.

واعلم أن في الآية دلالة على أن كفر الكافر لا يبطل نعمته على من يحسن إليه ولا يبطل منته؛ لأن موسى عليه السلام إنما أبطل ذلك بوجه آخر على ما بينا، واختلف العلماء فقال بعضهم: إذا كان كافرًا لا يستحق الشكر على نعمه على الناس إنما يستحق الإهانة بكفره، فلو استحق الشكر بإنعامه والشكر لا يوجد إلا مع التعظيم فيلزم كونه مستحقًا للإهانة وللتعظيم معًا، واستحقاق الجمع بين الضدين محال، وقال آخرون: لا يبطل الشكر بالكفر وإنما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذي يستحقه على الإيمان، والآية تدل على هذا القول الثاني.

**المسألة الثانية**: قال صاحب (الكشاف): إنما جمع الضمير في (مِنكُمْ) (وخِفْتُكُمْ) مع إفراده في (تَمُنُّها) (وعَبَّدْتَ) لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد، فإن قلت: (تِلْكَ) إشارة إلى ماذا (وأَنْ عَبَّدْتَ) ما محلها من الإعراب؟ قلت: (تِلْكَ) إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هي إلا بتفسيرها وهي ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ فإن ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ عطف بيان ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها عليَّ! وقال الزجاج: ويجوز أن يكون (أن) في موضع نصب، والمعنى إنما صارت نعمة عليَّ؛ لأن عبدت بني إسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفاني أهلي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

اعلم أن فرعون لم يقل لموسى ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إلا وقد دعاه موسى إلى طاعة رب العالمين، يبين ذلك ما تقدم من قوله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فلا بد عند دخولهما عليه أنهما قالا ذلك، فعند ذلك قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

**ثم هاهنا بحثان:**

**البحث الأول:** أن فرعون يحتمل أن يقال إنه كان عارفًا بالله، ولكنه قال ما قال طلبًا للملك والرياسة، وقد ذكر الله تعالى في كتابه ما يدل على أنه كان عارفًا بالله، وهو قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فإذا قرئ بفتح التاء من (عَلِمْتَ)

فالمراد أن فرعون علم ذلك، وذلك يدل على أنه كان عارفًا بالله، لكنه كان يستأكل قومه بما يظهره من إلهيته، والقراءة الأخرى برفع التاء من (عَلِمْتُ) فهي تقتضي أن موسى عليه السلام هو الذي عرف ذلك، وأيضًا فإن فرعون إن لم يكن عاقلاً لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول إليه، وإن كان عاقلاً فهو يعلم بالضرورة أنه ما كان موجودًا ولا حيًّا ولا عاقلاً ثم صار كذلك، وبالضرورة يعلم أن كل ما كان كذلك فلا بد له من مؤثر، فلا بد وأن يتولد له من هذين العلمين علم ثالث بافتقاره في تركيبه وفي حياته وعقله إلى مؤثر موجد، ويحتمل أن يقال: إنه كان على مذهب الدهرية من أن الأفلاك واجبة الوجود في ذواتها ومتحركة لذواتها، وأن حركاتها أسباب لحصول الحوادث في هذا العالم، أو يقال: إنه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار، ثم اعتقد أنه بمنزلة الإله لأهل إقليمه من حيث استعبدهم وملك ذماتهم وزمام أمرهم، ويحتمل أن يقال: إنه كان على مذهب الحلولية، القائلين بأن ذات الإله يتدرع بجسد إنسان معين، حتى يكون الإله سبحانه لذلك الجسد بمنزلة روح كل إنسان بالنسبة إلى جسده، وبهذه التقديرات كان يسمي نفسه إلهًا.

**البحث الثاني:** وهو أنه قال لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ واعلم أن السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشيء، وتعريف حقيقة الشيء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشيء من أجزائها أو بأمر خارج عنها أو بما يتركب من الداخل والخارج. أما تعريفها بنفسها فمحال؛ لأن المعرف معلوم قبل المعرف، فلو عرف الشيء بنفسه لزم أن يكون معلومًا قبل أن يكون معلومًا وهو محال. وأما تعريفها بالأمور الداخلة فيها فهاهنا في حق واجب الوجود محال؛ لأن التعريف بالأمور الداخلة لا يمكن إلا إذا كان المعرف مركبًا، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركبًا؛ لأن كل مركب فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه فهو غيره، فكل مركب محتاج إلى غيره، وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته، وكل مركب فهو ممكن، فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركبًا، فواجب الوجود ليس بمركب، وإذا لم يكن مركبًا استحال تعريفه بأجزائه، ولما بطل هذان القسمان ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود إلا بلوازمه وآثاره، ثم إن اللوازم قد تكون خفية، وقد تكون جلية، ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية، وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والأرض وما بينهما فقد ثبت أنه لا جواب ألبتة لقول فرعون ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلا ما قاله موسى عليه السلام، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما، فأما قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فمعناه: إن كنتم موقنين بإسناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته؛ لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته، ثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره، وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره، وأبعدها عن الخفاء وما

ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما، فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال إلا هذا الجواب، ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله: ألا تستمعون، وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى، يعني أنا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية، وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية، وذلك لأنا إذا قلنا في الشيء: إنه الذي يلزمه اللازم الفلاني، فهذا المذكور، إما أن يكون معروفًا لمجرد كونه أمرًا ما يلزمه ذلك اللازم أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه الملزومية، والأول محال؛ لأن كونه أمرًا يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفًا فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معروفًا لنفسه وهو محال. والثاني محال؛ لأن العلم بأنه أمر ما يلزمه اللازم الفلاني لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة؛ لأنه لا يمتنع في العقل اشتراك الماهيات المختلفة في لوازم متساوية فثبت أن التعريف بالوصف الخارجي لا يفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه ربًّا للسماوات والأرض وما بينهما جوابًا عن قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأجاب موسى عليه السلام: بأن ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض إلى التعريف بكونه تعالى خالقًا لنا ولآبائنا، وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها فهي غنية عن الخالق والمؤثر، ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم، لم أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود، وما كان كذلك استحال أن يكون واجبًا لذاته، وما لم يكن واجبًا لذاته استحال وجوده إلا لمؤثر، فكان التعريف بهذا الأثر أظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول إليه؛ فقال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ يعني المقصود من سؤال ما طلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد ألبتة تلك الخصوصية، فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه، فقال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، والأمر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة إبراهيم عليه السلام مع نمروذ، فإنه استدل أولاً بالإحياء والإماتة وهو الذي ذكره موسى عليه السلام هاهنا بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فأجابه نمروذ بقوله: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهو الذي ذكره موسى عليه السلام هاهنا بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

**وأما قوله:** ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فكأنه عليه السلام قال: إن كنت من العقلاء عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت؛ لأنك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف

حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته، فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته، وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته.

واعلم أنا قد بينا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هي هي غير معقولة للبشر، وإذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام أن يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة، إلا أن عدم العلم بتلك الخصوصية لا يقدح في صحة الرسالة فكان حاصل كلام موسى عليه السلام أن ادعاء رسالة رب العالمين تتوقف صحته على إثبات أن للعالمين ربًا وإلهًا ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة، فكأن موسى عليه السلام يقيم الدلالة على إثبات القدر المحتاج إليه في صحة دعوى الرسالة، وفرعون يطالبه ببيان الماهية، وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بأنه لا تعلق لذلك السؤال نفيًا ولا إثباتًا في هذا المطلوب، فهذا تمام القول في هذا البحث والله أعلم، ثم إن موسى عليه السلام لما خشن في آخر الكلام بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعند ذلك قال فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ فإنه لما عجز عن الحجاج عدل إلى التخويف، فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلامًا مجملاً ليعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي هل تستجيز أن تسجنني مع اقتداري على أن آتيك بأمر بيّن في باب الدلالة على وجود الله تعالى وعلى أني رسوله؟ فعند ذلك قال: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهاهنا فروع: الفرع الأول: الآية تدل على أنه تعالى ليس بجسم؛ لأنه لو كان جسمًا وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام بذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازمًا له لعدوله عن الجواب الحق. الثاني: الواجب على من يدعو غيره إلى الله تعالى أن لا يجيب عن السفاهة؛ لأن موسى عليه السلام لما قال له فرعون: إنه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده أن يسجنه. الثالث: أنه يجوز للمسئول أن يعدل في حجته من مثال إلى مثال لإيضاح الكلام ولا يدل ذلك على الانقطاع. الرابع: إن قيل: كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالأول وهو قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ والمعجز لا يدل على الله تعالى كدلالة سائر ما تقدم؟ قلنا. بل يدل ما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده، وعلى أنه صادق في الرسالة فالذي ختم به كلامه أقوى من كل ما تقدم وأجمع. الخامس: فإن قيل: كيف قال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ على التثنية والمرجوع إليه مجموع؟ جوابه أريد ما بين الجهتين، فإن قيل: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب الخلائق كلهم، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب؟ جوابه: قد عمم أولاً ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم؛ لأن أقرب الأشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من انتقاله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته من حالة إلى حالة أخرى، ثم خصص المشرق والمغرب؛ لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها على تقدير مستقيم في فصول السنة من أظهر الدلائل. السادس: فإن

قيل: لم قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ ولم يقل: لأسجننك مع أنه أخصر؟ جوابه: لأنه لو قال: لأسجننك لا يفيد إلا صيرورته مسجونًا. أما قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ فمعناه أني أجعلك واحدًا ممن عرفت حالهم في سجوني، وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه في بئر عميقة فردًا لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل. السابع: الواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين أي جائيًا بالمعجزة.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: قرأ الأعمش: (بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيم).

**المسألة الثانية**: اعلم أن قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠] يدل على أن الله تعالى قبل أن ألقى العصا عرَّفه بأنه يصيرها ثعبانًا، ولولا ذلك لما قال ما قال فلما ألقى عصاه ظهر ما وعده الله به فصار ثعبانًا مبينًا، والمراد أنه تبيَّن للناظرين أنه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات، روي أنه لما انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون وجعلت تقول: يا موسى، مرني بما شئت، ويقول فرعون: يا موسى، أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها، فعادت عصا فإن قيل: كيف قال هاهنا: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] وفي آية ثالثة: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١] والجان مائل إلى الصغر والثعبان مائل إلى الكبر؟ جوابه: أما الحية فهي اسم الجنس ثم إنها لكبرها صارت ثعبانًا، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان، ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] ويحتمل أنها كانت أولاً صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانًا، ثم إن موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غيرها؟ قال نعم فأراه يده ثم أدخلها جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء يضيء الوادي من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس، فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها أمورًا ثلاثة: أحدها: قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وذلك لأن الزمان كان زمان السحرة وكان عند كثير منهم أن الساحر قد يجوز أن ينتهي بسحره إلى هذا الحد فلهذا روَّج عليهم هذا القول. وثانيها: قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ وهذا يجري مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله، والمعنى

يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم، ومعلوم أن مفارقة الوطن أصعب الأمور فنفرهم عنه بذلك، وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير عن المحق.
وثالثها: قوله لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: فما رأيكم فيه وما الذي أعمله؟ يظهر من نفسه أني متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم، ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله: ﴿أَرْجِهْ﴾ قرىء (أَرْجِئْهُ) و(أَرْجِهْ) بالهمز والتخفيف، وهما لغتان يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخرته، والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة، وقيل: احبسه وذلك محتمل؛ لأنك إذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخَّرته. روي أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل إليه، فقالوا له: لا تفعل، فإنك إن قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة، ولكن أرجئه وأخاه إلى أن تحشر السحرة ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة، ثم أشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون السحرة، ظنًّا منهم بأنهم إذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه، قال صاحب (الكشاف): فإن قلت: قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ ما العامل في ﴿حَوْلَهُ﴾؟ قلت: هو منصوب نصبين: نصب في اللفظ، ونصب في المحل، والعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف، والعامل في النصب المحلي هو النصب على الحال.

قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

**وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى:** اليوم المعلوم: يوم الزينة وميقاته وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] والميقات: ما وقت به أي حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الإحرام.

**المسألة الثانية:** اعلم أن القوم لما أشاروا بتأخير أمره وبأن يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فسادُ قول موسى عليه السلام، رضي فرعون بما قالوه وعمي عما شاهده وحب الشيء يعمي ويصم فجمع السحرة ثم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيد لهم؛ ليكون ذلك بمحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضًا من لطف الله تعالى في ظهور أمر موسى عليه السلام.

**اما قوله:** ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ فالمراد أنهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين.

وأما قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ فالمراد إنا نرجو أن يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدأوا بطلب الجزاء، وهو إما المال وإما الجاه فبذل لهم ذلك وأكده بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ لأن نهاية مطلوبهم منه البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الأمرين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لا بد من أن يبدأ موسى أو يبدأوا ثم إنهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم، وقالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[طه: ٦٥] فلما تواضعوا له تواضع هو أيضًا لهم فقدمهم على نفسه، وقال: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ فإن قيل: كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصي وذلك سحر وتلبيس وكفر والأمر بمثله لا يجوز؟ الجواب: لا شبهة في أن ذلك ليس بأمر؛ لأن مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ولا يقدموا على ما يجري مجرى المغالبة، وإذا ثبت هذا وجب تأويل صيغة الأمر وفيه وجوه: أحدها: ذلك الأمر كان مشروطًا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين كما في قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٢٣]. وثانيها: لما تعين ذلك طريقًا إلى كشف الشبهة صار جائزًا. وثالثها: أن هذا ليس بأمر بل هو تهديد، أي إن فعلتم ذلك أتينا بما تبطله، كقول القائل: لئن رميتني لأفعلن ولأصنعن ثم يفوّق له السهم فيقول له: ارم فيكون ذلك منه تهديدًا. ورابعها: ما ذكرنا أنهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يصير ذلك التواضع سببًا لقبول الحق ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب، وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم في كل الأحوال التواضع؛ لأن مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة، فبأن يفعل الواحد منا أولى.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ فروي عن ابن عباس أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصي مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض فهاب موسى عليه السلام ذلك، فقيل له: ألق ما في يمينك فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه، فإذا هي كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون: كنا نساحر الناس فإذا غلبناهم بقيت الحبال والعصي، وكذلك إن غلبونا ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين.

واعلم أن في الآثار اختلافًا فمنهم من كثّر الحبال والعصي، ومنهم من توسط، والله أعلم بعدد ذلك، والذي يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد، ولأن الأمر بلغ عند

فرعون وقومه في العظم مبلغًا يبعد أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة.

**وأما قوله:** ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فالمراد أنهم أظهروا ما يجري مجرى القطع على أنهم يغلبون، وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لأمر موسى عليه السلام.

**أما قوله:** ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فالمراد من قوله: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم (ويزورونه) فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى، (بالتمويه على الناظرين أو إفكهم) وسمى تلك الأشياء إفكًا مبالغة.

**أما قوله:** ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ فالمراد خروا سجدًا؛ لأنهم كانوا في الطبقة العالية من علم السحر، فلا جرم كانوا عالمين بمنتهى السحر، فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجًا عن حد السحر علموا أنه ليس بسحر، وما كان ذلك إلا ببركة تحقيقهم في علم السحر، ثم إنهم عند ذلك لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحًا، فإن قيل: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ جوابه: هو الله تعالى بما (حَصَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الدَّوَاعِي الْجَازِمَةِ الْخَالِيَةِ عَنِ الْمُعَارَضَاتِ وَلَكِنَّ الْأَوْلَى) أن لا نقدر فاعلاً؛ لأن ألقى بمعنى خر وسقط.

**أما قوله:** ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ فهو عطف بيان لرب العالمين؛ لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام أنه الذي دعا موسى وهارون عليهما السلام إليه.

**قوله تعالى:** ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

اعلم أنهم لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس: إن هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا إلا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فلبس على القوم وبالغ في التنفير عن موسى عليه السلام من وجوه: أولها: قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ وهذا فيه إيهام أن مسارعتكم إلى الإيمان به دالة على أنكم كنتم مائلين إليه، وذلك يطرق التهمة إليهم فلعلهم قصروا في السحر حياله. وثانيها: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وهذا تصريح بما رمز به أولاً، وغرضه منه أنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا في السحر ليظهر أمر موسى عليه السلام، وإلا ففي قوة السحرة أن يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام، وهذه شبهة قوية في تنفير من يقبل قوله. وثالثها: قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيد مطلق وتهديد شديد. ورابعها: قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ

أَجْمَعِينَ﴾ وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والصلب معلوم، وليس في الإهلاك أقوى من ذلك وليس في الآية أنه فعل ذلك أو لم يفعل، ثم إنه أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين: الأول: قولهم: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ الضر والضير واحد، وليس المراد أن ذلك إن وقع لم يضر وإنما عنوا بالإضافة إلى ما عرفوه من دار الجزاء.

واعلم أن قولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فيه نكتة شريفة وهي أنهم قد بلغوا في حب الله تعالى أنهم ما أرادوا شيئًا سوى الوصول إلى حضرته، وأنهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب، وإنما مقصودهم محض الوصول إلى مرضاته والاستغراق في أنوار معرفته، وهذا أعلى درجات الصديقين. الجواب الثاني: قولهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ فهو إشارة منهم إلى الكفر والسحر وغيرهما، والطمع في هذا الموضع يحتمل اليقين كقول إبراهيم ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] ويحتمل الظن؛ لأن المرء لا يعلم ما سيجيء من بعد.

أما قوله: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمراد لأن كنا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف، أو يكون المراد من السحرة خاصة، أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم، وقرىء (إن كنا) بالكسر، وهو من الشرط الذي يجيء به العدل (بأمره لصحته وهم كانوا متحققين أنهم أول المؤمنين)، ونظيره قول (الْقَائِلِ) لمن يؤخر جعله: إن كنت عملت لك فوفني حقي.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾

قرىء (أَسْرِ) بقطع الهمزة ووصلها وسر. لما ظهر أمر موسى عليه السلام بما شاهدوه من الآية، أمره الله تعالى بأن يخرج ببني إسرائيل لما كان في المعلوم من تدبير الله تعالى في موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم وأموالهم، ولم يأمن وقد جرت تلك الغلبة الظاهرة أن يقع من فرعون ببني إسرائيل ما يؤدي إلى الاستئصال، فلذلك أمره الله تعالى أن يسري ببني إسرائيل، وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى، ولا شبهة أن في الكلام حذفًا وهو أنه أسرى بهم كما أمره الله تعالى، ثم إن قوم موسى عليه السلام قالوا لقوم فرعون: إن لنا في هذه الليلة عيدًا، ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا السبب، ثم خرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جانب البحر، فلما سمع ذلك فرعون أرسل في المدائن حاشرين، ثم إنه قوى نفسه ونفس

أصحابه بأن وصف قوم موسى بوصفين من أوصاف الذم، ووصف قوم نفسه بصفة المدح أما وصف قوم موسى عليه السلام بالذم.

**فالصفة الأولى:** قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ والشرذمة الطائفة القليلة، ومنه قولهم: ثوب شراذم للذي بلي، وتقطع قطعًا، ذكرهم بالاسم الدال على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً واختار جمع السلامة الذي هو للقلة (وقد يجمع القليل على أقلة وقلل)، ويجوز أن يريد بالقلة الذلة (والقماءة) لا قلة العدد، والمعنى: أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ثم اختلف المفسرون في عدد تلك الشرذمة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا ستمائة ألف مقاتل لا شاب فيهم دون عشرين سنة، ولا شيخ يوفي على الستين سوى الحشم، وفرعون يقللهم لكثرة من معه، وهذا الوصف قد يستعمل في الكثير عند الإضافة إلى ما هو أكثر منه، فروي أن فرعون خرج على فرس أدهم حصان وفي عسكره على لون فرسه ثلثمائة ألف.

**الصفة الثانية:** قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ يعني يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا، واختلفوا في تلك الأفعال على وجوه: **أحدها:** ما تقدم من أمر الحلي وغيره. **وثانيها:** خروج بني إسرائيل عن عبودية فرعون واستقلالهم بأنفسهم. **وثالثها:** مخالفتهم لهم في الدين وخروجهم عليهم. ورابعها: ليس إلا أنهم لم يتخذوا فرعون إلهًا. أما الذي وصف فرعون به قومه فهو قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ وفيه ثلاث قراءات (حَذِرُونِ) و(حاذِرُونَ) و(حَادِرُونَ) بالدال غير المعجمة.

واعلم أن الصفة إذا كانت جارية على الفعل وهي اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث، وإذا لم تكن كذلك وهي الشبهة أفادت الثبوت، فمن قرأ (حَذِرُوْنِ) ذهب إلى إنا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم، ومن قرأ (حاذِرُونَ) فكأنه ذهب إلى معنى إنا قوم ما عهدنا أن نحذر إلا عصرنا هذا. وأما من قرأ (حَادِرُونَ) بالدال غير المعجمة فكأنه ذهب إلى نفي الحذر أصلاً، لأن الحادر هو المشمر، فأراد إنا قوم أقوياء أشداء، أو أراد إنا مدججون في السلاح، والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن أنه منكسر من قوم موسى أو خائف منهم.

**أما قوله تعالى:** ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾ فالمراد إنا جعلنا في قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل، فكان الفعل مضافًا إلى الله تعالى لا محالة.

**وأما قوله:** ﴿مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ﴾ فقال مجاهد: سماها كنوزًا؛ لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى، والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية، والمعنى إنا أخرجناهم من بساتينهم التي فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة، والمواضع التي كانوا يتنعمون فيها لنسلمها إلى بني إسرائيل. أما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيحتمل ثلاثة أوجه: النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه. والجر على أنه وصف لمقام كريم، أي مقام كريم مثل ذلك المقام

الذي كان لهم. والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر كذلك.

أما قوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ أي فلحقوهم، وقرئ (فاتَّبعُوهُمْ)، ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت الشروق من أشرقت الشمس شروقًا إذا طلعت.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي رأى بعضهم بعضًا، قال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي لملحقون وقالوا: ياموسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] كانوا يذبحون أبناءنا، من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يدركوننا، أي في الساعة فيقتلوننا، وقرئ (فلما تراءت الفئتان) (إنا لمدَّرِكون) بتشديد الدال وكسر الراء من أدرك الشيء إذا تتابع ففنى، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦] قال الحسن: جهلوا علم الآخرة، والمعنى إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد، فعند ذلك قال لهم: ﴿كَلَّآ﴾ وذلك كالمنع مما توهموه، ثم قوى نفوسهم بأمرين: أحدهما: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة. والثاني: قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ والهدى هو طريق النجاة والخلاص، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه، فقد بلغ النهاية في النصرة.

قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] بيَّن تعالى بعده كيف هداه ونجاه، وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا، فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ ولا شبهة في أن المراد فضرب فانفلق؛ لأنه كالمعلوم من الكلام إذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب؛ لأنه كالعبث، ولأنه تعالى جعله من معجزاته التي ظهرت بالعصا ولأن انفلاقه بضربه أعظم في النعمة عليه، وأقوى لعلمهم أن ذلك إنما حصل لمكان موسى عليه السلام، واختلفوا في البحر، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر مع بني إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا إلا يوشع بن نون فإنه ضرب دابته وخاض في البحر حتى عبر ثم رجع إليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى: للبحر انفرق لي فقال: ما أمرت بذلك ولا يعبر عليَّ العصاة، فقال موسى: يا رب، قد أبى البحر أن ينفرق، فقيل له: اضرب بعصاك البحر؛ فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقًا لكل سبط منهم طريق فقال: كل سبط قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم إلى بعض على أرض يابسة، وعن عطاء بن السائب أن جبريل

عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم، ويستقبل القبط فيقول: رويدكم ليلحق آخركم، وروي أن موسى عليه السلام قال عند ذلك: «يَا مَنْ كَانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَالْمُكَوِّنُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَالْكَائِنُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ»[(١)].

**فأما قوله:** ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ فالفرق الجزء المنفرق منه، وقرئ (كُلُّ فَلْقٍ) والمعنى واحد، والطود الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء وهو معجز من وجوه: أحدها: أن تفرق ذلك الماء معجز. وثانيها: أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضًا؛ لأنه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكدًا لهذا الإعجاز. وثالثها: أنه إن ثبت ما روي في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني إسرائيل فهو معجز ثالث. ورابعها: أن جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض فهو معجز رابع. وخامسها: أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس.

**أما قوله تعالى:** ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ **ففيه بحثان:**

**البحث الأول:** قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدي ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي وقربنا ثم أي حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون ثم فيه ثلاثة أوجه: أحدها: قربناهم من بني إسرائيل. وثانيها: قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد. وثالثها: قدمناهم إلى البحر ومن الناس من قال: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى عليه السلام بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى، وقرىء (وأزلقنا) بالقاف أي أزللنا أقدامهم والمعنى أذهبنا عزهم ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبسًا وأزلقهم.

**البحث الثاني:** أنه تعالى أضاف ذلك الإزلاف إلى نفسه مع أن اجتماعهم هنالك في طلب موسى كفر أجاب الجبائي عنه من وجهين: الأول: أن قوم فرعون تبعوا بني إسرائيل، وبنو إسرائيل إنما فعلوا ذلك بأمر الله تعالى فلما كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه إلى نفسه توسعًا وهذا كما يتعب أحدنا في طلب غلام له فيجوز أن يقول أتعبني: الغلام لما حدث ذلك فعله. الثاني: قيل: ﴿الْعَظِيمِ﴾ أي أزلفناهم إلى الموت لأجل أنهم في ذلك الوقت قربوا من أجلهم وأنشد:

وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى أَوْ لَيْلَةٍ سَلَفَتْ ... فِيهَا النُّفُوسُ إِلَى الْآجَالِ تَزْدَلِفُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (التفسير) (١٠/ ٤٣٣)، حديث رقم (١٦٤٥٥) من طريق محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام... فذكره، وأحمد في (الزهد) (١/ ٦٦) من طريق عمران عن وهب... به، الثعلبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٤٢٥) من طريق محمد بن حمزة... به.

**وأجاب الكعبي عنه من وجهين:** الأول: أنه تعالى لما حلم عنهم، وترك البحر لهم يبسًا وطمعوا في عبوره جازت الإضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مرارًا فيحلم عنه، فإذا تمادى في غيه وأراه قدرته عليه قال له: أنا أحوجتك إلى هذا وصيرتك إليه بحلمي، لا يريد بذلك أنه أراد ما فعل الثاني: يحتمل أنه أزلفهم أي جمعهم ليغرقهم عند ذلك ولكي لا يصلوا إلى موسى وقومه. والجواب: عن الأول أن الذي فعله بنو إسرائيل هل له أثر في استجلاب داعية قوم فرعون إلى الذهاب خلفهم أوليس له أثر فيه فإن كان الأول فقد حصل المقصود؛ لأن لفعل الله تعالى أثرًا في حصول الداعية المستلزمة لذلك الإزلاف، وإن لم يكن له فيه أثر ألبتة فقد زال التعلق فوجب أن لا تحسن الإضافة، وأما إذا تعب أحدنا في طلب غلام له، فإنما يجوز أن يقول: أتعبني ذلك الغلام لما أن فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر في حصول ذلك التعب؛ لأنه متى فعل ذلك الفعل فالظاهر أنه يصير معلومًا للسيد، ومتى علمه صار علمه داعيًا له إلى ذلك التعب ومؤثرًا فيه فصحت الإضافة. وبالجملة فعندنا القادر لا يمكنه الفعل إلا بالداعي فالداعي مؤثر في صيرورة القادر مؤثرًا في ذلك الفعل فلا جرم حسنت الإضافة. والجواب عن الثاني: وهو أنه أزلفهم ليغرقهم فهو أنه تعالى ما أزلفهم بل هم بأنفسهم ازدلفوا ثم حصل الغرق بعده، فكيف يجوز إضافة هذا الإزلاف إلى الله تعالى؟ أما على قولنا فإنه جائز؛ لأنه تعالى هو الذي خلق الداعية المستعقبة لذلك الازدلاف والجواب عن الثالث: وهو أن حلمه تعالى عنهم وحملهم على ذلك، فنقول: ذلك الحلم هل له أثر في استجلاب هذه الداعية أم لا؟ وباقي التقرير كما تقدم والجواب عن الرابع: هو بعينه الجواب عن الثاني، والله أعلم.

**أما قوله تعالى:** ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ فالمعنى أنه تعالى جعل البحر يبسًا في حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه؛ لأنه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا في ذلك الماء.

**أما قوله تعالى:** ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ فالمعنى أن الذي حدث في البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته؛ لأن أحدًا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة في الدين والدنيا، وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له، وعلى اعتبار المعتبرين به أبدًا فيصير تحذيرًا من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله، ويكون فيه اعتبار لمحمد ﷺ، فإنه قال عقيب ذلك: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وفي ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على أن له أسوة بموسى وغيره، فإن الذي ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التي تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه في البحر وغيره. فكذلك أنت يا محمد، لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك واصبر على إيذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون في هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فتعلقه بما قبله أن القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا، ثم إنه تعالى كان عزيزًا قادرًا على أن يهلكهم، ثم إنه تعالى ما أهلكهم بل أفاض عليهم أنواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله.

## القصة الثانية قصة إبراهيم عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة شدة حزن محمد ﷺ بسبب كفر قومه ثم إنه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضًا أن حزن إبراهيم عليه السلام بهذا السبب كان أشد من حزنه؛ لأن من عظيم المحنة على إبراهيم عليه السلام أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بقدر الدعاء والتنبيه فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وكان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول لتاجر الرقيق: ما مالك؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق، ثم تقول: الرقيق جمال وليس بمال. فأجابوا إبراهيم عليه السلام بقولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ والعكوف: الإقامة على الشيء، وإنما قالوا: ﴿فَنَظَلُّ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، واعلم أنه كان يكفيهم في الجواب أن يقولوا: نعبد أصنامًا، ولكنهم ضموا إليه زيادة على الجواب وهي قولهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ وإنما ذكروا هذه الزيادة إظهارًا لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الأصنام فقال إبراهيم عليه السلام منبهًا على فساد مذهبهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): لا بد في يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة (هل يُسْمِعُونكم) أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم، وهل يقدرون على ذلك؟ وتقرير هذه الحجة التي ذكرها إبراهيم عليه السلام أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجىء إليه في المسألة؛ ليعرف مراده إذا سمع دعاءه ثم يستجيب له في بذل منفعة أو دفع مضرة، فقال لهم: فإذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم، ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه؟ فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة فعدلوا إلى أن قالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال، إذ لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد

وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحًا لطريقة الكفار التي ذمها الله تعالى وذمًا لطريقة إبراهيم عليه السلام التي مدحها الله تعالى فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أراد به أن الباطل لا يتغير بأن يكون قديمًا أو حديثًا، ولا بأن يكون في فاعلية كثرة أو قلة.

**أما قوله:** ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **ففيه أسئلة:**

**السؤال الأول:** كيف يكون الصنم عدوًا مع أنه جماد؟ جوابه من وجهين: أحدهما: أنه تعالى قال في سورة مريم في صفة الأوثان ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] فقيل في تفسيره: إن الله يحيي ما عبدوه من الأصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم، فعلى هذا الوجه أن الأوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار في الآخرة فأطلق إبراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل. وثانيها: أن الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها في طلب المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الأحياء العقلاء في اعتقاد الكفار، ثم إنها صارت أسبابًا لانقطاع الإنسان عن السعادة ووصوله إلى الشقاوة، فلما نزلت هذه الأصنام منزلة الأحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرة لا جرم جرت مجرى الأعداء، فلا جرم أطلق إبراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو. وثالثها: المراد في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ عداوة من يعبدها، فإن قيل: فلم لم يقل: إن من يعبد الأصنام عدو لي ليكون الكلام حقيقة؟ جوابه: لأن الذي تقدم ذكره ما عبدوه دون العابدين.

**السؤال الثاني:** لم قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ ولم يقل فإنها عدو لكم؟ جوابه: أنه عليه السلام صور المسألة في نفسه على معنى إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها، (وآثرت عبادة من الخير كله منه) وأراهم (بذلك) أنها نصيحة نصح بها نفسه، فإذا تفكروا قالوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى للقبول.

**السؤال الثالث:** لِمَ لَمْ يقل: فإنهم أعدائي؟ جوابه: العدو والصديق يجيئان في معنى الواحد والجماعة، قال:

وَقَوْم عَلَيَّ ذَوِي مِرَّةٍ أَرَاهُم عَدُوًّا وَكَانُوا صَدِيقَا

**ومنه قوله تعالى:** ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠] وتحقيق القول فيه ما تقدم في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].

**السؤال الرابع:** ما هذا الاستثناء؟ جوابه: أنه استثناء منقطع كأنه قال: لكن رب العالمين.

**قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حُكِيَ عنه أنه استثنى رب العالمين، حُكِيَ عنه أيضًا ما وصفه به مما

يستحق العبادة لأجله، ثم حكى عنه ما سأله عنه، أما الأوصاف فخمسة: أولها: قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

واعلم أنه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الأمرين في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] واعلم أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه، فلنتكلم في الإنسان فنقول: إنه مخلوق، فمنهم من قال: هو من عالم الخلق والجسمانيات، ومن قال: هو من عالم الأمر الروحانيات، وتركيب البدن الذي هو من عالم الخلق مقدم على إعطاء القلب الذي هو من عالم الأمر على ما أخبر عنه سبحانه في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢] فالتسوية إشارة إلى تعديل المزاج وتركيب الأمشاج، ونفخ الروح إشارة إلى اللطيفة الربانية النورانية التي هي من عالم الأمر، وأيضًا قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] ولما تمم مراتب تغيرات الأجسام قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وذلك إشارة إلى الروح الذي هو من عالم الملائكة، ولا شك أن الهداية إنما تحصل من الروح، فقد ظهر بهذه الآيات أن الخلق مقدم على الهداية.

أما تحقيقه بحسب المباحث الحقيقية، فهو أن بدن الإنسان إنما يتولد عند امتزاج المني بدم الطمث، وهما إنما يتولدان من الأغذية المتولدة من تركب العناصر الأربعة وتفاعلها، فإذا امتزج المني بالدم فلا يزال ما فيها من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلاً، وما في كل واحد منها من القوى كاسرًا سَوْرَة كيفية الآخر، فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس إلى البارد وتستبرد بالقياس إلى الحار، وكذا القول في الرطب واليابس، وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهي التي تجذب الغذاء، ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية، ثم تقيم تلك الأجزاء بدل ما تحلل منها، ثم تزيد في جوهر الأعضاء طولاً وعرضًا، ثم يفصل عن تلك المواد فضلة يمكن أن يتولد عنها مثل ذلك، ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر، وبعضها فاعلة: إما آمرة كالشهوة والغضب أو مأمورة كالقوى المركوزة في العضلات، ومنها قوى إنسانية وهي إما مدركة أو عاملة، والقوى المدركة هي القوى القوية على إدراك حقائق الأشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية، ثم إنك إذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسماني، ومفرداتها وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها وأشياء تنافرها وتفسد حالها، ووجدت فيها قوى جذابة للملائم دفاعة للمنافي، فقد ظهر أن صلاح الحال في هذه الأشياء لا يتم إلا بالخلق والهداية. أما الخلق فبتصييره موجودًا بعد أن كان معدومًا، وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة للمنافع والدفاعة للمضار فثبت أن قوله: ﴿خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع في الدنيا والدين، ثم هاهنا دقيقة وهو أنه قال: ﴿خَلَقَنِى﴾ فذكره بلفظ الماضي وقال: ﴿يَهْدِينِ﴾ ذكره بلفظ المستقبل، والسبب في ذلك أن خلق الذات لا يتجدد في الدنيا،

بل لما وقع بقي إلى الأمد المعلوم. أما هدايته تعالى فهي مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية في المنافع الدنيوية، وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز المنافع عن المضار أو في المنافع الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر، فبيَّن بذلك أنه سبحانه هو الذي خلقه بسائر ما تكامل به خلقه في الماضي دفعة واحدة، وأنه يهديه إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة. وثانيها: قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق، وذلك لأنه سبحانه إذا خلق له الطعام وملكه، فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به من نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه النعمة، وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ما عداهما. وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وفيه سؤال وهو أنه لم قال: (مرضت) دون أمرضني؟ وجوابه من وجوه:

**الأول:** أن كثيرًا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك، ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم. الثاني: أن المرض إنما يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي. أما الصحة فهي إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها، إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع، وعودها إلى الصحة إنما يكون أيضًا بسبب قاهر يقهرها على العود إلى الاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطابعها مشتاقة إلى التفرق والنزاع، فلهذا السبب أضاف الشفاء إليه سبحانه وتعالى، وما أضاف المرض إليه. وثالثها: وهو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم، والمرض مكروه وليس من النعم، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم، ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إليه تعالى، فإن نقضته بالإماتة فجوابه: أن الموت ليس بضرر؛ لأن شرط كونه ضررًا وقوع الإحساس به، وحال حصول الموت لا يقع الإحساس به، إنما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض، وأيضًا فلأنك قد عرفت أن الأرواح إذا كملت في العلوم والأخلاق كان بقاؤها في هذه الأجساد عين الضرر وخلاصتها عنها عين السعادة بخلاف المرض. ورابعها: قوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ والمراد منه الإماتة في الدنيا والتخلص عن آفاتها وعقوباتها، والمراد من الإحياء المجازاة. وخامسها: قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ فهو إشارة إلى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام جمع في هذه الألفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار الآخرة **ثم هاهنا أسئلة:**

**السؤال الأول:** لم قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ والطمع عبارة عن الظن والرجاء، وإنه عليه السلام كان قاطعًا بذلك؟ جوابه: أن هذا الكلام لا يستقيم إلا على مذهبنا، حيث قلنا: إنه لا يجب على الله لأحد شيء، وأنه يحسن منه كل شيء ولا اعتراض لأحد عليه في فعله، وأجاب الجبائي عنه من

وجهين: الأول: أن قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ أراد به سائر المؤمنين؛ لأنهم الذين يطمعون ولا يقطعون به. الثاني: المراد من الطمع اليقين، وهو مروي عن الحسن. وأجاب صاحب (الكشاف): بأنه إنما ذكره على هذا الوجه تعليمًا منه لأمته كيفية الدعاء.

واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة، أما الأول: فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولاً والدعاء ثانيًا ومن أول المدح إلى آخر الدعاء كلام إبراهيم عليه السلام فجعل الشيء الواحد وهو قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ كلام غيره مما يبطل نظم الكلام ويفسده، وأما الثاني: وهو أن الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة، وأما الثالث: وهو أن الغرض منه تعليم الأمة فباطل أيضًا؛ لأن حاصله يرجع إلى أنه كذب على نفسه لغرض تعليم الأمة، وهو باطل قطعًا.

**السؤال الثاني:** لِمَ أسند إلى نفسه الخطيئة مع أن الأنبياء منزعون عن الخطايا قطعًا؟ وفي جوابه ثلاثة وجوه: أحدها: أنه محمول على كذب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله لسارة: (إنها أختي)[1] وهو ضعيف؛ لأن نسبة الكذب إليه غير جائزة. وثانيها: أنه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف؛ لأنه إن كان صادقًا في هذا التواضع فقد لزم الإشكال، وإن كان كاذبًا فحينئذ يرجع حاصل الجواب إلى إلحاق المعصية به لأجل تنزيهه عن المعصية. وثالثها: وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الأولى، وقد يسمى ذلك خطأً فإن من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فإن باعها بدينار، قيل: إنه أخطأ، وترك الأولى على الأنبياء جائز.

**السؤال الثالث:** لِمَ علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، وإنما تغفر في الدنيا؟ جوابه: لأن أثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفي لا يعلم.

**السؤال الرابع:** ما فائدة (لي) في قوله: ﴿يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾؟ وجوابه من وجوه: أحدها: أن الأب إذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك في أكثر الأمر إنما يكون طلبًا للثواب وهربًا عن العقاب أو طلبًا لحسن الثناء والمحمدة أو دفعًا للألم الحاصل من الرقة الجنسية وإذا كان كذلك لم يكن المقصود من ذلك العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه، إما لتحصيل ما ينبغي أو لدفع ما لا ينبغي، أما الإله سبحانه فإنه كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان، وإذا كان كذلك لم يكن عفوه إلا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي﴾ يعني هو الذي إذا غفر كان غفرانه لي ولأجلي لا لأجل أمر عائد إليه ألبتة. وثانيها: كأنه قال: خلقتني لا لي فإنك حين خلقتني ما

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء)، باب: (قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾) (٦/ ٤٤٧)، حديث رقم (٣٣٥٨)، ومسلم في كتاب (الفضائل)، باب: (فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام) (٤/ ١٥٤/ ١٨٤٠)، جميعًا من طريق محمد عن أبي هريرة. . . به.

كنت موجودًا وإذا لم أكن موجودًا استحال تحصيل شيء لأجلي ثم مع هذا فأنت خلقتني، أما لو عفوت كان ذلك العفو لأجلي، فلما خلقتني أولاً مع أني كنت محتاجًا إلى ذلك الخلق فلأن تغفر لي وتعفو عني حال ما أكون في أشد الحاجة إلى العفو والمغفرة كان أولى. وثالثها: أن إبراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه في بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات إلى الوسائط، ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام: «أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا» فهاهنا قال: ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: لمجرد عبوديتي لك واحتياجي إليك تغفر لي خطيئتي لا أن تغفرها لي بواسطة شفاعة شافع.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسألته وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه أن هذه الأرواح البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب إلى عالم الروحانيات أشد كانت مشاكلتها للملائكة أتم، فكانت أقوى على التصرف في أجسام هذا العالم، وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها في ظلمات هذه الجسمانيات أشد كانت مشاكلتها للبهائم أشد فكانت أكثر عجزًا وضعفًا وأقل تأثيرًا في هذا العالم، فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى أنه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقًا في معرفة الله ومحبته ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة إلهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشيء الذي هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ» فإن قال قائل: لِمَ لَمْ يقتصر إبراهيم عليه السلام على الثناء، لا سيما ويروى عنه أيضًا أنه قال: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي؟»[(١)] فالجواب: أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك حين كان مشتغلاً بدعوة الخلق إلى الحق ألا ترى أنه قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ

---

(١) ذكره الألباني في (الضعيفة) (١/ ٧٤)، حديث رقم (٢١).
**وقال**: لا أصل له وأورده بعضهم من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع.

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٧] ثم ذكر الثناء، ثم ذكر الدعاء؛ لأن الشارع لا بد له من تعليم الشرع، فأما حين ما خلا بنفسه، ولم يكن غرضه تعليم الشرع كان يقتصر على قوله: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي».

**البحث الثاني:** في الأمور التي طلبها في الدعاء وهي مطاليب:

**المطلوب الأول:** قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ولقد أجابه الله تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[البقرة: ١٣٠] وفيه مطالب: أحدها: أنه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة؛ لأن النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت النبوة المطلوبة، أما عين النبوة الحاصلة أو غيرها، والأول محال؛ لأن تحصيل الحاصل محال، والثاني محال لأنه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبيًّا مرتين، بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية، وذلك بإدراك الحق ومن قوله ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كمال القوة العملية، وذلك بأن يكون عاملاً بالخير فإن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، وإنما قدم قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ على قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لما أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات، وأيضًا فإنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعلم بالخير وعكسه غير ممكن، ولأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن، ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل، وإنما فسرنا معرفة الأشياء بالحكم وذلك؛ لأن الإنسان لا يعرف حقائق الأشياء إلا إذا استحضر في ذهنه صور الماهيات، ثم نسب بعضها إلى بعض بالنفي أو بالإثبات، وتلك النسبة وهي الحكم، ثم إن كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب الخارجية كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية، فمثل هذا الإدراك يسمى حكمة وحكمًا، وهو المراد من قوله عليه السلام: «أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ» وأما الصلاح فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتي الإفراط والتفريط، وذلك لأن الإفراط في أحد الجانبين تفريط في الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل إلا بالاعتدال، ولما كان الاعتدال الحقيقي شيئًا واحدًا لا يقبل القسمة ألبتة والأفكار البشرية في هذا العالم قاصرة على إدراك أمثال هذه الأشياء، لا جرم لا ينفك البشر عن الخروج عن ذلك الحد وإن قلَّ، إلا أن خروج المقربين عنه يكون في القلة بحيث لا يحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشًا جدًا فقد ظهر من هذا تحقيق ما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وظهر احتياج إبراهيم عليه السلام إلى أن يقول: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

**المطلب الثاني:** لما ثبت أن المراد من الحكم العلم، ثبت أنه عليه السلام طلب من الله أن يعطيه العلم بالله تعالى وبصفاته، وهذا يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل في قلب العبد إلا بخلق الله تعالى، وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يدل على أن كون العبد صالحًا ليس إلا بخلق الله تعالى وحمل هذه الأشياء على الألطاف بعيد؛ لأن عند الخصم كل ما في قدرة الله تعالى من الألطاف فقد فعله فلو صرفنا الدعاء إليه لكان ذلك طلبًا لتحصيل الحاصل وهو فاسد.

**المطلب الثالث:**أن الحكم المطلوب في الدعاء إما أن يكون هو العلم بالله أو بغيره والثاني باطل؛ لأن الإنسان حال كونه مستحضرًا للعلم بشيء لا يمكنه أن يكون مستحضرًا للعلم بشيء آخر فلو كان المطلوب بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى، والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق في العلم بالله كان هذا السؤال طلبًا لما يشغله عن الاستغراق في العلم بالله تعالى، وذلك غير جائز؛ لأنه لا كمال فوق ذلك الاستغراق فإذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله، ثم إن ذلك العلم إما أن يكون هو العلم بالله تعالى الذي هو شرط صحة الإيمان أو غيره، والأول باطل؛ لأنه لما وجب أن يكون حاصلاً لكل المؤمنين فكيف لا يكون حاصلاً عند إبراهيم عليه السلام، وإذا كان حاصلاً عنده امتنع طلب تحصيله، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء درجات في معرفة الله تعالى أزيد من العلم بوجوده وبأنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وبأنه عالم قادر حي، وما ذاك إلا الوقوف على صفات الجلال أو الوقوف على حقيقة الذات أو ظهور نور تلك المعرفة في القلب. ثم هناك أحوال لا يعبر عنها المقال ولا يشرحها الخيال، ومن أراد أن يصل إليها فليكن من الواصلين إلى العين، دون السامعين للأثر.

**المطلوب الثاني:**قوله: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ **وفيه ثلاث تأويلات:**

**التأويل الأول:**أنه عليه السلام ابتدأ بطلب ما هو الكمال الذاتي للإنسان في الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم الذي هو العلم، ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة، فأما كمالات الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية، أما الداخلية فهي الخلق الظاهر والخلق الباطن والخلق الظاهر أشد جسمانية والخلق الباطن أشد روحانية، فترك إبراهيم عليه السلام الأمر الجسماني وهو الخلق الظاهر وطلب الأمر الروحاني وهو الخلق الباطن، وهو المراد بقوله: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وأما الخارجية فهي المال والجاه، والمال أشد جسمانية والجاه أشد روحانية فترك إبراهيم عليه السلام الأمر الجسماني وهو المال وطلب الأمر الروحاني وهو الجاه والذكر الجميل الباقي على وجه الدهر، وهو المراد بقوله: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وقد أعطاه ذلك بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٨]فإن قيل وأي غرض له في أن يثني عليه ويمدح؟ جوابه من وجهين: الأول: وهو على لسان الحكمة أن الأرواح البشرية قد بينا أنها مؤثرة في الجملة إلا أن بعضها قد يكون ضعيفًا فيعجز عن التأثير فإذا اجتمعت طائفة منها فربما قوي مجموعها على ما عجزت الآحاد عنه، وهذا المعنى مشاهد في المؤثرات الجسمانية، إذا ثبت هذا فالإنسان الواحد إذا كان بحيث يثني عليه الجمع العظيم ويمدحونه ويعظمونه، فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع إليه سببًا لحصول زيادة كمال له. الثاني: وهو على لسان الكمال أن من صار ممدوحًا فيما بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل، فإنه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعيًا لغيره إلى اكتساب مثل تلك الفضائل.

**التأويل الثاني:**أنه سأل ربه أن يجعل من ذريته في آخر الزمان من يكون داعيًا إلى الله تعالى،

وذلك هو محمد ﷺ فالمراد من قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ بعثة محمد ﷺ.

**التأويل الثالث:** قال بعضهم: المراد اتفاق أهل الأديان على حبه، ثم إن الله تعالى أعطاه ذلك؛ لأنك لا ترى أهل دين إلا ويتولّون إبراهيم عليه السلام، وقدح بعضهم فيه بأنه لا تقوى الرغبة في مدح الكافر. وجوابه: أنه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر، بل المقصود أن يكون ممدوح كل إنسان ومحبوب كل قلب.

**المطلوب الثالث:** قوله: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ اعلم أنه لما طلب سعادة الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهي جنة النعيم، وشبهها بما يورث؛ لأنه الذي يغتنم في الدنيا، فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا.

**المطلوب الرابع:** قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ واعلم أنه لما فرغ من طلب السعادات الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأشد الناس التصاقًا به وهو أبوه فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ ثم فيه وجوه: الأول: أن المغفرة مشروطة بالإسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ يرجع حاصله إلى أنه دعاء لأبيه بالإسلام. الثاني: أن أباه وعده الإسلام كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] فدعا له لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وهذا ضعيف؛ لأن الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطًا لما منعه الله عنه. الثالث: أن أباه قال له: إنه على دينه باطنًا وعلى دين نمروذ ظاهرًا تقية وخوفًا، فدعا له لاعتقاده أن الأمر كذلك فلما تبيّن له خلاف ذلك تبرأ منه، لذلك قال في دعائه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فلولا اعتقاده فيه أنه في الحال ليس بضال لما قال ذلك.

**المطلوب الخامس:** قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): الإخزاء من الخزي وهو الهوان، أو من الخزاية وهي الحياء وهاهنا أبحاث:

**أحدها:** أن قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ يدل على أنه لا يجب على الله تعالى شيء على ما بيناه في قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

**وثانيها:** أن لقائل أن يقول: لما قال أولاً: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ومتى حصلت الجنة، امتنع حصول الخزي، فكيف قال بعده: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ وأيضًا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧] فما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم؟ جوابه: كما أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فكذا درجات الأبرار دركات المقربين وخزي كل واحد بما يليق به.

**وثالثها:** قال صاحب (الكشاف): في (يبعثون) ضمير العباد؛ لأنه معلوم أو ضمير الضالين.

**أما قوله:** ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فاعلم أنه تعالى أكرمه بهذا الوصف حيث قال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

**ثم في هذا الاستثناء وجوه:** أحدها: أنه إذا قيل لك: هل لزيد مال وبنون؟ فتقول: ماله وبنوه سلامة قلبه، تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك، فكذا في هذه الآية. وثانيها: أن نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين في معنى الغنى كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه. وثالثها: أن نجعل (من) مفعولاً لينفع أي لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله تعالى، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين، ويجوز على هذا ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من فتنة المال والبنين. أما السليم ففي ثلاثة أوجه: الأول: وهو الأصح أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والأخلاق الرذيلة، وذلك لأنه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب والاتصال ومرضه عبارة عن زوال أحد تلك الأمور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغي له وهو العلم والخلق الفاضل ومرضه عبارة عن زوال أحدهما فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أن يكون خاليًا عن العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها فإن قيل: فظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلَّم قلبه كان ناجيًا وأنه لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد. جوابه: أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تُبَّع فلو كان القلب سليمًا لكانا سليمين لا محالة، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب. التأويل الثاني: أن السليم هو اللديغ من خشية الله تعالى. التأويل الثالث: أن السليم هو الذي سلم وأسلم وسالم واستسلم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤ ﴾

اعلم أن إبراهيم عليه السلام ذكر في وصف هذا اليوم أمورًا: أحدها: قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ والمعنى: أن الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويفرحون بأنهم المحشورون إليها والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها قال الله تعالى في صفة أهل الثواب: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] وقال في صفة أهل العقاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧] وإنما يفعل الله تعالى ذلك؛ ليكون سرورًا معجلاً للمؤمنين وغمًّا عظيمًا للكافرين. ثانيها: قوله:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ والمعنى: أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار؟! وهو قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ أي: الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم، والكبكبة: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ متبعوه من عصاة الإنس والجن. وثالثها: قوله: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾.

واعلم أن ظاهر ذلك أن من عَبَدَ خاصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام، فليس يخلو حال الأصنام من وجهين إما أن يخلقها الله تعالى في الآخرة جمادًا يعذب بها أهل النار فحينئذ لا يصح أن تخاطب ويجب حمل قولهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على أنه ليس بخطاب لهم أو يقال: إنه تعالى يحييها في النار، وذلك أيضًا غير جائز؛ لأنه لا ذنب لها بأن عبدها غيرها. فالأقرب أنهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة، والذي يحمل على أنه خطاب في الحقيقة قولهم: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ وأرادوا بذلك من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس وهو كقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] فأما قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء؛ لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون، وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] أو ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١] من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس، أو أرادوا أنهم إن وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفي ما تعلق بهم من النفع؛ لأن مالا ينفع فحكمه حكم المعدوم، والحميم: من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك، أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص، وإنما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، فإن الرجل الممتحن بإرهاق الظالم قد ينهض جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك، فأعز من بيض الأنوق، ويجوز أن يريد بالصديق الجمع ثم حكى تعالى عنهم قولهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأنهم تمنوا الرجعة إلى الدنيا، ولو في مثل هذا الوضع في معنى التمني كأنه قيل: فليت لنا كرة، وذلك لما بيّن معنى لو وليت من التلاقي في التقدير، ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت. قال الجبائي: إن قولهم ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس بخبر عن إيمانهم لكنه خبر عن عزمهم؛ لأنه لو كان خبرًا عن إيمانهم لوجب أن يكون صدقًا؛ لأن الكذب لا يقع من أهل الآخرة، وقد أخبر الله تعالى بخلاف ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا

لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقد تقدم في سورة الأنعام بيان فساد هذا الكلام. ثم بيَّن سبحانه أن فيما ذكره من قصة إبراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والأكثرون من المفسرين حملوه على قوم إبراهيم ثم بيَّن تعالى أن مع كل هذه الدلائل فأكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية للرسول ﷺ، فيما يجده من تكذيب قومه.

فأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فمعناه أنه قادر على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالإمهال لكي يؤمنوا.

## القصة الثالثة قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قص على محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص عليه أيضًا نبأ نوح عليه السلام، فقد كان نبوؤه أعظم من نبأ غيره؛ لأنه كان يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ومع ذلك كذبه قومه فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وإنما قال (كَذَّبَتْ) لأن القوم مؤنث وتصغيرها قويمة، وإنما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين: أحدهما: أنهم وإن كذبوا نوحًا لكن تكذيبه في المعنى يتضمن تكذيب غيره؛ لأن طريقة معرفة الرسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين. وثانيهما: أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى، إما لأنهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة.

وأما قوله: ﴿أَخُوهُمْ﴾ فلأنه كان منهم، من قول العرب يا أخا بني تميم، يريدون يا واحدًا منهم، ثم إنه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام أنه أولاً خوفهم، وثانيًا أنه وصف نفسه، أما التخويف فهو قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

واعلم أن القوم إنما قبلوا تلك الأديان للتقليد والمقلد إذا خوف خاف، وما لم يحصل الخوف في قلبه لا يشتغل بالاستدلال، فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وأما وصفه نفسه فذاك بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وذلك لأنه كان فيهم مشهورًا بالأمانة كمحمد ﷺ في قريش فكأنه قال: كنت أمينًا من قبل، فكيف تتهموني اليوم؟ وثانيهما: قوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على ما أنا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة، فإن قيل: ولماذا كرر الأمر بالتقوى؟ جوابه: لأنه في الأول أراد ألا تتقون مخالفتي وأنا رسول الله، وفي الثاني: ألا تتقون مخالفتي ولست آخذ منكم أجرًا فهو في المعنى مختلف ولا تكرار فيه، وقد يقول الرجل لغيره: ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيرًا! ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيرًا، وإنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بطاعته؛ لأن تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول، ثم إن نوحًا عليه السلام لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.

قال صاحب (الكشاف): وقرئ (وَأَتْبَاعُكَ الْأَرْذَلُونَ) جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال والواو للحال وحقها أن يضمر بعدها قد في (وَاتَّبَعَكَ) وقد جمع أرذال على الصحة وعلى التكسير في قولهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] والرذالة الخسة، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا، وقيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة.

واعلم أن هذه الشبهة في نهاية الركاكة؛ لأن نوحًا عليه السلام بُعِث إلى الخلق كافة، فلا يختلف الحال في ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب ودناءتها، فأجابهم نوع عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهذا الكلام يدل على أنهم نسبوهم مع ذلك إلى أنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] ثم قال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ معناه لا نعتبر إلا الظاهر من أمرهم دون ما يخفى، ولما قال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ وكانوا لا يصدقون بذلك أردفه بقوله: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك كالدلالة على أن القوم سألوه إبعادهم لكي يتبعوه أو ليكونوا أقرب إلى ذلك، فبيَّن أن الذي يمنعه عن طردهم أنهم آمنوا به ثم بيَّن أن غرضه بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والمراد إني أخوف من كذبني ولم يقبل مني، فمن قبل فهو القريب، ومن رد فهو البعيد، ثم إن نوحًا عليه السلام لما تمم هذا الجواب لم يكن منهم إلا التهديد، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ والمعنى أنهم خوفوه بأن يقتل بالحجارة، فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ وليس الغرض منه إخبار الله تعالى بالتكذيب؛ لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد إني لا أدعوك عليهم لما آذوني، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ﴾ أي فاحكم بيني وبينهم والفتاحة الحكومة، والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق،

والمراد من هذا الحكم إنزال العقوبة عليهم؛ لأنه قال عقبه: ﴿وَنَجِّنِي﴾ ولولا أن المراد إنزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى، وقد تقدم القول في قصته مشروحًا في سورة الأعراف وسورة هود.

**ثم قال تعالى:** ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال صاحب (الكشاف): الفُلْك السفينة وجمعه فَلَك قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢] فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد والمشحون المملوء يقال: شحنها عليهم خيلاً ورجالاً، فدل ذلك على أن الذين نجوا معه كان فيهم كثرة، وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم، وبيَّن تعالى أنه بعد أن أنجاهم أغرق الباقين وأن إغراقه لهم كان كالمتأخر عن نجاتهم.

## القصة الرابعة قصة هود عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ
﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾
قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

اعلم أن فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة في إعادة التفسير ثم إنه تعالى ذكر الأمور التي تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهي ثلاثة: فأولها: قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ قرئ (بِكُلِّ رِيعٍ) بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع، ومنه قوله كم ريع أرضك؟ وهو ارتفاعها، والآية العلَم، ثم فيه وجوه: أحدها: عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علمًا يعبثون فيه بمن يمر في الطريق إلى هود عليه السلام. والثاني: أنهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرًا فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث. والثالث: أنهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طريقهم أعلامًا طوالاً فكان ذلك عبثًا؛ لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم. الرابع: بنوا بكل ريع بروج الحمام. وثانيها: قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ المصانع مآخذ الماء، وقيل: القصور المشيدة والحصون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد، وفي مصحف أُبَي:

(كأنكم)، وقرئ (تُخْلَدُونَ) بضم التاء مخففًا ومشددًا، واعلم أن الأول إنما صار مذمومًا لدلالته إما على السرف، أو على الخيلاء، والثاني: إنما صار مذمومًا لدلالته على الأمل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر. وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ بيَّن أنهم مع ذلك السرف والحرص فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذا الوصف في العباد ذم وإن كان في وصف الله تعالى مدحًا فكأن من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بأن بطشه بطش جبار. وحاصل الأمر في هذه الأمور الثلاثة أن اتخاذ الأبنية العالية، يدل على حب العلو، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، فيرجع الحاصل إلى أنهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعة الحصول للعبد، فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية [(١)]، ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الأشياء قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ زيادة في دعائهم إلى الآخرة وزجرًا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر، ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالإجمال أولاً ثم التفصيل ثانيًا فأيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم فصلها من بعد بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ فبلغ في دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده فإن قيل: لو قال: أوعظت أم لم تعظ، كان أخصر والمعنى واحد.

**جوابه:** ليس المعنى بواحد (وبينهما فرق) لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله (وَمُبَاشَرَتِهِ)، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم

---

(١) **ضعيف**: حديث الدنيا رأس كل خطيئة، أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٨/ ٣٣٨)، حديث رقم (١٠٥٠١) من طريق عباد بن العوام عن هشام أو عوف عن الحسن. . . به، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٤١٢)، حديث رقم (١٠٩٩).

وقال: رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً وذكره الديلمي في ولده بلا سند عن علي رفعه وقال ابن الغرس: الحديث ضعيف ورواه البيهقي أيضًا في الزهد وأبو نعيم من قول عيسى بن مريم وفي رواية لولد أحمد بلفظ «رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حبالة الشيطان والخمر مفتاح كل شر» ولأحمد في الزهد عن سفيان قال: كان عيسى بن مريم، رواه البيهقي في (الشعب) بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلا وذكره الديلمي في ولده بلا سند عند علي رفعه وقال ابن الغرس: الحديث ضعيف ورواه البيهقي أيضًا في الزهد وأبو نعيم من قول عيسى بن مريم وفي رواية لولد أحمد بلفظ «رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حبالة الشيطان والخمر مفتاح كل شر» ولأحمد في الزهد عن سفيان قال: كان عيسى بن مريم.

تعظ، ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فمن قرأ ﴿خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالفتح فمعناه أن ما جئت به اختلاق الأولين، وتخرصهم كما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كحياتهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا حساب، ومن قرأ (خلق) بضمتين وبواحدة، فمعناه ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر، أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكار المعاد، فعند هذا بيّن الله تعالى أنه أهلكهم، وقد سبق شرح كيفية الهلاك في سائر السور، والله أعلم.

## القصة الخامسة قصة صالح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

اعلم أن صالحًا عليه السلام خاطب قومه بأمور: أحدها: قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ أي: أتظنون أنكم تتركون في دياركم آمنين وتطمعون في ذلك وأن لا دار للمجازاة.

وقوله: ﴿فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم، ثم فسره بقوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا أيضًا إجمال ثم تفصيل، فإن قيل: لِمَ قال: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ والجنة تتناول النخل؟ جوابه من وجهين: الأول: أنه خص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهًا على فضله على سائر الأشجار. والثاني: أن يراد بالجنات غيرها من الشجر؛ لأن اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النخل، والطلع: هو الذي يطلع من النخلة

كنصل السيف في جوفه شماريخ، والهضيم: اللطيف أيضًا من قولهم: كشح هضيم، وقيل: الهضيم اللين النضيج كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ قرأ الحسن (وتنحَتون) بفتح الحاء، وقرئ (فرهين) و(فارهين) والفراهة: الكيس والنشاط، فقوله: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ حال من الناحتين.

واعلم أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية، وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة. وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ وهذا إشارة إلى أنه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف، ولا يجوز التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها، فإن قيل: ما فائدة قوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ ؟ جوابه: فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح، كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح، ثم إن القوم أجابوه من وجهين: أحدهما: قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ وفيه وجوه: أحدها: المسحر هو الذي سحر كثيرًا حتى غلب على عقله. وثانيها: ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي من له سحر. وكل دابة تأكل فهي مسحرة، والسحر أعلى البطن، وعن الفراء المسحر من له جوف، أراد أنك تأكل الطعام وتشرب الشراب. وثالثها: عن المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة. وثانيهما: قولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا يحتمل أمرين:

**الأول:** أنك بشر مثلنا فكيف تكون نبيًّا؟ وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون في الأنبياء أنهم لو كانوا صادقين، لكانوا من جنس الملائكة.

**الثاني:** أن يكون مرادهم إنك بشر مثلنا، فلا بد لنا في إثبات نبوتك من الدليل، فقال صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ﴾ وقرئ بالضم، روي أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبًا، فقعد صالح يتفكر، فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك الناقة، ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحصل لها سقب مثلها في العظم، ووصاهم صالح عليه السلام بأمرين: **الأول:** قوله: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وشربهم في اليوم الذي لا تشرب هي. **والثاني:** قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي بضرب أو عقر أو غيرهما ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ عظم اليوم لحلول العذاب فيه، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب؛ لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد، ثم إن الله تعالى حكى عنهم أنهم عقروها. روي أن (مصدعًا) ألجأها إلى مضيق (في شعب) فرماها بسهم (فأصاب رجلها) فسقطت، ثم ضربها قدار، فإن قيل: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ **جوابه من وجهين:**

**الأول:** أنه لم يكن ندمهم ندم التائبين، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل.

**الثاني**: أن الندم وإن كان ندم التائبين، ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة، بل عند معاينة العذاب، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النساء: ١٨] الآية. واللام في العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم.

## القصة السادسة قصة لوط عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ
أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ
إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ
﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾

**أما قوله تعالى**: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيحتمل عوده إلى الآتي: أي أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة، وهي إتيان الذكران، ويحتمل عوده إلى المأتي، أي أنتم اخترتم الذكران من العالمين لا الإناث منهم.

**وأما قوله تعالى**: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ فيصلح أن يكون تبيينًا لما خلق وأن يكون للتبعيض، ويراد بما خلق العضو المباح منهن، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم، والعادي هو المعتدي في ظلمه، ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ في جميع المعاصي فهذا من جملة ذاك، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة، فقالوا له عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي: لتكونن من جملة من أخرجناه من بلدنا، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوإ الأحوال، فقال لهم لوط عليه السلام: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ القلى البغض الشديد، كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قال، كما يقال: فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك: فلان عالم، ويجوز أن يراد من الكاملين في قلاكم، ثم قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ والمراد: فنجيناه وأهله من عقوبة عملهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فإن قيل: ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ صفة لها كأنه قيل: إلا عجوزًا غابرة، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم. جوابه: معناه إلا عجوزًا مقدرًا غبورها، قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة، قال القاضي عبد الجبار في (تفسيره) في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦]:

دلالة على بطلان الجبر من جهات: أحدها: أنه لا يقال: تذرون إلا مع القدرة على خلافه، ولذلك لا يقال للمرء: لم تذر الصعود إلى السماء، كما يقال له: لم تذر الدخول والخروج. وثانيها: أنه قال: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذي خلق لهم ما خلقه فيهم وأوجبه لا ما لم يفعلوه. وثالثها: قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ فإن كان تعالى خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبون إلى أنهم تعدوا، وهل يقال للأسود: إنك متعد في لونك؟ فنقول: حاصل هذه الوجوه يرجع إلى أن العبد لو لم يكن مُوجِدًا لأفعال نفسه لما توجه المدح والذم والأمر والنهي عليه، ولهذه الآية في هذا المعنى خاصية أَزْيَد مما ورد من الأمر والنهي والمدح والذم في قصة موسى عليه السلام وإبراهيم ونوح وسائر القصص، فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص، وإذا ثبت بطلان هذه الوجوه بقي ذلك الوجه المشهور فنحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين: الأول: أن الله تعالى لما علم وقوع هذه الأشياء فعدمها محال؛ لأن عدمها يستلزم انقلاب العلم جهلاً وهو محال والمفضي إلى المحال محال، وإذا كان عدمها محالاً كان التكليف بالترك تكليفًا بالمحال. الثاني: أن القادر لما كان قادرًا على الضدين امتنع أن يترجح أحد المقدورين على الآخر إلا لمرجح وهو الداعي أو الإرادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر إن كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وإن كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك، فثبت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ما قاله، والله أعلم.

## القصة السابعة قصة شعيب عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

قرىء (أَصْحابُ الأَيْكَةِ) بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الإضافة وهو الوجه، ومن قرأ

بالنصب وزعم أن أيكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فَتَوهُّمٌ قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة (ص) بغير ألف لكن قد كتبت في سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن أيكة اسم لا يعرف، روي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هي التي حمْلُها المقل، فإن قيل: هلا قال: أخوهم شعيب كما في سائر المواضع؟ جوابه: أن شعيبًا لم يكن من أصحاب الأيكة، وفي الحديث: «**إِنَّ شُعَيْبًا أَخَا مَدْيَنَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى أَصْحَابِ الأَيْكَةِ**» ثم إن شعيبًا عليه السلام أمرهم بأشياء: أحدها: قوله: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ وذلك لأن الكيل على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء بقوله: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ ولم يذكر الزائد؛ لأنه بحيث إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا إثم عليه، ثم إنه لما أمر بالإيفاء بيَّن أنه كيف يفعل فقال: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ قرئ (بالقسطاس) مضمومًا ومكسورًا وهو الميزان، وقيل: القرسطون. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ يقال: بخسه حقه إذا نقصه إياه وهذا عام في كل حق يثبت لأحد أن لا يهضم وفي كل ملك أن لا يغصب (علية) مالكه (ولا يتحيف منه) ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفًا شرعيًّا. وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يقال: عثا في الأرض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزرع، وكانوا يفعلون ذلك مع توليتهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك. ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقرىء (الْجُبُلَّة) بوزن الأبلة وقرئ (الْجِبْلَة) بوزن الخلقة ومعناهن واحد أي ذوي الجبلة، والمراد أنه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا خلقهم لما كانوا مخلوقين، فلم يكن للقوم جواب إلا ما لو تركوه لكان أولى بهم وهو من وجهين: الأول: قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فإن قيل: هل اختلف المعنى بإدخال الواو هاهنا وتركها في قصة ثمود؟ جوابه: إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم السحر والبشرية وإذا تركت الواو فلم يقصدوا إلا معنى واحدًا وهو كونه مسحرًا ثم قرره بكونه بشرًا مثلهم. الثاني: قولهم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ومعناه ظاهر، ثم إن شعيبًا عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب إن استمروا على التكذيب فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرئ (كسفا) بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهي القطعة والسماء السحاب أو الظلة، وهم إنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه؛ فعنده قال شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلم يدع عليهم بل فوض الأمر فيه إلى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على ما اقترحوا من عذاب يوم الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب، وإن أرادوا الظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم يروى أنه حبس عنهم الريح سبعًا وسلط عليهم الرمل فأخذ بأنفاسهم، لا ينفعهم ظل ولا ماء فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردًا ونسيمًا

فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا، وروي أن شعيبًا بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة، وهاهنا آخر الكلام في هذه القصص السبع التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة تسلية لمحمد ﷺ فيما ناله من الغم الشديد، **بقي هاهنا سؤالان:**

**السؤال الأول:** لِمَ لا يجوز أن يقال: إن العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان ذلك بسبب كفرهم وعنادهم، بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم؟ وإذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص؛ لأن الاعتبار إنما يحصل أن لو علمنا أن نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم.

**الثاني:** أن الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين وابتلاء لهم على ما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ولأنه تعالى قد ابتلى المؤمنين بالبلاء العظيم في مواضع كثيرة وإذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين. والجواب: أن الله تعالى أنزل هذه القصص على محمد ﷺ تسلية وإزالة للحزن عن قلبه، فلما أخبر الله تعالى محمدًا أنه هو الذي أنزل العذاب عليهم، وأنه إنما أنزله عليهم جزاء على كفرهم، على محمد ﷺ أن الأمر كذلك، فحينئذ يحصل به التسلية والفرح له عليه السلام، واحتج بعض الناس على القدح في علم الأحكام بأن قال: المؤثر في هذه الأشياء، إما الكواكب أو البروج أو كون الكوكب في البرج المعين. والأول باطل، وإلا لحصلت هذه الآثار أين حصل الكوكب، والثاني أيضًا باطل، وإلا لزم دوام الأثر بدوام البرج، والثالث أيضًا باطل؛ لأن الفلك على قولهم بسيط لا مركب فيكون طبع كل برج مساويًا لطبع البرج الآخر في تمام الماهية، فيكون حال الكوكب وهو في برجه كحاله وهو في برج آخر، فيلزم أن يدوم ذلك الأثر بدوام الكوكب، وللقوم أن يقولوا: لِمَ لا يجوز أن يكون صدور الأثر عن الكوكب المعين موقوفًا على كونه مسامتًا مسامتة مخصوصة لكوكب آخر، فإذا فقدت تلك المسامتة فقد شرط التأثير فلا يحصل التأثير؟ ولهم أن يقولوا: هذه الدلالة، إنما تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها، ولكنها لا تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب جري العادة، فإذا أجرى الله تعالى عادته بحصول تأثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقراناتها وأدوارها لم يلزم من حصول هذه الآثار القطع بأن الله تعالى إنما خلقها لأجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها تكريرًا لتلك العادات، والله أعلم.

## القول فيما ذكره الله تعالى من أحوال محمد عليه الصلاة والسلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الأنبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته ﷺ وهو من

وجهين: الأول: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وذلك لأنه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين، أو لأنه إخبار عن القصص الماضية من غير تعليم ألبتة، فلا يكون ذلك إلا بوحي من الله تعالى، وقوله بعده: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كأنه مؤكد لهذا الاحتمال، وذلك لأنه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ما هي موجودة في زبر الأولين من غير تفاوت أصلاً مع أنه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد، دل ذلك على أنه ليس إلا من عند الله تعالى، فهذا هو المقصود من الآية.

**فأما قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالمراد بالتنزيل المنزل، ثم قد كان يجوز في القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلاً من الله تعالى إلى محمد ﷺ بلا واسطة فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ والباء في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ و(نُزِّل به الروح) على القراءتين للتعدية، ومعنى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ جعل الله الروح نازلاً به ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي (حفظكه و) فهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] والروح الأمين جبريل عليه السلام وسماه روحًا من حيث خلق من الروح، وقيل: لأنه نجاة الخلق في باب الدين فهو كالروح الذي تثبت معه الحياة، وقيل: لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح وسماه أمينًا؛ لأنه مؤتمن على ما يؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام، وإلى غيرهم.

**وأما قوله:** ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ففيه قولان: الأول: أنه إنما قال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وإن كان إنما أنزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن في قلبه لا يجوز عليه التغيير فيوثق بالإنذار الواقع منه الذي بيّن الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ الثاني: أن القلب هو المخاطب في الحقيقة؛ لأنه موضع التمييز والاختبار، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول. أما القرآن فآيات: إحداها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧] وقال هاهنا: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وثانيها: أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب من المساعي فقال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] والتقوى في القلب؛ لأنه تعالى قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣] وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]. وثالثها: قوله حكاية عن أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب، فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالاً عن القلب وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ولم تخف الأعين إلا بما تضمر القلوب عند التحديق بها. ورابعها: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩] فخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا: لا طائل في

السمع والأبصار إلا بما يؤديان إلى القلب؛ ليكون القلب هو القاضي فيه والمتحكم عليه، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر. وخامسها: قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]فجعل العذاب لازمًا على هذه الثلاثة وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]وجه الدلالة أنه قصد إلى نفي العلم عنهم رأسًا، فلو ثبت العلم في غير القلب كثباته في القلب لم يتم الغرض فهذه الآيات ومشاكلها ناطقة بأجمعها أن القلب هو المقصود بإلزام الحجة، وقد بينا أن ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لأنهما آلتان للقلب في تأدية صور المحسوسات والمسموعات.

وأما الحديث فما روى النعمان بن بشير قال: سمعته عليه السلام يقول: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»[(١)]. وأما المعقول فوجوه: أحدها: أن القلب إذا غشي عليه فلو قطع سائر الأعضاء لم يحصل الشعور به وإذا أفاق القلب فإنه يشعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الأعضاء تبع للقلب ولذلك فإن القلب إذا فرح أو حزن فإنه يتغير حال الأعضاء عند ذلك، وكذا القول في سائر الأعراض النفسانية. وثانيها: أن القلب منبع المشاق الباعثة على الأفعال الصادرة من سائر الأعضاء وإذا كانت المشاق مبادىء للأفعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب. وثالثها: أن معدن العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب.

**أما المقدمة الأولى:** ففيها النزاع فإن طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو الدماغ والذي يدل على قولنا وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]أي عقل، أطلق عليه اسم القلب لما أنه معدنه. الثاني: أنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب، وقال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (فضل من استبرأ لدينه) (١/ ١٥٣)، حديث رقم (٥٢) من طريق أبي نعيم... به، ومسلم في كتاب (المساقاة)، باب: (أخذ الحلال وترك الشبهات) (٣/ ١٠٧/ ١٢١٩) من طريق محمد بن عبد الله بن شمير الهمداني.... عن أبي كلاهما (أبو نعيم، محمد بن عبد الله) عن زكريا عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير... فذكره.

ﭐلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦] فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضًا هو القلب. الثالث: وهو أنا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب، ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر وأكثر منه أحس من قلبه ضيقًا وضجرًا حتى كأنه يتألم بذلك، وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب؛ لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم. الرابع: وهو أن القلب أول الأعضاء تكونًا، وآخرها موتًا، وقد ثبت ذلك بالتشريح ولأنه متمكن في الصدر الذي هو أوسط الجسد، ومن شأن الملوك المحتاجين إلى الخدم أن يكونوا في وسط المملكة لتكتنفهم الحواشي من الجوانب فيكونوا أبعد من الآفات.

واحتج من قال: العقل في الدماغ بأمور: أحدها: أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب. وثانيها: أن الأعصاب التي هي الآلات في الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب. وثالثها: أن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل. ورابعها: أن في العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل: إنه خفيف الدماغ خفيف الرأس. وخامسها: أن العقل أشرف فيكون مكانه أشرف، والأعلى هو الأشرف وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ. والجواب عن الأول: لِمَ لا يجوز أن يقال: الحواس تؤدي آثارها إلى الدماغ، ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلى القلب، فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ، ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه أنا ندرك من أنفسنا أنا إذا عقلنا أن الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه، فإن الأعضاء تتحرك عند ذلك، ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ. وعن الثاني: أنه لا يبعد أن يتأدى الأثر من القلب إلى الدماغ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه. وعن الثالث: لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطًا لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء. وعن الرابع: أن ذلك العرف إنما كان؛ لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمد من الدماغ من برودته، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضًا، إما لازدياد حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حراراته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل. وعن الخامس: أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم.

فرع: اعلم أن المعاني التي بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف إلى الصدر تارة وإلى الفؤاد أخرى، أما الصدر فلقوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[العاديات: ١٠] وقوله: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾[آل عمران: ١٥٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[هود: ٥]، ﴿إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ﴾[آل عمران: ٢٩] وأما الفؤاد فقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾[الأنعام: ١١٠] ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد فقال: القلب هو العلقة السوداء في جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللحم والشحم، ومجموع ذلك هو الفؤاد ومنهم من قال: القلب والفؤاد لفظان

مترادفان، وكيف كان فيجب أن يعلم أن من جملة العضو المسمى قلبًا وفؤادًا موضعًا هو الموضع في الحقيقة للعقل والاختيار، وأن معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع، كما أن سائر الأعضاء مسخرة للقلب، فإن العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعاني المنسوبة إليه أعني العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان في تلك المعاني، فيشبه أن يكون اسم القلب اسمًا للأجزاء التي تحل فيها هذه المعاني بالحقيقة، واسم الفؤاد يكون اسمًا لمجموع العضو، فهذا هو الكلام في هذا الباب والله الموفق للصواب.

**وأما قوله تعالى:** ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ فيدخل تحت الإنذار الدعاء إلى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح؛ لأن في الوجهين جميعًا يدخل الخوف من العقاب.

**وأما قوله تعالى:** ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ فالباء إما أن تتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان، وهم خمسة هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم السلام، وإما أن تتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربي؛ لينذر به لأنه لو نزَّله باللسان الأعجمي (لتجافوا عنه أهلاً و) لقالوا له: ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به، وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك؛ لأنك تفهمه ويفهمه قومك، ولو كان أعجميًا لكان نازلاً على سمعك دون قلبك؛ لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها.

**وأما قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فيحتمل هذه الأخبار خاصة، ويحتمل أن يكون المراد صفة القرآن، ويحتمل صفة محمد ﷺ، ويحتمل أن يكون المراد وجوه التخويف؛ لأن ذكر هذه الأشياء بأسرها قد تقدم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢﴾

**اعلم أن قوله تعالى:** ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه، وتقريره أن جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع في التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته، وقد كان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر، وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته؛ لأن تطابق الكتب الإلهية على نعته ووصفه يدل قطعًا على نبوته، واعلم أنه قرئ (يكن) بالتذكير، وآية النصب على أنها خبره و(أَنْ يَعْلَمَهُ) هو الاسم، وقرىء (تكن) بالتأنيث وجعلت (آيَةٌ) اسمًا و(أَنْ يَعْلَمَهُ) خبرًا، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسمًا والمعرفة خبرًا، ويجوز مع نصب الآية تأنيث

(يَكُنْ) كقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الأنعام: ٢٣].

**وأما قوله:** ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بيَّن بالدليلين المذكورين نبوة محمد ﷺ وصدق لهجته بيَّن بعد ذلك أن هؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل ولا البراهين، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ يعني إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته، وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله، وانضم إلى ذلك بشارة كتب الله السالفة به، فلم يؤمنوا به وجحدوه، وسموه شعرًا تارة وسحرًا أخرى، فلو نزلناه على بعض الأعجمين الذي لا يحسن العربية لكفروا به أيضًا ولتمحلوا لجحودهم عذرًا، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم، وهكذا مكناه وقررناه فيها وكيفما فعل بهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الجحود والإنكار، وهذا أيضًا مما يفيد تسلية الرسول ﷺ؛ لأنه إذا عرف رسول الله إصرارهم على الكفر، وأنه قد جرى القضاء الأزلي بذلك حصل اليأس، وفي المثل: اليأس إحدى الراحتين.

**المسألة الرابعة:** قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يدل على أن الكل بقضاء الله وخلقه، قال صاحب (الكشاف): أراد به أنه صار ذلك التكذيب متكمنًا في قلوبهم أشد التمكن فصار ذلك كالشيء الجبلي. والجواب: أنه إما أن يكون قد فعل الله فيهم ما يقتضي رجحان التكذيب على التصديق أو ما فعل ذلك فيهم، فإن كان الأول فقد دللنا في سورة الأنعام على أن الترجيح لا يتحقق ما لم ينته إلى حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود، فإن لم يفعل فيهم ما يقتضي الترجيح ألبتة، امتنع قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ كما أن طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم، امتنع إسناد الكفر إلى ذلك الطيران.

**المسألة الخامسة:** قال صاحب (الكشاف): فإن قلت: ما موقع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ من قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ قلت: موقعه منه موقع الموضح (والمبين)؛ لأنه مسوق (لبيانه مؤكد للجحود) في قلوبهم، فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به حتى يعاينوا الوعيد.

**قوله تعالى:** ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن أنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم، وأنه يأتيهم العذاب بغتة أتبعه بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة فقال: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ كما يستغيث المرء عند تعذر الخلاص؛ لأنهم يعلمون في الآخرة أن لا ملجأ، لكنهم يذكرون ذلك استرواحًا.

**فأما قوله تعالى:** ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فالمراد أنه تعالى بيَّن أنهم كانوا في الدنيا يستعجلون العذاب، مع أن حالهم عند نزول العذاب طلب النظرة؛ ليعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به، ثم بيَّن تعالى أن استعجال العذاب على وجه التكذيب إنما يقع منهم ليتمتعوا في الدنيا، إلا أن ذلك جهل، وذلك لأن مدة التمتع في الدنيا متناهية قليلة، ومدة العذاب الذي يحصل بعد ذلك غير متناهية، وليس في العقل ترجيح لذات متناهية قليلة على آلام غير متناهية، وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف، فقال له عظني، فلم يزد على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت، وقرئ (يُمْتَعُونَ) بالتخفيف، ثم بيَّن أنه لم يهلك قرية إلا وهناك نذير يقيم عليهم الحجة.

**أما قوله تعالى:** ﴿ذِكْرَىٰ﴾ فقال صاحب (الكشاف): ذكرى منصوبة بمعنى تذكرة، إما لأن أنذر وذكر متقاربان، فكأنه قيل: مذكرون تذكرة، وإما لأنها حال من الضمير في ﴿مُنذِرُونَ﴾، أي ينذرونهم ذوي تذكرة، وإما لأنها مفعول له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة، أو مرفوعة عل أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى، والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى، وجعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها، ووجه آخر وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولاً له، والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية قوم ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم؛ ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم، ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنهلك قومًا غير ظالمين، وهذا الوجه عليه المعول، فإن قلت: كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا، ولم تعزل عنه في قوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾[الحجر: ٤] قلت: الأصل عزل الواو؛ لأن الجملة صفة لقرية، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما احتج على صدق محمد ﷺ بكون القرآن تنزيل رب العالمين، وإنما يعرف ذلك لوقوعه من الفصاحة في النهاية القصوى، ولأنه مشتمل على قصص المتقدمين من غير تفاوت، مع أنه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة، فكان الكفار يقولون: لم لا يجوز أن يكون هذا من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة؟، فأجاب الله تعالى عنه بأن ذلك لا يتسهل للشياطين؛ لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء، ولقائل أن يقول: العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يحصل إلا بواسطة خبر النبي الصادق، فإذا أثبتنا كون محمد ﷺ صادقًا بفصاحة القرآن وإخباره عن الغيب، ولا يمكن إثبات كون الفصاحة والإخبار عن الغيب معجزًا إلا إذا ثبت كون الشياطين ممنوعين عن ذلك، لزم

الدور وهو باطل. وجوابه: لا نسلم أن العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يستفاد إلا من قول النبي، وذلك لأنا نعلم بالضرورة أن الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدو، ونعلم بالضرورة أن محمدًا ﷺ كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم، فلو كان هذا الغيب إنما حصل من إلقاء الشياطين، لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم مثل هذا العلم، فكان يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى، فلما لم يكن كذلك عَلِمنا أن الشياطين ممنوعون عن ذلك، وأنهم معزولون عن تعرف الغيوب، ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول ﷺ فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وذلك في الحقيقة خطاب لغيره؛ لأن من شأن الحكيم إذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود بذلك هم الأتباع، ولأنه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك، فلهذه العلة أفرده بالمخاطبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بالغ في تسلية رسوله أولاً، ثم أقام الحجة على نبوته، ثانيًا ثم أورد سؤال المنكرين، وأجاب عنه ثالثًا، أمره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وهو هاهنا أمور ثلاثة: الأول: قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وذلك لأنه تعالى بدأ بالرسول فتوعده إن دعا مع الله إلهًا آخر، ثم أمره بدعوة الأقرب فالأقرب، وذلك لأنه إذا تشدد على نفسه أولاً، ثم بالأقرب فالأقرب ثانيًا، لم يكن لأحد فيه طعن ألبتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع، وروي «**أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ صَعِدَ الصَّفَا فَنَادَى الأَقْرَبَ فالأقرب وقال: يا بني عبد المطلب، يَا بَنِي هَاشِمٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مُنَافٍ، يَا عَبَّاسُ عَمَّ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّه شَيْئًا، سَلُونِي مِنَ المَالِ مَا شِئْتُمْ**»(١) وروي «**أَنَّهُ جَمَعَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلاً عَلَى رِجْلِ شَاةٍ وَقَعْبٍ مِنْ لَبَنٍ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَأْكُلُ الْجَذَعَةَ وَيَشْرَبُ الْعُسَّ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا، ثم قال: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ خَيْلاً، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَقَالَ: إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»(٢).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الوصايا)، باب: (هل يدخل النساء والولد في الرقاب؟) (٥/ ٤٤٩)، حديث رقم (٢٧٥٣) من طريق شعيب... به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]) (١/ ٣٥١/ ١٩٢) من طريق يونس... به، كلاهما من طريق الزهري... به.

(٢) أصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه البخاري في (صحيحه) (٤/ ١٧٨٧) حديث رقم (٤٤٩٢) ومسلم في (صحيحه) (١/ ١٩٣/ ٢٠٨) كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

**الثاني:** قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ واعلم أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كَسَرَ جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب، فإن قيل: المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؟ جوابه: لا نسلم أن المتبعين للرسول هم المؤمنون فإن كثيرًا منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين.

**فأما قوله:** ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فمعناه ظاهر، قال الجبائي: هذا يدل على أنه عليه السلام كان بريئًا من معاصيهم، وذلك يوجب أن الله تعالى أيضًا بريء من عملهم كالرسول وإلا كان مخالفًا لله، كما لو رضي عمن سخط الله عليه لكان كذلك، وإذا كان تعالى بريئًا من عملهم فكيف يكون فاعلاً له ومريدًا له؟ الجواب: أنه تعالى بريء من المعاصي بمعنى أنه ما أمر بها بل نهى عنها، فأما بمعنى أنه لا يريدها فلا نسلم والدليل عليه أنه علم وقوعها، وعلم أن ما هو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع وإلا لانقلب علمه جهلاً وهو محال والمفضي إلى المحال محال، وعلم أن ما هو واجب الوقوع فإنه لا يراد عدم وقوعه فثبت ما قلناه. والثالث: قوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ والتوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره، وقوله: ﴿عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم أتبع كونه رحيمًا على رسوله ما هو كالسبب لتلك الرحمة، وهو قيامه وتقلبه في الساجدين وفيه وجوه: أحدها: المراد ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال (الْمُجْتَهِدِينَ) ليطلع على أسرارهم، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه على ما يوجد منهم من الطاعات، فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين. وثانيها: المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه في الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذ كان إمامًا لهم. وثالثها: أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين. ورابعها: المراد تقلب بصره فيمن (يُصَلِّي) خلفه من قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود فو اللَّه إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِي»(١) ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي لما تقوله ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي بما تنويه وتعمله، وهذا يدل عى أن كونه سميعًا أمر مغاير لعلمه بالمسموعات وإلا لكان لفظ العليم مفيدًا فائدته. واعلم أنه قرئ (ونقلبك).

واعلم أن الرافضة ذهبوا إلى أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين وتمسكوا في ذلك بهذه الآية وبالخبر، أما هذه الآية فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ يحتمل الوجوه التي ذكرتم ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد كما نقوله نحن، وإذا

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الأيمان والنذور) باب (كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦/ ٢٤٤٩) حديث رقم (٦٢٦٨)، ومسلم في (صحيحه) (١/ ٣٢٠) حديث رقم (٤٢٥) كلاهما من طريق قتادة عن أنس. . . به.

احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة أنه لا منافاة ولا رجحان، وأما الخبر فقوله عليه السلام: «لَمْ أَزَلْ أُنقَلُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ»(١) وكل من كان كافرًا فهو نجس لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] قالوا: فإن تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] قلنا: الجواب عنه أن لفظ الأب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] فسموا إسماعيل أبًا له مع أنه كان عمًّا له، وقال عليه السلام: «رُدُّوا عَلَيَّ أَبِي»(٢) يعني العباس، ويحتمل أيضًا أن يكون متخذًا لأصنام أب أمه فإن هذا قد يقال له الأب قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٥] فجعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أن إبراهيم كان جده من قبل الأم.

**واعلم أنا نتمسك بقوله تعالى:** ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] وما ذكروه صرف للفظ عن ظاهره، وأما حمل قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز، وأما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن.

## قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

اعلم أن الله تعالى أعاد الشبهة المتقدمة وأجاب عنها من وجهين: الأول: قوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وذلك هو الذي قررناه فيما تقدم أن الكفار يدعون إلى طاعة الشيطان، ومحمدًا عليه السلام كان يدعو إلى لعن الشيطان والبراءة عنه. والثاني: قوله: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ والمراد أنهم كان يقيسون حال النبي ﷺ على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم: إن كان الأمر على ما ذكرتم فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول ﷺ كذلك أيضًا، فلما لم يظهر في إخبار الرسول ﷺ عن المغيبات إلا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة، ثم إن المفسرين ذكروا في الآية وجوهًا: أحدها: أنهم الشياطين روي أنهم كانوا قبل أن حُجبوا بالرجم يسمعون إلى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ فيما (يُوحِي) به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وثانيها: يلقون إلى أوليائهم السمع أي المسموع من الملائكة. وثالثها: الأفَّاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيلقون وحيهم إليهم. ورابعها: يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس، وأكثر الأفَّاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم، فإن

(١) لم أجده.

(٢) مرسل: رواه ابن أبي شيبة في (المصنف) (١٤/ ٤٨١)، حديث رقم (٣٨٠٥٧)، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) (٣/ ٢٩١)، كلاهما من طريق أيوب عن عكرمة... فذكره.

قلت: ﴿يُلْقُونَ﴾ ما محله؟ قلت: يجوز أن يكون في محل النصب على الحال أي تنزل ملقين السمع، وفي محل الجر صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع، وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلاً قال: لِمَ تنزل على الأفَّاكين؟ فقيل: يفعلون كيت وكيت، فإن قلت: كيف قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ بعدما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك؟ قلت: الأفاكون هم الذين يكثرون الكذب، لا أنهم الذين لا ينطقون إلا بالكذب، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلَّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن وأكثرهم يفتري عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

**اعلم أن الكفار لما قالوا:** لم لا يجوز أن يقال: إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء؟ ثم إنه سبحانه فرَّق بين محمد ﷺ وبين الكهنة، فذكر هاهنا ما يدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء، وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون، أي الضالون، ثم بيَّن تلك الغواية بأمرين: الأول: ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ والمراد منه الطرق المختلفة كقولك: أنا في واد وأنت في واد، وذلك لأنهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس، وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد ﷺ، فإنه من أول أمره إلى آخره بقي على طريق واحد وهو الدعوة إلى الله تعالى والترغيب في الآخرة والإعراض عن الدنيا. الثاني: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وذلك أيضًا من علامات الغواة، فإنهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه، وينفرون عن البخل ويصرون عليه، ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عن واحد من أسلافهم، ثم إنهم لا يرتكبون إلا الفواحش، وذلك يدل على الغواية والضلالة.

وأما محمد ﷺ فإنه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٣] ثم بالأقرب فالأقرب حيث قال الله تعالى له: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤] وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء، فقد ظهر بهذا الذي بيناه أن حال محمد ﷺ ما كان يشبه حال الشعراء، ثم إن الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة بيانًا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة: أحدها: الإيمان وهو قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وثانيها: العمل الصالح وهو قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وثالثها: أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق، وهو قوله: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾. ورابعها: أن لا يذكروا هجو أحد إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم، وهو قوله: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال الله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾[النساء: ١٤٨] ثم إن الشرط فيه ترك الاعتداء

لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقيل: المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير؛ لأنهم كانوا يهجون قريشًا، وعن كعب بن مالك: أن رسول ﷺ قَالَ لَهُ: «اهْجُهُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَشْقِ النَّبْلِ» وكان يقول لحسان بن ثابت «قُلْ وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ».

فأما قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ فالذي عندي فيه والله أعلم أنه تعالىٰ لما ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسوله ﷺ من الدلائل العقلية، ومن أخبار الأنبياء المتقدمين، ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام، ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمدًا ﷺ تارة بالكاهن، وتارة بالشاعر، ثم إنه تعالى بيَّن الفرق بينه وبين الكاهن أولاً ثم بيَّن الفرق بينه وبين الشاعر ثانيًا ختم السورة بهذا التهديد العظيم، يعني إن الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، والتأمل في هذه البينات فإنهم سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون وقال الجمهور: المراد منه الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء، والأول أقرب إلى نظم السورة من أولها إلى آخرها، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

# سورة الشعراء

هي مكيةٌ في قول الجمهور. وقال مقاتل: منها مدنِيٌّ؛ الآية التي يُذكَرُ فيها الشعراء، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1]. وقال ابن عباس وقتادة: مكيةٌ إلَّا أربع آياتٍ منها نزلت بالمدينة، من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرها[2]. وهي مئتان وسبعٌ وعشرون آية[3]. وفي رواية: سِتٌّ وعشرون[4]. وعن ابن عباسٍ: قال النبيُّ ﷺ: «أُعطيتُ السورةَ التي تُذكَرُ فيها البقرة من الذِّكْرِ الأوَّلِ، وأُعطيتُ طه وطسم من ألواح موسى، وأُعطيتُ فواتحَ القُرآنِ وخواتيمَ سورةِ البقرة من تحت العرش، وأُعطيتُ المُفصَّلَ نافلةً[5]». وعن البراء بن عازب، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى أعطاني السَّبعَ الطِّوالَ مكانَ التوارةِ، وأعطاني المِئِين[6] مكانَ الإنجيل، وأعطاني الطَّواسين مكان الزبور، وفضَّلني بالحواميم والمُفصَّلِ ما قرأهُنَّ نبيٌّ قبلي[7]».

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٤.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٦٣، وزاد المسير ٦/ ١١٤.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩.

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١١٩.

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٨ إلى ابن مردويه. وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ (٥٢٥) من حديث معقل بن يسار ﷺ، وفيه: «الطور» بدل «طسم». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٠: فيه عبيد الله بن أبي حميد، أجمعوا على ضعفه.

(٦) في (م): المبين.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ إلى ابن نصر وابن مردويه من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (١٦٩٨٢) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ. وقال السندي في حاشيته على المسند: المثون: ما كان من سور القرآن عدد آيهِ مئة آية أو تزيد عليها شيئاً أو تنقص منها شيئاً يسيراً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ الأعمشُ ويحيى وأبو بكرٍ والمُفضَّلُ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: بإمالة الطَّاءِ مُشبعاً في هذه السورة وفي أُختيها[١]. وقرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ وشيبةُ والزُّهريُّ: بين اللفظين، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم[٢]. وقرأ الباقون بالفتح مُشبَعاً. قال الثَّعلبي: وهي كلُّها لغاتٌ فصيحة. وقد مضى في «طه»[٣] قولُ النَّحاسِ في هذا. قال النَّحَّاس[٤]: وقرأ المدنيون[٥] وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «طسم» بإدغام النون في الميم، والقُرَّاء يقولون[٦] بإخفاء النون[٧]. وقرأ الأعمش وحمزة:

(١) السبعة ص٤٧٠ ، والتيسير ص١٦٥ عن حمزة والكسائي، والنشر ٢/ ٧٠ عنهما وعن خلف، والبغوي ٦/ ١١٤ عن المفضل.

(٢) نقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٤ عن أبي حاتم أنه اختار فتح الطاء.

(٣) ١٤/ ١٢-١٣ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٣ .

(٥) هي قراءة نافع، أما قراءة أبي جعفر فهي بإظهار النون مثل قراءة حمزة الآتية. النشر ٢/ ١٩ .

(٦) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧٣ ، والكلام منه، ووقع في غير (ظ): والفراء يقول.

(٧) يعني الإخفاء بمعناه اللغوي، وليس المراد الإخفاء الاصطلاحي. قال أبو البقاء العكبري في اللباب في علل البناء والإعراب ٢/ ٤٦٩ : أصل الإدغام في اللغة الإخفاء والإحكام.

«طسين ميم» بإظهار النون[١]. قال النَّحَّاس: للنون الساكنة والتنوين أربعةُ أقسامٍ عند سيبويه: يُبيَّنانِ عند حروف الحلق، ويُدْغمانِ عند الرَّاءِ واللَّامِ والميمِ والواوِ والياء، ويُقلَبان ميماً عند الباءِ ويكونانِ من الخياشيم؛ أي: لا يُبيَّنان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصَّها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنَّه ليس هاهنا حرفٌ من حروف الحلق فتُبيَّنُ النون عنده، ولكن في ذلك وُجَيْهٌ: وهو أنَّ حروفَ المعجم حكمُها أنْ يُوقَفَ عليها، فإذا وُقِفَ عليها تبيَّنتِ النُّون. قال الثعلبيُّ: الإدغامُ اختيار أبي عبيدٍ وأبي حاتمٍ قياساً على كلِّ القرآن، وإنَّما أظهرها أولئك للتَّبيين والتَّمكين، وأدغمَها هؤلاء لمجاورتِها حروفَ الفم. قال النَّحَّاس[٢]: وحكى أبو إسحاق في كتابه «فيما يُجرى وفيما لا يُجرى» أنَّه يجوز أنْ يُقال: «طسينَ ميمُ» بفتح النون وضمِّ الميم، كما يُقال: هذا مَعْدي كربُ.

وقال أبو حاتم: قرأ خالد: «طسينَ ميمُ».

ابن عباس: «طسم» قَسَمٌ، وهو اسمٌ من أسماء الله تعالى[٣]، والمُقَسمُ عليه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾. وقال قتادة: اسمٌ من أسماء القرآن أقسمَ اللهُ به. مجاهد: هو اسمُ السورة[٤]. الحسن[٥]: افتتاح السورة[٦]. الربيع: حساب مُدَّة قوم. وقيل: قارعةٌ تَحُلُّ بقوم. «طسم» و«طس» واحد. قال:

وَفاؤُكُما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طاسِمُهْ ... بأن تُسْعِدا والدَّمعُ أَشْفاهُ ساجِمُهْ[٧]

---

(١) قراءة حمزة في السبعة ص٤٧٠، والتيسير ص١٦٥.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٣-١٧٤، وينظر الكتاب ٤/ ٤٤٥ فما بعده.

(٣) أسماء الله عز وجل توقيفية، يتوقف في إثباتها على ما صح من النصوص، ولم يثبت في ذلك نص.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٦٣، والوسيط ٣/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٩. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٣، والطبري ١٧/ ٥٤٢.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ويحسن.

(٦) النكت والعيون ٤/ ١٦٣.

(٧) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ص٢٥٦. قال البرقوقي في شرحه ٤/ ٤٣: أشجاه: أشده شجواً، من =

وقال القُرظيُّ: أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه[١]. وقال عبد الله بن محمد بن عَقِيل: الطَّاءُ طورُ سيناء، والسِّينُ إسكندرية، والميم مكة[٢]. وقال جعفر بن محمد بن عليّ: الطَّاءُ شجرةُ طوبى، والسِّينُ سِدرةُ المنتهى، والميمُ محمدٌ ﷺ[٣]. وقيل: الطَّاء من الطَّاهر، والسِّينُ من القُدُّوس ـ وقيل: من السَّميع، وقيل: من السَّلام ـ والميمُ من المجيد. وقيل: من الرَّحيم. وقيل: من المَلِك[٤]. وقد مضى هذا المعنى في أول سورة «البقرة[٥]». والطَّوَاسيمُ والطَّواسينُ سُوَرٌ في القرآن جُمِعَتْ على غير قياس. وأنشد أبو عُبيدة:

وبالطَّواسِيمِ التي قد ثُلِّثتْ وبالحوامِيمِ التي قد سُبِّعتْ

قال الجوهري: والصوابُ أن تُجمَعَ بذواتِ وتُضافَ إلى واحد، فيُقال: ذوات طسم، وذواتُ حم[٦].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ رفعٌ على إضمار مبتدإٍ، أي: هذه «تِلْكَ آياتُ الكتابِ الْمُبين» التي كنتُم وعِدتُم بها؛ لأنَّهم قد وُعِدوا في التوراة والإنجيل

---

= قولك: شجاني هذا الأمر، أي: أحزنني. والطاسم: الطامس الدارس. بأن تسعدا: أي: تساعدا وتعاونا. وسجم الدمع: سال وهطل. يخاطب خليليه اللذين عاهداه على أن يساعداه على البكاء عند ربع الأحبة يقول لهما: إن وفاءكما بأن تساعداني على البكاء كهذا الربع، فإن الربع كلما تقادم عهده كان أشجى لزائره وأشد لحزنه؛ لأنه لا يتسلَّى به المحب، وكذلك وفاؤكما كلما ضعف وقلَّ إسعادكما لي على البكاء اشتدَّ حزني، إذ لا أجد من أتسلَّى به. ثم قال: والدمع أشفاه ساجمه، كأنه يقول: إن لي العذر في البكاء، أما أنتما فخليَّان، إذ لو كنتما محزونين مثلي لاستشفيتما بالدمع كما هو شأن المحزون مثلي.

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٩، وزاد المسير ٦/ ١١٥.

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٣٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١١٥ عن علي مرفوعاً.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ١٣٧، وزاد المسير ٦/ ١١٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٦٤.

(٥) ١/ ٢٣٥.

(٦) الصحاح (حمم) و(طسم).

بإنزال القرآن[١]. وقيل: «تِلْكَ» بمعنى هذه[٢].

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتلٌ نفسَك ومُهلِكُها. وقد مضى في «الكهف[٣]» بيانُه. ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لتركهم الإيمان. قال الفرَّاء[٤]: «أنْ» في موضع نصب؛ لأنَّها جزاء. قال النَّحَّاس[٥]: وإنَّما يُقال: «إنْ» مكسورةً؛ لأنَّها جزاء، كذا المُتعارف. والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن؛ قال: «أنْ» في موضعِ نصبِ مفعولٍ من أجله، والمعنى: لعلَّكَ قاتِلٌ نفسَك لتركِهِمُ الإيمان.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي: معجزةً ظاهرةً وقدرةً باهرةً، فتصير معارفُهم ضروريةً، ولكِنْ سبقَ القضاءُ بأن تكون المعارفُ نظرية. وقال أبو حمزة الثُّماليُّ في هذه الآية: بلغني أنَّ هذه الآية صوتٌ[٦] يُسمَعُ من السماء في النِّصفِ من شهر رمضان، تخرجُ به العواتق من البيوت وتضِجُّ له الأرض[٧]. وهذا فيه بعدٌ؛ لأنَّ المُرادَ قريشٌ لا غيرَهم.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ أي: فتظَلُّ أعناقُهم[٨] ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ قال مجاهد: أعناقهم: كبراؤهم[٩]. وقال النَّحَّاس: ومعروفٌ في اللغة؛ يُقال: جاءني عُنُقٌ من النَّاس أي: رؤساءُ منهم. أبو زيد والأخفش: «أَعْنَاقُهُمْ» جماعاتهم؛ يقال: جاءني عُنُقٌ من الناس

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦١ .

(٣) ١٠/ ٣٤٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٥ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٦) في (م): بلغني أن لهذه الآية صوتاً. والمثبت من (ظ).

(٧) مجمع البيان ١٩/ ١٣٨ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٨١ .

أي: جماعة[١]. وقيل: إنَّما أرادَ أصحابَ الأعناق، فحذفَ المضافَ وأقام المضاف إليه مقامَه[٢]. وقال قتادة: المعنى: لو شاءَ لأنزلَ آيةً يذِلُّون بها، فلا يلوي أحدٌ منهم عُنُقَه إلى معصية[٣]. ابن عباس: نزلَتْ فينا وفي بني أمية، ستكون لنا عليهم الدَّوْلةُ فتَذِلُّ لنا أعناقُهم بعد معاوية. ذكره الثَّعلبي والغزنوي[٤]، والله أعلم. وخاضعينَ وخاضعةً هنا سواء. قاله عيسى بن عمر واختاره المُبرِّد[٥]. والمعنى: إنَّهم إذا ذَلَّتْ رقابُهم ذَلُّوا؛ فالإخبارُ عن الرقاب إخبارٌ عن أصحابها، ويسوغُ في كلام العرب أن تتركَ الخبرَ عن الأولِ وتُخبِرَ عن الثاني؛ قال الراجز:

طولُ اللَّيالي أسرعتْ في نَقْضي ... طَوَيْنَ طُولي وطَوَيْنَ عَرْضي[٦]

فأخبر عن الليالي وترك الطول. وقال جرير[٧]:

أرَى مَرَّ السنينَ أخَذْنَ مِنِّي ... كما أخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ

وإنما جاز ذلك؛ لأنَّه لو أسقط مرَّ وطُولَ من الكلام لم يفسُدْ معناه، فكذلك ردَّ الفعلَ إلى الكناية في قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ لأنَّه لو أسقطَ الأعناقَ لَما فسدَ الكلام، ولأدَّى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول: فظلُّوا لها خاضعين. وعلى هذا اعتمد الفرَّاء وأبو عبيدة[٨]. والكسائيُّ يذهبُ إلى أنَّ المعنى: خاضِعيها هم، وهذا خطأٌ عند البصريِّين والفرَّاء. ومثل هذا الحذف لا يَقعُ في شيءٍ من الكلام. قاله النَّحَّاس[٩].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٢-٦٣.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٦٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٠. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٣، والطبري ١٧/ ٥٤٤-٥٤٥.

(٤) وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٣٨.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٣. واختيار المبرد في الكامل ٢/ ٦٦٨.

(٦) قائله الأغلب العجلي، وهو في خزانة الأدب ٤/ ٢٢٦.

(٧) في ديوانه ٢/ ٥٤٦، وقد سلف ٩/ ٣٠٤.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٨٣.

(٩) في معاني القرآن له ٥/ ٦٢ و٦٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ تقدَّم في «الأنبياء[١]». ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ أي: أعرضوا، ومَنْ أعرضَ عن شيءٍ ولم يقبَلْه فهو تكذيبٌ له. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وعيدٌ لهم، أي: فسوف يأتيهم عاقبةُ ما كذَّبوا والذي استهزؤوا به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبَّهَ على عظمتِه وقدرتِه وأنَّهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لَعلِموا أنَّه الذي يستحِقُّ أن يُعبَدَ؛ إذ هو القادرُ على كلِّ شيء. والزوج: هو اللون. قاله الفرَّاء[٢]. و«كَرِيم»: حسنٌ شريف، وأصل الكرم في اللغة: الشرف والفضل، فنخلةٌ كريمةٌ أي: فاضلةٌ كثيرةُ الثمر، ورجلٌ كريمٌ: شريفٌ فاضلٌ صفوح[٣]. ونبتتِ الأرضُ وأنبتَتْ بمعنًى. وقد تقدَّم في سورة «البقرة[٤]»، والله سبحانه هو المُخرِجُ للنبات[٥] والمُنبِتُ له. ورُوي عن الشَّعبيِّ أنه قال: الناسُ من نباتِ الأرض، فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لئيم[٦].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: فيما ذُكِرَ من الإنبات في الأرض؛ لدِلالتِه على أنَّ الله قادرٌ، ولا يُعجِزُه شيء[٧]. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مُصَدِّقين لِما سبقَ من علمي فيهم. و«كَانَ» هنا صلة في قول سيبويه[٨]؛ تقديره: وما أكثَرُهم مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يُريد: المنيعُ المنتقمُ من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه[٩].

---

(١) ١٤/ ١٧١-١٧٢ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٨ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٤) بل في سورة النحل ١٢/ ٢٩٢ .

(٥) كلمة «للنبات» ليست في (م).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٦ .

(٧) الوسيط ٣/ ٣٥١ .

(٨) الكتاب ١/ ٧٣ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ .

**قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ «إذْ» في موضع نصب؛ والمعنى: واتْلُ عليهم ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ويدلُّ على هذا أنَّ بعده: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ذكره النَّحَّاس[١]. وقيل: المعنى: واذكُرْ إذ نادى، كما صرَّح به في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف:٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ص:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم:١٦]. وقيل: المعنى: «وإذْ نادى رَبُّكَ موسى» كان كذا وكذا. والنداء: الدعاء بيافلان، أي: قال ربُّكَ: يا موسى ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثمَّ أخبر مَنْ هم، فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فـ «قومَ» بدل[٢]، ومعنى «ألا يَتَّقُونَ»: ألا يخافون عقابَ الله؟ وقيل: هذا من الإيماء إلى الشيء؛ لأنَّه أمرَه أنْ يأتيَ القومَ الظالمين، ودلَّ قولُه: «يَتَّقُونَ» على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المعنى: قُلْ لهم: «ألا تَتَّقُونَ» وجاء بالياء؛ لأنَّهم غُيَّبٌ وقتَ الخطاب، ولو جاء بالتاء لجاز. ومثله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران:١٢] بالتاء والياء[٣]. وقد قرأ عبيد بن عُمير وأبو حازم: «أَلَا تَتَّقُونَ» بتاءين[٤]، أي: قُلْ لهم: «أَلَا تَتَّقُونَ». ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي: قال موسى[٥]: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي: في الرسالة والنبوة.

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٥ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ورويت هذه القراءة عن عبد الله بن مسلم وحماد بن سلمة وأبي قلابة كما في المحرر الوجيز ٤/٢٢٦ ، والمحتسب ٢/١٢٧ ، والشاذة ص١٠٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ .

﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ لتكذيبهم إيَّاي[١]. وقراءة العامَّة «وَيَضيقُ» «وَلَا يَنْطَلِقُ» بالرفع على الاستئناف[٢]. وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة: «ويَضِيقَ» «وَلَا يَنْطَلِقَ» بالنصب فيهما ردًّا على قوله: «أَنْ يُكَذِّبُونِ»[٣]. قال الكسائي: القراءةُ بالرفع؛ يعني في ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ من وجهين: أحدهما الابتداء، والآخر بمعنى: وإنِّي يضيقُ صدري ولا ينطلق لساني، يعني: نسَقاً على «إنِّي أخافُ»[٤]. قال الفرَّاء: ويُقرأُ بالنَّصب[٥]. حُكيَ ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر، وكلاهما له وجه. قال النَّحَّاس: الوجه الرفع؛ لأنَّ النَّصبَ عطفٌ على «يُكَذِّبُونِ» وهذا بعيدٌ يدلُّ على ذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه:٢٧-٢٨] فهذا يدل على أن هذا[٦] كذا[٧]. ومعنى، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ في المُحاجَّةِ على ما أُحِبُّ؛ وكان في لسانه عُقْدةٌ على ما تقدَّم في «طه[٨]». ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أرسِلْ إليه جبريلَ بالوحي، واجعَلْه رسولاً معي ليؤازِرَني ويُظاهِرَني ويُعاونني[٩]. ولم يذكُرْ هنا لِيُعينني؛ لأنَّ المعنى كان معلوماً، وقد صرَّح به في سورة «طه» [الآية:٢٩]: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا﴾ وفي القصص [الآية:٣٤]: ﴿أرسله مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾، وكأنَّ موسى أذِنَ له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استِعْفاءً من الرسالة، بل طلبَ مَنْ يُعِينُه. ففي هذا دليلٌ على أنَّ من لا يستقِلُّ بأمرٍ، ويخافُ من نفسه تقصيراً، أن يأخذَ مَنْ يستعين به عليه، ولا

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٢، وزاد المسير ٦/ ١١٨.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٧١.

(٣) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٥.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٨ ورجح وجه الرفع.

(٦) في (م): هذه.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥.

(٨) ١٤/ ٥١ - ٥٢.

(٩) الوسيط ٣/ ٣٥١ بنحوه.

يَلْحَقُه في ذلك لَوْم.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ الذنبُ هنا قتلُ القِبطي[١]، واسمه فاثور على ما يأتي في «القصص» بيانه[٢]، وقد مضى في «طه» ذِكْرُه[٣]. وخاف موسى أن يقتلوه به، ودلَّ على أنَّ الخوفَ قد يصحَبُ الأنبياءَ والفُضَلاءَ والأولياءَ مع معرفتهم باللهِ، وأنْ لا فَاعِلَ إلا هو؛ إذ قد يُسلِّطُ من شاءَ على من شاء.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: كلَّا لن يقتلوك. فهو رَدْعٌ وزَجْرٌ عن هذا الظن[٤]، وأمْرٌ بالثِّقةِ بالله تعالى؛ أي: ثِقْ بالله، وانزجِرْ عن خوفِكَ منهم؛ فإنَّهم لا يقدرون على قَتْلِك، ولا يَقْوَون عليه. ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي: أنتَ وأخوكَ، فقد جعلتُه رسولاً معك. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: أي: مع آياتنا. ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يريدُ نفسَه سبحانه وتعالى. ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي: سامِعون ما يقولون وما يُجاوبون[٥]. وإنَّما أرادَ بذلك تقوية قلبَيْهما وأنه يُعينُهما ويحفظُهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يُوصَفُ الباري سبحانه بذلك[٦]. وقد وصفَ سبحانَه نفسَه بأنَّه السَّميعُ البصير. وقال في «طه» [الآية: ٤٦]: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وقال: «مَعَكُمْ» فأجراهما مَجرى الجمع؛ لأنَّ الاثنين جماعة[٧]. ويجوزُ أن يكونَ لهما ولِمَنْ أُرسِلا إليه. ويجوزُ أن يكون لجميع بني إسرائيل[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

(٢) ١٣/ ٢٥٩ وما بعده.

(٣) ١٤/ ٦٠ وما بعده.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٥.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥١.

(٦) تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٤.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ بنحوه.

**قوله تعالى:** ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة(١)، والتقديرُ على هذا: إنَّا ذَوو رسالةِ ربِّ العالمين. قال الهُذليُّ:

أَلِكْني إليها وخيرُ الرَّسُو ... لِ أعْلَمُهُمْ بنَواحي الخَبَرْ(٢)

أَلِكْني إليها معناه: أرسِلْني. وقال آخرُ:

لقد كَذَبَ الواشونَ ما بُحْتُ عندهمْ ... بِسِرٍّ ولا أرسلْتُهمْ برسولِ(٣)

آخر:

أَلا أَبْلِغْ بني عَمرٍو رسولاً ... بأنِّي عن فُتَاحَتِكُمْ غنيُّ(٤)

وقال العباس بن مِرْداس:

أَلا مَنْ مُبلِغٌ عنِّي خُفافاً ... رسولاً بَيتُ أهلِكَ مُنْتَهاها(٥)

يعني رسالةً؛ فلذلك أنَّثها. قال أبو عبيدة(٦): ويجوز أن يكون الرَّسولُ في معنى

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٨٤.

(٢) الهذلي: هو أبو ذُؤيب، والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١٤٦. قوله: أعلمهم بنواحي الخبر، أي: يعرف شواكل الأمور.

(٣) قائله كثير عزة، وهو في ديوانه ص٢٧٨، وفيه «ليلى» بدل «بسرٍّ» و«رسيل» بدل «رسول». قال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٢٧٧: يروى بالوجهين.

(٤) قائله الأسعر الجعفي، وهو في اللسان (فتح) وفيه: «بني بكر بن عبد» بدل «بني عمرٍو رسولاً»، وفي تاج العروس (فتح) وفيه: «ألا مَنْ مُبلغٌ» بدل «ألا أبلغ بني»، ووقع في النسخ الخطية: «أبا» بدل «بني».

(٥) هو الحماسة البصرية ١/ ١٣، وخزانة الأدب ٤/ ٣٦٧.

(٦) في (د) و(ز) و(م): أبو عبيد.

الاثنين والجمع؛ تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقيل: معناه: إنَّ كلَّ واحدٍ منَّا رسولُ ربِّ العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلِقْهم وخَلِّ سبيلَهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبِدْهم، وكان فرعونُ استعبدهم أربعَ مئةِ سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستَّ مئةِ ألفٍ وثلاثينَ ألفاً. فانطلقا إلى فرعون فلم يؤذَنْ لهما سنةً في الدخول عليه، فدخلَ البوَّابُ على فرعون فقال: هاهنا إنسانٌ يزعمُ أنَّه رسولُ ربِّ العالمين. فقال فرعون: ايذن له لعلَّنا نضحَكُ منه. فدخلا عليه وأدَّيا الرسالة(١). وروى وَهْبٌ وغيرُه: أنَّهما لمَّا دخلا على فرعون وجَداه وقد أخرج سباعاً من أُسْدٍ ونُمورٍ وفُهودٍ يتفرَّج عليها، فخافَ سُوَّاسُها أن تبطِشَ بموسى وهارون، فأسرعوا إليها، وأسرعَتِ السِّباعُ إلى موسى وهارون، فأقبلَتْ تلحَسُ أقدامَهما، وتُبَصبِصُ إليهما بأذنابِها، وتُلْصِقُ خدودَها بفَخِذَيهما، فعجِبَ فرعونُ من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: «إنَّا رَسولُ رَبِّ العالمين» فعرفَ موسى؛ لأنَّه نشأ في بيته.

فـ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ على جهة المَنِّ عليه والاحتقار، أي: ربَّيناكَ صغيراً ولم نقتُلْكَ في جُملةِ مَنْ قَتَلْنا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمتى كان هذا الذي تدَّعيه؟ ثم قرَّره بقَتْلِ القِبْطيِّ بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفَعْلَةُ بفتح الفاء: المرَّةُ من الفِعْل(٢). وقرأ الشَّعبيُّ: «فِعْلَتَكَ» بكسر الفاء(٣)، والفتح أولى؛ لأنَّها للمرَّةِ الواحدة، والكسرُ بمعنى الهيئة والحال، أي: فِعْلَتَكَ التي تُعرَفُ، فكيف تَدَّعي مع عِلْمنا أحوالَكَ بأنَّ اللهَ أرسلَكَ؟ وقال الشاعر:

كأنَّ مِشيَتَها مِنْ بيتِ جارتِها ... مَرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ(٤)

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧.

(٣) المحتسب ٢/ ١٢٧، والشاذة ص١٠٦.

(٤) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص٦.

ويقال: كان ذلك أيام الرِّدة والرَّدة[١]. ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الضحَّاك: أي: في قتلِكَ القِبطي؛ إذ هو نفسٌ لا يحِلُّ قَتْلُه. وقيل: أي: بنعمتي التي كانت لنا عليكَ من التربية والإحسان إليك. قاله ابنُ زيد[٢]. الحسن: «مِنَ الكافرينَ» في أنّي إلهُكَ. السُّدِّي: «مِنَ الكافرينَ» باللهِ؛ لأنَّكَ كنتَ معنا على ديننا هذا الذي تَعيبُه[٣]. وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتلَ القِبطيَّ وبين رجوعِه نبيًّا أحدَ عشرَ عاماً غيرَ أشهر[٤]. فـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: فعلتُ تِلْكَ الفَعْلَةَ يُريدُ قتلَ القِبطي ﴿وَأَنَا۠﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: من الجاهلين[٥]، فنفى عن نفسِه الكفر، وأخبر أنَّه فعلَ ذلك على الجهل[٦]. وكذا قال مجاهد؛ «مِنَ الضَّالِّينَ»: من الجاهلين[٧]. ابن زيد: من الجاهلين بأنَّ الوَكْزَةَ تبلُغُ القتل[٨]. وفي مصحف عبد الله: «مِن الجاهِلِين»، ويُقال لِمن جَهِلَ شيئاً: ضلَّ عنه[٩]. وقيل: «وأنا مِنَ الضَّالِّينَ»: من النَّاسين. قاله أبو عبيدة[١٠]. وقيل: «وأنا مِنَ الضَّالِّينَ» عن النبوّةِ[١١] ولم يأتِني عن اللهِ فيه شيء[١٢]، فليس عليَّ فيما فعلْتُه في تلك الحالة توبيخٌ. وبيَّنَ بهذا أنَّ التربيةَ فيهم لا تُنافي النبوَّةَ والحِلْمَ على

(١) من قوله: وقرأ الشعبي... إلى هذا الموضع في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ بنحوه .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣ . وأخرج الطبري ١٧/ ٥٥٦ قول السدي.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ .

(٥) زاد المسير ٦/ ١١٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٦ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٩ ، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٥٨ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨ .

(٩) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٧ - ٥٥٨ .

(١٠) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٧١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١١٩ .

(١١) النكت والعيون ٤/ ١٦٧ .

(١٢) الوسيط ٣/ ٣٥٢ .

الناس، وأنَّ القتلَ خطأٌ، أو في وقتٍ لم يكن فيه شرعٌ لا يُنافي النبوَّة.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي: خرجتُ من بينكم إلى مَدْين[١] كما في سورة «القصص» [الآية: ٢١]: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وذلك حين القتل. ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ يعني النبوَّة. عن السُّدِّيِّ وغيرِه[٢]. الزَّجَّاج: تعليمه[٣] التوراة التي فيها حكم الله[٤]. وقيل: علماً وفهماً[٥]. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اختلف الناسُ في معنى هذا الكلام، فقال السُّدِّي والطَّبريُّ والفرَّاء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهةِ الإقرار بالنعمة، كأنَّه يقول: نعم، وتربيتُكَ نعمةٌ عليَّ من حيث عبَّدتَ غيري وتركتني، ولكن لا يدفَعُ ذلكَ رسالتي[٦]. وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار، أي: أتمنُّ عليَّ بأن ربيّتني وليداً وأنتَ قدِ استعبدْتَ بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي: ليست بنعمة؛ لأنَّ الواجبَ كان ألَّا تقتُلَهم ولا تستعبِدَهم فإنَّهم قومي، فكيف تذكُرُ إحسانَكَ إليَّ على الخصوص؟! قال معناه قتادة وغيره[٧]. وقيل: فيه تقديرُ استفهام، أي: أوَ تِلكَ نعمةٌ؟ قاله الأخفش والفرَّاء أيضاً[٨]، وأنكره النَّحَّاس وغيره. قال النَّحَّاس[٩]: وهذا لا يجوز، لأنَّ ألِفَ الاستفهامِ تُحدِثُ معنى، وحَذْفُها مُحالٌ،

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٥٩ عن السدي، وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٧٢ وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٠ عن ابن السائب الكلبي.

(٣) في (م): تعليم.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٦.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٢، وأبو الليث ٢/ ٤٧٢، والبغوي ٣/ ٣٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٠ عن مقاتل.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨. وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٩، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٩.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٦١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨.

(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٥ - ٦٤٦، وقول الفراء نقله عنه النحاس كما سيأتي قريباً.

(٩) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٦ - ١٧٧.

إلَّا أن يكون في الكلام أم، كما قال الشاعر:

تَـرُوحُ مِـن الـحـيِّ أن تَـبْـتَـكِـرْ[١]

ولا أعلَمُ بين النَّحْويِّين اختلافاً في هذا، إلَّا شيئاً قاله الفرَّاء؛ قال: يجوزُ حَذْفُ ألفِ الاستفهامِ في أفعالِ الشَّكِّ، وحُكي: تُرَى زيداً مُنطلِقاً؟ بمعنى: أتُرى. وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنَّما أخَذَه من ألفاظ العامَّة.

قال الثعلبيُّ: قال الفرَّاء: ومن قالَ: إنَّها إنكارٌ قال: معناه: أوَ تِلْكَ نعمةٌ؟ على طريق الاستفهام، كقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦] ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤]. قال الشاعر:

رَفَـوْنـي وقـالـوا يـا خُـوَيـلِـدُ لا تُـرَعْ فـقـلـتُ وأنـكـرتُ الـوجـوهَ هُـمُ هُـمُ[٢]

وأنشدَ الغَزنويُّ شاهداً على ترك الألف قولَهم:

لـم أنـسَ يـوم الـرَّحـيـلِ وِقْـفـتَـهـا وجَـفْـنُـهـا مـن دمـوعِـهـا شَـرِقُ
وقـولَـهـا والـرِّكـابُ واقـفـةٌ تَـركـتَـنـي هـكـذا وتَـنـطَـلِـقُ

قلتُ: ففي هذا حذفُ ألفِ الاستفهام مع عدمِ أم خلافَ قولِ النَّحَّاس. وقال الضحَّاك: إنَّ الكلام خرجَ مخرَجَ التبكيتِ، والتبكيتُ يكونُ باستفهامٍ وبغير استفهام[٣]، والمعنى: لو لم تَقتُلْ بني إسرائيلَ لرَبَّاني أبواي، فأيُّ نعمةٍ لكَ عليَّ؟! فأنت تمُنُّ عليَّ بما لا يجِبُ أن تمُنَّ به. وقيل: معناه: كيف تمنُّ عليَّ[٤] بالتربية وقد أهنتَ قومي؟ ومن أُهينَ قومُه ذَلَّ[٥]. و«أنْ عَبَّدْتَ» في موضعِ رفعٍ على البدل من «نِعْمة». ويجوزُ أن تكونَ في موضع نصبٍ بمعنى: لِأنْ عَبَّدْتَ بني إسرائيل[٦]، أي:

---

(١) هذا صدر بين عجزه: «وماذا يضيرُك لو تُنتظَرْ»، وقائله امرؤ القيس، وقد سلف ١/ ٢٨٣ .
(٢) قائله أبو خراش الهذلي ، وقد سلف ٦/ ٤٦٩ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٧٧ .
(٤) كلمة «عليَّ» ليست في (م).
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٤ .
(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٧ .

اتَّخذْتَهم عبيداً[١]. يُقال: عبَّدته وأعبدْته بمعنى. قاله الفرَّاء[٢]، وأنشد:

عَلامَ يُعبِدُني قومي وقد كَثُرَتْ ... فيهم أباعِرُ ما شاؤوا وعِبْدانُ[٣]

**قوله تعالى:** ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لمَّا غلبَ موسى فرعونَ بالحُجَّةِ ولم

(١) مجاز القرآن ٢/ ٨٥.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٩.

(٣) قائله الفرزدق، وهو في اللسان (عبد).

يجِدِ اللعينُ من تقريرِهِ على التربية وغيرِ ذلكَ حُجَّةً رجع إلى معارضة موسى في قوله: «رسولُ ربِّ العالمين» فاستفهمه استفهاماً عن مجهولٍ من الأشياء. قال مكيٌّ وغيرُه: كما يُستفهَمُ عن الأجناس؛ فلذلك استفهمَ بـ «ما». قال مكي: وقد وردَ له استفهامٌ بـ «من» في موضعٍ آخر، ويُشبِهُ أنَّها مواطن، فأتى موسى بالصِّفاتِ الدالَّة على الله من مخلوقاته التي لا يُشارِكُه فيها مخلوق، وقد سأل فرعونُ عن الجنسِ ولا جِنْسَ للهِ تعالى؛ لأنَّ الأجناسَ مُحدَثة، فَعَلِمَ موسى جهلَه، فأضربَ عن سؤاله، وأعلَمَه بعظيم قدرة الله التي تُبيِّنُ للسامعِ أنَّه لا مشاركةَ لفرعونَ فيها. فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراءِ والتَّعجُّبِ من سفَهِ المقالةِ إذْ كانت عقيدةُ القومِ أنَّ فرعونَ ربُّهم ومعبودُهم، والفراعنةُ قبلَه كذلك. فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] فجاء بدليلٍ يفهمونه عنه؛ لأنَّهم يعلمون أنه قد كان لهم آباءُ، وأنَّهم قد فَنَوا، وأنَّه لابُدَّ لهم من مُغَيِّر، وأنَّهم قد كانوا بعدَ أن لم يكونوا، وأنَّهم لابُدَّ لهم من مُكَوِّن[2]. فقال فرعون حينئذٍ على جهةِ الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[3] أي: ليس يجيبني عمَّا أسأل، فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأنْ قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي[4]: ليس ملكُه كمُلكِكَ؛ لأنَّكَ إنَّما تملِكُ بلداً واحداً لا يجوز أمرُكَ في غيره، ويموت من لا تُحِبُّ أن يموت، والذي أرسلني يملِكُ المشرقَ والمغرب ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]. وقيل: عَلِمَ موسى عليه السلام أنَّ قصْدَه في السؤال معرفةُ مَنْ سألَ عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الربِّ اليوم.

ثم لمَّا انقطعَ فرعونُ ـ لعنَه الله ـ في باب الحُجَّةِ رجعَ إلى الاستعلاءِ والتغلُّبِ، فتوعَّدَ موسى بالسَّجْنِ، ولم يقُلْ: ما دليلُكَ على أنَّ هذا الإلهَ أرسلَكَ؛ لأنَّ فيه

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٩.

(٤) في (م): إن.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٧٨.

الاعترافَ بأنَّ ثَمَّ إلهاً غيرُه. وفي تَوعُّدِه بالسَّجْنِ ضَعْفٌ. وكان فيما يُروى أنه يفزَعُ منه فزعاً شديداً حتى كان اللَّعينُ لا يُمسِكُ بولَه. ورُوِيَ أنَّ سَجْنَه كان أشدَّ من القتل. وكان إذا سجَنَ أحداً لم يُخرِجْه من سجنِهِ حتى يموت، فكان مَخُوفاً. ثم لمَّا كان عند موسى عليه السلام من أمرِ الله تعالى ما لا يُرِعْهُ تَوَعُّدُ فرعون ﴿قَالَ﴾ له على جهةِ اللُّطفِ به والطَّمعِ في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فيتَّضِحُ لكَ به صدقي. فلمَّا سمعَ فرعون ذلك طمِعَ في أن يجِدَ أثناءه موضِعَ معارضة ﴿فَقَالَ﴾ له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١]. ولم يَحتَجِ الشَّرطُ إلى جوابٍ عند سيبويه؛ لأنَّ ما تقدَّم يكفي منه[٢]. ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ من يدِه فكان ما أخبرَ الله من قصَّتِه. وقد تقدَّم بيانُ ذلك وشرحُه في «الأعراف[٣]» إلى آخر القصة. وقال السَّحَرةُ لمَّا توعَّدهم فرعونُ بقَطْعِ الأيدي والأرجُلِ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضررَ علينا فيما يَلْحَقُنا من عذاب الدنيا[٤]، أي: إنَّما عذابُكَ ساعةً فنصبرُ لها وقد لقينا اللهَ مؤمنين. وهذا يدُلُّ على شِدَّةِ استبصارِهم وقُوَّةِ إيمانهم.

قال مالك: دعا موسى عليه السلام فرعونَ أربعين سنةً إلى الإسلام، وأنَّ السَّحرةَ آمنوا به في يومٍ واحد[٥]. يُقال: لا ضَيْرَ ولا ضَوْرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارُورةَ بمعنًى واحد. قاله الهَرَوي[٦]. وأنشدَ أبو عبيدة:

فإنَّكَ لا يَضُورُكَ بعدَ حَوْلٍ أظبيٌ كانَ أُمُّكَ أم حِمارُ[٧]

وقال الجوهري[٨]: ضارَه يَضُورُه ويَضيرُه ضَيْراً وضَوْراً، أي: ضرَّه. قال

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٩.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٨.
(٣) ٩/ ٢٩٢-٢٩٩.
(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٣.
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٣.
(٦) وقاله الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٩١ دون قوله: ولا ضارورة.
(٧) قائله خداش بن زهير، وهو في خزانة الأدب ٩/ ٢٨٩.
(٨) في الصحاح (ضور).

الكسائي: سمعتُ بعضَهم يقول: لا ينفعني ذلكَ ولا يَضُورني. والتَّضوُّرُ: الصِّياحُ والتَّلَوِّي عند الضرب أو الجوع. والضُّورَة بالضمِّ: الرَّجلُ الحقيرُ، الصغيرُ الشأن.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يُريدُ: نتقلبُ إلى ربٍّ كريمٍ رحيمٍ.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ، أي: لأنْ كُنَّا. وأجاز الفرَّاءُ كسْرَها على أن تكون مُجازاةً[1]. ومعنى: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفرَّاء[2]: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزَّجَّاج[3] وقال: قد رُويَ أنه آمنَ معه ستُّ مئة ألفٍ وسبعون ألفاً، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. رُويَ ذلك عن ابن مسعودٍ وغيره[4].

**قوله تعالى:** ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ لمَّا كان من سُنَّتهِ تعالى في عباده إنجاءُ المؤمنين المُصدِّقين من أوليائه، المعترفينَ برسالة رسلهِ وأنبيائه،

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٠، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٨٠.

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٩١.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٧٣ عن ابن مسعود وأبي عبيدة.

وإهلاك الكافرين المُكذِّبين لهم من أعدائه، أمرَ موسى أن يخرُجَ ببني إسرائيل ليلاً وسمَّاهم عبادَه؛ لأنَّهم آمنوا بموسى. ومعنى: «إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» أي: يتَّبعكم فرعونُ وقومُه لِيَرُدُّوكم[١]. وفي ضمنِ هذا الكلام تعريفُهم أنَّ اللهَ يُنجيهم منهم، فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً، فتركَ الطريقَ إلى الشام على يسارِه، وتوجَّه نحو البحر، فكان الرجلُ من بني إسرائيلَ يقول له في ترك الطريق، فيقول: هكذا أُمِرْتُ. فلمَّا أصبحَ فرعونُ وعَلِمَ بِسُرَى موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعثَ إلى مدائن مصر لِتلحَقَه العساكر، فرُوِيَ أنَّه لحِقَه ومعه مئةُ ألفِ[٢] أدْهَمٍ من الخيل حاشى[٣] سائر الألوان. ورُوِيَ أنَّ بني إسرائيل كانوا ستَّ مئةِ ألفٍ وسبعينَ ألفاً. والله أعلمُ بصِحَّته، وإنَّما اللازمُ من الآيةِ الذي يُقطَعُ به أنَّ موسى عليه السلام خرجَ بجمعٍ عظيمٍ من بني إسرائيل، وأنَّ فرعونَ تَبِعَه بأضعافِ ذلك. قال ابن عباس: كان مع فرعونَ ألفُ جبَّارٍ كلُّهم عليه تاجٌ، وكلُّهم أميرُ خيل. والشِّرْذِمَةُ: الجمعُ القليلُ المحتقَرُ، والجمعُ الشَّراذِم[٤]. قال الجوهري: الشِّرذمة: الطائفةُ من الناس، والقِطعةُ من الشيء. وثوبٌ شراذمُ أي: قِطَع[٥]. وأنشدَ الثعلبيُّ قولَ الراجز:

جاءَ الشِّتاءُ وثِيَابي أخْلاقْ شَراذِمٌ يَضحَكُ منها النَّوَّاقْ

النَّوَّاقُ من الرجال: الذي يَروضُ الأمور ويُصلِحُها. قالَه في الصحاح[٦]. واللام في قوله: «لَشِرْذِمةٌ» لامُ توكيدٍ، وكثيراً ما تدخلُ في خبرِ إنَّ، إلَّا أن الكوفيين لا يُجيزونَ: إنَّ زيداً لَسوفَ يقوم. والدليل على أنه جائزٌ قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٦ .

(٢) في المحرر الوجيز: ست مئة ألف.

(٣) في (د) و(ز) و(م): سوى ، وكلاهما بمعنى .

(٤) من قوله: فخرج موسى... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٣١-٢٣٢ .

(٥) الصحاح (شرذم).

(٦) (نوق)، ويروى بالتاء (التَّوَّاق) على أنه اسم ابنه. اللسان (توق).

وهذه لامُ التوكيد بعينِها وقد دخلت على سوف. قاله النَّحَّاس[١].

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: أعداءٌ لنا لمخالفتهم دينِنا وذهابِهم بأموالِنا التي استعاروها على ما تقدم. وماتت أبكارهم تلك الليلة. وقد مضى هذا في «الأعراف» و«طه[٢]» مستوفًى. يُقال: غاظني كذا وأغاظني. والغيظُ: الغضبُ، ومنه التغيُّظُ والاغتياظ. أي: غاظونا بخروجهم من غير إذن[٣]. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: مُجتمِعٌ مُستعِدٌّ أخَذْنا حِذْرَنا وأسلِحَتنا. وقُرِئَ: «حاذِرُونَ» ومعناه معنى «حَذِرُونَ[٤]» أي: فَرِقونَ خائفون. قاله الجوهري[٥]: وقُرِئَ: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ» و «حَذِرُونَ» و«حَذُرونَ» بضمِّ الذَّالِ. حكاه الأخفش، ومعنى «حَاذِرُونَ»: مُتأهِّبون، ومعنى «حَذِرُونَ»: خائفون. قال النَّحَّاس: «حَذِرُونَ» قراءةُ المدنيين وأبي عَمرو، وقراءةُ أهلِ الكوفة: «حَاذِرُونَ»[٦] وهي معروفةٌ عن عبد الله بن مسعود وابن عباس، و«حَادِرُونَ» بالدَّالِ غيرِ المُعجَمةِ قراءةُ أبي عباد[٧]، وحكاها المهدَويُّ عن ابن أبي عمار، والماورديُّ والثعلبيُّ عن سُمَيْط بن عجلان[٨]. قال النَّحَّاس: أبو عُبيدةَ يذهبُ إلى أنَّ معنى «حَذِرُونَ» و«حَاذِرُونَ» واحد. وهو قول سيبويه، وأجاز: هو حَذِرٌ زيداً، كما يُقال: حاذرٌ زيداً، وأنشد:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٠ .

(٢) ١٤/١٠٨-١١١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٧ دون قوله: ومنه التغيظ والاغتياظ . قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٩٢ : من قال: أغاظني، فقد لحن .

(٤) وهو قول أبي عبيدة كما سيأتي .

(٥) في الصحاح (حذر).

(٦) السبعة ص٤٧١ ، والتيسير ص١٦٥ ، والنشر ٢/ ٣٣٥ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٨٠ ، لكن الذي في مطبوعه: عن ابن أبي عمار بدل أبي عباد .

(٨) هذه القراءة في المحتسب ٢/ ١٢٨ عن ابن أبي عمار، وفي الشاذة ص١٠٦ عن ابن أبي عمار ومحمد ابن السميفع، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢ عن ابن أبي عمار وسميط بن عجلان. وذكرها الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٤٠٩ عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

حَذِرٌ أُموراً لا تَضِيرُ وآمِنٌ ... ما ليسَ مُنْجِيَهُ من الأقدارِ(١)

وزعم أبو عمر الجَرْميُّ أنه يجوز: هو حَذِرٌ زيداً على حَذْفِ مِنْ. فأمَّا أكثرُ النَّحْويِّينَ فيُفرِّقونَ بين حَذِرٍ وحاذِرٍ، منهم الكسائي والفرَّاء ومحمد بن يزيد، فيذهبون إلى أنَّ معنى حَذِرٍ: في خِلْقَتِه الحذرُ، أي: مُتيقِّظٌ مُتنبِّهٌ، فإذا كان هكذا لم يَتَعدَّ، ومعنى حاذرٍ مُستَعِدٌّ، وبهذا جاء التفسير عن المُتقدِّمين. قال عبد الله بن مسعود في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ قال: مُؤْدون في السلاحِ والكُراع مُقْوون، فهذا ذاك بعينِه. وقوله: مُؤْدون: معهم أداة. وقد قيل: إنَّ المعنى: معنا سلاحٌ وليس معهم سلاحٌ؛ يُحرِّضهم على القتال، فأمَّا «حادِرونَ» بالدَّال المهملة فمُشتَقٌّ من قولِهم: عينٌ حَدْرَةٌ أي: ممتلِئَةٌ، أي: نحن ممتلئون غيظاً عليهم(٢)، ومنه قول الشاعر:

وعَينٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ ... شُقَّتْ مآقيهمَا مِنْ أُخُرْ(٣)

وحكى أهل اللغة أنَّه يُقال: رجلٌ حادِرٌ إذا كان مُمتلئَ اللحم(٤)، فيجوز أن يكون المعنى: الامتلاءُ من السلاح. المَهْدَويُّ: الحادر: القويُّ الشديد.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: من أرض مصر(٥). وعن عبد الله ابن عَمرٍو قال: كانت الجنَّاتُ بحافتي النيل في الشِّقتين جميعاً من أسوانَ إلى رشيد، وبين الجنات زروعٌ. والنيل سبعةُ خِلجان: خليجُ الاسكندرية، وخليجُ سَخَا، وخليجُ دِمْياط، وخليجُ سَرْدُوس، وخليج مَنْف، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهَى، متصلةٌ لا ينقطِعُ منها شيءٌ عن شيء، والزُّروعُ ما بين الخِلْجان كلِّها. وكانت أرضُ مصرَ كلُّها

(١) سلف ١٠/ ٢٨٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٨١ .

(٣) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٦ . قال شارحه: بدرة: تبدُر بالنظر. شُقَّت مآقيهما: تفتحت، فكأنها انشقت. من أُخُر: من مآخير العين.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٤٠٧ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٤ .

تُروى من ستةَ عشرَ ذراعاً بما دبَّروا وقدَّروا من قناطِرها وجسورِها وخلجانها[١]؛ ولذلك سُمِّي النيلُ ـ إذا غلق ستةَ عشرَ ذراعاً ـ نيلَ السلطان، ويُخلَع على ابنِ أبي الردَّاد، وهذه الحال مستمِرَّةٌ إلى الآن. وإنما قيل: نيلُ السلطان؛ لأنَّه حينئذٍ يجب الخَراجُ على الناس . وكانت أرضُ مصرَ جميعُها تُروى من إصبعٍ واحدةٍ من سبعةَ عشرَ ذراعاً، وكانت إذا غلق النيلُ سبعةَ عشرَ ذراعاً ونُوديَ عليه إصبعٌ واحدٌ من ثمانيةَ عشرَ ذراعاً، ازدادَ في خَراجِها ألفُ ألفِ دينار. فإذا خرجَ عن ذلِكَ ونُوديَ عليه إصبعاً واحداً من تسعةَ عشرَ ذراعاً نقَصَ خَراجُها ألفُ ألفِ دينار. وسببُ هذا ما كان ينصرفُ في المصالح والخِلْجان والجسور والاهتمام بعمارتها. فأمَّا الآن فإنَّ أكثرَها لا يُروى حتى يُنادى إصبعٌ من تسعةَ عشرَ ذراعاً بمقياس مصر. وأمَّا أعمالُ الصعيد الأعلى، فإنَّ بها ما لا يتكاملُ رِيُّهُ إلَّا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى[٢].

قلتُ: أمَّا أرضُ مصرَ فلا تُروى جيمعُها الآن إلَّا من عشرين ذراعاً وأصابع؛ لِعلُوِّ الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جُسورِها، وهو من عجائب الدنيا، وذلك أنَّه يزيد إذا انصبَّتِ المياهُ في جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر، وتبقى البلادُ كالأعلامِ لا يُوصَلُ إليها إلا بالمراكبِ والقياسات.

ورويَ عن عبد الله بن عَمرو بن العاص أنَّه قال: نِيلُ مصرَ سيدُ الأنهار، سخَّر اللهُ له كلَّ نهرٍ بين المشرق والمغرب، وذلَّلَ اللهُ له الأنهار، فإذا أرادَ اللهُ أن يُجريَ نيلَ مصرَ أمرَ كلَّ نهرٍ أن يَمُدَّه، فأمدَّتْهُ الأنهارُ بمائها، وفجَّرَ الله له عيوناً، فإذا انتهى إلى ما أراد اللهُ عزَّ وجلَّ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كلِّ ماءٍ أن يرجع إلى عنصره .

وقال قيس بن الحجاج [عمَّن حدَّثه][٣]: لمَّا افتتحَتْ مصرُ أتى أهلُها إلى عَمرو

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨١ .

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٨١ ، وأخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣ .

(٣) ما بين حاصرتين من المصادر.

ابن العاص حين دخل بؤونةُ من أشْهُرِ العجم[١] فقالوا له: أيها الأميرُ، إنَّ لِنيلِنا هذا سُنَّةً لا يجري إلَّا بها. فقال لهم: وما ذاك؟ فقالوا: إذا كان لاثنتي عشرةَ ليلةً تخلو من هذا الشهر عَمَدْنا إلى جاريةٍ بِكْرٍ بين أبويها، فأرضَيْنا أبويها، وحَمَلْنا عليها من الحُليِّ والثيابِ أفضلَ ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عَمرو: هذا لا يكون في الإسلام؛ وإنَّ الإسلامَ يهدِمُ ما قبله. فأقاموا بؤونة وأبيب[٢] ومسرى لا يجري قليلٌ ولا كثير، وهمُّوا بالجَلاء، فلما رأى ذلك عَمرو بنُ العاص كتبَ إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فأعلَمه بالقِصَّة، فكتبَ إليه عُمر بن الخطاب: إنَّكَ قد أصبتَ بالذي فعلتَ، وإنَّ الإسلامَ يهدِمُ ما قبلَه، ولا يكونُ هذا. وبعثَ إليه ببطاقةٍ في داخلِ كتابه، وكتبَ إلى عَمرو: إني بعثتُ إليكَ ببطاقةٍ داخل كتابي، فألْقِها في النيل إذا أتاك كتابي. فلمَّا قَدِمَ كتابُ عُمر إلى عَمرو بن العاص أخذَ البطاقةَ ففتحَها فإذا فيها: من عبد الله أميرِ المؤمنين عمر إلى نيلِ مصر، أمَّا بعد: فإنْ كنتَ إنما تجري من قِبَلِكَ فلا تَجْرِ، وإنْ كان اللهُ الواحدُ القهَّارُ هو الذي يُجريكَ، فنسألُ اللهَ الواحدَ القهَّارَ أن يُجرِيَكَ. قال: فألقى البطاقة في النِّيل قبل الصليب بيوم واحد[٣]، وقد تهيَّأَ أهلُ مصر للجَلاء والخروجِ منها؛ لأنَّه لا تقومُ مصلحتُهم فيها إلَّا بالنِّيل. فلما ألقى البطاقةَ في النِّيل، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى في ليلةٍ واحدةٍ ستةَ عشر ذراعاً، وقطعَ اللهُ تلك السُّنَّةَ السُّوءَ[٤] عن أهل مصر من تِلكَ السَّنة[٥].

---

(١) في النسخ: القبط. والمثبت من المصادر.

(٢) في (د) و(م): فأقاموا أبيب.

(٣) كلمة «واحد» من (ظ).

(٤) المثبت من المصادر، وكلمة «السوء» ليست في النسخ، وفي (ظ): «السيرة» بدل: «السنة».

(٥) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٤ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٤١)، واللالكائي في كرامات الأولياء (٦٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣٧/٤٤ من طريق ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، به. ابن لهيعة سيئ الحفظ. تهذيب التهذيب ٤١١/٢-٤١٣ . وفي إسناده إبهام الراوي الذي روى عنه قيس بن الحجاج.

قال كعب الأحبار: أربعةُ أنهارٍ من الجنة وضعَها اللهُ تعالى في الدنيا: سَيْحان وجَيحانْ والنيل والفرات، فسَيْحانُ نهرُ الماءِ في الجنة، وجَيْحانُ نهرُ اللَّبنِ في الجنة، والنِّيلُ نهرُ العسلِ في الجنة، والفراتُ نهر الخمرِ في الجنة[١]. وقال ابن لَهيعَة: الدِّجلةُ نهرُ اللَّبنِ في الجنة.

قلت: الذي في الصحيح من هذا حديثُ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحَانُ وجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة» لفظ مسلم[٢]. وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة رجلٍ من قومه قال: وحدَّث نبيُّ اللهِ ﷺ «أنَّه رأى أربعةَ أنهارٍ يخرجُ من أصلِها نهرانِ ظاهرانِ ونهرانِ باطنانِ، فقلتُ: يا جبريلُ ما هذه الأنهار؟ قال: أما النَّهرانِ الباطنانِ فنهرانِ في الجنة، وأمَّا الظَّاهرانِ فالنيلُ والفرات» لفظ مسلم[٣]. وقال البخاريُّ من طريق شَريك عن أنس: «فإذا هو في السماءِ الدُّنيا بنهرينِ يَطَّرِدان، فقال: ما هذانِ النَّهرانِ يا جبريل؟ قال: هذا النِّيلُ والفراتُ عنصرُهما، ثم مضى في السماء فإذا هو بنهرٍ آخرَ عليه قصرٌ من اللؤلؤِ والزَّبرجَدِ، فضرب بيده فإذا هو مِسْكٌ أذْفَرٌ، فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا هو الكوثر الذي خَبأَ لكَ ربُّك». وذكر الحديث[٤]. والجمهورُ على أنَّ المُرادَ بالعيون عيونُ الماء. وقال سعيد بن جُبير: المرادُ عيون الذهب. وفي الدخان [٢٥-٢٦]: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ﴾. قيل: إنَّهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوَّلِ مصرَ إلى آخرها[٥]. وليس في الدخان «وكنوز». «وكنوز» جمع كنز، وقد مضى هذا في سورة «براءة»[٦]. والمُرادُ بها هاهنا الخزائن. وقيل: الدفائن. وقال الضحَّاك:

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣ ، والحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (١٠٤٢).

(٢) في صحيحه (٢٨٣٩). وأخرجه أحمد (٩٦٧٤).

(٣) في صحيحه (١٦٤): (٢٦٥). وأخرجه أحمد (١٧٨٣٣).

(٤) صحيح البخاري (٧٥١٧). قوله: «يطَّرِدان» أي: يجريان. النهاية (طرد).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥١ .

(٦) ١٠/ ١٨١ .

الأنهار. وفيه نظر؛ لأنَّ العيونَ تشملها. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد: المقام الكريم: المنابر. وكانت ألفَ مِنْبرٍ لألفِ جبَّارٍ يُعظِّمون عليها فرعونَ ومُلْكَه. وقيل: مجالس الرؤساء والأمراء. حكاه ابن عيسى، وهو قريبٌ من الأول. وقال سعيد بن جُبير: المساكن الحِسان[١]. وقال ابنُ لَهيعة: سمعتُ أنَّ المقام الكريم الفَيُّوم[٢]. وقيل: كان يوسفُ عليه السلام قد كتبَ على مجلسٍ من مجالسه: «لا إلهَ إلَّا اللهُ، إبراهيمُ خليلُ اللهِ» فسمَّاها اللهُ كريمةً بهذا. وقيل: مَرابِطُ الخيل، لتفرُّدِ الزُّعماء بارتباطها عُدَّةً وزينةً، فصار مقامُها أكرمَ منزلٍ بهذا. ذكره الماوردي[٣]. والأظهرُ أنَّها المساكنُ الحِسانُ كانت تُكرَمُ عليهم. والمَقامُ في اللغةِ يكون الموضعَ ويكون مصدراً. قال النَّحَّاس: المَقامُ في اللُّغةِ: الموضع؛ من قولك: قامَ يقومُ، وكذا المَقاماتُ واحِدُها مَقامة، كما قال:

وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ[٤]

والمقامُ أيضاً المصدَرُ من قامَ يقومُ. والمُقام بالضَّمِّ: الموضِعُ، مِنْ أقامَ. والمصدرُ أيضاً مِنْ أقامَ يُقيمُ[٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يريدُ أنَّ جميعَ ما ذكره اللهُ تعالى من الجنَّاتِ والعُيونِ والكنوزِ والمقامِ الكريمِ أورثَه اللهُ بني إسرائيل. قال الحسنُ وغيره: رجعَ بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاكِ فرعونَ وقومِه. وقيل: أرادَ بالوراثة هنا ما استعاروه من حُليِّ آلِ فرعونَ بأمر الله تعالى. قلتُ: وكلا الأمرين حصلَ لهم. والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٧٢ و٥/ ٢٥١، وفيه: الحسن بدل ابن عمر.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٧٢.

(٤) قائله زهير بن أبي سلمى، وسلف ٢/ ٣٧٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٢.

﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ أي: فتَبِعَ فرعونُ وقومُه بني إسرائيل. قال السُّدِّيُّ: حين أشرقتِ الشَّمسُ بالشُّعاع. وقال قتادة: حين أشرقتِ الأرضُ بالضياء. قال الزَّجَّاج[١]: يقال: شَرَقَتِ الشمسُ إذا طلعَتْ، وأشرقَتْ إذا أضاءت.

واختُلِفَ في تأخُّرِ فرعونَ وقومِه عن موسى وبني إسرائيل على قولين: أحدهما ـ لاشتغالِهم بدَفْنِ أبكارِهم في تلك الليلة؛ لأنَّ الوباءَ في تلك الليلة وقعَ فيهم، فقوله: «مُشْرِقِينَ» حالٌ لقوم فرعون. الثاني ـ إنَّ سحابةً أظلَّتْهم وظُلْمة، فقالوا: نحنُ بَعْدُ في الليل، فما تقشَّعَتْ عنهم حتى أصبحوا. وقال أبو عبيدة: معنى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾: ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعَمرو بن ميمون: «فَاتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ» بالتشديد وألف الوصل[٢]؛ أي: نحو المشرق؛ مأخوذٌ من قولهم: شرَّقَ وغرَّبَ إذا سارَ نحوَ المشرقِ والمغربِ[٣]. ومعنى الكلام: قدَّرْنا أن يرِثَها بنو إسرائيل فاتَّبعَ قومُ فرعونَ بني إسرائيل مُشَرِّقين فهلكوا، وورِثَ بنو إسرائيلَ بلادَهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: تقابلا[٤]، بحيث يرى كلُّ فريقٍ صاحِبَه، وهو تفاعلٌ من الرؤية.

﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ أي: قَرُبَ مِنَّا العدوُّ ولا طاقةَ لنا به[٥]. وقراءةُ الجماعة: «لَمُدْرَكُونَ» بالتخفيف من أدرك. ومنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]. وقرأ عُبيد بن عمير والأعرج والزُّهري: «لَمُدَّرَكُونَ» بتشديد الدال من ادَّرك[٦]. قال الفرَّاء[٧]: حفَرَ واحتفَرَ بمعنًى واحد، وكذلك «لَمُدْرَكُونَ» و«لَمُدَّرَكُونَ»

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٩٢.

(٢) الشاذة ص١٠٧ عن الحسن والذماري، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ عن الحسن وأيوب السختياني.

(٣) من قوله: قال السدي... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٧٣.

(٤) بعدها في النسخ: الجمعان.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٧.

(٦) المحتسب ٢/ ١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ عن عبيد بن عمير والأعرج، وهي قراءة شاذة.

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٠.

بمعنًى واحد. النَّحَّاس[(١)]: وليس كذلك يقولُ النَّحويُّون الحُذَّاق، إنما يقولون: مُدْرَكون: مُلْحَقون، ومُدَّرَكون: مُجتَهدٌ في لَحاقهم، كما يُقال: كسبتُ بمعنى أصبْتُ وظَفِرْتُ، واكتسبْتُ بمعنى اجتهدْتُ وطلبْتُ، وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ لمَّا لحِقَ فرعونُ بجمعه جَمْعَ موسى وقَرُبَ منهم، ورأتْ بنو إسرائيلَ العدوَّ القويَّ والبحرَ أمامَهم ساءت ظُنونُهم، وقالوا لموسى على جهةِ التَّوبيخِ والجَفاء: «إِنَّا لَمُدْرَكُونَ»، فردَّ عليهم قولَهم وزَجَرهم وذكَّرهم وعْدَ اللهِ سبحانه له بالهداية والظَّفر[(٢)]. ﴿كَلَّآ﴾ أي: لم يُدْرِكوكم[(٣)] ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ أي: بالنصر على العدوِّ[(٤)]. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيدُلُّني على طريق النجاة[(٥)]، فلمَّا عَظُمَ البلاءُ على بني إسرائيل، ورأَوا من الجيوشِ ما لا طاقةَ لهم بها، أمرَ اللهُ تعالى موسى أنْ يضرِبَ البحرَ بعصاه، وذلك أنَّه عزَّ وجلَّ أرادَ أن تكون الآيةُ متصلةً بموسى ومُتعلِّقةً بفعلِ يفعله، وإلَّا فضَرْبُ العصا ليس بفارقٍ للبحر، ولا معينَ على ذلك بذاتِه إلَّا بما اقترنَ به من قدرةِ الله تعالى واختراعه[(٦)]. وقد مضى في «البقرة»[(٧)] قصةُ هذا البحر. ولمَّا انفلقَ صار فيه اثنا عشرَ طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقفَ الماءُ بينها كالطَّودِ العظيم، أي: الجبل العظيم[(٨)]. والطَّوْدُ: الجبل، ومنه قول امرئ القيس[(٩)]:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ .

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٥٥ .

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ .

(٧) ٢/ ٨٩ - ٩٠ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ .

(٩) في ديوانه ص٣١٠ .

فبينا المرءُ في الأحياءِ طَوْدٌ رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فمالا[(١)]

وقال الأسود بن يَعْفُر:

حَلُّوا بأنْقرةٍ يَسيلُ عليهمُ ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أَطْوادِ

جمع طود أي: جبل[(٢)]. فصارَ لموسى وأصحابِه طريقاً في البحر يَبَساً، فلمَّا خرجَ أصحابُ موسى وتكاملَ آخِرُ أصحاب فرعون على ما تقدَّم في «يونس»[(٣)] انصَبَّ عليهم وغَرِقَ فرعونُ، فقال بعضُ أصحاب موسى: ما غَرِقَ فرعونُ؛ فنبذَ على ساحلِ البحرِ حتى نظروا إليه.

وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرجَ مع موسى عليه السلام رَجُلانِ من التُّجارِ إلى البحر، فلمَّا أتوا إليه قالا له: بِمَ أمرَكَ الله؟ قال: أُمِرتُ أن أضرِبَ البحرَ بعصايَ هذه فيَجِفَّ[(٤)]. فقالا له: افعَلْ ما أمرك الله فلن يُخلِفَكَ. ثم ألْقَيا أنفُسَهما في البحر تصديقاً له، فما زالَ كذلك البحرُ حتى دخلَ فرعونُ ومَنْ معه، ثم ارتدَّ كما كان[(٥)]. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: قرَّبناهم إلى البحر؛ يعني فرعونَ وقومه. قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر:

وكلُّ يومٍ مَضى أو ليلةٍ سلَفَتْ فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَزْدَلِفُ[(٧)]

أبو عبيدة[(٨)]: «أَزْلَفْنا»: جمعنا، ومنه قيل لليلة المزدلفة: ليلة جَمْع.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٧٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٨٥ ، والبيت ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٨٦ من غير نسبة.

(٣) ١١/ ٤٥ .

(٤) المثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي، وفي (د) و(ز): فينغرق، وفي (م): فينغلق .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٣ .

(٦) ٢/ ٩٣ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٧٥ .

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٨٧ .

وقرأ عبد الله بن الحارثِ وأُبيٌّ بن كعب وابن عباس: «وَأَزْلَقْنَا» بالقاف[(١)] على معنى أهلكناهم، من قوله: أزلقَتِ الناقةُ وأزلقَتِ الفرسُ فهي مُزْلِقٌ إذا أزلقَتْ ولدَها[(٢)].

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه[(٣)].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: علامةً على قدرة الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأنَّه لم يؤمن من قوم فرعونَ إلَّا مؤمن آل فرعون واسمه حِزْقيل[(٤)]، وابنتُه آسية امرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى[(٥)] العجوز التي دلَّت على قبر يوسف الصِّدِّيق عليه السلام[(٦)]. وذلك أنَّ موسى عليه السلام لمَّا خرجَ ببني إسرائيل من مصر أظلمَ عليهم القمرُ فقالَ لقومه: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسفَ عليه السلام لمَّا حضره الموتُ أخذَ علينا موثقاً من الله ألَّا نَخرُجَ من مصر حتى نَنقُلَ عظامَه معنا. قال موسى: فأيُّكم يدري أين[(٧)] قبرُه؟ قال: ما يعلَمُه إلَّا عجوزٌ لبني إسرائيل. فأرسلَ إليها، فقال: دُلِّيني على قبر يوسف. قالت: لا واللهِ لا أفعَلُ حتى تُعطيني حُكمي. قال: وما حُكمها؟ قالت: حُكمي أنْ أكونَ معكَ في الجنة. فثَقُلَ عليه، فقيل له: أعطِها حُكمَها. فدلَّتهُم عليه، فاحتفَروه واستخرَجوا عظامَه، فلمَّا أقلُّوها، فإذا الطريقُ مثلُ ضوءِ النهار[(٨)]. في روايةٍ: فأوحى الله إليه أنْ أعْطِها، ففعل، فأتَتْ بهم إلى بُحيرة، فقالت لهم: أنْضِبوا

(١) في المحتسب ٢/ ١٢٩ عن عبد الله بن الحارث، والشاذة ص١٠٧ عن أُبي وابن عباس رضي الله عنهما. وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٧ عن ابن مسعود وأبي رجاء والضحاك وابن يعمر.

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ٤٣١ بنحوه.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٥.

(٤) في الوسيط: خربيل.

(٥) في الوسيط: موشا، وفي تفسير البغوي: مأمويا.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٥٥، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٨.

(٧) كلمة «أين» من (ظ).

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٧٤.

هذا الماء. فأنْضَبوه، واستخرجوا عظامَ يوسف عليه السلام، فتبيَّنت لهم الطريقُ مثلَ ضوءِ النهار(١). وقد مضى في «يوسف»(٢).

وروى أبو بُردةَ عن أبي موسى، أنَّ رسول الله ﷺ نزلَ بأعرابيٍّ فأكرمَه، فقال رسول الله ﷺ: «حاجَتُكَ؟» قال: ناقةٌ أرحَلُها، وأعنزاً أحْلُبُها. فقال رسول الله ﷺ: «فَلِمَ عَجَزْتَ أن تكونَ مثلَ عجوزِ بني إسرائيل؟» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حالَ هذه العجوز التي احتكمَتْ على موسى أن تكون معه في الجنة(٣).

**قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ نبَّه المشركين على فَرْطِ جهلِهم إذْ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينِه وهو أبوهم. والنبأُ الخبر(٤)؛ أي: اقصُصْ عليهم يا محمدُ خبرَه وحديثَه وعَيْبَه على قومه ما يعبدون(٥). وإنما قال ذلك مُلزِماً لهم الحُجَّة. والجمهورُ من القُرَّاء على تخفيف الهمزة الثانية، وهو أحسن الوجوه؛ لأنَّهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمةٍ واحدةٍ نحو آدم. وإن شئتَ حقَّقتَهما فقلتَ: «نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ». وإن شئتَ خفَّفتَهما فقلتَ: «نبا ابراهيم». وإن شئتَ خفَّفتَ الأولى. وثَمَّ

(١) أخرجها أبو يعلى (٧٢٥٤)، وابن حبان (٧٢٣)، والحاكم ٢/ ٥٧١-٥٧٢ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف.

(٢) ١١/ ٤٦٢.

(٣) هو تتمة حديث أبي موسى السالف.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٥.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٥٨٩ بنحوه.

خامسٌ إلا أنَّه بعيدٌ في العربية، وهو أن تُدْغَمَ الهمزةُ في الهمزة كما يُقال: رأّاس للذي يبيع الرؤوس، وإنما بَعُدَ لأنك تجمَعُ بين همزتين كأنَّهما في كلمةٍ واحدة، وحَسُنَ في فَعَّال؛ لأنه لا يأتي إلا مُدغماً[(١)].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: أيُّ شيءٍ تعبدون؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وكانت أصنامُهم من ذهبٍ وفضةٍ ونحاسٍ وحديدٍ وخشب. ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي: فنقيمُ على عبادتها. وليس المرادُ وقتاً معيَّناً، بل هو إخبارٌ عمَّا هم فيه. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب. فيُقال: ظلَّ يفعل كذا، إذا فعلَه نهاراً، وبات يفعل كذا، إذا فعله ليلاً[(٢)].

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ قال الأخفش: فيه حذف، والمعنى: هل يسمعون منكم؟ أو: هل يسمعون دعاءكم؟ قال الشاعر:

القائدُ الخيلَ مَنْكُوباً دوابِرُها ... قد أُحْكِمتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقا[(٣)]

قال: والأَبَق الكَتَّان فحذف. والمعنى: وأُحكِمتْ حكماتِ الأَبَق[(٤)]. وفي الصحاح: والأَبَق بالتحريك: القِنَّب[(٥)]. ورُوي عن قتادة أنه قرأ: «هَلْ يُسْمِعُونَكُمْ» بضمِّ الياء، أي: هل يسمعونكم أصواتهم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾[(٦)]؟ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي: هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيراً أو ضرًّا إن

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ببعضه.

(٣) قائله زهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٤٩ . قال شارح الديوان: أي: قادها في الغزو فأبعد بها حتى نكبت دوابرها، والدوابر: مآخير الحوافر، أي: أكلت الأرضُ دوابرها. قد أُحكمت: أي: قد جُعل لها القِدُّ حَكَمات، والحَكَمة: التي تكون على الأنف.

(٤) نقله النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٨٢-١٨٣ عن الأخفش . وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٦ .

(٥) الصحاح (أبق).

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٨٣ ، وقراءة قتادة هذه في المحتسب ٢/ ١٢٩ ، والشاذة ص١٠٧ ، وفيه عن ابن يعمر أيضاً.

عصيتُم[١]؟! وهذا استفهامٌ لتقرير الحُجَّة، فإذا لم ينفعوكم ولم يضرُّوا فما معنى عبادتكم لها؟!

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فزعوا[٢] إلى التقليد من غير حُجَّةٍ ولا دليل. وقد مضى هذا القولُ فيه[٣].

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من هذه الأصنام[٤] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الأوَّلون[٥] ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ واحدٌ يؤدِّي عن جماعة، وكذلك يُقال للمرأة: هي عدوُّ الله وعدوَّةُ الله. حكاهما الفرَّاء. قال علي بن سليمان: من قال: عدوَّة الله وأثبتَ الهاء قال: هي بمعنى معادية، ومن قال: عدو للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب[٦]. ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوٌّ لي إن عبَدْتُهم يوم القيامة، كما قال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. وقال الفرَّاء: هو من المقلوب، مجازُه: فإنِّي عدوٌّ لهم؛ لأنَّ مَنْ عاديتَه عاداك[٧].

ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الكلبيُّ: أي: إلَّا مَنْ عَبَدَ ربَّ العالمين، أي: إلا عابِدَ ربَّ العالمين، فحذف المضاف. قال أبو إسحاق الزَّجَّاج: قال النَّحويُّون: هو استثناءٌ ليس من الأوَّل، وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأوَّل على أنهم كانوا يعبدون اللهَ عزَّ وجلَّ، ويعبدون معه الأصنام، فأعلَمَهم أنه تبرَّأ مما يعبدون إلا الله. وتأوَّله الفرَّاء على الأصنام وحدَها، والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتُهم عدوٌّ لي يوم

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٩٠ بنحوه.

(٢) في (م): فنزعوا.

(٣) ١٤/ ٢١٦ .

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٥٩ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٨٣ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩ .

القيامة، على ما ذكرنا[١]. وقال الجُرجاني: تقديرُه: أفرأيتُم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، إلَّا ربَّ العالمين، فإنهم عدوٌّ لي. وإلا بمعنى دون وسوى، كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] أي: دون الموتة الأولى.

**قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: يرشدني إلى الدين[٢]. ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ أي: يرزقني[٣]. ودخول «هو» تنبيهٌ على أنَّ غيرَه لا يُطعِمُ ولا يسقي، كما تقول: زيدٌ هو الذي فعل كذا، أي: لم يفعَلْه غيرُه.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: «مَرِضْتُ» رعايةً للأدب، وإلا فالمرضُ والشِّفاءُ من الله عزَّ وجلَّ جميعاً. ونظير هذا[٤] قولُ فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾[٥] [الكهف:٦٣]. ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يريد البعثَ، وكانوا ينسِبون الموتَ إلى الأسباب، فبيَّن أنَّ الله هو الذي يميت ويُحيي.

وكلُّه بغير ياء: «يهدين» «يشفين»؛ لأنَّ الحذفَ في رؤوس الآيِ حسنٌ؛ لتتَّفِقَ كلُّها. وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحلِّه من العربية هذه كلَّها بالياء؛ لأنَّ الياءَ

(١) من قوله قال أبو إسحاق... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ١٨٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٩٣، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨١.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٥٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٥.

(٤) في (م): ونظيره.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩، وذكر الآية (٧٩) من الكهف ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، والآية (٨٢) ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ بدلاً من تلك الآية.

اسمٌ، وإنما دخلتِ النونُ لِعلَّة[١]. فإن قيل: فهذه صفةٌ لجميع الخلق، فكيف جعلَها إبراهيمُ دليلاً على هدايته ولم يهتدِ بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأنَّ من أنعَمَ وجبَ أن يُطاعَ ولا يُعصى ليلتزمَ غيرُه من الطاعة ما قد التزمَها، وهذا إلزامٌ صحيح. قلت: وتجوَّز بعضُ أهل الإشارات في غوامض المعاني، فعدلَ عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بداهة[٢] العقول من أنه ليس المرادُ من إبراهيم. فقال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ أي: يُطعمني لذَّةَ الإيمان ويسقيني حلاوةَ القبول. ولهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وجهان: أحدهما ـ إذا مرضتُ بمخالفتِه شَفاني برحمته. الثاني ـ إذا مرضتُ بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحقِّ[٣]. وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضتُ بالذنوب شفاني بالتوبة[٤]. وتأوَّلوا قوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ على ثلاثة أوجه: فالذي يُميتني بالمعاصي يُحييني بالطاعات. الثاني: يُميتني بالخوف يُحييني بالرجاء. الثالث: يُميتني بالطمع ويُحييني بالقناعة[٥]. وقول رابع: يُميتني بالعدل ويُحييني بالفضل. وقول خامس: يُميتني بالفراق ويُحييني بالتَّلاق. وقول سادس: يُميتني بالجهل ويُحييني بالعقل، إلى غير ذلك مما ليس بشيءٍ منه مرادٌ من الآية؛ فإن هذه التأويلات الغامضة، والأمور الباطنة، إنما تكون لمن حذَقَ وعرفَ الحقَّ، وأما من كان في عمًى عن الحقِّ ولا يعرف الحقَّ، فكيف تُرمَزُ له الأمورُ الباطنة، وتُترَكُ الأمورُ الظاهرة؟ هذا محالٌ، والله أعلم.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٤ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): بداية. وفي (م): بدائه. والمثبت من النكت والعيون.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٧٥-١٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٧٦ .

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ «أَطْمَعُ» أي: أرجو[١]. وقيل: هو بمعنى اليقين في حقِّه، وبمعنى الرجاء في حقِّ المؤمنين سواه. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: «خَطَايَايَ» وقال: ليست خطيئةً واحدة. قال النَّحَّاس: خطيئةٌ بمعنى خطايا معروفٌ في كلام العرب، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ [الملك: ١١] ومعناه: بذنوبهم. وكذا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] معناه الصلوات، وكذا «خَطيئَتي» إن كانت خطايا. والله أعلم[٢]. قال مجاهد: يعني بخطيئتِه قولَه: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ وقولَه: ﴿إِنِّى سَقِيمٞ﴾ وقولَه: إنَّ سارةَ أختُه[٣]. زاد الحسن: وقوله للكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾[٤] وقد مضى بيان هذا مستوفًى[٥]. وقال الزَّجَّاج: الأنبياء بشرٌ، فيجوز أن تقعَ منهم الخطيئة، نعم لا تجوز عليهم الكبائر؛ لأنَّهم معصومون عنها[٦].

﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء حيث يُجازى العبادُ بأعمالهم. وهذا من إبراهيم إظهارٌ للعبودية، وإن كان يعلم أنه مغفورٌ له. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة، قلتُ: يا رسول الله، ابنُ جَدْعانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحم، ويُطعِمُ المسكين، فهل ذلك نافِعُه؟ قال: «لا ينفَعُه، إنه لم يَقُلْ يوماً: رَبِّ اغْفِرْ لي خَطِيئتي يومَ الدِّين»[٧].

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٨٤، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٧-٨٨. وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٩٢-٥٩٣، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٦٢ - ٤٦٣. وقد سلف مرفوعاً ١٤/ ٢٢٢ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠.

(٥) ٨/ ٤٣٨.

(٦) معاني القرآن ٢/ ٩٤. قال الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٤٦: الجواب الصحيح أن يُحمل ذلك على ترك الأولى، وقد يُسمَّى ذلك خطأً، فإن من ملك جوهرةً وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فإن باعها بدينار قيل: إنه أخطأ. وتركُ الأولى على الأنبياء جائز.

(٧) صحيح مسلم (٢١٤). وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢٤٦٢١)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٩٢) بنحوه.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ «حُكْماً» معرفةً بِكَ وبحدودِكَ وأحكامِكَ. قاله ابن عباس. وقال مقاتل: فهماً وعلماً؛ وهو راجعٌ إلى الأول. وقال الكلبي: نبوَّةً ورسالةً إلى الخلق. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: بالنبيين من قبلي في الدرجة[1]. وقال ابن عباس: بأهل الجنة، وهو تأكيدُ قولِه: ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه. وقال مجاهد: هو الثناء الحسن[2]. قال ابن عطية: هو الثناءُ وخُلْدُ المكانةِ بإجماع المفسرين، وكذلك أجابَ اللهُ دعوتَه، وكلُّ أمةٍ تتمسَّكُ به وتُعظِّمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمدٌ ﷺ. قال مكي: وقيل: معناه: سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقول الحق، فأُجيبتِ الدعوةُ في محمدٍ ﷺ. قال ابن عطية: وهذا معنًى حسنٌ، إلَّا أنَّ لفظ الآية لا يُعطيه إلا بتحكُّمٍ على اللفظ[3]. وقال القُشيري: أرادَ الدعاءَ الحسنَ إلى قيام الساعة، فإنَّ زيادةَ الثوابِ مطلوبةٌ في حقِّ كلِّ أحد.

قلتُ: وقد فعلَ اللهُ ذلك؛ إذ ليس أحدٌ يُصلِّي على النبيِّ ﷺ إلا وهو يُصلِّي على إبراهيم، وخاصَّةً في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات، والصلاة دعاءٌ بالرحمة. والمراد باللسان القول، وأصلُه جارحةُ الكلام.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠ بنحوه، وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٦ قول ابن عباس ومقاتل، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٣٠ قول مقاتل.

(٢) قول مجاهد في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥.

قال القُتبيُّ: وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تُكنِّي العربُ بها عن الكلمة؛ قال الأعشى[١]:

إنِّـي أتَـتْـنـي لـسـانٌ لا أُسَـرُّ بِـهـا مِن عَلْوُ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ[٢]

قال الجوهري: يُروى مِن علوُ، بضمِّ الواو وفتحها وكسرها، أي: أتاني خبر من أعلى ـ والتأنيث للكلمة. وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر[٣]. وروى أشهب عن مالكٍ قال: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ لا بأس أن يُحِبَّ الرجلُ أن يُثنى عليه صالحاً ويُرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجهَ الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[٤] [طه:٣٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] أي: حبًّا في قلوب عباده وثناءً حسناً، فنبَّه تعالى بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ على استحباب اكتساب ما يُورِثُ الذِّكرَ الجميل[٥]. الليث بن سليمان: إذ هي الحياة الثانية. قيل:

قد ماتَ قومٌ وهُمْ في النَّاسِ أحْياءُ[٦]

قال ابن العربي[٧]: قال المحقِّقون من شيوخ الزهد: في هذا دليلٌ على الترغيب في العمل الصالح الذي يُكسب الثناء الحسن؛ قال النبيُّ ﷺ: «إذا مات ابنُ آدم انقطعَ عملُه إلا من ثلاث» الحديث[٨]. وفي روايةٍ: إنه كذلك في الغرس والزرع، وكذلك

---

(١) وهو أعشى باهلة كما في إصلاح المنطق ص٣٠، والكامل ٣/ ١٤٣١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص١١١.

(٣) الصحاح (سخر) من قوله: والتأنيث للكلمة... إلى هذا الموضع.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٤.

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٣٣.

(٦) هذا عجز بيتٍ صدره: «موت التقيِّ حياةٌ لا انقطاع لها»، وقائله سابق بن عبد الله البربري، وهو في زهر الأكم في الأمثال والحكم ١/ ١٧٤-١٧٥.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٤.

(٨) كلمة الحديث من (م)، والحديث سلف ١/ ٨.

فيمن ماتَ مرابطاً يُكتَبُ له عملُه إلى يوم القيامة. وقد بيَّناه في آخر «آل عمران»[١] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ دعاءٌ بالجنة وبمن يرثها، وهو يردُّ قولَ بعضهم: لا أسألُ جنةً ولا ناراً.

قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ كان أبوه وعدَه في الظاهر أن يؤمن به، فاستغفرَ له لهذا، فلمَّا بانَ أنه لا يفي بما قال تبرَّأ منه. وقد تقدَّم هذا المعنى[٢].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: المشركين[٣]. و«كان» زائدة.

﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: لا تفضحني على رؤوس الأشهاد، ولا تعذبني يوم القيامة[٤]. وفي البخاري عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ إبراهيمَ يرى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرةُ والقَتَرةُ» والغبَرة هي القتَرة. وعنه عن النبيِّ ﷺ قال: «يَلقى إبراهيمُ أباه فيقول: يا ربِّ، إنَّكَ وعدتَني ألَّا تُخزِني يومَ يُبعثون، فيقول الله تعالى: إنِّي حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين» انفرد بهما البخاري رحمه الله[٥].

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ «يَوْمَ» بدلٌ من «يومَ» الأوَّل. أي: يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ أحداً[٦]. والمراد بقوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ الأعوانَ؛ لأنَّ الابنَ إذا لم ينفَعْ فغيرهُ متى ينفع؟! وقيل: ذكَرَ البنينَ؛ لأنَّه جرى ذِكْرُ والدِ إبراهيم، أي: لم ينفعه إبراهيم.

﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ هو استثناءٌ من الكافرين، أي: لا ينفعه مالُه ولا بنوه.

---

(١) ٥/ ٤٨٩ .

(٢) ١٠/ ٤٠٠-٤٠١ .

(٣) الوسيط ٣/ ٤٥٦ .

(٤) سلف هذا المعنى ٥/ ٤٧٧ .

(٥) في صحيحه (٤٧٦٨-٤٧٦٩) .

(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن للعكبري على هامش الفتوحات الإلهية ٤/ ١١٦ .

وقيل: هو استثناءٌ من غير الجنس، أي: لكن «مَنْ أَتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ» ينفعه لسلامة قلبه[١]. وخصَّ القلبَ بالذكر؛ لأنه الذي إذا سَلِمَ سلِمَتِ الجوارح، وإذا فسدَ فسدَتْ سائرُ الجوارح. وقد تقدَّم في أوَّل «البقرة»[٢]. واختُلِفَ في القلب السليم فقيل: من الشكِّ والشرك، فأما الذنوبُ فليس يسلَمُ منها أحد. قاله قتادة وابن زيد وأكثرُ المفسرين. وقال سعيد بن المسيِّب: القلبُ السليم: الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأنَّ قلبَ الكافرِ والمنافقِ مريضٌ؛ قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:٧]. وقال أبو عثمان النَّيسابوري[٣]: هو القلبُ الخالي عن البدعة، المطمئن إلى السُّنَّة. وقال الحسين[٤]: سليمٌ من آفة المال والبنين[٥]. وقال الجُنيد: السليم في اللغة: اللديغ؛ فمعناه: أنه قلبٌ كاللديغ من خوف الله[٦]. وقال الضَّحَّاك: السليم: الخالص[٧].

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة، والله أعلم. وقد رُوِيَ عن عروة أنه قال: يا بَنِيَّ لا تكونوا لعَّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٨]. وقال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور[٩]. وفي «صحيح مسلم» من حديث

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٨ .

(٢) ١/ ٢٨٦-٢٨٧ .

(٣) في (د) و(ز): الساري، وفي (ظ) و(م): السيَّاري، والصواب: أبو عثمان النيسابوري: واسمه سعيد بن أبي سعيد، المعروف بالعيَّار، وهو عالم زاهد، توفي سنة ٤٥٧هـ. السير ١٨/ ٨٦-٨٩ .

(٤) وهو ابن الفضل، وقد سلف مراراً. ووقع في (م): الحسن .

(٥) من قوله: واختلف في القلب السليم... إلى هذا الموضع في تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠ . وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٦ قول ابن المسيب.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥-٢٣٦ ، وزاد المسير ٦/ ١٣١ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٧٧ .

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٥ .

(٩) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٩٠ .

أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «يدخلُ الجنةَ أقوامٌ أفئِدتُهم مثلُ أفئدةِ الطير»(١) يريد ـ والله أعلم ـ أنها مثلُها في أنَّها خاليةٌ من كلِّ ذنب، سليمةٌ من كلِّ عيب، لا خبرةَ لهم بأمور الدنيا، كما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ قال: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ» وهو حديث صحيح(٢). أي: البُلْه عن معاصي الله. قال الأزهري(٣): الأبلَهُ هنا: هو الذي طُبِعَ على الخير، وهو غافلٌ عن الشَّرِّ لا يعرفه. وقال القُتبيُّ(٤): البُلْهُ: هم الذين غلبَتْ عليهم سلامةُ الصُّدورِ وحسنُ الظَّنِّ بالناس.

**قوله تعالى:** ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قُرِّبت وأُدنِيتْ ليدخلوها(٥). وقال

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٤٠). وأخرجه أحمد (٨٣٨٢).

(٢) بل هو ضعيف، فقد أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٩٨٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٨٢)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٦٠، والقضاعي في مسند الشهاب (٩٩٠)، والبيهقي في الشعب (١٣٦٧) من طريق سلامة بن روح، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس مرفوعاً. سلامة بن روح قال فيه أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي محله عندي محل الغفلة، وقد عدَّ هذا من منكراته، ثم هو لم يسمع من جد أبيه عقيل بن خالد، إنما أخذ من كتبه.

وأخرجه القضاعي (٩٨٩) من طريق عبد السلام بن محمد الأموي، عن سعيد بن كثير بن عفير، عن يحيى بن أيوب، عن عقيل، به. عبد السلام بن محمد قال فيه الدارقطني: ضعيف جداً. وقال الخطيب: صاحب مناكير.

(٣) في تهذيب اللغة ٦/ ٣١٢.

(٤) في غريب الحديث ١/ ١٠٩.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٨٧.

الزَّجّاج: قرب دخولهم إياها ونظرهم إليها .﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي: أُظْهِرت[١] ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ يعني جهنم. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ أي: للكافرين الذين ضلُّوا عن الهدى. أي: تظهر جهنَّم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الرَّوعَ والحُزن، كما يستشعر أهلُ الجنة الفرحَ؛ لعِلْمِهم أنَّهم يدخلون الجنة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد[٢] ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم[٣]. وهذا كلُّه توبيخ[٤] .﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ أي: قُلبوا على رؤوسهم. وقيل: دُهْوِروا وأُلقيَ بعضُهم على بعض . وقيل: جُمعوا. مأخوذٌ من الكَبْكَبَة وهي الجماعة. قاله الهرويّ . وقال النحّاس: هو مُشتقٌّ من كَوْكَبِ الشيءِ أي: مُعظمه. والجماعة من الخيل كَوْكَبٌ وكَبْكَبة[٥]. وقال ابن عباس: جُمِعوا فطُرِحوا في النار. وقال مجاهد: دُهْوِروا. وقال مقاتل: قُذِفوا[٦]. والمعنى واحد. تقول: دهورتَ الشيءَ إذا جمعته ثم قذفتَه في مَهْوَاةٍ. يُقال: هو يُدَهْوِرُ اللُّقَمَ إذا كبَّرها[٧]. ويقال في الدعاء: كَبَّ اللهُ عدوَّ المسلمين، ولا يُقال: أكَبَّه. وكَبْكَبه. أي: كبَّه وقلَبَه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾[٨] والأصل: كُبِّبوا، فأُبدِلَ من الباء الوسطى كافٌ استثقالاً لاجتماع الباءات[٩]. قال السُّدِّي: الضمير في «كُبْكِبُوا» لمشركي العرب ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ الآلهة ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذُرِّيته[١٠]. وقيل: كلُّ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٤ ، وعبارة: «ونظرهم إليها» منه، وفي نسخة (ظ): «ونظرهم إياها».

(٢) مجمع البيان ١٩/ ١٦١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ .

(٤) زاد المسير ٦/ ١٣١ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٩ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ ، وقول ابن عباس ومجاهد أخرجهما الطبري ١٧/ ٥٩٧-٥٩٨ .

(٧) المحكم لابن سيده (دهر).

(٨) الصحاح (كبب) و(كبكب) و(قلب).

(٩) غريب القرآن لابن قتيبة ص٣١٨ .

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٩ .

مَنْ دعاه إلى عبادة الأصنام فاتَّبعه[١]. وقال قَتادة والكلبي ومقاتل: «الْغَاوُونَ»: هم الشياطين[٢]. وقيل: إنَّما تُلقى الأصنامُ في النار وهي حديدٌ ونحاسٌ لِيُعذَّبَ بها غيرُهم.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذٍ. ﴿تَٱللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خسارٍ وتَبارٍ وحَيْرةٍ عن الحقِّ بيِّنةٍ إذ[٣] اتَّخذنا مع الله آلهةً فعبدناها كما يُعبَدُ، وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: في العبادة، وأنتم لا تستطيعون الآنَ نصْرَنا ولا نَصْرَ أنفسكم.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادةَ الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلَّدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: «الْمُجْرِمُونَ» إبليس وابن آدم القاتل هما أوّل من سنَّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي. ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ﴾ أي: شفعاءَ يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين[٤]. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: صديقٍ مُشفق[٥]. وكان عليٌّ ﷺ يقول: عليكم بالإخوان، فإنَّهم عُدَّةُ الدنيا وعُدَّةُ الآخرة، ألا تسمَعُ إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. الزَّمخشري: وجَمَعَ الشافعَ؛ لكثرةِ الشافعين، ووحَّدَ الصديق؛ لقِلَّته، ألا ترى أنَّ الرجلَ إذا امتُحِنَ بإرهاق ظالمٍ مضَتْ جماعةٌ وافرةٌ من أهل بلده لشفاعته؛ رحمةً له وحسبةً، وإن لم تسبِقْ له بأكثرهم معرفة، وأما الصَّديق فهو الصادق في وِدادِكَ، الذي يُهِمُّه ما يُهمُّك فأعَزُّ من بيض الأَنُوق[٦]؛ وعن بعض الحكماء أنه سُئِلَ عن الصَّديق فقال: اسمٌ لا

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٤، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٩٨ بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١. وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩١، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٧٨ عن قتادة. وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٩٨.

(٣) في (د) و(ز) و(م): إذا.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ ونسب القول الأول لمقاتل والقول الثاني للكلبي. وقول عكرمة أخرجه الطبري ١٧/ ٥٩٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٠٠ عن مجاهد بلفظ: شفيق.

(٦) قال الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٤٤: الأنوق: الرَّخَمة، وعزَّ بيضُها لأنه لا يُظفر به؛ لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة.

معنى له. ويجوز أن يُريد بالصديق الجمع[١]. والحميم: القريبُ والخاصُّ، ومنه حامَّةُ الرجل، أي: أقرباؤه، وأصل هذا من الحميم: وهو الماء الحار، ومنه الحَمَّام والحُمَّى، فحامَّةُ الرَّجُلِ الذين يحرِقُهم ما أحرقَه؛ يقال: وهو حُزانَتُه، أي: يُحزِنُهم ما يُحزِنُه[٢]. ويقال: حُمَّ الشيء وأَحَمَّ إذا قَرُبَ، ومنه الحُمَّى؛ لأنها تُقَرِّبُ من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سُمِّيَ القريبُ حميماً؛ لأنَّه يَحْمَى لغضبِ صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحَمِيَّة. وقال قتادة: يُذهِبُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ مودَّةَ الصَّديق ورِقَّةَ الحميم[٣]. ويجوز: «ولا صَديقٌ حَميمٌ» بالرفع على موضع «مِن شافعينَ»؛ لأنَّ «مِن شافعينَ» في موضع رفع، وجَمْعُ صديقٍ أصدِقاءُ وصُدَقاءُ وصِداق، ولا يُقال: صُدُقٌ؛ للفرق بين النعت وغيره. وحكى الكوفيُّون أنه يُقال في جمعه: صُدْقان. النَّحَّاس: وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ هذا جمعُ ما ليس بنعتٍ، نحو: رَغِيفٍ ورُغْفانٍ. وحكوا أيضاً: صديقٌ وأَصادِقُ. وأَفاعِلُ إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتاً نحو: أشْجَعُ وأشاجِعُ. ويُقال: صديقٌ للواحد والجماعة وللمرأة[٤]؛ قال الشاعر:

نَصَبْنَ الهوى ثم ارتمينَ قلوبَنَا ... بأعْيُنِ أعداءٍ وهُنَّ صَديقُ[٥]

ويُقال: فلانٌ صُدَيِّقي، أي: أخَصُّ أصدقائي، وإنما يُصَغَّرُ على جهة المدح، كقول حُباب بن المنذر: (أنا جُذَيْلُها المُحكَّك، وعُذَيْقُها المرَجَّب) ذكره الجوهري[٦]. النَّحَّاس: وجَمْعُ حميم أحِمَّاء وأَحِمَّة، وكرهوا أفِعْلاء للتضعيف. ﴿فَلَوْ

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٩ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٧٨-١٧٩ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٨٥ .

(٥) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٧٢ ، وفيه: «بِأَسْهُمٍ» بدل: «بأعيُنٍ». والمعنى كما يقول شارحه: استَملْنَ أهواءنا فمالَتْ إليهن .

(٦) في الصحاح (صدق). الجِذْل واحد الأجذال: وهي أصول الحطب العِظام، والجِذْل المحكك: الذي يُنصب في المعاطنِ لتُحكَّ به الإبل الجربى، أراد أنه يشفى برأيه وتدبيره. الصحاح (جذل) و(حكك). والعُذيق تصغير عَذْق: وهي النخلة. والترجيب هنا: إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط . المحكم لابن سيده (رجب).

﴿أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ «أنَّ» في موضع رفع، المعنى: ولو وقع لنا رجوعٌ إلى الدنيا لآمنَّا حتى يكون لنا شفعاء[١]. تمنَّوا حين لا ينفعُهم التمنِّي. وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون؛ قال جابر بن عبد الله: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليقول في الجنة: ما فَعَلَ فلانٌ وصديقُه في الجحيم[٢]، فلا يزالُ يشفَعُ له حتى يُشَفِّعَه اللهُ فيه، فإذا نجا قال المشركون: ﴿فما لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[٣]. وقال الحسن: ما اجتمعَ ملأٌ على ذِكْرِ الله، فيهم عبدٌ من أهلِ الجنة، إلَّا شفَّعَهُ اللهُ فيهم، وإنَّ أهلَ الإيمان لَيشفَعُ بعضُهم في بعضٍ وهم عند الله شافعونَ مُشَفَّعون. وقال كعب: إنَّ الرَّجُلينِ كانا صديقينِ في الدنيا، فيَمُرُّ أحدُهما بصاحبه وهو يُجَرُّ إلى النار، فيقول له أخوه: واللهِ ما بقي لي إلا حسنةٌ واحدةٌ أنجو بها، خُذْها أنتَ يا أخي فتنجو بها مما أرى، وأبقى أنا وإيَّاكَ من أصحاب الأعراف. قال: فيأمرُ اللهُ بهما جميعاً فيدخلان الجنة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدَّم والحمد لله.

**قوله تعالى:** ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: «كَذَّبَتْ» والقومُ مُذكَّر؛ لأنَّ المعنى:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٥ .

(٢) في (م): الجحيم ، وكلاهما بمعنى .

(٣) الوسيط ٣/ ٣٥٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩١ .

كذَّبت جماعةُ قومِ نوح، وقال: «المُرْسَلين» لأنَّ مَنْ كذَّبَ رسولاً فقد كذَّب الرسل؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ يأمرُ بتصديقِ جميعِ الرسل. وقيل: كذَّبوا نوحاً في النبوَّة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده. وقيل: ذكَرَ الجنس والمُرادُ نوحٌ عليه السلام[(١)]. وقد مضى هذا في «الفرقان»[(٢)].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي: ابنُ أبيهم وهي أُخوَّةُ نسبٍ لا أُخوَّةَ دين[(٣)]. وقيل: هي أُخوَّةُ المجانسة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وقد مضى هذا في «الأعراف»[(٤)]. وقيل: هو من قولِ العرب: يا أخا بني تميم. يُريدون: يا واحداً منهم. الزمخشري: ومنه بيتُ الحماسة:

لا يَسْأَلونَ أخاهم حِينَ يَنْدُبُهمْ في النَّائباتِ على ما قال بُرْهانا[(٥)]

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تتَّقون اللهَ في عبادة الأصنام.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: صادقٌ فيما أُبلِّغُكم عن الله تعالى. وقيل: «أَمِينٌ» فيما بينكم؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانتَه وصِدْقَه من قبل؛ كمحمدٍ ﷺ في قريش.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فاستَتِروا بطاعة الله تعالى من عقابه. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُرُكم به من الإيمان.

﴿وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لا طمَعَ لي في مالكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما جزائي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّرَ تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ **فيه مسألتان:**

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٢) ١٥/ ٤١٠.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٥٧.

(٤) ٩/ ٢٦٢.

(٥) الكشاف ٣/ ١٢٠، والبيت في الحماسة البصرية ١/ ٢٩، وقائله قُريط بن أُنيف كما في خزانة الأدب ٧/ ٤٤١.

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي: نُصدِّقُ قولَك[١]؟ ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الواو للحال، وفيه إضمارُ قد، أي: وقدِ اتَّبعَك[٢]. «الأرْذَلونَ» جمع الأرذَل، المُكَسَّر الأراذل، والأنثى الرُّذْلَى، والجمع الرُّذَّل. قال النحَّاس: ولا يجوز حذفُ الألفِ واللامِ في شيءٍ من هذا عند أحدٍ من النَّحْويين عَلِمْناه[٣]. وقرأ ابنُ مسعود والضحَّاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم: «وَأَتْباعُكَ الأَرْذَلُون»[٤]. النحَّاس: وهي قراءةٌ حسنةٌ، وهذه الواو أكثر ما[٥] تتبعها الأسماء، والأفعال بعد. وأتباع جمع تَبَع، وتَبَع[٦] يكون للواحد والجمع؛ قال الشاعر:

لـه تَـبَـعٌ قـد يـعـلـمُ الـنـاسُ أنَّـهُ ... عـلـى مـن يُـدانـي صَـيِّـفٌ ورَبِـيـعُ[٧]

وارتفاعُ «أتْباعُكَ» يجوز أن يكون بالابتداء، و«الأرْذَلُونَ» الخبر، التقدير: أنؤمِنُ لكَ وإنما أتباعك الأرذلون. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ والتقدير: أنؤمِنُ لكَ نحن وأتباعُكَ الأرذلون فنُعَدُّ منهم؛ وحَسُنَ ذلكَ الفصلُ بقوله: «لَكَ»[٨] وقد مضى القول في الأراذل في سورة «هود»[٩] مستوفًى. ونزيده هنا بياناً وهي:

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٨٦.

(٤) المحتسب ٢/ ١٣١، وذكر هذه القراءة أيضاً عن طلحة وابن السميفع وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري، وهي قراءة شاذة.

(٥) في (د) و(ز) و(م): أكثرها.

(٦) في (م): وتبيع.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٠ - ٩١، والبيت نُسب في المفضليات ص٢٧٢ إلى متمِّم بن نويرة.

(٨) المحتسب ٢/ ١٣١، ومجمع البيان ١٩/ ٦٤.

(٩) ١١/ ٩٨ - ١٠٠.

**الثانية**: فقيل: إنَّ الذين آمنوا به بَنوه ونساؤه وكَنَّاته وبنو أبيه[١]، واختُلِفَ هل كان معهم غيرهم أم لا؟ وعلى أن الوجهين كان فالكلُّ صالحون، وقد قال نوح: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والذين معه هم الذين اتَّبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شَيْنٌ ولا ذَمٌّ، بل الأرذلون هم المكذِّبون لهم. قال السُّهيلي: وقد أُغريَ كثيرٌ من العوام بمقالةٍ رُوِيَتْ في تفسير هذه الآية: هم الحاكَة والحجَّامون، ولو كانوا حاكةً كما زعموا لكان إيمانُهم بنبيِّ الله واتِّباعُهم له مشرِّفاً لهم[٢] كما تشرَّف بِلالٌ وسَلْمانُ بسبقِهما للإسلام، فهما من وجوهِ أصحابِ النبيِّ ﷺ ومن أكابرهم، فلا ذريةُ نوحٍ كانوا حاكةً ولا حجَّامين، ولا قولُ الكَفرةِ في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتِنا ذمًّا ولا نقصاً؛ لأنَّ هذه حكايةٌ عن قولِ الكفَرةِ إلَّا أن تُجعلَ الكفرةُ حجةً ومقالتُهم أصلاً، وهذا جهلٌ عظيم[٣]. وقد أعلم الله تعالى أنَّ الصناعات ليست بضائرةٍ في الدين[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «كان» زائدة، والمعنى: وما علمي بما يعملون، أي: لم أُكَلَّفِ العلمَ بأعمالهم، إنما كُلِّفتُ أن أدعوَهم إلى الإيمان[٥]، والاعتبار بالإيمان لا بالحِرَف والصَّنائع، وكأنَّهم قالوا: إنما اتَّبعك هؤلاء الضعفاءُ طمعاً في العِزَّةِ والمال، فقال: إني لم أقِفْ على باطن أمرهم، وإنما إليَّ ظاهِرُهم. وقيل: المعنى: إني لم أعلَمْ أنَّ اللهَ يهديهم ويُضِلُّكم، ويُرشِدُهم ويُغويكم، ويُوفِّقُهم ويخذلُكم[٦]. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي: في أعمالهم وإيمانهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وجواب «لو» محذوف، أي: لو شعرتُم أنَّ حسابَهم على ربِّهم لَما عِبْتُموهم

(١) في (د) و(ز) و(م): ابنه.

(٢) كلمة «لهم» ليست في (د) و(ز) و(م).

(٣) التعريف والإعلام ص١٢٤-١٢٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٧، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٣.

بصنائعهم[١]. وقراءة العامَّة: «تَشْعُرُونَ» بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر. وقرأ ابن أبي عَبْلَة ومحمد بن السَّمَيْفَع: «لو يَشعرون» بالياء[٢]، كأنَّه خبرٌ عن الكفارِ وتركِ الخطاب لهم، نحو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]. ورُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ سفيان عن امرأةٍ زنَتْ وقتلَتْ ولدَها وهي مسلمة هل يُقطَعُ لها بالنار؟ فقال: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لخساسة أحوالهم وأشغالهم. وكأنهم طلبوا منه طردَ الضُّعفاءِ كما طلبَتْه قريش.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ يعني: إنَّ الله ما أرسلني أَخُصُّ ذَوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسولٌ أُبلِّغُكم ما أُرسِلْتُ به، فمن أطاعني فذلك السعيدُ عند الله وإن كان فقيراً.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ أي: عن سبِّ آلهتنا وعَيْبِ ديننا[٣] ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ أي: بالحجارة. قاله قتادة. وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين[٤]. قال الثُّماليُّ: كلُّ رَجْمٍ[٥] في القرآن فهو القتل، إلا في مريم [الآية: ٤٦]: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ أي: لأُسبَّنَّكَ. وقيل: «مِنَ المَرْجُومِينَ»: من المشتومين. قاله السُّدِّي. ومنه قول أبي داود[٦].

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ . فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال ذلك

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٢) وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٧ عن الأعرج وأبي زرعة.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٣.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٥) في (د) و(ز) و(م): مرجومين.

(٦) في (م): أبي دؤاد. وهذا الكلام في النكت والعيون ٤/ ١٧٩، وقول أبي داود هو:

صدَّت غُواةُ معدٍّ أن تُراجِمني ... كما يصدون عن لب كجفانِ

لمَّا يئِسَ من إيمانهم. والفتح الحكم وقد تقدم[١].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ يريدُ السفينة، وقد مضى ذِكْرُها[٢]. والمشحون: المملوء[٣]، والشحن: ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم[٤]. ولم يؤنِّثِ الفُلك هاهنا؛ لأنَّ الفُلكَ هاهنا واحدٌ لا جمع.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: بعد إنجائنا نوحاً ومَنْ آمن[٥].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

**قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة[٦]. وتكذيبُهم المرسلين كما تقدَّم. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيِّنُ المعنى، وقد تقدَّم.

---

(١) ٢/ ٢١٤.

(٢) ٢/ ٤٩٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) مجمع البيان ١٩/ ١٦٩.

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ الرِّيعُ: ما ارتفع من الأرض في قول ابن عباسٍ وغيره، جمع رِيعة. وكم رِيعُ أرضِكَ؟ أي: كم ارتفاعُها[١]. وقال قتادة: الرِّيع: الطريق. وهو قول الضحَّاك والكلبي ومقاتل والسُّدِّي. وقاله ابن عباسٍ أيضاً[٢]. ومنه قول المُسيَّب بن عَلَس:

فـي الآلِ يَـخْـفِـضُـهـا ويَـرفَـعُـهـا ... رِيـعٌ يَـلُـوحُ كـأَنَّـهُ سَـحْـلُ[٣]

شبَّه الطريقَ بثوبٍ أبيض[٤]. النَّحَّاس: ومعروفٌ في اللغة[٥] أن يُقال لِما ارتفعَ من الأرض: رِيعٌ، وللطريق: رِيعٌ؛ قال الشاعر:

طِـراقُ الـخَـوَافـي مـشـرقٌ فَـوْقَ رِيـعَـةٍ ... نَـدَى لـيـلِـهِ فـي ريـشِـه يَـتَـرقْـرَقُ[٦]

وقال عمارة: الرِّيع: الجبل، الواحد رِيعة، والجمع رِياع[٧]. وقال مجاهد: هو الفَجُّ بين الجبلين. وعنه: الثنية الصغيرة. وعنه: المنظرة[٨]. وقال عكرمة ومقاتل: كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالاً طوالاً ليهتدوا بها؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامة. وعن مجاهد: الرِّيع: بنيان الحَمَام؛ دليله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: تلعبون[٩]؛ أي: تبنون بكلِّ مكانٍ مُرتفعٍ آيةً علَماً تلعبون بها على معنى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٢ ، والنكت والعيون ٤/ ١٨٠ ، والوسيط ٣/ ٣٥٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ . وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٠٨ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) الصحاح (ريع) و(سحل).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٨٠ .

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٩٢ .

(٦) قائله ذو الرمَّة، وهو في ديوانه ١/ ٤٨٨ ، وفيه: «واقعٌ» بدل «مشرقٌ»، وقد قاله وهو يصف بازياً. قال شارحه: طِراق: بعضه على بعض. الخوافي: ما دون القوادم من جناح الطائر. يترقرق: يجيء ويذهب.

(٧) الصحاح (ريع).

(٨) أخرج تلك الأقوال الطبري ١٧/ ٦٠٨-٦٠٩ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ . وأخرج قول مجاهد الطبري ١٧/ ٦١٠ .

أبنية الحمام وبروجها. وقيل: تعبثون بمن يمرُّ في الطريق؛ أي: تبنون بكلِّ موضعٍ مُرتفعٍ لتشرفوا على السَّابلةِ فتسخروا منهم[١]. وقال الكلبي: إنَّه عبثُ العشَّارين بأموال من يَمرُّ بهم. ذكره الماوردي[٢]. وقال ابن الأعرابي: الرِّيع: الصَّومعة، والرِّيع: البرج من الحمام يكون في الصحراء. والرِّيع: التلُّ العالي. وفي الرِّيع لغتان: كسر الراء وفتحها، وجمعها أرياع. ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: منازل. قاله الكلبي. وقيل: حُصُوناً مُشَيَّدة. قاله ابن عباس ومجاهد[٣]. ومنه قول الشاعر:

تَـرَكْـنـا ديـارَهُـم مِـنـهـم قِـفَـاراً وهَـدَّمْـنـا الـمـصـانـعَ وَالـبُـرُوجـا

وقيل: قصوراً مُشيَّدة. وقاله مجاهد أيضاً. وعنه: بروج الحمام. وقاله السُّدِّي[٤].

قلت: وفيه بُعدٌ عن مجاهد؛ لأنَّه تقدَّم عنه في الرِّيع أنه بنيان الحمام، فيكون تكراراً في الكلام. وقال قتادة: مآجِلُ للماء تحت الأرض[٥]. وكذا قال الزَّجَّاج[٦]: إنها مصانع الماء، واحدتها مَصْنَعَةٌ ومَصْنَعٌ. ومنه قول لَبِيد[٧]:

بَـلِـيـنـا ومـا تَـبْـلَـى الـنـجـومُ الـطـوالِـعُ وتَـبـقَـى الـجـبـالُ بَـعْـدَنـا والـمـصـانِـعُ

الجوهري: المَصنَعةُ: كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنُعَة بضَمِّ النون، والمصانع: الحصون[٨]. وقال أبو عبيدة: يُقال لكل بناء: مصنعة[٩]. حكاه

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٦.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ١٨١.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١١ عن مجاهد.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٨١.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وزاد المسير ٦/ ١٣٦. وأخرجه بنحوه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٤، والطبري ١٧/ ٦١١.

(٦) في معاني القرآن له ٤/ ٩٦.

(٧) في ديوانه ص١٦٨.

(٨) الصحاح (صنع).

(٩) مجاز القرآن ٢/ ٨٨.

المَهْدَوي. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن: القصور العادية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: كي تخلدوا. وقيل: لعلَّ استفهامٌ بمعنى التوبيخ[١]، أي: فهل تَخْلُدونَ؟ كقولك: لعلَّكَ تشتمني، أي: هل تشتمني. رُوي معناه عن ابن زيد. وقال الفرَّاء: كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت[٢]. وقال ابن عباس وقتادة: كأنكم خالدون باقون فيها[٣]. وفي بعض القراءات «كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدُون» ذكره النحاس[٤]. وحكى قتادة: أنها كانت في بعض القراءات «كأنكم خالِدون»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطشُ: السَّطوةُ والأخذ بالعنف، وقد بَطَش به يبطُشُ ويبطِشُ بَطْشاً، وباطشَه مُباطشةً[٦]. وقال ابن عباس ومجاهد: البَطْشُ: العَسْفُ قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط[٧]. ومعنى ذلك: فعلتُم ذلك ظلماً. وقال مجاهد أيضاً: هو ضربٌ بالسياط[٨]. ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي[٩]. وقيل: هو القتل بالسيف في غير حق. حكاه يحيى بن سَلَّام. وقال الكلبي والحسن: هو القتل على الغضب من غير تَثَبُّتٍ. وكلُّه يرجع إلى قول ابن عباس. وقيل: إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفوٍ ولا إبقاء[١٠]. قال ابن العربي[١١]: ويؤيِّد ما قال مالك قولُ الله تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨١ دون عبارة: لا تتفكرون بالموت، وهي في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١٢ عنهما بنحوه.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٩٣، ونسبها في المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨ إلى أُبيّ، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وهي قراءة شاذة أيضاً.

(٦) الصحاح (بطش).

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٤ عن مجاهد.

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٨٢.

(٩) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٥.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ١٨٢، وقول الكلبي ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨١.

(١١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٥.

بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:١٩] وذلك أنَّ موسى عليه السلام لم يَسُلَّ عليه سيفاً ولا طعنَه بِرُمح، وإنما وَكَزه وكانت منيَّتُه في وَكْزَتِه. والبطش يكون باليد، وأقلُّه الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكلُّ مذمومٌ إلا بحقٍّ.

والآية نزلت خبراً عمَّن تقدَّم من الأمم، ووعظاً من الله عزَّ وجلَّ لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمَّهم به وأنكره عليهم.

قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثيرٍ من هذه الأمة، لا سيَّما بالديار المصرية منذ وَلِيَتْها البحرية(١)، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق. وقد أخبر ﷺ أن ذلك يكون، كما في «صحيح مسلم»(٢) عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنفانِ من أهل النار لم أرَهُما: قومٌ معهم سِياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهُنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائلة، لا يدخُلْنَ الجنةَ ولا يَجِدْنَ ريحَها، وإنَّ ريحَها ليُوجَدُ من مسيرةِ كذا وكذا». وخرَّج أبو داود(٣) من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتُم بالعِينةِ، وأخذتُم أذناب البقر، ورضيتُم بالزرعِ، وتركتُم الجهادَ، سلَّط اللهُ عليكم ذلًّا لا ينزِعُه حتى ترجعوا إلى دينكم».

«جَبَّارِينَ»: قتَّالين. والجبَّار: القتَّال في غير حقٍّ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قاله الهروي. وقيل: الجبَّار: المتسلِّط العاتي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥] أي: بمسلَّط. قال الشاعر:

سَلَبْنَا من الجَبَّارِ بالسَّيفِ مُلْكَهُ ... عَشِيًّا وأطرافُ الرِّمَاحِ شَوَارِعُ

---

(١) هم جماعة من الأتراك المماليك اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجعلهم بطانته، وأمَّر بعضهم، وسبب تسميتهم البحرية أن التجار جلبوهم في البحر من بلاد القفجاق. السير ٢٣/ ١٩١-١٩٢.

(٢) (٢١٢٨)، وقد سلف ١٥/ ٣٤١.

(٣) في سننه (٣٤٦٢)، وقد سلف ٢/ ٢٩٦.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تقدَّم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من الخيرات، ثم فسَّرها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: سخَّر ذلك لكم وتفضَّل بها عليكم، فهو الذي يجب أن يُعبدَ ويُشكَر ولا يُكفرَ.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن كفرتُم به وأصررتُم على ذلك.

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ كلٌّ ذلك عندنا سواءٌ، لا نسمع منك، ولا نلوي على ما تقولُه. وروى العباس عن أبي عمرو وبِشْر عن الكسائي: «أوَعَظتَّ» مدغمةَ الظَّاء في التاء[١]، وهو بعيد؛ لأنَّ الظَّاء حرفُ إطباق، إنما يُدغَمُ فيما قَرُبَ منه جدًّا وكان مثلَه ومخرجَه.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: دينُهم. عن ابن عباس وغيره[٢]. وقال الفرَّاء[٣]: عادةُ الأوّلين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «خَلْقُ الأوّلِينَ»، الباقون: «خُلُقُ»[٤]. قال الهروي: وقولُه عز وجل: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: اختلافهم وكذبهم، ومن قرأ: «خُلُقُ الأوّلِينَ» فمعناه عادتهم، والعرب تقول: حدَّثنا فلانٌ بأحاديثِ الخَلْق، أي: بالخرافات والأحاديث المفتعلة[٥]. وقال ابن الأعرابي: الخلقُ: الدين، والخلقُ: الطبع، والخلقُ: المروءة. قال النَّحَّاس[٦]: «خُلُقُ الأوّلِينَ» عند الفرَّاء يعني: عادةُ الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: «خُلُقُ الأوّلِينَ»: مذهبُهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر: والقولان متقاربان،

(١) وذكرها عنهما أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٣٣، وذكر أنها رُويت عن عاصم وقرأ بها ابن محيصن وهي قراءة شاذة.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١٤ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٨١ .

(٤) السبعة ص٤٧٢ ، والتيسير ص١٦٦ .

(٥) وقاله الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨١ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٦-١٨٧ .

ومنه الحديث عن النبيِّ ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلُقاً»[١] أي: أحسنُهم مذهباً وعادةً وما يجري عليه الأمرُ في طاعة الله عزَّ وجلَّ، ولا يجوز أن يكون مَنْ كان حسنَ الخُلُقِ فاجراً فاضلاً، ولا أن يكون أكملَ إيماناً من السَّيِّىء الخُلُقِ الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: وحُكيَ لنا عن محمد بن يزيد أنَّ معنى «خُلُقُ الأوَّلِينَ»: تكذيبُهم وتخرُّصُهم، غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى؛ لأنَّ فيها مدحَ آبائهم، وأكثرُ ما جاء القرآن في صفتهم مدحُهم لآبائهم، وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وعن أبي قِلابةَ أنه قرأ: «خُلْق» بضمِّ الخاء وإسكان اللام تخفيف «خُلُقُ». ورواها ابن جُبير عن أصحاب نافع عن نافع[٢]. وقد قيل: إن معنى «خُلُقُ الأوَّلِينَ»: دين الأوّلين[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] أي: دين الله. و«خُلُقُ الأوَّلِينَ» عادة الأولين، حياةٌ ثم موتٌ ولا بعث[٤]. وقيل: ما هذا الذي أنكرتَ علينا من البنيان والبطش إلا عادةُ من قبلنا، فنحن نقتدي بهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نفعل.

وقيل: المعنى: خَلْقُ أجسام الأوّلين، أي: ما خَلْقُنا إلا كخَلْقِ الأوّلين الذين خُلِقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيءٌ مما تُحذِّرنا به من العذاب[٥].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ على ما يأتي في «الحاقة»[٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال بعضهم: أسلمَ معه ثلاث مئة ألفِ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤٠٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٤٢٠٤)، والترمذي (٢٦١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٩، وهي قراءة شاذة، والمشهور عن نافع مثل قراءة الجمهور: ﴿خُلُقُ الأوَّلين﴾.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٨٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٧ بنحوه.

(٦) عند تفسير الآية (٦).

ومئون، وهلك باقيهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ذكر قصةَ صالحٍ وقومِه وهم ثمود؛ وكانوا يسكنون الحِجْر كما تقدَّم في «الحجر»[(١)] وهي ذواتُ نخلٍ وزروعٍ ومياه.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ يعني: في الدنيا ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الموت والعذاب[(٢)]. قال ابن عباس: كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم، ودلَّ على قوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١] فقرَّعهم صالحٌ ووبَّخهم وقال: أتظنُّون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾؟!

الزمخشري: فإن قلتَ: لِمَ قال: «ونَخْلٍ» بعد قوله: «في[(٣)] جنَّاتٍ» والجنةُ[(٤)] تتناولُ النخلَ أوَّلَ شيءٍ كما يتناول النَّعمُ الإبلَ كذلك من بين الأزواج، حتى إنهم

---

(١) ١٢/٢٣٨.

(٢) زاد المسير ٦/١٣٨، ومجمع البيان ١٩/١٧٣.

(٣) في النسخ: «و» بدل «في».

(٤) في (د) و(ز) و(م): والجنات.

لَيذكرون الجنةَ ولا يقصدون إلا النَّخلَ، كما يذكرون النَّعم ولا يُريدون إلا الإبل؛ قال زهير:

كَـأَنَّ عَـيْـنَـيَّ فـي غَـرْبَـي مُـقَـتَّـلَـةٍ  مِن النَّواضِحِ تَسْقي جَنَّةً سُحُقا[١]

يعني النخل؛ والنخلة السَّحُوق: البعيدة الطول[٢].

قلت[٣]: فيه وجهان: أحدهما: أن يَخُصَّ النخلُ بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عنها. والثاني: أن يريد بالجنَّاتِ غيرَها من الشجر؛ لأنَّ اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النَّخل. والطَّلْعَة: هي التي تطلع من النَّخلة كنصل السيف، في جوفه شماريخُ القِنوِ، والقِنو: اسمٌ للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشَماريخه[٤]. و«هَضِيمٌ» قال ابن عباس: لطيفٌ ما دام في كُفُرَّاه. والهضيمُ: اللطيف الدقيق، ومنه قولُ امرئ القيس:

عَليَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[٥]

الجوهري: ويُقال للطَّلع: هَضيم، ما لم يخرج من كُفُرَّاه؛ لدخول بعضه في بعض. والهضيمُ من النساء: اللطيفةُ الكَشْحين[٦]. ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المُنضَمُّ في وعائه قبل أن يظهر، ومنه رجلٌ هضيمُ الجنبين أي: مُنضَمُّهما؛ هذا قول أهل اللغة.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٣ ، والبيت في ديوان زهير ص٣٧ ، قال شارحه: المقتَّلة: المذلَّلة يعني الناقة. يقول: كأنَّ عينيَّ من كثرة دموعهما في غربَي ناقةٍ يُنضح عليها، قد قُتِّلت بالعمل حتى ذلَّت.

(٢) ينظر الصحاح (سحق).

(٣) يعني الزمخشري.

(٤) الكشاف ٣/ ١٢٣ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٥، وصدر البيت: «إذا قلتُ هاتي نوِّليني تمايَلَتْ». قال شارحه: نوِّليني من النوال: وهو العطية. تمايلت: عطفت. ريَّا: أي: ممتلئةٌ لحماً وشحماً في موضع الخلخال من ساقيها، أي: ليست بناتئة العظام.

(٦) الصحاح (هضم).

وحكى الماورديُّ وغيره في ذلك اثني عشر قولاً: أحدهما: أنه الرُّطَبُ اللَّيِّن. قاله عكرمة. الثاني: هو المُذَنَّبُ من الرُّطَبِ. قاله سعيد بن جُبَير. قال النَّحَّاس: وروى أبو إسحاق عن يزيد ـ هو ابن أبي زياد كوفيٌّ ويزيد بن أبي مريم شاميٌّ ـ «ونَخْلٌ طَلْعُها هَضيمٌ» قال: منه ما قد أَرْطَبَ ومنه مُذَنَّب. الثالث: أنه الذي ليس فيه نوى. قاله الحسن. الرابع: أنه المُتَهشِّمُ المُتفَتِّتُ إذا مُسَّ تَفتَّتَ. قاله مجاهد. وقال أبو العالية: يتهشَّمُ في الفم. الخامس: هو الذي قد ضَمَرَ بركوب بعضِه بعضاً. قاله الضحَّاك ومقاتل. السادس: أنَّه المتلاصقُ بعضُه ببعض. قاله أبو صخر. السابع: أنه الطَّلعُ حين يتفرَّقُ ويخضَرُّ. قاله الضحاك أيضاً. الثامن: أنَّه اليانِعُ النَّضيج. قاله ابن عباس. التاسع: أنَّه المُكتنِزُ قبل أن ينشَقَّ عنه القِشْرُ. حكاه ابن شجرة؛ قال:

كأنَّ حَمولةً تُجلَى عليهِ … هَضِيمٌ ما يُحَسُّ له شُقُوقُ

العاشر: أنه الرِّخو. قاله الحسن. الحادي عشر: أنه الرَّخْصُ اللطيف أوَّل ما يخرج، وهو الطَّلعُ النَّضِيدُ. قاله الهروي. الثاني عشر: أنه البَرْنِيُّ[1]. قاله ابن الأعرابي؛ فعيل بمعنى فاعل، أي: هنيءٌ مريءٌ من انهضام الطعام[2]. والطَّلع: اسمٌ مشتَقٌّ من الطُّلوع وهو الظهور، ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات[3].

قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ النَّحتُ: النَّجْرُ والبَرْي؛ نحتَه يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نَحْتاً أي[4]: بَراه، والنُّحاتةُ: البُرايَة. والمِنْحَتُ: ما يُنحَتُ به[5].

---

(١) وهو ضرب من التمر، أصفر مدوَّر، وهو أجود التمر. اللسان (برن).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٨٢-١٨٣ دون القول الخامس والحادي عشر والثاني عشر. وذكر النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٨٧ القول الحادي عشر. وذكر البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٥ القول الأول والرابع والخامس والعاشر. وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٣٨ الأقوال الخمسة الأولى والقول الثامن والتاسع. وأخرج الطبري القول الأول والرابع والسادس والثامن. وقال النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩٦: هاضم مريء ولطيف.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٨٣.

(٤) في (د) و(ز) و(م): إذا.

(٥) الصحاح (نحت).

وفي «وَالصَّافَّاتِ» [٩٥] قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾. وكانوا ينحِتونها من الجبال لمَّا طالَتْ أعمارُهم وتهدَّم بناؤهم من المَدَرِ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع[١]: «فَرِهِينَ» بغير ألف، الباقون: «فَارِهِينَ» بألف[٢]، وهما بمعنًى واحدٍ في قول أبي عبيدة وغيره، مثل: «عِظَاماً نَخِرَةً» و «نَاخِرَة». وحكاه قطرب، وحكى: فَرُهَ يفرُهُ فهو فارِهٌ، وفَرِهَ يَفْرَهُ فهو فَرِهٌ وفارِهٌ إذا كان نشيطاً. وهو نصبٌ على الحال[٣]. وفرَّقَ بينهما قومٌ فقالوا: «فَارِهِينَ»: حاذقين بنَحْتِها. قاله أبو عبيدة[٤] ورُويَ عن ابن عباس وأبي صالح وغيرهما[٥]. وقال عبد الله بن شدَّاد: «فَارِهِينَ»: مُتجبِّرين[٦]. ورُويَ عن ابن عباس أيضاً أن معنى: «فَرِهِينَ» بغير ألف: أشِرِينَ بَطِرين. وقاله مجاهد[٧]. ورُويَ عنه: شرهين[٨]. الضحاك: كيِّسين[٩]. قتادة: مُعْجَبين. قاله الكلبي[١٠]. وعنه: ناعمين[١١]. وعنه أيضاً: آمنين. وهو قول الحسن. وقيل: مُتخيِّرين. قاله الكلبي والسُّدِّي. ومنه قول الشاعر:

إلى فَرِهٍ يُماجِدُ كلَّ أمرٍ ... قصدتُ له لأختبِرَ الطِّباعا

وقيل: مُتَعجِّبين. قاله خُصيف[١٢]. وقال ابن زيد: أقوياء[١٣]. وقيل: فَرِهين

---

(١) قوله: «ونافع» من (م).

(٢) السبعة ص٤٧٢، والتيسير ص١٦٦.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٨٨. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٨٩.

(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٨٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٨٧، والنكت والعيون ٤/ ١٨٣: وأخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٢١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٢.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٨٧ ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦ عن مجاهد، والنكت والعيون ٤/ ١٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٨٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦.

(٩) النكت والعيون ٤/ ١٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦. وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٢.

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦ عن قتادة. وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٦٢٣.

(١١) ذكره البغوي ٣/ ٣٩٦ عن عكرمة.

(١٢) من قوله: وعنه أيضاً... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٨٣.

(١٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠. وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٣.

فَرِحين. قاله الأخفش. والعرب تُعاقِبُ بين الهاء والحاء؛ تقول: مَدَهْتُه ومَدَحْتُه[١]، فالفَرِهُ: الأشِرُ الفَرِحُ، ثم الفرح بمعنى المَرح مذمومٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦].

قوله تعالى[٢]: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: المُرادُ الذين عقَروا الناقة. وقيل: التسعةُ رهطٍ[٣] الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون[٤]. قال السُّدِّيُّ وغيره: أوحى الله تعالى إلى صالح: إنَّ قومَكَ سيَعْقِرون ناقتَك. فقال لهم ذلك، فقالوا: ما كُنَّا لِنَفْعل. فقال لهم صالح: إنَّه سيولَدُ في شهركم هذا غلامٌ يَعقِرُها ويكون هلاكُكم على يديه. فقالوا: لا يولَدُ في هذا الشهر ذَكَرٌ إلا قتلناه. فوُلِدَ لتسعةٍ منهم في ذلك الشهر، فذبحوا أبناءهم، ثم وُلِدَ للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولَدْ له قبل ذلك. وكان ابنُ العاشرِ أزرقَ أحمرَ، فنبتَ نباتاً سريعاً، وكان إذا مَرَّ بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياءً لكانوا مثل هذا. وغضبَ التسعة على صالح؛ لأنَّه كان سببَ قتْلِهم أبناءَهم، فتعصَّبوا وتقاسموا بالله لنُبيِّتَنَّه وأهلَه. قالوا: نخرجُ إلى سفرٍ فيرى الناسُ سفرَنا فنكونُ في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالحٌ إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا: ما شَهِدْنا مَهلِكَ أهلِه وإنَّا لَصادقون، فيُصدِّقوننا ويعلمون أنَّا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالحٌ لا ينام معهم في القرية، وكان يأوي إلى مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظَهم، فلمَّا دخلوا الغارَ أرادوا أن يخرجوا، فسقطَ عليهم الغارُ فقتلَهم، فرأى ذلك ناسٌ ممَّن كان قدِ اطلَّعَ على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عبادَ الله، أما رضيَ صالحٌ أن أمرَ بقتل أولادِهم حتى قتلَهم. فأجمعَ أهلُ القرية على قتل الناقة. وقال ابن إسحاق: إنما اجتمعَ التِّسعةُ على سبِّ صالحٍ بعد

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٦.

(٢) هذه العبارة من (ظ).

(٣) في (م): الرهط.

(٤) هما قول واحد، وقد ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ عن مقاتل.

عَقْرِهُم الناقةَ وإنذارِهم بالعذاب[١] على ما يأتي بيانُه في سورة النمل[٢] إن شاء الله تعالى.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ هو من السِّحرِ في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوي[٣]. أي: أُصِبتَ بالسِّحرِ فبَطَلَ عقلُكَ[٤]؛ لأنَّكَ بشرٌ مثلُنا فلِمَ تدَّعي الرسالةَ دوننا؟ وقيل: من المعلَّلين بالطعام والشراب. قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضاً فيما ذكر الثعلبي[٥]. وهو على هذا القول من السَّحْرِ وهو الرئة[٦]، أي: بشَرٌ، لك سَحْرٌ أي: رئة، تأكل وتشرب مثلنا، كما قال لبيد[٧]:

فإنْ تسألينا فِيمَ نحنُ فإنَّنا عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

قال امرؤ القيس[٨]:

ونُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ[٩]

﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في قولك.

﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس: إن كنتَ صادقاً فادْعُ اللهَ يُخرِجْ لنا من هذا الجبل ناقةً حمراءَ عُشَراء[١٠]، فتضعُ ونحن ننظر، وترِدُ

---

(١) عرائس المجالس ص٧٠-٧١ .

(٢) عند تفسير الآية (٤٨) وما بعدها.

(٣) وذكر هذا القول عنهما البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ ، وذكره عن مجاهد النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩٧ .

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٧٣ .

(٥) وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠ .

(٧) في (د) و(ز) و(ظ): امرؤ القيس ، والمثبت من (م).

(٨) في (د) و(ز) و(ظ): أيضاً، والمثبت من (م).

(٩) سلف وما قبله ٢/ ٢٧٢ .

(١٠) وهي التي بلغت في حملها عشرة أشهر. تهذيب اللغة ١/ ٤١٠ .

هذا الماء فتشرَبُ وتغدو علينا بمثله لبناً[١]. فدعا الله وفعل الله ذلك فـ «قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ» أي: حظٌّ من الماء[٢]، أي: لكم شِرْبُ يومٍ ولها شِرْبُ يوم، فكانت إذا كان يوم شِرْبِها شربت ماءَهم كلَّه أوَّلَ النهار، وتسقيهم اللَّبنَ آخِرَ النهار، وإذا كان يومُ شِرْبِهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم[٣]، ليس لهم في يوم وُرودِها أن يشربوا من شِرْبها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً. قال الفرَّاء: الشِّرب: الحظُّ من الماء[٤]. قال النَّحَّاس: فأمَّا المصدرُ فيقال فيه: شَرِبَ شَرْباً وشُرْباً وشِرْباً وأكثرها المضمومة؛ لأنَّ المكسورةَ والمفتوحةَ يشتركان مع شيءٍ آخر، فيكون الشِّرْبُ الحظَّ من الماء، ويكون الشَّرْبُ جمعَ شاربٍ، كما قال:

فقلتُ للشَّرْبِ في دُرْنَى وقد ثَمِلُوا[٥]

إلَّا أنَّ أبا عَمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرْبَ بالفتح في المصدر، ويحتجَّان برواية بعض العلماء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّها أيامُ أكلٍ وشَرْبٍ»[٦]. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا؛ لأنَّهما حرفان مُتحرِّكان من جنسٍ واحد. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي، ولا يجوز حذفُ الفاءِ منه، والجزم كما جاء في الأمر إلَّا شيئاً رُويَ عن الكسائي أنه يجيزه. ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ أي: على عَقْرِها لمَّا أيقَنوا بالعذاب، وذلك أنَّه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامةُ في كلِّ يوم، وندموا ولم ينفَعْهم النَّدمُ عند مُعاينةِ العذاب. وقيل: لم ينْفَعْهم النَّدمُ؛ لأنهم لم

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٠.

(٢) قوله: «من الماء» من (م).

(٣) الوسيط ٣/ ٣٦٠ عن مقاتل.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٨.

(٥) هذا صدر بيت قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٧، وعجزه: «شيموا وكيف يشيب الشاربُ الثَّمِلُ».

قال الأصمعي: كانت دُرنى باباً من أبواب فارس دون الحيرة. وقال غيره: باليمامة. معجم ما استعجم ٢/ ٥٥٠.

(٦) سلف ٤/ ٤٦.

يتوبوا، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لمّا أيقنوا بالعذاب[١]. وقيل: كانت ندامتُهم على تَرْكِ الولدِ إذْ لم يقتُلوه معها. وهو بعيد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إلى آخرها. تقدَّم. ويُقال: إنه ما آمنَ به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانُ مئةِ رجلٍ وامرأة. وقيل: كانوا أربعةَ آلاف. وقال كعب: كان قومُ صالحٍ اثني عشرَ ألفَ قبيلٍ، كلُّ قبيلٍ نحو اثني عشرَ ألفاً من سوى النساء والذُّرِّية، ولقد كان قومُ عادٍ مثلَهم ستَّ مرات.

**قوله تعالى:** ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ مضى معناه وقصته في «الأعراف»[٢] و«هود»[٣] مستوفًى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم، وكانوا يفعلون ذلك بالغُرباء على ما تقدَّم في «الأعراف». ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يعني فروجَ النساء، فإنَّ الله خلقَها للنكاح[٤]. قال إبراهيم بن مُهاجر: قال لي مجاهد: كيف يقرأ عبد الله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾؟ قلتُ:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٨.
(٢) ٨/ ٢٧٣ - ٢٨٠.
(٣) ١١/ ١٧٣ - ١٩٠.
(٤) الوسيط ٣/ ٣٦١.

«وتذرونَ ما أصلحَ لكم ربُّكم من أزواجِكم» قال: الفرج، كما قال: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[١] [البقرة: ٢٢٢]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: متجاوزون لحدود الله.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن قولك هذا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: من بلدنا وقريتنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ يعني اللواط ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي: المُبغِضين[٢]، والقِلى البغض؛ قلَيتُه أقليه قِلًى وقَلاءً[٣]. قال:

فلستُ بمقليِّ الخِلالِ ولا قَالي[٤]

وقال آخر:

عليكِ السلامُ لا مُلِلْتِ قريبةً ... ومَالَكِ عندي إنْ نأيتِ قَلاءُ[٥]

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عذابِ عملهم[٦]. دعا اللهَ لمَّا أَيِسَ من إيمانهم ألَّا يُصيبَه من عذابهم.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدَّم في «هود»[٧]. ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرَتْ في عذاب الله عزَّ وجلَّ. أي: بَقيَتْ. وأبو عبيدة يذهب إلى أنَّ المعنى: من الباقين في الهَرَمِ، أي: بَقِيَتْ حتى هَرِمَتْ[٨]. قال النَّحَّاس[٩]: يُقال للذاهب: غابر، والباقي: غابر، كما قال:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغبارِها ... إنَّكَ لا تدري مَنِ النَّاتجُ[١٠]

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٨، وهذه القراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦١، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٣) الصحاح (قلا).

(٤) قائله امرؤ القيس، وقد سلف ١٢/ ١٤٣.

(٥) قائله نُصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص٥٧.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٦١، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٧) ١١/ ١٧٧.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٩. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٨٩.

(٩) في معاني القرآن له ٥/ ٩٩.

(١٠) قائله الحارث بن حلزة، وقد سلف ١٢/ ٢٢٥.

وكما قال:

فـمـا وَنَـى مـحـمـدٌ مُـذْ أنْ غَـفَـرْ    لـه الإلـهُ مـا مَـضَـى ومـا غَـبَـرْ[(١)]

أي: ما بقي. والأغبار: بقيَّات الألبان.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم بالخَسْفِ والحَصْبِ[(٢)]؛ قال مقاتل: خسفَ اللهُ بقوم لوطٍ، وأرسل الحجارةَ على مَنْ كان خارجاً من القرية.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني الحجارة[(٣)] ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. وقيل: إنَّ جبريلَ خسَفَ بقريتهم وجعلَ عاليها سافلها، ثم أتبعَها اللهُ بالحجارة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لم يكن فيها مؤمنٌ إلا بيت لوطٍ وابنتاه.

**قوله تعالى:** ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكُ: الشجرُ المُلتَفُّ الكثيرُ، الواحدة أيكة. ومن قرأ: «أصحابُ الأيكةِ» فهي الغَيضة. ومن قرأ: «لَيْكَةِ» فهو اسم

---

(١) الرجز للعجاج بن رؤبة، وقد سلف ٩/ ٢٧٩.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦١، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٣) زاد المسير ٦/ ١٤٠.

القرية. ويُقال: هما مثلُ بَكَّةَ ومكَّة. قاله الجوهري[١]. وقال النَّحَّاس[٢]: وقرأ أبو جعفر ونافع: «كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ» وكذا قرأا[٣] في «ص»[٤]. وأجمعَ القُرَّاءُ على الخفضِ في التي في سورة «الحِجرِ»[٥] والتي في سورة «ق»[٦]، فيجب أن يُرَدَّ ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذْ كان المعنى واحداً. فأمَّا ما حكاه أبو عبيد من أنَّ «لَيْكَةَ» هي اسمُ القرية التي كانوا فيها، وأنَّ «الأيكة» اسمُ البلد فشيءٌ لا يثبتُ ولا يُعرَفُ من قالَه فيثبُتُ علمُه، ولو عُرِفَ مَنْ قالَه لكان فيه نظر؛ لأنَّ أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافِه.

وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قَتادة قال: أُرسِلَ شعيبٌ عليه السلام إلى أُمَّتين: إلى قومِه من أهل مَدْيَن، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال: والأيكةُ: غَيضَةٌ من شجرٍ مُلْتفٍّ. وروى سعيد عن قَتادة قال: كان أصحابُ الأيكةِ أهلَ غَيضَةٍ وشَجَرٍ، وكانت عامَّةُ شجرِهم الدَّومَ، وهو شجَرُ المُقْل. وروى جُوَيبِر[٧] عن الضَّحَّاك قال: خرجَ أصحابُ الأيكةِ ـ يعني حين أصابهم الحرُّ ـ فانضَمُّوا إلى الغَيضَةِ والشَّجر، فأرسلَ اللهُ عليهم سحابةً فاستَظَلُّوا تحتَها، فلمَّا تتامُّوا[٨] تحتَها أُحرِقوا. ولو لم يكن هذا إلا ما رُوِيَ عن ابن عباس قال: والأيكةُ: الشَّجَرُ. ولا نعلمُ بين أهل اللغة اختلافاً أنَّ الأيكةَ الشَّجرُ المُلتفُّ، فأمَّا احتجاجُ بعضٍ منِ احتَجَّ بقراءةِ مَنْ قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنَّه في الشواذِّ[٩] «ليكة» فلا حُجَّةَ له؛ والقول فيه: إنَّ

(١) في الصحاح (أيك).
(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٩-١٩٠ .
(٣) في (د) و(ز) و(م): قرأ .
(٤) الآية (١٣)، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر أيضاً. السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٣٦ .
(٥) الآية (٧٨).
(٦) الآية (١٤).
(٧) في جميع النسخ: ابن جبير، والصواب ما أُثبت من إعراب القرآن .
(٨) في (د) و(ز) و(م): تكاملوا . وكلاهما بمعنى .
(٩) في (د) و(ز) و(م): السواد .

أصلَه «الأيكة» ثمَّ خُفِّفَتِ الهمزةُ فأُلقيَتْ حركتُها على اللام فسقطَتْ، واستغنيتَ[١] عن ألفِ الوصل؛ لأنَّ اللامَ قد تحرَّكتْ، فلا يجوز على هذا إلَّا الخفض، كما تقول: بالأحمر تُحقِّقُ الهمزةَ، ثم تُخفِّفُها: بِلَحْمرِ، فإن شئتَ كتبتَ في الخَطِّ على ما كتبتَه أوَّلاً، وإن شئتَ كتبتَه بالحذف، ولم يَجُزْ إلا الخفضُ. قال سيبويه[٢]: واعلم أنَّ ما لا ينصرفُ إذا دخلَتْ عليه الألفُ واللامُ أو أُضيفَ انصرفَ. ولا نعلمُ أحداً خالفَ سيبويه في هذا.

وقال الخليل[٣]: الأيكةُ: غَيْضَةٌ تُنبِتُ السِّدرَ والأراكَ ونحوَهما من ناعم الشجر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقُلْ أخوهم شعيب؛ لأنَّه لم يكن أخاً لأصحابِ الأيكة في النَّسب، فلمَّا ذكر مَدْيَنَ قال: «أخاهُمْ شُعَيْباً»؛ لأنَّه كان منهم[٤]. وقد مضى في «الأعراف»[٥] القولُ في نسبه. قال ابنُ زيد: أرسلَ اللهُ شُعيباً رسولاً إلى قومِه أهلِ مدين، وإلى أهلِ البادية وهم أصحابُ الأيكة[٦]. وقاله قتادة، وقد ذكرناه[٧].

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ تخافون الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الآية. وإنَّما كان جوابُ هؤلاءِ الرُّسُلِ واحداً على صيغةٍ واحدة؛ لأنَّهم مُتَّفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع عن أخذ الأجر على تبليغ الرسالة[٨].

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين للكيلِ والوزن[٩]. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

---

(١) في النسخ: واستغنت. والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) في الكتاب ٣/ ٢٢١ .

(٣) في العين ٥/ ٤٢٣ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٧ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٤١ عن مقاتل.

(٥) ٩/ ٢٨١ .

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٣ .

(٧) ٩/ ٢٨٦ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٧ ، ومجمع البيان ١٩/ ١٧٩ بنحوه .

(٩) الوسيط ٣/ ٣٦٢ ، وزاد المسير ٦/ ١٤٢ .

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: أعطوا الحقَّ. وقد مضى في «سبحان»[(١)] وغيرها.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدَّم في «هود»[(٢)] وغيرها.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال مجاهد: الجِبِلَّة: هي الخَليقة. وجُبِلَ فلانٌ على كذا، أي: خُلِقَ؛ فالخُلُقُ جِبِلَّةٌ وجُبُلَّةٌ وجِبْلَةٌ وجُبْلَةٌ وجَبْلَةٌ. ذكره النَّحَّاس في «معاني القرآن»[(٣)]. «والجِبِلَّة» عطفٌ على الكاف والميم[(٤)]. قال الهروي: الجِبِلَّةُ والجُبْلَةُ والجِبِلُّ والجُبُلُّ والجَبْلُ لغات، وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]. قال النَّحَّاس في كتاب «إعراب القرآن» له[(٥)]: ويُقال: جُبُلَّةٌ والجمعُ فيهما جَبَّالٌ، وتُحذَفُ الضَّمَّةُ والكسرةُ من الباء، وكذلك التشديدُ من اللام، فيُقال: جُبْلَةٌ وجُبَلٌ، ويُقال: جِبْلَةٌ وجِبَالٌ، وتُحذَفُ الهاءُ من هذا كلِّه.

وقرأ الحسن باختلافٍ عنه: «والجُبُلَّةَ الأوَّلينَ» بضمِّ الجيم والباء؛ ورُوي عن شيبةَ والأعرج[(٦)]. الباقون بالكسر. قال:

والموتُ أعظمُ حادثٍ ... فيما يَمرُّ على الجِبِلَّه[(٧)]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين يأكلون الطعامَ والشرابَ على ما تقدَّم. ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي: ما نظنُّك إلَّا من الكاذبين في أنَّكَ رسولُ الله تعالى. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جانباً من السماء وقطعةً منه، فننظر إليه، كما

---

(١) ١٣/ ٧٦.

(٢) ١١/ ١٩٢.

(٣) ٥/ ١٠٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٣٩١.

(٥) ٣/ ٣٩١.

(٦) المحتسب ٢/ ١٣٢ والشاذة ص١٠٧ عن الحسن وأبي حصين، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٢ عن الحسن وابن محيصن، وزاد المسير ٦/ ١٤٢ عن الحسن وأبي مجلز وأبي رجاء وابن يعمر وابن أبي عبلة.

(٧) قائله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو في ديوانه ص٧٣.

قال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤].[١] وقيل: أرادوا: أنزِلْ علينا العذاب. وهو مبالغةٌ في التكذيب. قال أبو عبيدة: الكِسْفُ: جمع كِسْفةٍ مثل سِدْرٍ وسِدْرةٍ[٢]. وقرأ السُّلَميُّ وحفص: «كِسَفاً» جمع كِسْفَة أيضاً: وهي القطعة والجانب، تقديره كِسْرة وكِسَر. قال الجوهري: الكِسْفة: القِطعة من الشيء؛ يُقال: أعطني كِسْفةً من ثوبك، والجمع كِسْفٌ وكِسَفٌ. ويُقال: الكِسْفُ والكِسْفَةُ واحد. وقال الأخفش: من قرأ «كِسْفاً» جعله واحداً، ومن قرأ: «كِسَفاً» جعله جمعاً. وقد مضى هذا في سورة «سبحان»[٣]. وقال الهروي: ومن قرأ: «كِسْفاً» على التوحيد فَجمعُه أكساف وكسوف، كأنه قال: أو تُسقِطَه علينا طبقاً واحداً، وهو من كسفت الشيء كَسْفاً إذا غطَّيته[٤]. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد؛ أي: إنَّما عليَّ التبليغ وليس العذابُ الذي سألتُم إليَّ، وهو يُجازيكم[٥]. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ قال ابن عباس: أصابهم حرٌّ شديد، فأرسلَ اللهُ سبحانه سحابةً فهربوا إليه ليستَظِلُّوا بها، فلمَّا صاروا تحتَها صِيحَ بهم فهلَكوا[٦]. وقيل: أقامَها اللهُ فوقَ رؤوسهم، وألهبَها حرًّا حتى ماتوا من الوَمَدِ[٧]. وكان من أعظمِ يومٍ في الدنيا عذاباً. وقيل: بعثَ اللهُ عليهم سَموماً، فخرجوا إلى الأيكة يستظِلُّون بها، فأضرَمَها اللهُ عليهم ناراً فاحترقوا.

وعن ابن عباسٍ أيضاً وغيرِه: إنَّ الله تعالى فتحَ عليهم باباً من أبواب جهنَّم،

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٦، وأخرج عن ابن عباس ﷺ أنه قال: ﴿كِسَفًا﴾: قطعاً. وأخرج أيضاً عن الضحاك أنه قال: جانباً من السماء.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٩١.

(٣) عند تفسير الآية (٩٢).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٥. وقد سلف أيضاً في سورة الإسراء.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٧ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٣.

(٧) في النسخ: الرمد. والوَمَدُ: الحر الشديد مع سكون الريح. تاج العروس (ومَدَ).

وأرسلَ عليهم هَدَّة[1] وحرًّا شديداً فأخذَ بأنفاسِهم، فدخلوا بيوتَهم، فلم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماءٌ، فأنضجهمُ الحرُّ، فخرجوا هرباً إلى البريَّة، فبعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ سحابةً فأظَلَّتْهم، فوجدوا لها برداً ورُوحاً ورِيحاً طيبةً، فنادى بعضُهم بعضاً، فلمَّا اجتمعوا تحتَ السحابة ألهبَها اللهُ تعالى عليهم ناراً، ورجفَتْ بهمُ الأرض، فاحترقوا كما يحترقُ الجرادُ في المقلى، فصاروا رَماداً، فذلك قولُه: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾ [هود: ٩٤-٩٥]، وقولُه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وقيل: إنَّ الله تعالى حبسَ عنهمُ الريحَ سبعةَ أيام، وسلَّط عليهم الحرَّ حتى أخذَ بأنفاسِهم، ولم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماءٌ، فكانوا يدخلون الأسرابَ ليتبرَّدوا فيها فيجدوها أشدَّ حرًّا من الظاهر، فهربوا إلى البريَّة، فأظلَّتهم سحابةٌ وهي الظُّلَّة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فأمطرَتْ عليهم ناراً فاحترقوا. وقال يزيد الجُرَيْريُّ: سلَّطَ اللهُ عليهم الحرَّ سبعةَ أيامٍ ولياليهنَّ، ثم رُفِعَ لهم جبلٌ من بعيد، فأتاه رجلٌ، فإذا تحتَه أنهارٌ وعيونٌ وشجرٌ وماءٌ بارد، فاجتمعوا كلُّهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظُّلَّة. وقال قتادة: بعثَ اللهُ شُعيباً إلى أمتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، فأهلكَ اللهُ أصحابَ الأيكة بالظُّلَّة، وأمَّا أصحاب مدين فصاح بهم جبريلُ صيحةً فهلكوا أجمعين[2]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: آمنَ بشعيبٍ من الفئتين تِسعُ مئة نفر.

**قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ عادَ إلى ما تقدَّم بيانه[3] في أوَّل السُّورةِ من إعراض المشركين عن القرآن. ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ «نَزَلَ» مخفَّفاً قرأ نافع

---

(١) الهَدَّة: صوتٌ ما يقع من السماء. تاج العروس (هدد).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ١٨٢.

(٣) كلمة «بيانه» من (م).

وابن كثير وأبو عمرو. الباقون: «نَزَّلَ» مشدَّداً «بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ» نصباً[١]، وهو اختيارُ أبي حاتم وأبي عبيد؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾ وهو مصدر نزَّلَ. والحُجَّةُ لمن قرأ بالتخفيفِ أنْ يقول: ليس هذا بمصدر[٢]؛ لأنَّ المعنى: وإنَّ القرآنَ لَتنزيلُ ربِّ العالمين، نزَلَ به جبريلُ إليك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٣] [البقرة: ٩٧] أي: يتلوه عليكَ، فيعيه قلبُك. وقيل: ليثبُتَ قلبُكَ[٤]. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: لئلَّا يقولوا: لَسْنا نفهمُ ما تقول. ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وإنَّ ذِكْرَ نُزولِهِ لَفي كُتُبِ الأوَّلين، يعني الأنبياء[٥]. وقيل: أي: إنَّ ذِكْرَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام في كتُبِ الأوَّلين، كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والزُّبُر: الكُتُب، الواحد زَبُور، كرسول ورُسُل[٦]، وقد تقدَّم.

**قوله تعالى:** ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال مجاهد: يعني عبدالله بن سَلام وسلمان وغيرهما ممَّن أسلم[٧]. وقال ابن عباس: بَعثَ أهلُ مكة

(١) وقرأ عاصم في رواية حفص عنه «نزل» بالتخفيف و«الروح» بالرفع. السبعة ص٤٧٣، والحجة للقراء السبعة ٥/ ٣٦٩.

(٢) في (م): بمقدر.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩١.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٣.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٣ - ٦٤٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٤.

(٧) أخرجه الطبري ٧/ ٦٤٤ - ٦٤٥ بنحوه، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٦٦.

إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فقالوا: إنَّ هذا لَزمانُه، وإنَّا لَنجِدُ في التوراة نعتَه وصفتَه[١]. فيرجِعُ لفظُ العلماء إلى كلٍّ من كان له عِلْمٌ بكتُبِهِم أسلمَ أو لم يُسلِمْ على هذا القول. وإنما صارت شَهادة أهلِ الكتاب حُجَّةً على المشركين؛ لأنَّهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنَّهم مظنونٌ بهم علمٌ.

وقرأ ابن عامر: «أَوَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ». الباقون: «أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً»[٢] بالنصب على الخبر، واسم يكن «أَنْ يَعْلَمَهُ» والتقدير: أَوَ لَمْ يكُنْ لهم عِلمُ علماءِ بني إسرائيل الذين أسلموا آيةً واضحةً؟ وعلى القراءة الأولى اسم كان «آيةٌ» والخبر «أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ إسرائيل»[٣]. وقرأ عاصم الجَحْدَريُّ: «أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَماءُ بني إسرائيل»[٤].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ أي: على رجلٍ ليس بعربيِّ اللسان ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ بغيرِ لُغةِ العرب لَمَا آمنوا ولَقالوا: لا نفقَه، نظيرُه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ الآية [فصلت:٤٤]. وقيل: معناه: ولو نَزَّلناه على رجلٍ ليس من العرب لَما آمنوا به أَنَفَةً وكِبراً[٥]. يُقال: رجلٌ أعجمٌ وأعجميٌّ إذا كان غيرَ فصيحٍ وإن كان عربيًّا، ورجلٌ عجميٌّ وإن كان فصيحاً يُنسَبُ إلى أصله؛ إلا أنَّ الفرَّاءَ أجازَ أن يُقال: رجلٌ عجميٌّ بمعنى أعجميٍّ[٦].

وقرأ الحسن: «على بعضِ الأعْجَمِيِّينَ» مشدَّدةً بياءينِ جعلَه نِسْبةً. ومن قرأ: «الأعْجَمِينَ» فقيل: إنه جمع أعجم. وفيه بُعد؛ لأنَّ ما كانَ من الصفات الذي مؤنَّثه فعلاء لا يُجمَعُ بالواو والنون، ولا مؤنَّثُه[٧] بالألف والتاء؛ لا يُقال: أحمرون ولا

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٨، وزاد المسير ٦/ ١٤٥.

(٢) السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠١.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٩٢، والشاذة ص١٠٧، وزاد المسير ٦/ ١٤٥ وذكر هذه القراءة أيضاً عن الشعبي والضحاك.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٩٢. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٣.

(٧) كلمة «مؤنَّثه» من النسخ الخطية، وهي ليست في (م).

حَمْراوات. وقيل: إنَّ أصلَه الأعجميِّين[١] ـ كقراءة الحسن[٢] ـ ثم حُذِفَتْ ياءُ النَّسَب، وجُعِلَ جَمْعُه بالياءِ والنونِ دليلاً عليها. قاله أبو الفتح عثمان بن جِنِّي[٣]. وهو مذهب سيبويه[٤].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ﴾ يعني القرآن، أي: الكفر به ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ . لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾. وقيل: سلَكْنا التكذيبَ في قلوبهم، فذلك الذي منعَهم من الإيمان. قاله يحيى بن سلَّام. وقال عكرمة: القسوة[٥]. والمعنى متقارب، وقد مضى في «الحجر»[٦]. وأجاز الفرَّاء الجزمَ في «لا يُؤمِنُونَ»؛ لأنَّ فيه معنى الشرط والمجازاة. وزعَمَ أنَّ من شأن العرب إذا وضعتْ لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جَزَمَتْ ما بعدها وربما رفعَتْ؛ فتقول: ربطتُ الفرسَ لا ينفلِت بالرفع والجزم؛ لأنَّ معناه: إنْ لم أربِطْه ينفلِتْ، والرفعُ بمعنى: كيلا ينفلِتُ[٧]. وأنشدَ لبعضِ بني عُقَيل:

وحتى رأينا أحسنَ الفِعْلِ بيننا … مُساكَنَةً لا يقرِفُ الشرَّ قارِفُ[٨]

بالرفعِ لمَّا حذَفَ كي. ومن الجزم قول الآخر:

لَطالَما حَلَّأْتُماها[٩] لا تَرِدْ … فخلِّياها والسِّجالَ[١٠] تَبْتَرِدْ[١١]

---

(١) في (د) و(ز) و(م): الأعجمين. بياءٍ واحدة.

(٢) في النسخ: الجحدري، والصواب: الحسن، كما يقتضيه السياق.

(٣) في المحتسب ٢/ ١٣٢ دون قوله: (ومن قرأ: «الأعجمين» فقيل: إنه جمع أعجم) وقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٣.

(٤) الكتاب ٣/ ٦٤٥.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨٨.

(٦) ١٢/ ١٨٣.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣.

(٨) في (د) و(ز) و(ظ): «يقرب» و«قارب» بدل «يقرف» و«قارف»، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٣، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٠٥.

(٩) حلَّأتَ الإبل عن الماء: إذا حبستها عن الورود. تهذيب اللغة ٥/ ٢٣٧.

(١٠) جمع سَجْل: وهي الدلو الضخمة المملوءة ماءً. اللسان (سجل).

(١١) أي: تشرب الماء لتبرد به كبدها. اللسان (برد).

قال النَّحَّاس[١]: وهذا كلُّه في «يُؤمِنُونَ» خطأٌ عند البصريِّين، ولا يجوزُ الجزمُ بلا جازم، ولا يكونُ شيءٌ يعملُ عملاً فإذا حُذِفَ عَمِلَ عملاً أقوى من عملِه وهو موجود، فهذا احتجاجٌ بيِّنٌ.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي العذاب[٢]. وقرأ الحسن: «فَتَأْتِيَهُمْ» بالتاء، والمعنى: فتأتيهم الساعةُ بغتةً، فأُضمِرَتْ لدلالة العذابِ الواقعِ فيها، ولكثرةِ ما في القرآن من ذِكْرِها[٣]. وقال رجلٌ للحسن وقد قرأ: «فَتَأْتِيَهُمْ»: يا أبا سعيد، إنَّما يأتيهم العذاب بغتة. فانتهرَه وقال: إنَّما هي الساعةُ تأتيهم بغتةً أي: فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها. ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: مؤخَّرون ومُمْهلون[٤]. يطلبون الرجعة هنالك فلا يُجابونَ إليها. قال القُشيري: وقوله: ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ ليس عطفاً على قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾ بل هو جوابُ قولِه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلمَّا كان جواباً للنفي انتصب، وكذلك قوله: ﴿فَيَقُولُوا۟﴾.

**قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبيِّ ﷺ: يا محمد، إلى متى تعِدُنا بالعذاب ولا تأتي به؟ فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[٥].

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ يعني في الدنيا[٦]. والمرادُ أهلَ مكةَ في قول

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٩٣ .

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .

(٣) المحتسب ٢/ ١٣٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤ .

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ ، وزاد المسير ٦/ ١٤٦ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .

الضَّحَّاك وغيره. ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ من العذاب والهلاك ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ «ما» الأولى استفهامٌ معناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ «أغنى»، و«ما» الثانية في موضع رفع، ويجوزُ أن تكون الثانيةُ نفياً لا موضِعَ لها[1]. وقيل: «ما» الأولى حرفُ نفيٍ، و«ما» الثانية في موضع رفعٍ بـ «أغنى»[2] والهاء العائدة محذوفة. والتقدير: ما أغنى عنهم الزمانُ الذي كانوا يُمَتَّعونه[3]. وعن الزُّهري: إن عُمرَ بنَ عبد العزيزِ كانَ إذا أصبحَ أمسكَ بلحيتِه ثم قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ . مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... ولَيلُكَ نومٌ والرَّدَى لكَ لازمُ
فلا أنتَ في الأيقاظِ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنتَ في النُّوَّامِ ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بما يَفْنَى وتفرحُ بالمنى ... كما سُرَّ باللَّذاتِ في النومِ حالمُ
وتَسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ[4]

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ «مِن» صلة، المعنى: وَمَا أَهْلَكْنَا قرية[5]. ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: رسل[6]. ﴿ذِكْرَىٰ﴾. قال الكِسائي: «ذِكْرَى» في موضعِ نصبٍ على الحال[7]. النَّحَّاس: وهذا لا يُحَصَّل، والقول فيه قول الفرَّاء وأبي إسحاق أنها في موضع نصبٍ على المصدر؛ قال الفرَّاء: أي: يَذَّكَّرون ذِكْرَى؛ وهذا قولٌ صحيح؛ لأنَّ معنى ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: إلَّا لها مُذَكِّرون. «وذِكْرَى» لا يتبيَّنُ فيه الإعراب؛ لأنَّ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣.

(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢١٧.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

(٤) أخرج هذه الأبيات أبو نعيم في الحلية ٥/ ٣١٩ - ٣٢٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٤٣.

(٥) مجمع البيان ١٩/ ١٨٥.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

(٧) وقع في مطبوع إعراب القرآن ٣/ ١٩٣: في موضع نصبٍ على القطع، والصواب ما أثبتناه كما في مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤.

فيها ألفاً مقصورة. ويجوز «ذِكْرًى» بالتنوين، ويجوز أن يكون «ذِكرى» في موضعِ رفعٍ على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي: إنذارُنا ذكرى. وقال الفرَّاء: أي: ذلِكَ ذكرى، وتلِكَ ذكرى[(١)]. وقال ابن الأنباري[(٢)]: قال بعض المفسِّرين: ليس في «الشعراء» وقفٌ تامٌّ إلّا قولُه: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾وهذا عندنا وقفٌ حسن، ثم تبتدئ «ذِكْرَى» على معنى: هي ذكرى، أو[(٣)]: يُذَكِّرهم ذكرى، والوقف على «ذِكْرَى» أجود.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيثُ قدَّمنا الحُجَّةَ عليهم وأعذَرْنا إليهم[(٤)].

**قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ يعني القرآن، بل ينزل به الروح الأمين. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي: برمي الشُّهُبِ كما مضى في سورة «الحِجرِ» بيانه[(٥)]. وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وما تَنزَّلَتْ بِهِ الشَّياطُون»[(٦)] قال المهدَوي: وهو غيرُ جائزٍ في العربية ومخالفٌ للخطّ. وقال النَّحّاس[(٧)]: وهذا غلطٌ عند جميع النَّحْويِّين، وسمعتُ علي بن سليمان يقول: سمعتُ محمد بن يزيد يقول: هذا غلطٌ عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة؛ لمَّا رأى الحسنُ في آخره ياءً ونوناً وهو في موضعِ رفعٍ اشتبه عليه بالجمع المُسَلَّمِ فغَلِطَ، وفي

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣ -١٩٤ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٤ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠٢-١٠٣ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٤ .

(٣) في (د) و(م): أي.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .

(٥) ١٢/ ١٨٧-١٩٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥ ، وهي في إعراب القرآن ٣/ ١٩٤ ، والمحتسب ٢/ ١٣٣ عن الحسن، وفي الشاذة ص١٠٨ عن الحسن والأعمش.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ١٩٤ .

الحديث: «احذروا زلَّة العالم»[١] وقد قرأ هو مع الناس: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، ولو كان هذا بالواو في موضعِ رفعٍ لَوَجبَ حذفُ النُّونِ للإضافة.

وقال الثعلبي: قال الفرَّاء: غلِطَ الشيخُ ـ يعني الحسن ـ فقيل ذلك للنَّضرِ بن شُمَيل، فقال: إنْ جازَ أنْ يُحتَجَّ بقولِ رؤبة والعجَّاج وذويهما، جاز أن يُحتَجَّ بقول الحسن وصاحبه، مع أنَّا نعلَمُ أنَّهما لم يقرأا بذلك إلَّا وقد سمِعا في ذلك شيئاً[٢]. وقال المؤرِّج: إنْ كان الشيطانُ من شاطَ يشيطُ كان لقراءتِهما وجه. وقال يونس بن حبيب: سمعتُ أعرابيًّا يقول: دخَلْنا بساتينَ من ورائها بَساتون، فقلتُ: ما أشبهَ هذا بقراءة الحسن[٣]!

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: المعنى: قُلْ لِمَنْ كفر هذا. وقيل: هو مخاطبةٌ له عليه الصلاة والسلام وإن كان لا يفعل هذا؛ لأنَّه معصومٌ مختارٌ، ولكنَّه خُوطِبَ بهذا والمقصودُ غيره. ودلَّ على هذا قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: لئلَّا[٤] يتَّكِلوا[٥] على نسبِهم فيَدَعوا[٦] ما يجِبُ عليهم[٧].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٨١، والبيهقي ١٠/ ٢١١ من حديث عمرو بن عوف ﷺ، بلفظ: «اتقوا زلَّة العالم»، وفي إسناده كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، وهو متروك، واتهمه الشافعي وأبو داود بالكذب. ميزان الاعتدال ٣/ ٤٠٦-٤٠٧.

وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٠٢) من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن معاذ مرفوعاً بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاث: جدال منافق، وزلة عالم، ودينار تقطع أعناقكم». ثم قال: قال الدارقطني: وقد وقفه شعبة عن عمرو بن مرة، والموقوف هو الصحيح.

(٢) وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٣١.

(٣) قول يونس بن حبيب أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥.

(٤) في النسخ: لا، والمثبت من إعراب القرآن.

(٥) في (م): يتكلون.

(٦) في (م): فيدعون.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥.

**قوله تعالى**: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ **فيه مسألتان**:

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خصَّ عشيرتَه الأقربين بالإنذار؛ لِتنحَسِمَ أطماعُ سائرِ عشيرتِه وأطماعُ الأجانبِ في مُفارقته إيَّاهم على الشِّرك[1]. وعشيرتُه الأقربون قريش. وقيل: بنو عبد مناف. ووقع في «صحيح مسلم»: «وأنذِر عشِيرتَكَ الأقربِينَ، ورَهطَكَ مِنهم المُخلَصِين»[2]. وظاهرُ هذا أنَّه كان قرآناً يُتلى وأنه نُسِخَ؛ إذ لم يثبُتْ نقلُه في المصحفِ ولا تواتر، ويَلزَمُ على ثبوتِه إشكالٌ، وهو أنَّه كان يَلزَمُ عليه ألَّا يُنذِرَ إلَّا مَنْ آمنَ من عشيرتِه؛ فإنَّ المؤمنينَ هم الذين يُوصَفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حبِّ النبيِّ ﷺ لا المشركون؛ لأنَّهم ليسوا على شيءٍ من ذلك، والنبيُّ ﷺ دعا عشيرتَه كلَّهم مؤمِنَهم وكافِرَهم، وأنذَرَ جميعَهم ومَنْ معهم ومَنْ يأتي بعدَهم ﷺ، فلم يثبُتْ ذلك نقلاً ولا معنًى[3]. وروى مسلمٌ من حديث أبي هريرةَ قال: لمَّا نزلَتْ هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعبِ بن لؤيٍّ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني مُرَّةَ بن كعب، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبدِ شمسٍ، أنقِذوا أنفُسْكم من النَّار، يا بني عبد مَنافٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني هاشمٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبدِ المُطَّلبِ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا فاطمةُ أنقذي نفسَكِ من النَّار، فإنِّي لا أملِكُ لكم من الله شيئاً غيرَ أنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها بِبَلالها»[4].

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ١٨٧ بنحوه.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٨) من حديث عبد الله بن عباس ﷺ. وأخرجه البخاري أيضاً (٤٩٧٢).

(٣) المفهم ٧/ ٣٨٥.

(٤) صحيح مسلم (٢٠٤). وأخرجه أحمد (٨٧٢٦). قال السندي في حاشيته على المسند: قوله: «بِبَلالها» =

**الثانية**: في هذا الحديث والآية دليلٌ على أنَّ القُرْبَ في الأنساب لا ينفَعُ مع البُعدِ في الأسباب، ودليلٌ على جوازِ صِلَةِ المؤمنِ الكافرَ وإرشادِه ونصيحتِه؛ لقوله: «إنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها ببِلالها»[١]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية [الممتحنة:٨]، على ما يأتي بيانُه هناكَ إن شاء الله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم في سورة «الحِجرِ»[٣] و«سبحان»[٤] يُقال: خفضَ جناحَه إذا لانَ. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي: خالفوا أمرَكَ. ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بريءٌ من معصيتِكم إيَّايَ؛ لأنَّ عصيانَهم إيَّاه عصيانٌ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلَّا بما يرضاه، ومَنْ تبرَّأَ منه فقد تبرَّأَ اللهُ منه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: فَوِّضْ أمركَ إليه، فإنَّه العزيزُ الذي لا يُغالَبُ، الرَّحيمُ الذي لا يخذُلُ أولياءه[٦].

وقرأ العامَّة: «وتوكَّلْ» بالواو، وكذلك هو في مصاحفهم. وقرأ نافع وابن عامر: «فَتَوَكَّلْ» بالفاء، وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام[٧]. ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقومُ إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين: ابن عباس وغيره. وقال مجاهد:

---

= قيل: بكسر الباء، جمع بَلَل: وهو كلُّ ما بلَّ الحلقَ من ماءٍ أو لبنٍ أو غيره. ويُروى بفتحها على المصدر، أي: أصِلُكم في الدنيا. قيل: شبَّه القطيعة بالحرارة تُطفأ بالماء.

(١) المفهم ٧/ ٣٨٤ .

(٢) قوله: «إن شاء الله» من (م).

(٣) ١٢/ ٢٥٤-٢٥٥ .

(٤) ١٣/ ٥٩ - ٦٠ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥ .

(٦) مجمع البيان ١٩/ ١٨٩ .

(٧) السبعة ص٤٧٣ ، والتيسير ص١٦٧ .

يعني: حينَ تقومُ حيثُما كُنْتَ[١].

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: في المُصلِّين[٢]. وقال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء، آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ حتى أخرجَه نبيًّا[٣]. وقال عكرمة: يراك قائماً وراكعاً وساجداً. وقاله ابنُ عباسٍ أيضاً[٤]. وقيل: المعنى: إنَّكَ ترى بقلبِكَ في صلاتِكَ مَنْ خلفَكَ كما ترى بعينِكَ مَنْ قُدَّامَكَ. ورُوِيَ عن مجاهد؛ ذكره الماورديُّ[٥] والثعلبيُّ. وكان عليه الصلاة والسلام يَرى مَنْ خلفَه كما يَرى مَنْ بين يديه، وذلك ثابتٌ في الصحيح[٦]، وفي تأويل الآية بعيد. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تقدَّم.

**قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إنَّما قال: «تَنَزَّلُ» لأنها أكثرُ ما تكون في الهواء، وأنها تمرُّ في الريح[٧].

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ تقدَّم في «الحجر»[٨]. فـ«يُلْقُونَ السَّمْعَ» صفةُ الشياطين «وَأَكْثَرُهُمْ» يرجِعُ إلى الكهنة[٩]. وقيل: إلى الشياطين[١٠].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٥. وأخرج الطبري ١٧/ ٦٦٦ قول مجاهد.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٧، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٦٧-٦٦٨ عن مجاهد.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٧.

(٤) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٦٦-٦٦٧.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ١٨٩، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٦٧.

(٦) صحيح البخاري (٧١٨)، وصحيح مسلم (٤٣٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه أحمد (١٢٠١١).

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥.

(٨) ١٢/ ١٨٧-١٨٨.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥.

**قوله تعالى:** ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ **فيه ستُّ مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ جمع شاعر، مثل جاهل وجُهَلاء. قال ابن عباس: هم الكفار يَتَّبِعُهُم ضُلَّالُ الجنِّ والإنس[١]. وقيل ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: الزائِلونَ عن الحقِّ، ودَلَّ بهذا أنَّ الشعراءَ أيضاً غاوون؛ لأنَّهم لو لم يكونوا غاوينَ ما كان أتباعُهم كذلك[٢]. وقد قدَّمنا في سورة «النور»[٣] أنَّ من الشِّعر ما يجوزُ إنشادهُ، ويُكرَهُ، ويَحرُمُ. روى مسلمٌ من حديث عَمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: رَدِفتُ رسولَ اللهِ ﷺ يوماً[٤] فقال: «هل معَك من شعرِ أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟» قلتُ: نعم. قال: «هِيه» فأنشدتُه بيتاً. فقال: «هِيه» ثم أنشدتُه بيتاً، فقال: «هِيه» حتى أنشدتُه مئةَ بيت[٥]. هكذا صوابُ هذا السندِ وصحيحُ روايَتِه. وقد وقعَ لبعضِ رُواةِ كتابِ مُسلم: عن عمرو بن الشَّريد عن الشَّريدِ أبيه، وهو وَهَمٌ؛ لأنَّ الشَّريدَ هو الذي أردفَه رسولُ الله ﷺ، واسمُ أبي الشَّريدِ سُوَيْد. وفي هذا دليلٌ على حفظِ الأشعارِ والاعتناءِ بها إذا تضمَّنَتِ الحِكَمَ والمعاني المُستحسنةَ شرعاً وطبعاً، وإنَّما استكثَر النبيُّ ﷺ من شعر أمية؛ لأنَّه كان حكيماً؛ ألا ترى قولَه عليه الصلاة والسلام: «وكاد أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ أنْ يُسْلِمَ[٦]»

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٣ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٥ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

(٣) ١٥/ ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٤) كلمة «يوماً» من صحيح مسلم.

(٥) صحيح مسلم (٢٢٥٥). وأخرجه أحمد (١٩٤٧٦).

(٦) أخرجه البخاري (٦١٤٧)، ومسلم (٢٢٥٦) (٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن قوله: هكذا صواب هذا السند... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/ ٥٢٦-٥٢٧ . وقال مؤلفه: قوله: «هِيه» بكسر الهاء الأولى، وسكون الثانية للوقف. وهي «إيه» التي للاستزادة ، وأبدل من الهمزة هاءً، =

فأما ما تضمَّنَ ذِكْرَ اللهِ وحمدَه والثناءَ عليه فذلك مندوبٌ إليه، كقول القائل:

الحمدُ للهِ العليِّ المنان صارَ الشريدُ في رؤوس العيدان

أو ذِكْرَ رسولِ الله ﷺ أو مَدْحَه كقول العباس:

مِن قبلها طِبْتَ في الظِّلال وفي مُسْتودَعٍ حيثُ يُخصَفُ الورَقُ

ثمَّ هبطتَ البلادَ لا بشرٌ أنتَ ولا مُضغةٌ ولا عَلَقُ

بل نطفةٌ تركَبُ السَّفِينَ وقَدْ أَلْجَمَ نَسْراً وأهلَه الغَرَقُ

تُنقَلُ مِن صالبٍ إلى رَحِمٍ إذا مَضَى عالَمٌ بَدا طَبَقُ

فقال له النبيُّ ﷺ: «لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ»[1].

أو الذبَّ عنه، كقول حسان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنهُ وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ

وهي أبياتٌ ذكَرها مسلمٌ في «صحيحه»[2] وهي في السير أتَمُّ.

أو الصلاةَ عليه، كما روى زيدُ بن أسلم: خرجَ عمرُ ليلةً يحرُسُ، فرأى مِصباحاً في بيتٍ، وإذا عجوزٌ تَنفِشُ صوفاً وتقول:

على محمدٍ صلاةُ الأبرارْ صلَّى عليه الطيِّبون الأخيارْ

قد كنتَ قوَّاماً بُكاً بالأسحارْ يا ليتَ شِعْري والمنايا أطوارْ

هل يَجمَعنِّي وحبيبيَ الدارْ

يعني النبيَّ ﷺ؛ فجلس عمرُ يبكي[3].

= وهي اسمٌ لفعل الأمر الذي هو: زِدْ. وهي مبنيةٌ على الكسر؛ لوقوعها موقع المبني الذي هو الأمر. وفي الصحاح: إذا قلت: إيهِ يا رجل، فإنما تأمره بأن يزيدك من حديثه المعهود. وإن قلت: إيهٍ بالتنوين، كأنك قلت: هاتِ حديثاً؛ لأن التنوين تنكير.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٧ - ١٤٢٨ . وأخرجه الطبراني في الكبير (٤١٦٧)، والحاكم ٣/ ٣٢٨ وقال: هذا حديث تفرد به رواته الأعراب عن آبائهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون.

(٢) برقم (٢٤٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٢٤).

وكذلك ذِكْرَ أصحابِه ومَدْحَهم ﷺ؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيثُ قال:

إنِّي رضيتُ عليًّا للهُدَى عَلَماً كما رضيتُ عَتيقاً صاحبَ الغارِ
وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعتَهُ وما رضيتُ بقتلِ الشيخِ في الدارِ
كلُّ الصحابةِ عندي قُدوةٌ عَلَمٌ فهل عليَّ بهذا القولِ من عارِ
إنْ كُنتَ تعلمُ أنِّي لا أحِبُّهمُ إلَّا مِنَ اجلِكَ فاعْتِقْني من النارِ[1]

وقال آخرُ فأحسَنَ:

حُبُّ النبيِّ رسولِ الله مُفْتَرَضٌ وحُبُّ أصحابِه نورٌ بِبُرهانِ
من كان يعلَمُ أنَّ اللهَ خالِقُهُ لا يَرمِيَنَّ أبا بكرٍ بِبُهتانِ
ولا أبا حفصٍ الفاروقَ صاحِبَهُ ولا الخليفةَ عثمانَ بنَ عفَّانِ
أمَّا عليٌّ فمشهورٌ فضائِلُهُ والبيت لا يَستوِي إلا بأركانِ

قال ابن العربي[2]: أمَّا الاستعاراتُ في التشبيهاتِ فمأذونٌ فيها وإنِ استغرَقَتِ الحدَّ وتجاوزتِ المُعتادَ؛ فبِذلِكَ يضرِبُ المْلَكُ المُوكَّلُ بالرؤيا المثَلَ، وقد أنشد كعب بن زهير النبيَّ ﷺ:

بانَتْ سعادُ فقلبي اليومَ مَتبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سُعادُ غداةَ البَيْنِ إذ رَحَلُوا إلا أَغَنُّ غضيضُ الطَّرْفِ مَكحولُ
تَجلُو عَوارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعاراتِ والتشبيهاتِ بكلِّ بديع، والنبيُّ ﷺ يسمع ولا يُنكِرُ في تشبيهه رِيقَها بالرَّاح.

وأنشد أبو بكر ﷺ:

فَقَدْنا الوحيَ إذْ وَلَّيتَ عنَّا ووَدَّعَنا مِنَ اللهِ الكلامُ

---

(١) الأبيات دون البيت الثالث في تاريخ ابن عساكر ٤٢/ ٥٣٣.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٤.

سوى ما قد تركتَ لنا رهيناً ... توارثَهُ القراطيسُ الكرامُ
فقد أورثْتَنا ميراثَ صِدْقٍ ... عليكَ به التَّحيةُ والسَّلامُ

فإذا كان رسولُ الله ﷺ يسمَعُه وأبو بكر يُنشِدُه، فهل للتقليدِ والاقتداءِ موضعٌ أرفَعُ من هذا؟! قال أبو عمر: ولا يُنكِرُ الحسَنَ من الشِّعرِ أحدٌ من أهل العلم ولا من أولي النُّهى، وليس أحدٌ من كبار الصَّحابةِ وأهلِ العلم وموضعِ القُدوةِ إلَّا وقد قال الشعر، أو تمثَّلَ به، أو سمِعَه فرَضِيَه، ما كان حكمةً أو مباحاً، ولم يكن فيه فُحْشٌ ولا خنا ولا لمسلمٍ أذى، فإذا كان كذلِكَ فهو والمنثورُ من القول سواءٌ لا يحِلُّ سماعُه ولا قولُه. وروى أبو هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ على المنبر يقول: «أصدقُ كَلِمةٍ ـ أو أَشْعَرُ كلمةٍ ـ قالَتْها العربُ قولُ لَبِيد:

أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ

أخرجه مسلم، وزاد: «وكادَ أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ أنْ يُسلِمَ»[1]. ورُوي عن ابن سيرينَ أنه أنشدَ شعراً فقال له بعضُ جُلسائه: مثلُكَ يُنشِدُ الشِّعرَ يا أبا بكر؟! فقال: ويلَكَ يا لُكَع، وهلِ الشِّعرُ إلَّا كلامٌ لا يُخالِفُ سائرَ الكلامِ إلَّا في القوافي، فحَسَنُه حسنٌ وقبيحُه قبيح؟! قال: وقد كانوا يتذاكرون الشِّعر. قال: وسمعتُ ابنَ عُمرَ يُنشِدُ:

يُحِبُّ الخمرَ من مالِ النَّدامَى ... ويَكرهُ أنْ يُفارِقَهُ الغَلُوسُ[2]

وكان عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود ـ أحدُ فُقهاءِ المدينةِ العشرة ثم المشيخةِ السبعة ـ شاعراً مجيداً مُقدَّماً فيه[3]. وللزُّبير بن بكَّار القاضي في أشعاره كتاب، وكانتْ له زوجةٌ حسنةٌ تُسمَّى عَثْمة، فعتِبَ عليها في بعض الأمر فطلقَّها، وله فيها أشعارٌ كثيرة، منها قوله:

(١) صحيح مسلم (٢٢٥٦) (٣). وأخرجه أيضاً البخاري (٦١٤٧) بتلك الزيادة، وقد سلفت قريباً.

(٢) التمهيد ٢٢/ ١٩٤-١٩٥ . والغَلوس تصغير الغَلَس: وهو ظلمة آخر الليل. الصحاح (غلس). وأثر ابن سيرين أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٧١).

(٣) التمهيد ٩/ ٧ .

تغلغلَ حُبُّ عَثْمةَ في فؤادي ... فباديهِ مع الخافي يَسيرُ
تغلغلَ حيثُ لم يبلُغْ شَرابٌ ... ولا حُزنٌ ولم يبلُغْ سُرورُ
أكادُ إذا ذكرتُ العهدَ منها ... أطيرُ لَوَ انَّ إنساناً يَطيرُ[1]

وقال ابن شهاب: قلتُ له: تقول الشِّعَر في نُسكِكَ وفضلِكَ؟! فقال: إنَّ المصدورَ إذا نَفَثَ بَرَأ.

**الثانية**: وأمَّا الشِّعرُ المذمومُ الذي لا يَحِلُّ سماعُه وصاحبُه مَلومٌ، فهو المُتكلِّمُ بالباطل حتى يُفضِّلوا أجبنَ الناس على عنترة، وأشحَّهم على حاتم، وأن يَبهتوا البريءَ ويُفسِّقوا التَّقيَّ، وأن يُفرِّطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبةً في تسلية النَّفْسِ وتحسينِ القول[2]، كما رُويَ عن الفَرَزدقِ أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملك سمِعَ قولَه:

فبِتْنَ بجانبيَّ مُصرَّعاتٍ ... وبِتُّ أفُضُّ أغلاقَ الختامِ

فقال: قد وجبَ عليك الحَدُّ. فقال: يا أمير المؤمنين، قد درأَ اللهُ عني الحَدَّ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[3]. وروي أنَّ النعمانَ بنَ عديِّ بنِ نَضْلةَ كان عاملاً لعمر بن الخطاب ﷺ فقال:

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ أنَّ حليلَها ... بمَيْسانَ[4] يُسقَى في زُجاجٍ وحَنْتَمِ
إذا شئتُ غنَّتْني دَهاقينُ[5] قريةٍ ... ورقَّاصةٌ تَجذو[6] على كلِّ مَنْسِمِ[7]

---

(١) الأبيات سلفت ٢/ ٢٥٦ .

(٢) من قوله: أن يفرطوا... إلى هذا الموضع في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩ .

(٣) الأغاني ٢١/ ٣٧٣ .

(٤) اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط . معجم البلدان ٥/ ٢٤٢ .

(٥) كلمة فارسية معرَّبة، جمع دهقان: وهو التاجر. اللسان (دهقن).

(٦) من الجُذو: وهو القيام على رؤوس الأصابع . اللسان (جذا).

(٧) أي: مِفْصل. اللسان (نسم).

فإن كنتَ نَدْماني فبِالأكْبَرِ اسْقِني ... ولا تَسْقِني بالأصغرِ المُتثَلِّمِ[١]

لعَلَّ أميرَ المؤمنين يَسوءُه ... تَنادُمُنا بالجَوْسَقِ[٢] المُتهدِّمِ

فبلغَ ذلِكَ عُمرَ، فأرسلَ إليه بالقُدوم عليه. وقال: إي واللهِ إني ليَسوءُني ذلك. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما فعلتُ شيئاً مما قلتُ، وإنَّما كانَتْ فضلةً من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فقال له عمر: أمَّا عُذرُكَ فقد درأَ عنكَ الحَدَّ، ولكِنْ لا تعمَلْ لي عملاً أبداً وقَدْ قُلتَ ما قُلتَ[٣]. وذكر الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ قال: حدَّثني مصعب بن عثمان أنَّ عُمرَ ابنَ عبد العزيز لمَّا وَليَ الخلافةَ لم يكن له هَمٌّ إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص، فكتبَ إلى عامله على المدينة: إنِّي قد عرفتُ عُمرَ والأحوصَ بالشَّرِّ والخُبثِ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاشدُدْ عليهما واحمِلْهما إليَّ. فلمَّا أتاه الكتابُ حملَهما إليه، فأقبل على عمر فقال: هِيه!

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظَرَ ناظرِ ... ولا كليالي الحجِّ أفْلَتْنَ ذا هَوى

وكم مالئٍ عينيه من شيءِ غيرِه ... إذا راحَ نحوَ الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أمَّا واللهِ لِو اهتممتَ بحجِّكَ لم تنظُرْ إلى شيءٍ غيرِك، فإذا لم يفلَتِ الناسُ منكَ في هذه الأيام فمتى يفلَتون؟! ثم أمر بنَفْيِه، فقال: يا أمير المؤمنين، أوَ خيرٌ من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أعاهِدُ اللهَ أنِّي لا أعودُ إلى مثل هذا الشِّعر، ولا أذكرُ النِّساءَ في شعرٍ أبداً، وأُجدِّدُ توبةً، فقال: أوَ تفعَلُ؟ قال: نعم. فعاهدَ اللهَ على توبتِه وخلَّاه، ثم دعا بالأحوص، فقال: هِيه!

اللهُ بيني وبينَ قَيِّمِها ... يَفِرُّ مِنِّي بها وأَتَّبِعُ

بَلِ اللهُ بين قَيِّمِها وبينَك. ثم أمرَ بنَفْيِه، فكلَّمه فيه رجالٌ من الأنصار فأبى، وقال:

---

(١) من ثَلِمَ الإناء إذا كُسِرَ حرفُه. اللسان (ثلم).

(٢) وهو القصر. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٤٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩-١٤٣٠ .

واللهِ لا أردُّه ما كان لي سلطان، فإنَّه فاسقٌ مُجاهِرٌ[١]. فهذا حُكم الشِّعرِ المَذْمومِ وحُكمُ صاحبِه، فلا يحِلُّ سماعُه ولا إنشادُه في مسجدٍ ولا غيرِه، كمنثورِ الكلامِ القبيحِ ونحوِه. وروى إسماعيل بن عَيَّاش، عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «حَسَنُ الشِّعرِ كَحسَنِ الكلامِ، وقبيحُه كقَبيحِ الكلام[٢]» رواه إسماعيل عن عبد الله الشَّامي، وحديثُه عن أهل الشَّام صحيحٌ فيما قال يحيى بنُ مَعينٍ وغيرُه[٣]. وروى عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الشِّعرُ بمنزلةِ الكلامِ، حَسَنُه كحَسَنِ الكلام، وقبيحُه كَقبيحِ الكلام»[٤].

**الثالثة**: روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يمتلئَ جَوفُ أحدِكُمْ قَيْحاً يَرِيهِ[٥] خيرٌ مِنْ أنْ يمتلِئَ شِعْراً»[٦]، وفي الصحيح أيضاً عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ قال: بينا نحنُ نسيرُ مع رسولِ الله ﷺ إذْ[٧] عرَضَ شاعِرٌ يُنشِدُ، فقال رسول الله ﷺ: «خُذوا الشَّيطانَ ـ أو: أمْسِكوا الشَّيطان ـ لَأَنْ يمتلِئَ جوفُ رجلٍ قيحاً خيرٌ له مِنْ أنْ يمتلِئَ شِعراً»[٨]. قال عُلماؤنا: وإنما فعلَ النبيُّ ﷺ هذا مع هذا الشاعرِ لِما عَلِمَ من حاله، فلعلَّ هذا الشاعرَ كان مِمَّنْ قد عُرِفَ من حاله أنَّه قدِ اتَّخذَ الشِّعرَ طريقاً للتكسُّبِ، فُيفرِطُ في المدحِ إذا أُعطي، وفي الهَجْوِ والذَّمِّ إذا مُنِعَ، فيؤذي

(١) الأغاني ٩/ ٦٤-٦٥ .

(٢) أخرجه الدارقطني (٤٣٠٩). وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو يعلى (٤٧٦٠)، والدارقطني (٤٣٠٦) و(٤٣٠٧).

(٣) تهذيب التهذيب ١/ ١٦٣ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٥)، والطبراني في الأوسط (٧٦٩٢)، والدارقطني (٤٣٠٨).

(٥) قبلها في (د) و(م): حتى.

(٦) صحيح مسلم (٢٢٥٧). وأخرجه أحمد (٧٨٧٤)، والبخاري (٦١٥٥).

(٧) في (م): إذا.

(٨) صحيح مسلم (٢٢٥٩). وأخرجه أحمد (١١٠٥٧).

الناسَ في أموالِهم وأعراضِهم، ولا خلافَ في أنَّ مَنْ كان على مِثْلِ هذه الحالة فكلُّ ما يكتسِبُه بالشِّعرِ حرام، وكلُّ ما يقولُه من ذلك حرامٌ عليه، ولا يحِلُّ الإصغاءُ إليه، بل يجبُ الإنكارُ عليه، فإنْ لم يمكِنْ ذلِكَ لمن خافَ من لسانه قطعاً تعيَّنَ عليه أن يُداريَه بما استطاع، ويُدافِعَه بما أمكن، ولا يحِلُّ أن[1] يُعطى شيئاً ابتداءً؛ لأنَّ ذلك عونٌ على المعصية، فإنْ لم يجِدْ من ذلك بُدًّا أعطاه بنِيَّةِ وقاية العِرض، فما وَقَى به المرءُ عِرْضَه كُتِبَ له به صدقة. وقوله[2]: «لَأَنْ يمتلِئَ جوفُ أحدِكم قيحاً يَرِيهِ[3]» القيح: المِدَّة يُخالِطُها دم. يُقال منه: قاحَ الجُرْحُ يَقِيحُ وتَقيَّحَ وقَيَّحَ. و«يَرِيه» قال الأصمعي: هو من الوَرْيِ على مثال الرَّمْيِ، وهو أن يَدْوَى جوفُه، يُقال منه: رجلٌ مَوْرِيٌّ، مُشدَّدٌ غيرُ مهموز. وفي الصِّحاح: ورى القيحُ جوفَه يَرِيهِ وَرْياً إذا أكله[4]. وأنشد اليَزيديُّ:

قـالـتْ لـه وَرْيـاً إذا تَـنـحـنـحَـا[5]

وهذا الحديث أحسنُ ما قيلَ في تأويله: إنَّه الذي قد غلَبَ عليه الشِّعرُ، وامتلأ صدرُه منه دونَ عِلْمٍ سواه ولا شيءٍ من الذِّكْرِ مِمَّن يخوضُ به في الباطل، ويسلكُ به مسالكَ لا تُحمَدُ له، كالمُكثرِ من اللَّغَطِ والهَذَرِ والغِيبةِ وقَبيحِ القول[6]. ومَنْ كان الغالبُ عليه الشِّعرُ لَزِمَتْه هذه الأوصافُ المذمومةُ الدَّنِيَّةُ، لحكم العادة الأدبيَّة. وهذا المعنى هو الذي أشارَ إليه البخاريُّ في «صحيحه» لمَّا بوَّبَ على هذا الحديث «باب ما يُكرَهُ أن يكون الغالِبُ على الإنسانِ الشِّعرُ». وقد قيل في تأويله: إنَّ المُرادَ بذلك

(١) قبلها في (م): له.

(٢) قبلها في (م): قلت.

(٣) قبلها في النسخ: حتى. وهي ليست في لفظ الحديث كما سلف.

(٤) الصحاح (ورى).

(٥) من قوله: قال علماؤنا... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/٥٢٨-٥٢٩ .

(٦) التمهيد ٢٢/١٩٦ .

الشِّعرُ الذي هُجيَ به النبيُّ ﷺ أو غيرُه. وهذا ليس بشيء؛ لأنَّ القليلَ من هَجْوِ النبيِّ ﷺ وكثيرَه سواءٌ في أنَّه كفرٌ ومذموم، وكذلك هَجْوُ غيرِ النبيِّ ﷺ من المسلمين مُحرَّمٌ قليلُه وكثيرُه، وحينئذٍ لا يكون لتخصيص الذَّمِّ بالكثيرِ معنًى[(١)].

**الرابعة**: قال الشافعي: الشِّعرُ نوعٌ من الكلام، حَسَنُه كحسَنِ الكلام، وقبيحُه كقبيحِ الكلام، يعني أنَّ الشِّعرَ ليس يُكرَهُ لذاتِه، وإنَّما يُكرَهُ لمُضمَّناتِه، وقد كان عند العرب عظيمَ الموقع؛ قال الأوَّلُ منهم:

وجُرحُ اللِّسانِ كجُرْحِ اليدِ[(٢)]

وقال النبيُّ ﷺ في الشِّعر الذي يَرُدُّ به حسَّان على المشركين: «إنَّه لأسرَعُ فيهم من رَشْقِ بالنَّبْل» أخرجه مسلم[(٣)]. وروى التِّرمِذيُّ[(٤)] وصحَّحه عن أنس[(٥)] أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ مكَّةَ في عُمرة القضاء وعبدُ اللهِ بنُ رَوَاحةَ يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بني الكفَّارِ عن سبيلِهِ ... اليومَ نَضْرِبْكُمْ على تنزيلِهِ
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مَقِيلِهِ ... ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

فقال عمر: يا ابن رَوَاحة، في حرَمِ اللهِ، وبينَ يدَيْ رسول الله ﷺ؟! فقال رسول الله ﷺ: «خَلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرَعُ فيهم من نَضْحِ النَّبْل»[(٦)].

**الخامسة**: قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ لم يختلفِ القُرَّاءُ في رفع «وَالشُّعَراءُ» فيما علمتُ. ويجوز النصب على إضمار فعلٍ يُفسِّره «يَتَّبِعُهُمُ»[(٧)]، وبه قرأ

---

(١) المفهم ٥/ ٥٣٠.

(٢) عجز لبيت، صدره: ولو عن نثا غيره جاءني. قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٨٥. والنَّثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن وسيئ. اللسان (نثا).

(٣) في صحيحه (٢٤٩٠).

(٤) في سننه (٢٨٤٧).

(٥) تحرف في النسخ إلى: ابن عباس.

(٦) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

عيسى بن عمر؛ قال أبو عبيد: كان الغالبَ عليه حبُّ النصب؛ قرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨] و﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] و﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١]. وقرأ نافعٌ وشيبةُ والحسن والسُّلَميّ: «يَتْبَعُهُمْ»[١] مُخفَّفاً. الباقون «يَتَّبِعُهُمْ»[٢]. وقال الضَّحَّاك: تهاجى رَجُلانِ أحدُهما أنصاريٌّ والآخرُ مهاجريٌّ على عهد رسول الله ﷺ، مع كلِّ واحدٍ غُواةُ قومِه وهم السفهاء، فنزلت. وقاله ابن عباس[٣]. وعنه: هم الرُّواةُ للشِّعر[٤]. وروى عنه عليُّ بن أبي طلحة أنَّهم هم الكفار يَتْبعُهم ضُلَّالُ الجِنِّ والإنس. وقد ذكرناه. وروى غُضَيْف عن النبيِّ ﷺ: «من أحدثَ هجاءً في الإسلام فاقطعوا لسانه»[٥]. وعن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا افتتحَ مكةَ رنَّ إبليسُ رنَّةً وجمع إليه ذُرِّيَته، فقال: «ايئسوا أن تُريدوا أمةَ محمدٍ على الشِّركِ بعدَ يومِكم هذا، ولكِنْ أفْشوا فيهما ـ يعني مكة والمدينة ـ الشِّعْرَ[٦]».

**السادسة**: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كلِّ لغوٍ يخوضون[٧]، ولا يتَّبعون سَنَنَ الحقِّ؛ لأنَّ مَنِ اتَّبعَ الحقَّ وَعلِمَ أنَّه يُكتَبُ عليه ما يقولُه تَثَبَّتَ، ولم يكن هائماً يذهبُ على وجهه لا يُبالي ما قال[٨]. نزلت في عبد الله ابن الزِّبَعْرى ومُسافِعِ بن عبد مناف وأميَّة بن أبي الصلت[٩].

(١) الشاذة ص١٠٨، والكشاف ٣/ ١٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٦. وقراءة نافع في السبعة ص٤٧٤، والتيسير ص١١٥.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٧٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٣.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨/ (٦٦١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٢٣: فيه إسحاق بن أبي فروة، وهو متروك.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٣١٨)، وفيه: «النَّوح» بدل «الشِّعر». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣: رجاله موثقون.

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٦ عن ابن عباس ﷺ. ونقله الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٩٠ عن قطرب.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٦.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون، أي: يدلُّون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه. وقيل: إنها نزلت في أبي عَزَّةَ الجُمَحيِّ حيث قال:

أَلَا أبلِغا عنِّي النبيَّ محمداً ... بأنَّكَ حَقٌّ والمليكُ حَميدُ
ولَكِنْ إذا ذُكِّرتُ بَدْراً وأهلَهُ ... تَأوَّهَ مِنِّي أعْظُمٌ وجُلودُ[١]

ثم استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهم[٢] ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ وإنما يكون الانتصار بالحقِّ، وبما حدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ، فإن تجاوزَ ذلكَ فقدِ انتصرَ بالباطل[٣].

وقال أبو الحسن البرَّاد[٤] لمَّا نزلَتْ: «والشُّعراءُ»: جاءَ حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا نبيَّ الله، أنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلمُ أنَّا شُعراءُ؟ فقال: «اقرؤوا ما بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ـ الآية ـ أنتم ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ أنتم»[٥] أي: بالردِّ على المشركين.

قال النبيُّ ﷺ: «انْتَصِروا ولا تقولوا إلَّا حقًّا، ولا تذكروا الآباءَ والأُمَّهات» فقال حسان لأبي سفيان:

هجوتَ محمداً فأجَبْتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ
وإنَّ أبي ووالدتي وعِرْضي ... لعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
أتشتُمُهُ ولستَ له بِكُفءٍ ... فشَرُّكما لخيرِكما الفِداءُ

---

(١) البيتان في طبقات فحول الشعراء ٢١/ ٢٥٣-٢٥٤، وجمهرة الأمثال ٢/ ٣٨٧.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٧.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

(٤) واسمه سالم مولى تميم الداري كما وقعت تسميته في رواية الطبري، وقد ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٣٥٦. وتحرف في النسخ إلى: المبرد.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٥١٨، والطبري ١٧/ ٦٨٢.

لســانــي صــارمٌ لا عــيــبَ فــيــهِ وبــحــري لا تُــكــدِّرهُ الــدِّلاءُ[١]

وقال كعب: يا رسول الله، إنَّ الله قد أنزل في الشعر ما قَدْ علمتَ، فكيف ترى فيه؟ فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يُجاهِدُ بنفْسِه وسيفهِ ولسانهِ، والذي نفسي بيدهِ لَكأنَّ ما ترمونَهم به نَضْحُ النَّبْل»[٢].

وقال كعب:

جاءت سَخِينةُ كي تُغالِبَ ربَّها وَلَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

فقال النبيُّ ﷺ: «لقد مدحَكَ اللهُ يا كعبُ في قولِكَ هذا»[٣].

وروى الضَّحَّاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾: منسوخٌ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٤]. قال المَهْدَويُّ: والصحيح[٥] عن ابن عباس أنَّه استثناء.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ في هذا تهديدٌ لمنِ انتصرَ بظلم[٦]. قال شُرَيح[٧]: سيعلَمُ الظالمون كيفَ يَخْلُصون من بين يَدي اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النُّصرةَ. وقرأ ابن عباس: «أيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ» بالفاء والتاء[٨]، ومعناهما واحد. ذكره الثعلبي[٩].

---

(١) الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٤ .

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٧٤) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه الحاكم ٣/ ٤٨٩ من حديث البراء بن عازب ﷺ بنحوه. والسَّخينة: طعام حار يصنع من دقيق وسمن، أغلظُ من الحساء، وأرقُّ من العصيدة. اللسان (سخن).

(٤) ذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٧٢ . وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٧١)، وأبو داود (٥٠١٦) من طريق عكرمة، عن ابن عباس ﷺ.

(٥) في (م): وفي الصحيح.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

(٧) قوله: «قال شريح» من (م).

(٨) زاد المسير ٦/ ١٥٢ .

(٩) الشاذة ص١٠٨ . وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٥٢ عن ابن عباس وأبي بن كعب وأبي =

ومعنى: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾: أيَّ مصيرٍ يصيرون، وأيَّ مَرْجِعٍ يرجعون؛ لأنَّ مصيرَهم إلى النَّار، وهو أقبَحُ مصير، ومرجِعُهم إلى العقاب[1] وهو شرُّ مَرْجِع. والفرق بين المُنقلَبِ والمَرجِعِ أنَّ المُنقلبَ الانتقالُ إلى ضِدِّ ما هو فيه، والمرجعُ العَوْدُ من حالٍ هو فيها إلى حالٍ هو فيها إلى حالٍ كان عليها، فصار كلُّ مرجعٍ مُنقلَباً، وليس كلُّ مُنقلَبٍ مرجِعاً، والله أعلم، ذكره الماوردي[2]. و«أيَّ» منصوبٌ بـ «يَنْقَلِبُونَ» وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ «سَيَعْلَمُ» لأنَّ أيًّا وسائرَ أسماءِ الاستفهامِ لا يعمَلُ فيها ما قبلَها فيما ذكَر النَّحْويُّون؛ قال النَّحَّاس: وحقيقةُ القولِ في ذلك أنَّ الاستفهام معنًى وما قبله معنًى آخر، فلو عمِلَ فيه ما قبلَه لَدَخَلَ بعضُ المعاني في بعض[3].

= العالية، وأبي مجلز، وأبي عمران الجوني، وعاصم الجحدري.

(١) في (م): العقاب.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ١٩١ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

## تفسير سورة الشعراء

وهى مكية . ووَقع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتُها : سورة الجامعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

**﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾** .

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فقد تكلمنا عليه فى أول تفسير سورة البقرة .

وقوله : **﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾** أى : هذه آيات القرآن المبين ، أى : البين الواضح ، الذى يفصل بين الحق والباطل ، والغى والرشاد .

وقوله : **﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾** أى : مهلك **﴿ نَفْسَكَ ﴾** أى : مما تحرص [ عليهم ] (١) وتحزن عليهم **﴿ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾** ، وهذه تسلية من الله لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : **﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾** [ فاطر : ٨ ] ، وقال : **﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾** [ الكهف : ٦ ] .

قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وعطية ، والضحاك : **﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾** أى : قاتل نفسك . قال الشاعر (٢) :

ألاَ أيّهذاَ البَاخِعُ الحُزنُ نفسَه    لشىء(٣) نَحتْهُ عَنْ يَديه المَقَادرُ

ثم قال الله تعالى : **﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾** أى : لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، ولكنَّا لا نفعل ذلك ؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى؛ وقال تعالى : **﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾** [ يونس : ٩٩ ]، وقال : **﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾** [ هود : ١١٨، ١١٩ ] ، فنفذ قدَرُه ، ومضت (٤) حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) هو ذو الرمة ، والبيت فى تفسير الطبرى (١٩ / ٣٧ ) .

(٣) فى ف : « بشىء » .

(٤) فى ف ، أ : « وقضت » .

ثم قال : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ يوسف : ١٠٣ ] ، وقال : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [ يس : ٣٠ ] ، وقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ المؤمنون : ٤٤ ] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [ الشعراء : ٢٢٧ ] .

ثم نبه تعالى على عظمته فى سلطانه وجلالة قدره وشأنه ، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذى خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان .

قال سفيان الثورى ، عن رجل ، عن الشعبى : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أى : دلالة على قدرة الخالق للأشياء ، الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره (١) وارتكبوا زواجره .

وقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى عزّ كلَّ شىء وقهره وغلبه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه، فلا يعجل على من عصاه ، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

قال أبو العالية ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، و [ محمد (٢) ] بن إسحاق : العزيز فى نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره .

وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ .

---

(١) فى أ : « أوامره » .
(٢) زيادة من ف ، أ .

يقول تعالى مخبراً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ، صلوات الله وسلامه عليه،حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾:هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه ، كما قال فى سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٦ ] .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أى : بسبب ماكان [من] (١) قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر. ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أى : قال الله له : لا تخف من شىء من ذلك كما قال: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : برهانا ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾[ القصص : ٣٥ ] .

﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه:٤٦ ] أى: إننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأييدى .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾[طه : ٤٧ ] أى : كل منا رسول الله إليك ، ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، وهم معك فى العذاب المهين . فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية ، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . [وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ](٢) ﴾ [ أى : أما أنت الذى ربيناه فينا (٣) ] ، وفى بيتنا وعلى فراشنا [وغذيناه (٤) ] ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى :الجاحدين . قاله ابن عباس،وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾ أى : فى تلك الحال ، ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى :قبل أن يوحَى إلىّ وينعم الله على بالرسالة والنبوة (٥) .

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أى : الجاهلين .

قال ابن جُرَيْج :وهى كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه .

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى : الحال الأول انفصل

---

(١ـ٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف : « بالنبوة والرسالة » .

وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنى الله إليك ، فإن أطعته سَلمت ، وإن خالفته عَطبت .

ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : وما أحسنت إلى وربَّيْتنى مقابل ما أسأتَ إلى (١) بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخدماً ، تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك ، أفَيَفى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم ؟ أى : ليس ما ذكرتَه شيئاً بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ، وتمرده وطغيانه وجحوده ، فى قوله :﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ وذلك أنه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [ القصص : ٣٨ ] ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ (٢) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [ الزخرف : ٥٤ ] ، وكانوا يجحدون الصانع ـ تعالى ـ ويعتقدون أنه لارب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الزخرف : ٤٦ ] ، قال له : ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف ، حتى قال السدى : هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن (٣) رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [ طه : ٤٩ ، ٥٠ ] .

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم ؛ أن هذا سؤال عن الماهية ، فقد غلط ؛ فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية (٤) ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر ، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى : خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه وإلهه ، لاشريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع (٥) عبيد له خاضعون ذليلون .

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة . فعند ذلك التفت فرعون إلى مَن حوله من مَلَئه ورؤساء دولته قائلا لهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أى : ألا تعجبون مما يقول هذا فى زعمه : أن لكم إلها غيرى ؟ فقال لهم موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ أى : خالقكم وخالق آبائكم الأولين (٦) ، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه . ﴿ قَالَ ﴾ أى : فرعون لقومه : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى: ليس

---

(١) فى ف ، أ : « على » .
(٢) فى أ : « واستخف » .
(٣) فى ف ، أ : « ومن » وهو خطأ .
(٤) فى أ : « ماهيته » .
(٥) فى ف : « والجميع » .
(٦) فى أ : « الأوائل » .

له عقل فى دعواه أن ثمّ ربا غيرى .﴿ قَالَ ﴾ أى : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى : هو الذى جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه[1] الكواكب ، ثوابتها وسياراتها ، مع هذا النظام الذى سخّرها فيه وقدّرها ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً ، كما أخبر تعالى عن ﴿ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨ ] ؛ ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى ، عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ .

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال[2] ، فقال : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ . فعند ذلك قال موسى: ﴿ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ أى : ببرهان قاطع واضح ،﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ،﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى : من جيبه ، ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أى : تتلألأ كقطعة من القمر . فبادر فرعون ــ بشقائه ــ إلى التكذيب والعناد ، فقال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : فاضل بارع فى السحر . فَرَوّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته ، والكفر به . فقال :﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ؟ أى : أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ[3] عَلِيمٍ ﴾ [ أى :أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم ][4] يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد . فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى

---

(١) فى ف ، أ : « منه » .

(٢) فى هـ : « مقام » والمثبت من ف ، أ .

(٣) فى أ : « ساحر ».

(٤) زيادة من ف ، أ .

لهم فى ذلك ؛ ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة .

**﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾** .

ذكر [ الله ] (١) تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط فى « سورة الأعراف » وفى « سورة طه»، وفى هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى (٢) الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ، **﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾** [ الأنبياء : ١٨ ] ، **﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾** [ الإسراء : ٨١ ] ،ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا فى ذلك ، وكان السحرة جمعاً كثيراً ، وجماً غفيراً ، قيل : كانوا اثنى عشر ألفاً .وقيل : خمسة عشر ألفاً . وقيل : سبعة عشر ألفاً وقيل : تسعة عشر ألفا . وقيل : بضعة وثلاثين ألفاً . وقيل : ثمانين ألفاً . وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم .

قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعاً إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم : وهم : ساتور وعازور (٣) وحطحط(٤) ويصقى .

واجتهد (٥) الناس فى الاجتماع ذلك اليوم ،وقال قائلهم :**﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ . [ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ] (٦) ﴾** ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم . **﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾** أى : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً ، وجمع حشمه وخدمه [ وأمراءه ] (٧) ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدى فرعون (٨) ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أى هذا الذى جمعتنا من أجله، فقالوا : **﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾** أى:وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندى وجلسائى . فعادوا إلى مقام المناظرة **﴿ قَالُوا(٩) يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾** [ طه : ٦٥ ، ٦٦ ] ،وقد اختصر هذا ههنا. فقال لهم موسى: **﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ . فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾** ، وهذا كما يقوله

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « فيأبى » . (٣) فى ف ، أ : « وعادون » .
(٤) فى أ . « وحطحة » . (٥) فى أ : « وحشر » . (٦) زيادة من ف .
(٧) زيادة من أ . (٨) فى ف ، أ : « بين يديه » . (٩) فى أ : « فقالوا » وهو خطأ

الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان . وقد ذكر الله فى « سورة الأعراف » : أنهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [ الأعراف : ١١٦ ] ،وقال فى « سورة طه »: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [ طه: ٦٦ ـ ٦٩ ] . وقال ههنا : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى: تختطفه [(١)] وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئا ، قال تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ . وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [ الأعراف : ١١٨ـ١٢٢] وكان هذا أمرا عظيما جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فَغُلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة اللّه ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعدهم ،ويقول: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [ طه : ٧١ ] ، وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأعراف : ١٢٣ ] .

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ .

تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليما . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ ؟ أى : كان ينبغى أن تستأذنونى فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علىَّ فى ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؛ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل .

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدى والأرجل والصلب ، فقالوا : ﴿ لا ضَيْرَ ﴾ أى : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالى به ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أى : المرجع [(٢)] إلى الله ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ؛ ولهذا قالوا [(٣)] : ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أى : ما قارفناه [(٤)] من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم [(٥)] كلهم .

---

(١) فى ف ، أ : « تخطفه » . (٢) فى ف ، أ : « الرجوع » . (٣) فى ف ، أ : « قال » .
(٤) فى أ : « ما فرقناه » . (٥) فى ف ، أ : « قبلهم » .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾ .

لما طال مقُام موسى ، عليه السلام ، ببلاد مصر ، وأقام بها حُجَج الله [1] وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العـذاب والنـكال ، فأمر اللّه موسى ، عليه السلام، أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤُمرَ ، ففعل موسى ، عليه السلام ، ما أمره به ربه ، عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم ، فيما ذكر غير واحد من المفسرين ، وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد ، رحمه اللّه ، أنه كُسف القمر تلك الليلة ، فاللّه أعلم ، وأن موسى ، عليه السلام ، سأل عن قبر يوسف ، عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بنى إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذى حمله بنفسه ، عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه [2] معهم ، وقد ورد فى ذلك حديث رواه ابن أبى حاتم ، رحمه الله ، فقال :

حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عبد الله بن عمر [3] بن أبان بن صالح ، حدثنا ابن فضيل [4] ، عن عبد الله[5] بن أبى إسحاق، عن ابن أبى بردة ، عن أبيه ، عن أبى موسى قال : نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه ، فقال له رسول الله ﷺ : تعاهدنا . فأتاه الأعرابى فقال له رسول الله ﷺ : «ما حاجتك ؟ » قال [6]: ناقة برحلها وأعنز [7] يحتلبها أهلى ، فقال : « أعجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل ؟ » . فقال له أصحابه : وما عجوز بنى إسرائيل يا رسول اللّه ؟ قال : « إن موسى لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضل الطريق ، فقال لبنى إسرائيل : ما هذا ؟ فقال له علماء بنى إسرائيل : نحن نحدثك أن يوسف، عليه السلام ، لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى : فأيكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا : ما يعلمه إلا عجوز لبنى إسرائيل . فأرسل إليها فقال [8] لها : دلينى على قبر يوسف . فقالت : واللّه لا أفعل حتى تعطينى حكمى . قال لها : وما حكمك ؟ قالت [9] : حكمى أن أكون معك فى الجنة . فكأنه ثقل عليه ذلك ، فقيل له : أعطها حكمها. قال : فانطلقت معهم إلى بحيرة ـ مستنقع ماء ـ فقالت لهم : انضبوا هذا الماء . فلما أنضبوه قالت : احتفروا [10] ، فلما احتفروا استخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار [11] » .

---

(١) فى ف : « وأقام حجج الله بها » . (٢) فى أ : « يحتملوه » . (٣) فى هـ : « عبد الله بن عمر بن محمد بن أبان » .
(٤) فى هـ : « فضل » والمثبت من أ . (٥) فى أ : « يونس » . (٦) فى ف ، أ : « فقال » .
(٧) فى أ : « وأعنق » . (٨) فى أ : « وقال ». (٩) فى أ : « قال » .
(١٠) فى أ : « احفروا » .
(١١) ورواه أبو يعلى فى مسنده ( ١٣/ ٢٣٦ ) وابن حبان فى صحيحه برقم (٢٤٣٥ ) « موارد » ، والحاكم فى المستدرك ( ٢/ ٥٧١ ) من طريق محمد بن فضيل ، عن يونس بن أبى إسحاق ، عن أبى بردة عن أبى موسى به . وقال الهيثمى فى المجمع ( ١٠ / ١٧٠ ): « رجال أبى يعلى رجال الصحيح » .

هذا حديث غريب جداً ، والأقرب أنه موقوف ، والله أعلم .

فلما أصبحوا وليس فى ناديهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل؛ لما يريد اللّه به من الدمار ، فأرسل سريعاً فى بلاده حاشرين ، أى : من يحشر الجندَ ويجمعه ، كالنُّقَباءَ والحُجَّاب ، ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ ﴾ ـ يعنى : بنى إسرائيل ـ ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أى : لطائفة قليلة ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أى :كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا ،﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ أى : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستأصل شأفتهم ، وأبيد خَضْراءهم . فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ،﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [ الأعراف :١٣٧]، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [ القصص : ٥ ، ٦ ] .

**﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ .**

ذكر غير واحد من المفسرين : أن فرعون خرج فى جحفل عظيم وجمع كبير [1] ، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية فى زمانه ،أولى الحل والعقد والدول ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات ، من أنه خرج فى ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دُهْم ، وقال كعب الأحبار : فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم ـــ ففى ذلك نظر. والظاهر أنه من مجازفات بنى إسرائيل ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم . والذى أخبر به هو النافع ، ولم يعين عدتهم ؛ إذ لا فائدة تحته ، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى : رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فلهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم

(١) فى أ : « كثير » .

شىء مما تحذرون ، فإن اللّه ، سبحانه ، هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد .

وكان هارون ، عليه السلام ، فى المقدمة ، ومعه يوشع بن نون ، [ ومؤمن آل فرعون وموسى، عليه السلام ، فى الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون ، وجعل يوشع بن نون ] (١) ، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى ، عليه السلام : يا نبى الله ، ههنا أمرك اللّه أن تسير ؟ فيقول : نعم ، واقترب فرعون وجنوده ، ولم يبق إلا القليل . فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه ، وقال : انفلق بإذن الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد ، حدثنا (٢) محمد بن حمزة [ بن محمد ] (٣) بن يوسف بن عبد اللّه بن سلام : أن موسى ، عليه السلام ، لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شىء والمكون لكل شىء ، والكائن قبل كل شىء ، اجعل لنا مخرجاً . فأوحى الله إليه : ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾ .

وقال قتادة : أوحى اللّه تلك الليلة إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع ، فبات البحر تلك الليلة ، وله اضطراب (٤) ، ولا يدرى من أىّ جانب يضربه موسى ، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون : يا نبى اللّه ، أين أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن أضرب البحر . قال: فاضربه .

وقال محمد بن إسحاق : أوحى الله ـ فيما ذكر لى ـ إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له. قال : فبات البحر يضرب بعضه بعضاً ، فرقا من الله تعالى ، وانتظاراً لما أمره اللّه ، وأوحى الله إلى موسى : ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ** ﴾ ، فضربه بها ، وفيها (٥)سلطان اللّه الذى أعطاه ، فانفلق .

وذكر غير واحد أنه كناه فقال : انفلق علىّ أبا خالد بحول اللّه (٦) .

قال الله تعالى : ﴿ **فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ أى : كالجبل الكبير . قاله ابن مسعود، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عطاء الخراسانى : هو الفَجّ بين الجبلين .

وقال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقاً ، لكل سبط طريق ـ وزاد السدى : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث اللّه الريح على قعر البحر فلفحته ، فسار يَبَساً (٧) كوجه الأرض ، قال اللّه تعالى : ﴿ **فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ** ﴾ [ طه : ٧٧ ] ، وقال فى هذه القصة : ﴿ **وَأَزْلَفْنَا** ﴾ أى : هنالك (٨) ﴿ **الْآخَرِينَ** ﴾ .

قال ابن عباس ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى : ﴿ **وَأَزْلَفْنَا** ﴾ أى : قربنا فرعون وجنوده

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « عن » .
(٣) زيادة من الجرح والتعديل ( ٣/٢/٢٣٦ ) والدر المنثور ( ٥/٨٦ ) .
(٤) فى أ : « اتكل » . (٥) فى أ : « ففيها » . (٦) فى ف ، أ : « بإذن الله » .
(٧) فى أ : « يابساً » . (٨) فى ف : « هناك » .

من البحر وأدنيناهم إليه .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ أى : أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك (١) منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل (٢) إلا هلك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا شبابة ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ أن موسى ، عليه السلام ، حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون ذلك ، فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال: لا ، والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلىّ ستمائة ألف من القبط . فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ، فقال له : انفرق . فقال البحر : لقد استكبرت يا موسى ، وهل انفرقت (٣) لأحد من ولد (٤) آدم فأنفرق (٥) لك ؟ قال : ومع موسى رجل على حصان له ، فقال له ذلك الرجل : أين أمرتَ يا نبى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه [ يعنى : البحر ، فأقحم فرسه ، فسبح به فخرج ، فقال : أين أمرت يانبى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ] (٦) . قال : والله ما كَذَبت ولا كُذبت. ثم اقتحم الثانية فسبح ، ثم خرج فقال : أين أمرت يا نبى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ؟ قال : والله ما كَذَبت (٧) ولا كُذبت . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه موسى بعصاه ، فانفلق ، فكان فيه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يتراؤون ، فلما خرج أصحاب موسى وتَتَامّ أصحابُ فرعون ، التقى البحر عليهم فأغرقهم .

وفى رواية إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال : فلما خَرَج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، اضطم عليهم البحر ، فما رُئِىَ سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى : فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ؛ لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ .وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدم تفسيره .

**﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ .**

هذا إخبار من الله تعالى(٨) عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء،أمر الله رسوله محمدا، صلوات الله وسلامه عليه ، أن يتلوه على أمته ، ليقتدوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبرى من الشرك وأهله ؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أى : من صغره إلى كبره،فإنه من وقت نَشَأ وشَب،أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله، عز وجل، فقال:

---

(١) فى أ : « نهلك » . (٢) فى ف : « رجل منهم » . (٣) فى ف ، أ : « فرقت » .
(٤) فى أ : « بنى » . (٥) فى أ : « فأفرق » . (٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) فى أ : « ما كذب » . (٨) فى أ : « عز وجل » .

﴿ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أى : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أى : مقيمين على عبادتها ودعائها ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : اعترفوا بأن[1] أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فَلْتَخْلُص إلى بالمساءة ، فإنى عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ، عليه السلام : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس :٧١ ] ، وقال هود ، عليه السلام : ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٦ ] . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ [الأنعام: ٨١ ]. وقال تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة:٤ ] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [ الزخرف :٢٦ ـ ٢٨ ] يعنى: لا إله إلا الله.

**﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(٨٢) ﴾ .**

يعنى : لا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى : هو الخالق الذى قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه ، فكل يجرى على [ ما ] [2] قدّر ، وهو الذى يهدى من يشاء ويُضل من يشاء . ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : هو خالقى ورازقى ، بما سخر ويَسَّر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المُزْنَ ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذباً زلالا لـ ﴿ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا[3] أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾[ الفرقان : ٤٩ ] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا ، كما قال تعالى آمراً للمصلى أن يقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [ الفاتحة : ٦ ، ٧ ] فأسند الإنعام إلى الله ، سبحانه وتعالى ، والغضب حُذف فاعله أدباً ، وأسند الضلال إلى العبيد ، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [ الجن : ١٠ ] ؛ ولهذا[4] قال

---

(١) فى ف ، أ : « أن » .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى م : « ليسقيه مما خلق » وهو خطأ .
(٤) فى ف ، أ : « وهكذا » .

إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أى : إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره ، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ، ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أى : هو الذى يحيى ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذى يبدئ ويعيد ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى : هو الذى لا يقدر على غَفْرْ الذنوب فى الدنيا والآخرة ، إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ .

وهذا سؤال من إبراهيم ، عليه السلام ،أن يؤتيه ربه حُكْما .

قال ابن عباس : وهو العلم . وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدى : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أى : اجعلنى مع [1] الصالحين فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى ﷺ عند الاحتضار :« [ اللهم الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً [2] . وفى الحديث فى الدعاء ] [3] :« اللهم أحينا مسلمين ،وأمتنا مسلمين ،وألحقنا بالصالحين،غيرخزايا ولا مبدلين»[4] .

وقوله : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ أى : واجعل لى ذكراً جميلاً بعدى أذكر به ، ويقتدى بى فى الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ الصافات : ١٠٨ ـ ١١٠ ] .

قال مجاهد ، وقتادة: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ يعنى : الثناء الحسن . قال مجاهد: وهو كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٧]، وكقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [ النحل : ١٢٢ ] .

قال ليث بن أبى سليم : كل ملة تحبه وتتولاه . وكذا قال عكرمة .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى : أنعم علَىَّ فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم .

وقوله : ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [ إبراهيم : ٤١ ]، وهذا مما رجعَ عنه إبراهيم ، عليه السلام ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن

---

(١) فى أ : « من » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم ( ٦٥٠٩ ) ومسلم فى صحيحه برقم ( ٢١٩١ ) من حديث عائشة ، رضى الله عنها ، وليس عندهما أنه قالها ثلاثاً ، وإنما فيهما ما يفيد أنها مرتين ، والله أعلم .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) رواه أحمد فى مسنده ( ٣ / ٤٢٤ ) من حديث الزرقى ، وعنده : « غير خزايا ولا مفتونين » .

**مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾ [ التوبة : ١١٤ ] . وقد قطع [الله] (١) تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [ الممتحنة : ٤ ] .

وقوله : ﴿ **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** ﴾ أى : أجرنى من الخزى يوم القيامة و [ يوم ] (٢) يبعث الخلائق أولهم وآخرهم .

قال البخارى فى قوله : ﴿ **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** ﴾ : وقال إبراهيم بن طهمان ، عن ابن أبى ذئب، عن سعيد بن أبى سعيد المقبُرىّ ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ » (٣) .

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى ، عن ابن أبى ذئب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتنى أنك لا تخزينى (٤) يوم يبعثون. فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين » .

هكذا رواه عند هذه الآية (٥) . وفى أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به ، ولفظه : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لاتعصنى (٦) ؟ فيقول أبوه (٧) : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتنى ألا تخزينى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يُقال : يا إبراهيم ، ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار (٨) .

وقال أبو عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه الكبير قوله : ﴿ **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** ﴾ : أخبرنا أحمد بن حفص (٩) بن عبد الله ، حدثنى أبى ، حدثنى إبراهيم بن طَهْمَان ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبَرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرة والقتَرَة ، وقال (١٠) له : قد نهيتك عن هذا فعصيتنى . قال : لكنى اليوم لا أعصيك واحدة . قال : يا رب ، وعدتنى ألا تخزينى يوم يبعثون ، فإن (١١) أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد . قال :يا إبراهيم ، إنى (١٢) حرمتها على الكافرين . فأخذ منه ، قال: يا إبراهيم ، أين أبوك ؟ قال : أنت أخذته منى . قال : انظر أسفل منك . فنظر (١٣) فإذا ذيخ يتمرغ (١٤) فى نتنه ، فأخذ بقوائمه فألقى فى النار (١٥) » .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) صحيح البخارى برقم ( ٤٧٦٨ ) .
(٤) فى ف ، أ : « أن لا تخزنى » .
(٥) صحيح البخارى برقم ( ٤٧٦٩ ) ولفظه : « وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون » .
(٦) فى ف : « لا تعصينى » . (٧) فى ف : « أباه » وهو خطأ .
(٨) صحيح البخارى برقم ( ٣٣٥٠ ) .
(٩) فى ف : « جعفر » . (١٠) فى ف : « فقال » . (١١) فى أ : « فأى » .
(١٢) فى أ : « فإنى» . (١٣) فى ف ، أ : « فينظر » . (١٤) فى ف : « متمرغ » .
(١٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم ( ١١٣٧٥ ) .

هذا إسناد [١] غريب ، وفيه نكارة .

والذيخ [٢] : هو الذكر من الضباع ، كأنه حول آذر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرته[٣] ، فيلقى فى النار كذلك .

وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ،عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ ، وفيه غرابة . ورواه أيضاً من حديث قتادة ، عن جعفر بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ ، بنحوه .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴾ أى :لا يقى المرء [٤] من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ،﴿وَلا بَنُونَ ﴾ ولو افتدى بمن فى الأرض جميعا ، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ بالله ، وإخلاص الدين له ، والتبرى من الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى : سالم من الدنس والشرك .

قال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور .

وقال ابن عباس : ﴿ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ حَيِى [٥] يشهد أن لا إله إلا الله .

وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ يعنى : من الشرك .

وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب [الكافر و][٦] المنافق مريض ، قال الله : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [ البقرة : ١٠ ] .

وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة ، المطمئن على السنة .

**﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾ .**

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أى :قربت الجنة وأدنيت [٧] من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة [٨] لناظريها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها ، وعملوا لها [ عملها ] [٩] فى الدنيا .﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أى:

---

(١) فى ف : « سياق » .
(٢) فى أ : « والذابح » .
(٣) فى أ : « بقذرته » .
(٤) أ : « المؤمن » .
(٥) فى ف ، أ : « يعنى » .
(٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) فى ف : « أدنيت وقربت » .
(٨) فى ف ، أ : « مزينة مزخرفة » .
(٩) زيادة من ف ، أ .

أظهرت وكُشف (١) عنها ، وبدت منها عُنقٌ ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب [ إلى ] (٢) الحناجر ، وقيل لأهلها تقريعا وتوبيخا : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٣). مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾؟ أى: ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله ، من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ؛ فإنكم وإياها اليوم حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون .

وقوله : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : فَدُهْوِرُوا (٤) فيها .

وقال غيره : كببوا فيها . والكاف مكررة ، كما يقال : صرصر . والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ، ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أى: ألقوا فيها عن آخرهم . ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقول الضعفاء الذين استكبروا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ [ غافر : ٤٧ ] . ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ، ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ، ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ قال بعضهم : يعنى من الملائكة ، كما يقولون: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف: ٥٣]. وكذا قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ. وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أى : قريب .

قال قتادة : يعلمون ـ والله ـ أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحا شفع .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون (٥) إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم ـ فيما يزعمون ـ وهو ، سبحانه وتعالى ، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى (٦) عن تخاصم (٧) أهل النار فى سورة « ص » ، ثم قال: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ ص : ٦٤ ] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج (٨) عليهم فى التوحيد لآية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

**﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ﴾ .**

هذا إخبار من الله ، عز وجل ،(٩) عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، وهو أول رسول بُعث

---

(١) فى ف ، أ : « وكشفت » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ف ، أ : « تشركون » .
(٤) فى أ : « صوروا » . (٥) فى ف : « أن يردون » ، وفى أ : « أن يردوا » . (٦) فى أ : « الله » وهو خطأ .
(٧) فى أ : « بتخاصم » . (٨) فى ف : « الحجة » . (٩) فى ف ، أ : « تعالى » .

إلى الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، بعثه اللّه ناهياً عن ذلك ، ومحذراً من وَبيل عقابه ، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم ، ويتنزل (١) تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ** ﴾ أى: ألا (٢) تخافون اللّه فى عبادتكم غيره ؟ ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ أى : أنى رسول من اللّه إليكم ، أمين فيما بعثنى به ، أبلغكم رسالة اللّه لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ [إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ] (٣)﴾ أى : لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم ، بل أدخر ثواب ذلك عند اللّه ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ فقد وضح لكم وبان صدقى ونصحى وأمانتى فيما بعثنى به وائتمننى عليه .

﴿ **قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١١٥)** ﴾ .

يقولون : أنؤمن لك ونتبعك ، ونتساوى فى ذلك بهؤلاء الأراذل (٤) الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا (٥) ؛ ولهذا قالوا : ﴿ **أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ؟ أى : وأى شىء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ، ولو كانوا على أى شىء كانوا عليه لا يلزمنى التنقيب عنه والبحث والفحص ، إنما علىَّ أن أقبل منهم تصديقهم (٦) إياى ، وأكل سرائرهم إلى اللّه ، عز وجل، ﴿ **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه (٧) ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ **مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وكنت منه ، سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً .

﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)** ﴾ .

لما طال مقام نبى اللّه بين أظهرهم يدعوهم إلى اللّه ليلاً ونهاراً ، وجهراً وإسراراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا فى الآخر : ﴿ **لَئِن لَّمْ تَنتَهِ** ﴾ أى: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿ **لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ** ﴾ أى : لنرجمنك (٨) . فعند ذلك دعا

---

(١) فى أ : « وتنزل » .
(٢) فى أ : « لا » .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى أ : « الأرذال » .
(٥) فى أ : « أرذالنا »
(٦) فى أ : « صدقهم » .
(٧) فى ف : « ليتابعون » ، وفى أ : « ليبايعوه » .
(٨) فى أ : « لنرجمك » .

عليهم دعوة استجاب اللّه منه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما قال فى الآية الآخرى : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٠ ـ ١٤] ، وقال ههنا : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ .ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ . والمشحون : هو المملوء بالأمتعة والأزواج التى حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أى : نجيناه [(١)] ومن معه [(٢)] كلهم ، وأغرقنا من كذبه وخالف أمره كلهم ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

**﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾ .**

وهذا إخبار من [ اللّه تعالى عن ] [(٣)] عبده ورسوله هود ، عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً ، وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف ، وهى : جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت متاخمة [(٤)] لبلاد اليمن ، وكانوا زمانهم بعد قوم نوح ، [ كما قال فى « سورة الأعراف » : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ] [(٥)] وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ [ الأعراف:٦٩] ، وذلك أنهم كانوا فى غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة ، والأموال والجنات [(٦)] والعيون، والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير اللّه معه ، فبعث اللّه إليهم رجلا منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى اللّه وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه فى مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ، اختلف المفسرون فى الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة . تبنون هنالك بناء محكما باهراً هائلاً ؛ ولهذا قال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً ﴾ أى : معلما بناء مشهوراً ، تعبثون ، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه ؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم ، عليه السلام ، ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان فى غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم قال : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ، قال مجاهد المصانع : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد . وفى رواية عنه : بروج الحمام .

---

(١) فى أ : « نجينا نوحاً » . (٢) فى أ : « اتبعه » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى ف : « متخمة » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى أ : « والجنان » .

وقال قتادة : هى مأخذ الماء . قال قتادة : وقرأ بعض القراء [١] : «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون » .

وفى القراءة المشهورة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أى: لكى تقيموا فيها أبداً ، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم ، كما زال عمن كان قبلكم .

وقال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنا أبى ، حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن عَجْلان ، حدثنى عَوْن بن عبد الله بن عتبة ، أن أبا الدرداء ، رضى الله عنه ، لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغُوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :ألا تستحيون ! ألا تستحيون ! تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، إنه كانت قبلكم [٢] قرون ، يجمعون فيرعُون ،ويبنون فيوثقون [٣] ، ويأملون فيطيلون،فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم [٤] قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين ؟

وقوله : ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ :وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أى: اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم .

ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى : إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، فما نفع فيهم .

**﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾** .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له ، بعدما حذرهم وأنذرهم ، وَرَغَّبَهُم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أى : لا نرجع عما نحن فيه، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ هود : ٥٣ ] . وهكذا الأمر ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [ البقرة : ٦ ] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧ ] .

وقولهم : ﴿ إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ : قرأ بعضهم : « إن هذا إلا خَلْق » بفتح الخاء وتسكين

(١) فى ف : « الكوفيين » .
(٢) فى ف : « قد كانت قبلكم » ، وفى أ : « قد كانت لكم » .
(٣) فى أ : « فيوبقون » .
(٤) فى ف : « منازلهم » .

اللام .

قال ابن مسعود ، والعوفى عن عبد الله بن عباس ، وعلقمة ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ [ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [ الفرقان : ٥ ] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الفرقان : ٤ ، ٥] ، وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم (١) مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ ] (٢) [ النحل : ٢٤ ] .

وقرأ آخرون : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ ـ بضم الخاء واللام ـ يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ يقول : دين الأولين . وقاله عكرمة، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير (٣) .

قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُم ﴾ أى : فاستمروا على تكذيب نبى الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إياهم فى غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أى : ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شىء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ [ ذَاتِ الْعِمَادِ ] (٤) ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧ ]، وهم عاد الأولى ، كما قال : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴾ [النجم : ٥٠ ] ، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح . ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أى : الذين كانوا يسكنون العَمَد . ومن زعم أن « إرم » مدينة ، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب ، وليس لذلك أصل أصيل . ولهذا قال: ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ [الفجر : ٨ ] ، أى: لم يخلق مثل هذه القبيلة فى قوتهم وشدتهم وجبروتهم ، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال : التى لم يبن مثلها فى البلاد، وقال : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥ ] .

وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور ، عتت على الخزنة ، فأذن(٥) الله لها فى ذلك ، وسلكت وحصبت بلادهم ، فحصبت كل شىء لهم ، كما قال تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ (٦) إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ الآية [ الأحقاف : ٢٥ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [ الحاقة : ٦ ، ٧] ، أى : كاملة، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧]، أى: بقوا أبداناً بلا رؤوس؛

(١) فى ف ، أ : « وقيل للذين كفروا » وهو خطأ . (٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) تفسير الطبرى ( ١٩/ ٦٠ ) .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « بإذن » . (٦) فى ف ، أ : « لا ترى » .

وذلك أن الريح كانت تأتى الرجل منهم فتقتلعه وترفعه فى الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا فى الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم فى الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك [1] من أمر الله شيئاً ، ﴿ **إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ** ﴾ [ نوح : ٤ ] ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ .

﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)** ﴾ .

وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله صالح ، عليه السلام: أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجْر ، التى بين وادى القُرَى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة . وقد قدمنا فى « سورة الأعراف » [2] الأحاديث المروية فى مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزْوَ الشام ، فوصل [3] إلى تَبُوك ، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل ، عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه . فأخبرهم أنه لا يبتغى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ، عز وجل ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

﴿ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢)** ﴾ .

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم نقم [4] الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة ، وجعلهم فى أمن من المحذورات . وأنبت لهم من الجنات [5] . وأنبع لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ؛ ولهذا قال: ﴿ **وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** ﴾ . قال العوفى ، عن ابن عباس : أينع وبلَغ ، فهو هضيم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** ﴾ يقول : مُعشبة .

[و] [6] قال إسماعيل بن أبى خالد ، عن عمرو بن أبى عمرو ـ وقد أدرك الصحابة ـ عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ **وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** ﴾ قال : إذا رطُب واسترخى . رواه ابن أبى حاتم ، قال : ورُوِى عن أبى صالح نحو هذا .

---

(١) فى ف ، أ : « لم يغن ذلك عنهم » .

(٢) عند الآيات : ٧٣ ـ ٧٨ .

(٣) فى أ : « فدخل » .

(٤) فى ف ، أ : « نقمة » .

(٥) فى أ : « الحبات » .

(٦) زيادة من أ .

وقال أبو إسحاق ، عن أبى العلاء : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : هو المذنب من الرطب .

وقال مجاهد : هو الذى إذا كُبس [1] تهشم وتفتت وتناثر .

وقال ابن جريج : سمعت عبد الكريم أبا أمية ، سمعت مجاهد يقول : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : حين يطلعُ تقبض عليه فتهضَمه ، فهو من الرطب الهضيم ، ومن اليابس الهشيم ، تقبض عليه فتهشمه .

وقال عكرمة ، وقتادة : الهضيم : الرطب اللين .

وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة [2] ، وركب بعضه بعضاً ، فهو هضيم .

وقال مرة : هو الطَّلْعُ حين يتفرق ويخضر .

وقال الحسن البصرى : هو الذى لا نوى له .

وقال أبو صخر : ما [3] رأيت الطلعَ حين يُشق [4] عنه الكمّ ، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم ، وقوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ قال ابن عباس ، وغير واحد : يعنى : حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين [5] . وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشراً وبطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين [6] متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ؛ولهذا قال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أى : أقبلوا على عمَل ما يعود نفعُه عليكم [7] فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ يعنى :رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفة الحق .

**﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾ .**

يقول تعالى مخبراً عن ثمودَ فى جوابهم لنبيهم صالح ، عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة ربهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ . قال مجاهد ، وقتادة : يعنون من المسحورين .

وروى [8] أبو صالح ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [9] ﴾ : يعنى من المخلوقين ، واشتشهد بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر [10] .

---

(١) فى ف ، أ : « مس » . (٢) فى ف ، أ : « حمل النخلة المثمرة » . (٣) فى ف ، أ : « أما » .
(٤) فى ف ، أ : « يتشقق » . (٥) فى ف : « أشرين شرهين » . (٦) فى أ : « صادقين » .
(٧) فى ف ، أ : « عليكم نفعه » . (٨) فى ف : « وقال » . (٩) فى ف ، أ : « المسحورين » .
(١٠) هو لبيد بن ربيعة ، والبيت فى ديوانه ص ( ٥٦ ) أ . هـ ، مستفاداً من ط . الشعب .

يعني الذين لهم سُحور ، والسَّحر : هو الرئة .

والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة : أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك.

ثم قالوا : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعني : فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ أَؤُلْقِيَ[1] الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥ ، ٢٦ ] .

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما [2] جاءهم به من ربهم فطلبوا منه ـ وقد اجتمع ملؤهم ـ أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة عندهم ـ ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم نبى الله صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمنَنّ به ، [وليصدقنه] [3] ، وليتبعنه ، فأنعموا بذلك . فقام نبى الله صالح ، عليه السلام، فصلى، ثم دعا الله ، عز وجل ، أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء ، على الصفة التى وصفوها . فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعني : ترد ماءكم يوما ، ويوماً تردونه أنتم ، ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى . وينتفعون بلبنها ، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم ، تمالؤوا على قتلها وعقرها ، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو أن أرضهم زُلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها،وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم ، وكانوا يسكنون « سدُوم » وأعمالها التى أهلكها الله بها ،وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ،وهى مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت [4] المقدس ، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك . فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذكْران دون الإناث ؛ ولهذا قال تعالى :

---

(١) فى ف ، أ : « وأنزل » وهو خطأ .

(٢) فى أ : « فيما » .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف ، أ : « بيت ».

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾ .

لما نهاهم نبى الله عن إتيانهم الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتى خلقهن الله لهم ـ ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ ﴾ يعنون: عما جئتنا [١] به، ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى: ننفيك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا [٢] كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم [٣] مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢ ] ، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم ، تبرأ منهم فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ أى : المُبغضين ، لا أحبه ولا أرضى به ؛ فأنا برىء منكم . ثم دعا الله عليهم قال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : كلهم ، ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ ، وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت[٤] مع من بقى من قومها ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم فى « سورة الأعراف » و « هود » ، وكذا فى « الحجْر » حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذى عمّ جميعهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ .

هؤلاء ـ أعنى أصحاب الأيكة ـ هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبى الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغَيضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : « إذ قال لهم أخوهم شعيب » ، وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ،فقطع نسبة الأخوة بينهم ؛ للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير

(١) فى ف : « يعنى مما جئتنا » .
(٢) فى ف ، أ : « فما » وهو خطأ .
(٣) فى جميع النسخ : « أخرجوا آل لوط » والصواب ما أثبتناه .
(٤) فى ف ، أ : « مهلكة ».

أهل مدين ، فزعم أن شعيباً ، عليه السلام ، بعثه الله إلى أمتين ، ومنهم من قال : ثلاث أمم .

وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلى ـ وهو ضعيف ـ حدثنى ابن السدى ، عن أبيه ـ وزكريا بن عمر (١) ، عن خَصِيف ، عن عكْرِمة قالا : ما بعث اللّه نبياً مرتين إلا شعيباً ، مرة إلى مدين فأخذهم اللّه بالصيحة ، ومرة إلى أصحابَ الأيكة فأخذهم اللّه بعذاب يوم الظُّلَّة .

وروى أبو القاسم البغوى ، عن هُدْبَة ، عن هَمَّام ، عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَصْحَابُ الرَّسِّ** ﴾. [ق : ١٢] قوم شعيب ، وقوله : ﴿ **وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ** ﴾ . [ق : ١٤] قوم شعيب .

قال إسحاق بن بشر : وقال غير جُوَيْبِر : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد . واللّه أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة « شعيب » ، من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، عن أبيه ، عن معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث (٢) اللّه إليهما شعيباً النبى ، عليه السلام » (٣) .

وهذا غريب ، وفى رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفا . والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا فى كل مقام بشىء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء (٤) ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة (٥) .

﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤)** ﴾ .

يأمرهم تعالى(٦) بإيفاء المكيال (٧) والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما ، فقال : ﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ** ﴾ أى : إذا دفعتم إلى الناس فكملوا (٨) الكيل لهم ، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا ،وتأخذوه ـ إذا كان لكم ـ تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، واعطوا كما تأخذون.

﴿ **وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ** ﴾ : والقسطاس هو : الميزان ، وقيل : القَبَّانُ . قال بعضهم : هو معرب من الرومية .

وقال مجاهد : القسطاس المستقيم : العدل ـ بالرومية . وقال قتادة : القسطاس : العدل .

وقوله : ﴿ **وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ** ﴾ أى : تَنْقُصوهم أموالهم ، ﴿ **وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ**

---

(١) فى ف، أ« عمرو » .
(٢) فى ف ، أ : « فبعث » .
(٣) انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣٠٩/١٠) .
(٤) فى أ : « سواء » .
(٥) فى أ : « فدل ذلك على أنهما واحدة » .
(٦) فى ف ، أ : « عليه السلام » .
(٧) فى ف ، أ : « الكيل » .
(٨) فى أ : « فكلوا » .

مُفْسِدِينَ ﴾ يعنى : قطع الطريق ، كما فى الآية الأخرى : ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ [وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ] (١) ﴾ [ الأعراف : ٨٦ ] .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾ :يخوفهم بأس الله الذى خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، كما قال موسى ، عليه السلام : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات :١٢٦ ] .قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسُّدِّى ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ يقول : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا ﴾ [ يس : ٦٢ ] .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ﴾ .

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها (٢) ـ تشابهت قلوبهم ـ حيث قالوا: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ يعنون : من المسحورين ، كما تقدم . ﴿ وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾:قال الضحاك :جانبا من السماء . وقال قتادة : قطعا من السماء . وقال السدى: عذابًا من السماء . وهذا شبيه بما قالت قُرَيش فيما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى :﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ ،إلى أن قالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [ الإسراء : ٩٠ـ ٩٢ ] . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ الأنفال : ٣٢ ] ، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم ، وكذلك وقع بهم كما سألوا ، جزاءً وفاقًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من جنس ما سألوا ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله، سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم (٣) أن أصابهم حر شديد جدا مدة سبعة أيام لا يكُنُّهم منه شىء ، ثم

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى ف ، أ : « لرسلها » .

(٣) فى أ : « عقوبته » .

أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا [كلهم][(١)] تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورَجَفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن [(٢)] ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ؛ وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [ الأعراف : ٨٨ ] ، فأرجفوا بنبى الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفى سورة هود قال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ [هود : ٩٤ ] ؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبى الله فى قولهم : ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [ هود : ٨٧ ] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ [(٣)]. وههنا قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر [(٤)] ، رضى الله عنه : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة ، فانطلق إليها أحدهم واستظل [(٥)] بها ، فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومة ، فأتوها جميعاً ، فاستظلوا تحتها ، فأجَّجَتْ عليهم ناراً .

وهكذا روى عن عِكْرِمَة ، وسعيد بن جُبَير ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث الله إليهم الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلهم ، كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المَقْلَى.

وقال محمد بن كعب القُرَظىّ : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة فى دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، فَفَرِقُوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلاً [(٦)] أطيب ولا أبرد من هذا . هلموا أيها الناس . فدخلوا جميعاً تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعاً . ثم تلا محمد بن كعب : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثنى الحارث ، حدثنى الحسن ، حدثنى سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ حدثني حاتم بن أبي صغيرة [(٧)] ، حدثنى يزيد الباهلى : سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : بعث الله عليهم وَمَدَةً [(٨)] وحرا شديدا ، فأخذ

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى أ : « مواضع » .
(٣) فى ف : « فأخذتهم الصيحة » .
(٤) فى ف ، أ : « عمرو » .
(٥) فى ف ، أ : « فاستظل » .
(٦) فى ف : « ما رأيت ظلا كاليوم » .
(٧) فى أ : « ضفيرة » .
(٨) فى ف ، أ : « رعدة » .

بأنفاسهم [ فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم ] (١) ، فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية ، فبعث اللّه سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها (٢) اللّه عليهم ناراً . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم (٣) .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

**﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ .**

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ (٤) مُحْدَثٍ ﴾ [الآية ] (٥) . ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أنزله اللّه عليك وأوحاه إليك ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ وهو جبريل ، عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفى ، والسدى ، والضحاك ، والزهرى ، وابن جريج . وهذا ما لا نزاع فيه .

قال الزهرى : وهذه كقوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة: ٩٧ ] .

وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين لا تأكله (٦) الأرض .

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [ أى : نزل به ملك كريم أمين ، ذو مكانة عند اللّه ، مطاع فى الملأ الأعلى ، ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يا محمد ، سالماً من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾](٧) أى :لتنذر به بأس اللّه ونقمته على من خالفه وكذبه ،وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك [ أنزلناه ] (٨) بلسانك العربى الفصيح الكامل الشامل ،ليكون بيِّناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعذر ،مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد اللّه بن أبى بكر العَتَكىّ ، حدثنا عباد بن عباد المُهَلَّبى، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : بينما رسول اللّه ﷺ مع أصحابه فى يوم دَجْن إذ قال لهم : « كيف ترون بواسقها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها . قال : «فكيف ترون قواعدها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها . قال : « فكيف ترون جوْنَها (٩) ؟ » . قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : « فكيف ترون رحاها استدارت (١٠) ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد

---

(١) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(٢) فى ف ، أ : « أرسل » .
(٣) تفسير الطبرى ( ١٩/٦٧ ) .
(٤) فى ف ، أ : « ربهم » وهو خطأ .
(٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) فى ف : « لا يأكله » .
(٧، ٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) فى ف ، أ : « حرنا » .
(١٠) فى ف : « رحلها استدار » .

استدارتها . قال : « فكيف ترون برقها ، أومَيض أم خَفْو (١) أم يَشُق شَقّا (٢) ؟ » . قالوا : بل يشق شقاً. قال : « الحياء الحياء إن شاء الله » . قال : فقال رجل : يا رسول الله، بأبى وأمى ماأفصحك، ما رأيت الذى هو أعربُ منك . قال : فقال : « حق لى ، وإنما أنزل (٣) القرآن بلسانى، والله يقول : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ » (٤) .

وقال سفيان الثورى : لم ينزل وحى إلا بالعربية ، ثم تَرْجم كل نبى لقومه ، واللسان يوم القيامة بالسريانية ، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾ .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم ، الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيباً فى ملئه بالبشارة بأحمد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [ الصف : ٦ ] ، والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زَبُور (٥) ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [ القمر: ٥٢ ] أى : مكتوب عليهم فى صحف الملائكة .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها ؟ والمراد : العدول منهم ، الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم. وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ الآية [ الأعراف : ١٥٧ ] .

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن ؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم، ممن لا يدرى من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته ، لا يؤمنون به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما أخبر عنهم فى الآية الآخرى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [ الحجر : ١٤، ١٥ ] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [ الأنعام: ١١١ ]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [ يونس: ٩٦، ٩٧ ] .

---

(١) فى أ : « خفق » . (٢) فى أ : « شقاقا » . (٣) فى ف : « نزل » .

(٤) ورواه الرامهرمزى فى أمثال الحديث ص ( ١٥٥ ) من طريق عبد الله بن محمد الأموى ، عن عباد بن عباد المهلبى به .

(٥) فى ف ، أ : « زبرة » .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) ﴾ .

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد ، أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين، ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : بالحق ، ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أى : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أى : عذاب الله بغتة ، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ ؟ أى : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا [ من فزعهم ] [(١)] بطاعة الله، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [ إبراهيم : ٤٤ ] ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ، ندم ندماً شديداً هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ .قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا [ فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ] [(٢)] ﴾ [ يونس : ٨٨، ٨٩ ] ، فأثرت هذه الدعوة فى فرعون ، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [ يونس : ٩٠ ، ٩١ ] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ الآية [ غافر : ٨٤، ٨٥ ] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ : إنكار عليهم ، وتهديد لهم ؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [ العنكبوت : ٢٩ ] ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الآيات [ العنكبوت : ٥٣ ] .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أى : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أى شيء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعم ، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦ ] ، وقال تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ [ البقرة : ٩٦ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [ الليل : ١١ ] ؛ ولهذا قال: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : « يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة [(٣)] ، ثم يقال له : هل رأيت

---

(١، ٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « فيغمس غمسة فى النار » .

خيراً قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا [ والله يا رب ] (١) . ويؤتى بأشد الناس بؤسًا كان فى الدنيا، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا والله يا رب » أى : ما كأن شيئاً كان(٢). ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

كأنَّك لَمْ تُوتر من الدَّهْر لَيْلَةً إذا أنْتَ أدْركْتَ الذى كنتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله فى خلقه : أنَّه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم ، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجج عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ . ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [ الإسراء : ١٥ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا [ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا](٣) وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [ القصص : ٥٩ ] .

**﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ﴾ .**

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد : أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ، ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ . ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه ما (٤) ينبغى لهم ، أى : ليس هو من بُغْيَتهم ولا من طلبتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى : ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [ الحشر : ٢١ ] .

ثم بين أنه لو انبغى (٥) لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشُهبا فى مُدّة إنزال القرآن على رسوله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه ، لئلا يشتبه الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ولرسوله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ ، كما قال تعالى مخبراً عن الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن :٨ ـ ١٠] .

**﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)**

---

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٢) رواه أحمد فى مسنده ( ٣/ ٢٠٣ ) من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ف ، أ . وفى هـ: « إلى قوله » . (٤) فى ف : « لا » . (٥) فى ف : « ابتغى » .

**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)** ﴾ .

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبراً أنّ من أشرك به عذبه .

ثم قال تعالى آمراً لرسوله ، صلوات اللّه وسلامه عليه [1] أن ينذر عشيرته الأقربين ، أى : الأدنين إليه ، وأنه لا يُخلِّص أحداً منهم إلا إيمانهُ بربه ، عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد اللّه المؤمنين . ومن عصاه من خلق اللّه كائناً من كان فليتبرأ منه ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ . وهذه النّذارة الخاصة لا تنافى العامة ، بل هى فرد من أجزائها ، كما قال : ﴿ **لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [ يس:٦ ] ،وقال:﴿ **لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الشورى:٧] ، وقال : ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ [الأنعام :٥١] ،وقال: ﴿**لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا** ﴾ [ مريم : ٩٧ ] ، وقال : ﴿**لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام:١٩]، كما قال : ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** ﴾ [ هود : ١٧ ] .

وفى صحيح مسلم : «والذى نفسى بيده،لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة،يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة ، فلنذكرها :

**الحديث الأول :**

قال الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا عبد اللّه ، بن نُمَيْر ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : لما أنزل اللّه ، عز وجل : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ ، أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : « يا صباحاه » . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول اللّه ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى ؟ » . قالوا: نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل اللّه : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ [ سورة المسد ] .

ورواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى ، من طرق ، عن الأعمش ، به [2] .

**الحديث الثانى :**

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ ، قام رسول اللّه ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ،لا أملك لكم من اللّه شيئا ،سلونى من مالى ما شئتم » .انفرد بإخراجه مسلم [3] .

---

(١) فى ف ، أ : « صلوات اللّه عليه وسلامه » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٧١٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٦٣).

(٣) المسند ( ٦/ ١٨٧ ) وصحيح مسلم برقم ( ٢٠٥ ) .

**الحديث الثالث :**

قال أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبد الملك بن عُمَير ، عن موسى بن طلحة ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، دعا رسول الله ﷺ [ قريشا ] [١] ، فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بني هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد المطلب ،أنقذوا أنفسكم من النار. [ يا فاطمة بنت محمد ، أنقذي نفسك من النار ] [٢] ، فإني ـ والله ـ ما أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رَحماً سأبُلّها ببِلالها » .

ورواه مسلم والترمذي ، من حديث عبد الملك بن عمير ، به [٣] . وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه . ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلا ، لم يذكر فيه أبا هريرة [٤] . والموصول هو الصحيح . وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة [٥] .

وقال الإمام أحمد :حدثنا يزيد ، حدثنا محمد ـ يعني ابن إسحاق ـ عن أبي الزنَاد ، عن الأعرج، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا بني عبد المطلب ، اشتروا أنفسكم من الله . يا صفية عمة رسول الله ، ويا فاطمة بنت رسول الله ، اشتريا أنفسكما من الله ، لا أُغني عنكما من الله شيئاً ، سلاني من مالي ماشئتما » .

تفرد به من هذا الوجه [٦] ، وتفرد به أيضاً ، عن معاوية ، عن زائدة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه [٧] . ورواه أيضاً عن حسن ، ثنا ابن لِهَيعة ، عن [٨] الأعرج : سمعت أبا هريرة مرفوعا [٩] .

وقال أبو يعلى : حدثنا سُوَيد بن سَعيد ، حدثنا [١٠] ضِمَام بن إسماعيل ، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « يا بني قصي ، يا بَني هَاشم ، يا بني عبد مناف . أنا النذير والموت المغير . والساعة الموعد » [١١] .

**الحديث الرابع :**

قال أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا التيمي ، عن أبي عثمان ، عن قَبِيصة بن مُخَارِق

---

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٣) المسند ( ٢/ ٣٦٠ ) وصحيح مسلم برقم ( ٢٠٤ ) وسنن الترمذي برقم ( ٣١٨٥ ) .

(٤) سنن النسائي ( ٦/ ٢٤٨ ) .

(٥) صحيح البخاري برقم ( ٤٧٧١ ) وصحيح مسلم برقم ( ٢٠٦ ) .

(٦) المسند ( ٢/ ٤٤٨ ) .

(٧) المسند ( ٢/ ٣٩٨ ) .

(٨) في ف : « ثنا » .

(٩) المسند ( ٢/ ٣٥٠ ) .

(١٠) في ف : « عن » .

(١١) مسند أبي يعلى ( ١١/ ١٠ ) وسويد بن سعيد متكلم فيه .

وزُهَير بن عمرو قالا : لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، صَعد رسول الله ﷺ رَضْمَةً من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : « يا بنى عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو ، فذهب يربأ أهله ، يخشى أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه » .

ورواه مسلم والنسائى ، من حديث سليمان بن طَرْخان التيمى ، عن أبى عثمان عبد الرحمن بن مُل النَّهْدىّ ، عن قَبيصة وزهَير بن عَمْرو الهلالى ، به (١) .

**الحديث الخامس :**

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شَرِيك عن الأعمش ، عن المِنْهَال ، عن عباد بن عبد الله الأسدى ، عن على ،رضى الله عنه،قال :لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، جمع النبى ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « من يَضْمَنُ عَنى دينى ومواعيدى ، ويكون معى فى الجنة ، ويكون خليفتى فى أهلى ؟ » . فقال رجل ـ لم يسمه شريك ـ : يا رسول الله ، أنت كنت بحراً (٢) ، من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر ، قال : فعرض ذلك على أهل بيته ، فقال عَلىٌّ : أنا (٣) .

**طريق أخرى بأبسط من هذا السياق :** قال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن عثمان بن المغيرة ، عن أبى صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، عن على ، رضى الله عنه ، قال : جمع رسول الله ﷺ ـ أو دعا رسول الله ﷺ ـ بنى عبد المطلب ، وهم رَهْطٌ ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرَق ـ قال : وصنع (٤) لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا ـ قال : وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس . ثم دعا بغُمَرٍ (٥) فشربوا حتى رووا ، وبقى الشراب كأنه لم يمس ـ أو لم يشرب ـ وقال : « يا بنى عبدالمطلب ، إنى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ » . قال : فلم يقم إليه أحد . قال : فقمتُ إليه ـ وكنت أصغر القوم ـ قال : فقال : « اجلس » . ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : «اجلس» . حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى (٦) .

**طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر :** قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى «دلائل النبوة » : أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يُونُس بن بُكَيْر ، عن محمد بن إسحاق قال : فحدثنى من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل ـ واستكتمنى اسمه ـ عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ،قال رسول الله ﷺ : « عرفت أنى إن بادأتُ بها قومى ، رأيت منهم ما أكره ،

---

(١) المسند (٥/ ٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٠٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٩).

(٢) فى أ : « تجرى » .

(٣) المسند (١/ ١١١) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٣٠٢) : « رجال أحمد رجال الصحيح ، غير شريك وهو ثقة » .

(٤) فى ف ، أ : « فصنع » . (٥) فى ف ، أ : « بعس » .

(٦) المسند (١/ ١٥٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٣٠٢) : « رجاله ثقات » .

فَصَمَتُّ . فجاءنى جبريل ، عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك » . قال على ، رضى اللّه عنه : فدعانى فقال : « يا على ، إن اللّه قد أمرنى [ أن ] (١) أنذر عشيرتى الأقربين ، فعرفت أنى إن بادأتهم بذلك رأيت منهم ما أكره ، فَصَمت عن ذلك ، ثم جاءنى جبريل فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك . فاصنع لنا يا على شاة على صاع من طعام ، وأعدّ لنا عُسَّ لبن ، ثم اجمع لى (٢) بنى عبد المطلب » . ففعلتُ فاجتمعوا له ، وهم يومئذ أربعون رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً . فيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب الكافر الخبيث . فقدّمت إليهم تلك الجَفْنَةَ ، فأخذ رسول اللّه ﷺ منها حِذْيَةً فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها ، وقال : « كلوا بسم اللّه » . فأكل القومُ حتى نَهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم : واللّه إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول اللّه ﷺ : « اسقهم يا على » . فجئت بذلك القَعب فشربوا منه حتى نَهلُوا جميعاً ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول اللّه ﷺ أن يكلمهم ، بَدَره أبو لهب إلى الكلام فقال : لَهَدَّ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلّمهم رسول اللّه ﷺ . فلما كان الغدُ قال رسول اللّه ﷺ : « يا على ، عُدْ لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجلّ قد بَدَرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » . ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول اللّه ﷺ كما صنع بالأمس ، فأكلوا حتى نَهلُوا عنه ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول اللّه ﷺ : « اسقهم يا على ». فجئت بذلك القَعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً . وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول اللّه ﷺ أن يكلمهم بَدَره أبو لهب بالكلام فقال : لَهَدَّ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول اللّه . فلما كان الغد قال رسول اللّه ﷺ : « يا على ، عد لنا بمثل الذى كنت صنعتَ لنا بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجل قد بَدَرنى إلى ما سمعتَ قبل أن أكلم القوم». ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول اللّه ﷺ [ كما صنع ] (٣) بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وايم اللّه إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها، ثم قال رسول اللّه ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، إنى ـ واللّه ـ ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة » .

قال أحمد بن عبد الجبار : بلغنى أن ابن إسحاق إنما (٤) سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبى مريم، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد اللّه بن الحارث (٥) .

وقد رواه أبو جعفر بن جرير ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الغفار ابن القاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد اللّه بن الحارث ، عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب ، فذكر مثله ، وزاد بعد قوله : « إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة » . « وقد أمرنى اللّه أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى (٦) على هذا الأمر على أن يكون أخى ، وكذا وكذا » ؟ قال : فأحجم

---

(١) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .

(٢) فى ف : « لنا » .

(٣) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .

(٤) فى ف : « لما » .

(٥) دلائل النبوة ( ٢/١٧٨ ) .

(٦) فى ف : « وازرنى » .

القوم عنها جميعاً ، وقلت ـ وإني لأحدثهم سناً ، وأرمصُهم عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمشهم ساقا. أنا يا نبي الله ، أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتى ثم قال : « إن هذا أخى ، وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوا » . قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع (١) .

تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبى مريم ، وهو متروك كذاب شيعى ، اتهمه على ابن المدينى وغيره بوضع الحديث ، وضعفه الأئمة رحمهم الله .

**طريق أخرى** : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا الحسين بن عيسى بن مَيْسَرة الحارثى ، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث قال: قال على ، رضى الله عنه : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ ، قال لى رسول الله ﷺ : « اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا » . قال : ففعلت ، ثم قال :« ادع بنى هاشم » . قال : فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل ـ أو : أربعون ورجل ـ قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذَعَة بإدامها . قال : فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من ذروَتها ثم قال : « كلوا » ، فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها (٢) لم يرزؤوا منها إلا يسيراً ، قال : ثم أتيتهم بالإناء فشربوا حتى رَوُوا . قال : وفَضَلَ فَضْلٌ ، فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم ، فبدرُوه الكلام، فقالوا : ما رأينا كاليوم فى السحر . فسكت رسول الله ﷺ ، ثم قال : « اصنع [لى](٣) رجل شاة بصاع من طعام » .فصنعت ، قال : فدعاهم ، فلما أكلوا وشربوا ، قال : فبدروه فقالوا مثل مقالتهم الأولى ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال لى : « اصنع [ لى ] (٤) رجل شاة بصاع من طعام . فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بَدَرهم رسول الله ﷺ الكلام فقال : « أيكم يقضى عنى دَينى (٥) ويكون خليفتى فى أهلى ؟ » . قال: فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكتُّ أنا لسنّ العباس . ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يا رسول الله . [ فقال : « أنت » ](٦) قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ، ضخم البطن ، حَمْش الساقين .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على ، رضى الله عنه. ومعنى سؤاله ، عليه الصلاة والسلام(٧) ، لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه فى أهله، يعنى إن قتل فى سبيل الله، كأنه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل ، ولما أنزل الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾[ المائدة : ٦٧ ] ، فعند ذلك أمِن . وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ .ولم يكن فى بنى هاشم إذ ذاك أشدّ إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله ﷺ من على ، رضى الله عنه ؛ ولهذا (٨) بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسولُ الله ﷺ ، ثم كان بعد هذا ـ والله أعلم ـ دعاؤه الناس جَهرةً على الصفا، وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا ، حتى سَمّى من سمى من أعمامه وعماته وبناته ، لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١) تفسير الطبرى ( ١٩/ ٤٠) .

(٢) فى ف : « وهى كهيئتها » .

(٣، ٤) زيادة من ف.

(٥) فى ف : « دينى عنى » .

(٦) زيادة من ف .

(٧) فى ف : « ﷺ » .

(٨) فى ف : « فلهذا » .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الواحد الدمشقى ـ غير منسوب ـ من طريق عمرو بن سَمُرَةَ ، عن محمد بن سُوقَةَ ، عن عبدالواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء ، رضى اللّه عنه، يحدث الناس ويفتيهم ، وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقيل له: ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم ، وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:« أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء ، وأشدهم عليهم الأقربون » . وذلك فيما أنزل اللّه ، عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، ثم قال : « إن أزهد الناس فى العالم أهله حتى يفارقهم». ولهذا قال [ اللّه تعالى ] (١) : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : فى جميع أمورك ؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعْلٍ كلمتك .

وقوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى :هو معتن بك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ (٣) لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [ الطور : ٤٨ ].

قال ابن عباس : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعنى : إلى الصلاة .

وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده .

وقال الحسن : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ : إذا صليت وحدك .

وقال الضحاك : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : من فراشك أو مجلسك .

وقال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ :قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ :قال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال : فى الصلاة ، يراك وحدك ويراك فى الجَمْع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والحسن البصرى .

وقال مجاهد : كان رسول اللّه ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ؛ ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : « سَوّوا صفوفكم ؛ فإنى أراكم من وراء ظهرى » (٤) .

وروى البزار وابن أبى حاتم ، من طريقين ، عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : يعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى ، حتى أخرجه نبيا .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ

---

(١) زيادة من أ .

(٢) تاريخ دمشق ( ١٠/ ٥٨٧ المخطوط ) .

(٣) فى جميع النسخ : « فاصبر » والصواب ما أثبتناه .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم ( ٧٢٣ ) .

تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية [ يونس : ٦١ ] .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقا ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رئيٌّ من الجن ، فنزه اللّه ، سبحانه ، جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو [ الحق ] [١] من عند اللّه ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قَبِيل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون [٢] على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال اللّه : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أى : أخبركم ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفاك الأثيم ، أى [٣] : الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة .

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أى : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه، بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى، من حديث الزهرى : أخبرنى يحيى بن عُروَةَ بن الزبير ، أنه سمع عُروَةَ بن الزبير يقول : قالت عائشة، رضى اللّه عنها : سأل ناس النبىَّ ﷺ عن الكهان ، فقال : « إنهم ليسوا بشىء » . قالوا : يا رسول اللّه، فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا ؟ فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها [٤] الجنى، فَيُقَرْقِرها فى أذن وليه كقَرْقَرة الدجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » [٥] .

وقال البخارى أيضا : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول : إن نبى اللّه ﷺ قال : « إذا قضى اللّه الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله ، كأنها [٦] سلسلة على صَفْوان ، حتى إذا فُزِع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا بعضهم فوق بعض » . ووصف سفيان بيده فَحَرفها ، وبَدَّد بين أصابعه « فيسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخرُ إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر ـ أو الكاهن ـ فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمع [٧] من السماء ». انفرد به البخارى [٨] .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « يتنزلون » . (٣) فى ف : « وهو » .
(٤) فى ف ، أ : « يحفظها » .
(٥) صحيح البخارى برقم ( ٧٥٦١ ) .
(٦) فى ف : « كأنه » . (٧) فى هـ ، ف ، أ : « سمعت » والصواب ما أثبتناه من البخارى .
(٨) صحيح البخارى برقم ( ٤٨٠٠ ) .

وروى مسلم من حديث الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس ، عن رجال من الأنصار قريباً من هذا . وسيأتى عند قوله تعالى فى سبأ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية [ سبأ : ٢٣ ] ، [إن شاء الله تعالى ] (١) .

وقال البخارى : وقال الليث : حدثنى خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال : أن أبا الأسود أخبره ، عن عروة ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تَحَدّث فى العَنَان ـ والعَنَان: الغَمَام ـ بالأمر [ يكون ] (٢) فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرّها فى أذن الكاهن كما تُقَرّ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » (٣) .

وقال البخارى فى موضع آخر من كتاب « بدء الخلق » عن سعيد بن أبى مريم ، عن الليث ، عن عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن ، عن عروة ، عن عائشة ، بنحوه (٤) .

وقوله : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن . وكذا قال مجاهد ، رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما .

وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فِئَامٌ من الناس ، ولهذا فئَامٌ من الناس ، فأنزل الله : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قُتَيْبَةُ ، حدثنا لَيث ، عن ابن الهاد ، عن يُحَنَّس (٥) ـ مولى مصعب ابن الزبير ـ عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعَرْج ، إذ عَرَض شاعر يُنشد ، فقال النبى ﷺ : « خذوا الشيطان ـ أو امسكوا الشيطان ـ لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً » (٦) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فى كل لغو يخوضون .

وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره .

وقال الحسن البصرى : قد ـ والله ـ رأينا أوديتهم التى يهيمون فيها ، مرة فى شتمة (٧) فلان ، ومرة فى مدحة (٨) فلان .

وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله ، أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا ، فكان (٩) مع كل

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٨٨ ) وقد وصله أبونعيم فى المستخرج من طريق أبى حاتم الرازى عن أبى صالح كاتب الليث عنه ، كما فى الفتح ( ٦/ ٤٣٢ ) .

(٤) صحيح البخارى رقم (٣٢١٠) .

(٥) فى ف : « محنش » .

(٦) المسند ( ٣ / ٨ ) .

(٧) فى ف : « شتيمة ». (٨) فى ف : « مديحة » . (٩) فى ف : « وكان ».

واحد منهما غوّاة من قومه ـ وهم (١) السفهاء ـ فقال الله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه .

وهذا الذى قاله ابن عباس ، رضى الله عنه ، هو الواقع فى نفس الأمر ؛ فإن الشعراء يتبجَّحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم ؛ ولهذا اختلف العلماء ، رحمهم الله ، فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدًّا : هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين . وقد ذكر محمد بن إسحاق ، ومحمد بن سعد فى الطبقات ، والزبير بن بكَّار فى كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، استعمل النعمان بن عدى بن نَضْلَة على « ميسان» ـ من أرض البصرة ـ وكان يقول الشعر ، فقال :

ألاَ هـَل أتَى الحَسْنَاءَ أنّ حَليلَها ... بمَيْسَانَ ،يُسقَى فى زُجاج وَحَنْتَم
إذَا شـئتُ غَنـَّتْنى دَهاقينُ قـَرْيَة ... وَرَقَّاصَةٌ تَجذُو على كل مَنْسم(٢)
فإنْ كُنتَ نَدْمانِى فَبالأكْبرَ اسْقنى ... وَلاَ تَسـْقنى بالأصـْغَر المُتَثَلم(٣)
لـَعـَل أمير المؤمنينَ يَسـُوؤه ... تَنادُمُنا بـالجَـوْسـَق المُتـهـَدَم

فلما بلغ [ ذلك ] (٤) أمير المؤمنين قال : إى والله ، إنه ليسوؤنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته. وكتب إليه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [ غافر : ١ ـ ٣ ] ، أما بعد فقد بلغنى قولك :

لَعَلَّ أمير المُؤمنينَ يَسُوؤه ... تَنادُمُنَا بالجَوْسَق (٥) المُتَهَدّم

وايم الله ، إنه ليسوؤنى وقد عزلتك. فلما قدم على عمر بكَّته بهذا الشعر ، فقال : والله ـ ياأمير المؤمنين ـ ما شربتها قَطّ ، وما ذاك الشعر إلا شىء طَفَح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لى على عمل أبداً ، وقد قُلتَ ما قلتَ (٦) .

فلم يُذكر أنه حدّه على الشراب ، وقد ضمنه شعره ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه (٧) ذمه عمر ، رضى الله عنه ، ولامه على ذلك وعزله به . ولهذا جاء فى الحديث : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ، يَرِيه خير له من أن يمتلئ شعراً » (٨).

والمراد من هذا : أن (٩) الرسول ﷺ (١٠) الذى أنزل عليه (١١) القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛

---

(١) فى ف : « فهم » . (٢) فى ف ، أ : « مبسم » . (٣) فى ف : « المتلثم » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف ، أ : « فى الجوسق » .
(٦) الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ( ٢/٢٦٦ ) والطبقات الكبرى لابن سعد ( ٤/ ١٤٠ ) .
(٧) فى ف : « ولكن » .
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم ( ٢٢٥٧ ) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
(٩) فى ف ، أ : « أن هذا الرسول » .
(١٠) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (١١) فى ف ،أ : «عليه هذا القرآن »..

لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [ يس : ٦٩ ] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الحاقة : ٤٠ ـ ٤٣ ] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد [1] بن عبدالله ابن قُسَيْط ، عن أبى الحسن سالم البرّاد ــ مولى تميم الدارى ـ قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ ،جاء حسان بن ثابت ،وعبد الله بن رَوَاحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبى ﷺ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ قال : « أنتم » .

رواه ابن أبى حاتم . وابن جرير ، من رواية ابن إسحاق [2] .

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا ، عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، عن الوليد بن كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبى الحسن مولى بني نوفل ؛ أن حسان بن ثابت ،وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ يبكيان ، فقال رسول الله ﷺ ، وهو يقرؤها عليهما : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، قال: « أنتم » [3] .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة [4] ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، قد علم الله أنى منهم . فأنزل الله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

وهكذا قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية [ فى ] [5] شعراء الأنصار ؟ فى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها ، والله أعلم ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ، ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً فى

---

(١) فى ف : « زيد » .

(٢) تفسير الطبرى ( ١٩/ ٧٩ ) .

(٣) ورواه الحاكم فى المستدرك ( ٣/ ٤٨٨ ) من طريق أبى أسامة به .

(٤) فى ف ، أ : « أبو مسلم » .

(٥) زيادة من ف .

مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الإسلام وأهله فى مقابلة ما كذب [١] بذمه ، كما قال عبد الله بن الزبعْرَى حين أسلم :

يَا رَسُولَ المَلِيك ، إنّ لِسَانِى رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أجَارِى الشَّيْطانَ فى سَنَن الغَـ ـىِّ ، وَمَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ ، وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وهكذا روى مسلم فى صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطنيهن قال : «نعم». قال : معاوية تجعله كاتبا بين يديك . قال : « نعم » . قال : وتُؤمرنى حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين . قال :« نعم » . وذكر الثلاثة [٢] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **إلا الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَات وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثيراً** ﴾ قيل : معناه : ذكروا الله كثيراً فى كلامهم . وقيل : فى شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفّر لما سبق .

وقوله : ﴿ **وَانتَصَرُوا من بَعْد مَا ظُلمُوا** ﴾ : قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهجهم ـ أو قال : هاجهم ـ وجبريل معك » [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبى ﷺ : إن الله ، عز وجل ، قد أنزل فى الشعْر ما أنزل ، فقال : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده ، لكأن ما ترمونهم به نَضْح النبْل » [٤] .

وقوله : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلبُونَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالمينَ مَعْذرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار** ﴾[ غافر : ٥٢ ] وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » [٥] .

وقال قتادة بن دِعامَة فى قوله : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلبُونَ** ﴾ يعنى: من الشعراء وغيرهم .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا إياس بن أبى تميمة ، قال : حضرت الحسن ومُرَّ عليه بجنازة نصرانى، فقال الحسن : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلبُونَ** ﴾ .

وقال عبد الله بن رَبَاح ، عن صفوان بن مُحْرز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية ـ بكى حتى أقول : قد اندق قَضِيب زَوره ـ : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلبُونَ** ﴾ .

---

(١) فى ف ، أ : « ما كان » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٠١) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦١٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب ، رضى الله عنه .

(٤) المسند ( ٦/٣٨٧ ) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٨) من حديث جابر ، رضى الله عنه ، ولفظه : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وقال ابن وهب : أخبرني (١) ابن سُرَيج الإسكندراني ، عن بعض المشيخة : أنهم كانوا بأرض الروم ، فبينما هم ليلة على نار يشتون (٢) عليها ـ أو : يصطلون ـ إذا بركاب(٣) قد أقبلوا ، فقاموا إليهم ، فإذا فضالة بن عبيد فيهم ، فأنزلوه فجلس معهم ـ قال : وصاحب لنا قائم يصلى ـ قال : حتى مرّ بهذه الآية : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت .

وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم ، كما قال ابن أبى حاتم : ذُكر عن زكريا بن يحيى الواسطى : حدثنى الهيثم بن محفوظ أبو سعد (٤) النهدى ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المجير (٥) ، حدثنا هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كتب أبى وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قُحَافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهى الفاجر ، ويَصدُق الكاذب : إنى استخلفت عليكم عُمَر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظنى به ، ورجائى فيه، وإن يَجُر ويبدل فلا أعلم الغيب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

## آخر تفسير سورة « الشعراء » والحمد لله رب العالمين

(١) فى ف ، أ : « حدثنا » . (٢) فى أ : « يشوون » . (٣) فى ف ، أ : « بركبان » .
(٤) فى ف ، أ : « أبو سعيد » . (٥) فى أ : « الحبر » .

# سورة الشعراء

مكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾... إلى آخر السورة [الشعراء، ٢٦/٢٢٤-٢٢٧]، وهي مائتان وسبع وعشرون آيةً، وفي رواية ستّ وعشرون.[١]

/ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [٢١٧و]

﴿طسٓمٓ ١﴾

﴿طسٓمٓ﴾ بتفخيم الألف،[٢] وبإمالتها،[٣] وإظهار النون، وبإدغامها في الميم.[٤] وهو إمّا مسرود على نمط التعديد بطريق التحدّي على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة، فلا محلّ له مِن الإعراب، وإمّا اسم للسورة كما عليه إطباق الأكثر، فمحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، وهو أظهر مِن الرفع على الابتداء، وقد مرّ وجهه في مطلع سورة يونس عليه السلام، أو النصبُ بتقدير فعلٍ لائقٍ بالمقام، نحو: "اذكر" أو "اقرأ".

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾

و﴿تِلۡكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إشارة إلى السورة سواء كان ﴿طسٓمٓ﴾ مسرودًا على نمط التعديد، أو اسمًا للسورة حسبما مرّ تحقيقه هناك.[٥] وما في اسم الإشارة مِن معنى البعد للتنبيه على بُعد مَنزلة المُشار إليه

---

[١] م - سورة الشعراء، مكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾... إلى آخر السورة [الشعراء، ٢٦/٢٢٤-٢٢٧]، وهي مائتان وسبع وعشرون آيةً، وفي رواية ستّ وعشرون.

[٢] أي: بتفخيم ألف "طا" مع فتحها. وقرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحفص. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

[٤] قرأ حمزة وأبو جعفر بالإظهار، لكن أبو جعفر على أصله مِن السكت بين الحروف. وقرأ باقي القرّاء العشر بالإدغام. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/١٩.

[٥] وفي هامش م: أي: في سورة يونس عليه السلام. «منه».

في الفخامة. ومحلّه الرفع على أنّه مبتدأ خبره ما بعده. وعلى[١] تقدير كون ﴿طسٓمٓ﴾ مبتدأً فهو مبتدأٌ ثانٍ، أو بدَل مِن الأوّل.

والمراد بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ القرآن، وبـ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ الظاهرُ إعجازه، على أنّه مِن "أبانَ" بمعنى "بانَ"، أو المُبيِّنُ للأحكام الشرعيّة وما يتعلّق بها، أو الفاصلُ بين الحقّ والباطل. والمعنى: هي آيات مخصوصةٌ منه مُترجَمةٌ باسم مستقلّ. والمراد[٢] ببيان كونِها بعضًا منه وصفُها بما اشتهر به الكلّ مِن النعوت الفاضلة.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ أي: قاتل. وأصلُ "البَخْع" أن يبلغ بالذبح البِخاعَ، وهو عِرقٌ مستبطِن الفَقار، وذلك أقصى حدّ الذبح. وقُرئ: "بَاخِعُ نَفْسِكَ"[٣] على الإضافة، و"لعلّ" للإشفاق، أي: أَشفِق على نفسك أن تقتلها حسرةً على ما فاتك مِن إسلام قومك.

﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين، أو خِيفةَ أن لا يؤمنوا به.

﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ﴾... إلخ استئناف مَسوق لتعليل ما يُفهم مِن الكلام مِن النهي عن التحسّر المذكور ببيان أنّ / إيمانهم ليس ممّا تعلّقت به مشيئة الله [٢١٧ظ]
تعالى حَتمًا، فلا وجه للطمع فيه والتألّم مِن فواته. ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمونَ الجزاء، أعني: قوله تعالى: ﴿نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾ أي: ملجئةً لهم إلى الإيمان قاسرة عليه، وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدّم والتشويق إلى المؤخَّر.

﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي: منقادين. وأصله: فظلّوا لها خاضعين، فأُقحِمت الأعناقُ لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع، وتُرِك الخبرُ على حاله.

---

١ س: أو على.

٢ ط س: والمقصود.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن علي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.

وقيل: لمّا وُصفت الأعناق بصفات العقلاء أُجريَت مُجراهم في الصيغة أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف، ٤/١٢]. وقيل: أُريدَ بها الرؤساء والجماعات، مِن قولهم: "جاءنا عُنُق مِن الناس" أي: فوج منهم. وقُرِئ: "خَاضِعَةً".[١]

وقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ﴾ معطوف[٢] على ﴿نُنَزِّلْ﴾ باعتبار محلّه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لشدّة شَكيمتهم، وعدمِ ارعِوائهم عمّا كانوا عليه مِن الكفر والتكذيب بغير ما ذُكر مِن الآية المُلجِئة لصَرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الحرص على إسلامهم وقَطع رجائه عنه. و﴿مِن﴾ الأُولى مزيدة لتأكيد العموم، والثانية لابتداء الغاية مجازًا متعلّقةٌ بـ﴿يَأْتِيهِم﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ذِكْرٍ﴾. وأيًّا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرَفه وشَناعة ما فعلوا به.

والتعرّض لعنوان الرحمة لتغليظ شَناعتهم، وتهويل جنايتهم، فإنّ الإعراض عمّا يأتيهم مِن جنابه عزّ وجلّ على الإطلاق شَنيع قبيح، وعمّا يأتيهم بموجَب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح، أي: ما يأتيهم مِن موعظة مِن المواعظ القرآنيّة، أو مِن طائفةٍ نازلة مِن القرآن تذكّرهم أكملَ تذكير، وتنبّههم عن الغفلة أتمّ تنبيه، كأنّها نفس الذِكر مِن جهته تعالى، بمقتضى رحمته الواسعة مجدَّدٍ تنزيله حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة، إلّا جدّدوا إعراضًا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء، وإصرارًا على ما كانوا عليه مِن الكفر والضلال.

[٢١٨و] والاستثناء / مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، محلّه النصب على الحاليّة مِن مفعول ﴿يَأْتِيهِم﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور، أي: ما يأتيهم مِن ذكر في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم معرضين عنه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.

[٢] ط س: عطف.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ أي: كذّبوا بالذكر الذي يأتيهم تكذيبًا صريحًا مقارِنًا للاستهزاء به، ولم يكتفوا بالإعراض عنه، حيث جعلوه تارةً سِحرًا، وأخرى أساطيرَ، وأخرى شعرًا.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. و"السين" لتأكيد مضمون الجملة وتقريره، أي: فسيأتيهم البتّة مِن غير تخلّف أصلًا ﴿أَنبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عدلٌ عمّا يقتضيه ظاهر ما سلف مِن الإعراض والتكذيب للإيذان بأنّهما كانا مقارِنين للاستهزاء كما أشيرَ إليه حسبما وقع في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم[1] مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام، ٦/٤-٥].

و"أنباؤه" ما سيحيق بهم مِن العقوبات العاجلة والآجلة، عُبّر عنها بذلك إمّا لكونها ممّا أنبأ بها القرآن الكريم، وإمّا لأنّهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء. وفيه تهويل له لأنّ النبأ لا يطلق إلّا على خبرٍ خَطِرٍ[2] له وقع عظيمٌ، أي: فسيأتيهم لا محالةَ مِصداق ما كانوا[3] يستهزئون به قبلُ مِن غير[4] أن يتدبّروا في أحواله ويقفوا عليها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ "الهمزة" للإنكار التوبيخي، و"الواو" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أَفعلوا ما فعلوا مِن الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إلى عجائبها الزاجرة عمّا فعلوا، الداعيةِ إلى الإقبال على ما أعرضوا عنه وإلى الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ استئناف مبيّن لِما في الأرض مِن الآيات الزاجرة / عن الكفر الداعية إلى الإيمان. و﴿كَمْ﴾ خبريّة [٢١٨ظ]

---

[1] م: يأتيهم.
[2] ط س: خطير.
[3] س + به.
[4] س: عير.

منصوبة بما بعدها على المفعوليّة، والجمعُ بينها وبين ﴿كُلِّ﴾ لإفادة الإحاطة والكثرة معًا، و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صِنف؛ تمييزٌ، و"الكريم" مِن كلّ شيء مَرضيُّه ومحمودُه، أي: كثيرًا مِن كلّ صِنف مرضيٍّ كثيرِ المنافع أنبتنا فيها. وتخصيصُ إنباته بالذكر دون ما عداه مِن الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معًا.

ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعِها وضارّها، ويكونَ وصف الكلّ بالكرَم للتنبيه على أنّه تعالى ما أنبت شيئًا إلّا وفيه فائدة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢٩/٢]، فإنّ الحكيم لا يكاد يفعل فعلًا إلّا وفيه حكمة بالغة وإن غفل عنها الغافلون، ولم يتوصّل إلى معرفة كُنهها العاقلون.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⑧﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَنۢبَتْنَا﴾، أو إلى كلّ واحد مِن تلك الأزواج، وأيًا ما كان فما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلته في الفضل. ﴿لَـَٔايَةً﴾ أي: آيةً عظيمةً دالّة على كمال قدرة مُنبتها، وغايةِ وُفور علمه وحِكمته، ونهايةِ سَعةِ رحمته موجبةً للإيمان وازِعة عن الكفر.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثرُ قومه عليه السلام ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: أي: في علم الله تعالى وقضائه، حيث علِم أزلًا أنّهم سيُصرفون فيما لا يزال اختيارهم الذي عليه يدور أمر التكليف إلى جانب الشرّ، ولا يتدبّرون في هذه الآيات العظام.

وقال سيبويه: «﴿كَانَ﴾ صلة،[1] والمعنى: وما أكثرهم مؤمنين»،[2] وهو الأنسب بمقام بيان عتوّهم وغلوّهم في المكابرة والعناد مع تعاضد موجِبات الإيمان مِن جهته تعالى. / وأمّا نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فربّما يُتوهّم منها [٢١٩و] كونُهم معذورين فيه بحسب الظاهر؛ لأنّ ما أشيرَ إليه مِن التحقيق ممّا خفي على مَهرة العلماء المتقنين، كأنّه قيل: إنّ في ذلك لآية باهرةً موجِبةً للإيمان،

---

[1] وفي هامش م: أي: زائدة. «منه».

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٩/٧؛ اللباب لابن عادل، ٧/١٥.

وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك، لِغاية تماديهم في الكفر والضلالة، وانهماكِهم في الغيّ والجهالة. ونسبةُ عدم الإيمان إلى أكثرهم لأنّ منهم مَن سيؤمن.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ على كلّ ما يريده مِن الأمور التي مِن جملتها الانتقام مِن هؤلاء، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالِغ في الرحمة، ولذلك يُمهلهم ولا يؤاخذهم بغتةً بما اجترءوا عليه مِن العظائم الموجِبة لفنون العقوبات. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه والعِدَة الخفيّة بالانتقام مِن الكفرة ما لا يخفى.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله مِن إعراضهم عن كلّ ما يأتيهم مِن الآيات التنزيليّة، وتكذيبِهم بها إثرَ بيان إعراضهم عمّا يشاهدونه مِن الآيات التكوينيّة.

و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[1] أي: واذكر لأولئك المعرضين المكذّبين وقتَ ندائه تعالى إيّاه عليه السلام، وذكّرهم بما جرى على قومِ فرعونَ بسبب تكذيبهم إيّاه زجرًا لهم عمّا هم عليه مِن التكذيب، وتحذيرًا مِن أن يَحيق بهم مثلُ ما حاق بأضرابهم المكذّبين الظالمين حتّى يتّضح لك أنّهم لا يؤمنون بما يأتيهم مِن الآيات، لكن لا بقياس[2] حال هؤلاء بحال أولئك فقط؛ بل بمشاهدة إصرارهم على ما هم عليه بعد سماع الوحي الناطق بقصّتهم، وعدمِ اتّعاظهم بذلك، كما يلوّح به تكريرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً / وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ عقيب كلّ قصّةٍ. [٢١٩ظ]

وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ سرّه مرارًا.

---

[1] س: عليه السلام.

[2] وفي هامش م: يقال: قاسَه به، وعليه. «منه».

﴿أَنِ ٱئۡتِ﴾ بمعنى: أيِ ائتِ، على أنّ ﴿أن﴾ مفسِّرة، أو بأنِ ائتِ، على أنّها مصدريّة حُذِف عنها الجارّ. ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبحِ أبنائهم. وليس هذا مَطلعَ ما ورد في حيّز النداء، وإنّما هو ما فُصِّل في سورة طه مِن قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه، ١٢/٢٠-٢٣].

وإيراد ما جرى في قصّة واحدة مِن المقالات بعبارات شتّى وأساليبَ مختلفة قد مرّ تحقيقه في أوائل سورة الأعراف عند قوله تعالى:[١] ﴿قَالَ أَنظِرۡنِي﴾ [الأعراف، ١٤/٧].

﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١﴾

﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ بدلٌ مِن الأوّل، أو عطفُ بيان له، جيء به للإيذان بأنّهم عَلَمٌ في الظلم، كأنّ معنى ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] وترجمتَه: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾. والاقتصار على ذكر قومه للإيذان بشهرة أنّ نفسه أوّلُ داخلٍ في الحكم.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئناف جيء به إثرَ إرساله عليه السلام إليهم للإنذار تعجيبًا مِن غُلوّهم في الظلم وإفراطهم في العدوان. وقُرئ بتاء الخطاب[٣] على طريقة الالتفات المُنبئ عن زيادة الغضب عليهم، كأنّ ذكرَ ظلمهم أدّى إلى مشافهتهم بذلك، وهم وإن كانوا حينئذ غُيّبًا لكنّهم قد أُجروا مُجرى الحاضرين في كلام المرسَل إليهم مِن حيث إنّه مبلّغه إليهم، وإسماعَه مَبدأ إسماعهم، مع ما فيه مِن مزيد الحثّ على التقوى لِمَن تدبّر وتأمّل.

وقُرئ بكسر النون[٤] اكتفاءً به عن ياء المتكلّم، وقد جُوّز أن يكون بمعنى "ألا يا ناسُ اتّقونِ"، نحو: "أَلَا يَا اسْجُدُوا".[٥]

---

[١] س - تعالى.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسلم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٣.

[٤] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٤/٤.

[٥] في قراءة الكسائي وأبي جعفر ورُويس في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ [النمل، ٢٥/٢٧]، حيث قرءوا بتخفيف اللام، ووقفوا في الابتداء "ألا يا"، وابتدءوا "اُسْجُدُوا" بهمزة مضمومة على الأمر، على معنى: ألا يا هؤلاء، أو يا أيها الناس اسجدوا، فحُذفت همزة الوصل بعد "يا" وقبل السين مِن الخطّ على مراد الوصل دون الفصل. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية ما مضى، كأنّه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام؟ فقيل: قال متضرّعًا إلى الله تعالى:[١] ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ مِن أوّل / الأمر. [٢٢٠و]

﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣﴾

﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ معطوفان على ﴿أَخَافُ﴾.[٢] ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ ليكون معي، وأتعاضدَ به في تبليغ الرسالة.

رتّب عليه السلام استدعاءَه ذلك على الأمور الثلاثة: خوفِ التكذيب، وضيقِ الصدر، وازديادِ ما كان فيه عليه السلام مِن حَبسة اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق؛ لأنّها إذا اجتمعت تمسّ الحاجة إلى مُعِين يقوّي قلبَه وينوب مَنابَه إذا اعتراه حَبسة، حتّى لا يختلّ دعوته، ولا ينقطع حجّته. وليس هذا مِن التعلّل والتوقّف في تلقّي الأمر في شيء، وإنّما هو استدعاء لِما يُعِينه على الامتثال به، وتمهيدِ عذرٍ فيه.

وقُرئ: "وَيَضِيقَ"، "وَلَا يَنْطَلِقَ" بالنصب[٣] عطفًا على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾،[٤] فيكونان مِن جملة ما يَخاف منه.

﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝١٤﴾

﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ أي: تَبِعةُ ذنبٍ، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، أو سُمّي باسمه. والمراد به قتل القبطي، وتسميته ذنبًا بحسب زعمِهم، كما ينبئ عنه قوله تعالى:[٥] ﴿لَهُمۡ﴾. وهذا إشارة إلى قصّة مبسوطة في غير موضع.[٦]

﴿فَأَخَافُ﴾ أي: إن أتيتهم وَحدي ﴿أَن يَقۡتُلُونِ﴾ بمقابلته، قبل أداء الرسالة كما ينبغي. وليس هذا أيضًا تعلّلًا، وإنّما هو استدفاع للبليّة المتوقّعة قبل وقوعها.

---

١ س: عزّ وجلّ.
٢ في الآية السابقة.
٣ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.
٤ في الآية السابقة.
٥ س - تعالى.
٦ انظر على سبيل المثال: القصص، ١٥/٢٨.

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حكاية لإجابته تعالى إلى الطِّلْبتين: الدفعِ المفهوم مِن الردع عن الخوف، وضمّ أخيه المفهومِ مِن توجيه الخطاب إليهما بطريق التغليب، فإنّه معطوف على مُضمَر يُنبئ عنه الردع، كأنّه قيل: ارتدع يا موسى عمّا تظنّ، فاذهب / أنت ومَن استدعيتَه. [٢٢٠ظ]

وفي قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ رمز إلى أنّها تَدفع ما يخافه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ تعليل للردع عن الخوف، ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه، ٤٦/٢٠]. وحيث كان الموعود بمَحضرٍ مِن فرعونَ اعتُبر ههنا في المعيّة. وقيل: أُجريا مُجرى الجماعة،[1] ويأباه ما قبله وما بعده مِن ضمير التثنية.

أي: سامعون ما[2] يجري بينكما وبينه فنُظهِركما عليه. مُثِّل حاله تعالى بحال ذي شوكة قد حضر مجادلةَ قوم يستمع ما يجري بينهم، ليُمِدَّ أولياءَه ويظهرهم على أعدائهم مبالغةً في الوعدِ بالإعانة، أو استُعيرَ الاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو العلمُ بالحروف والأصوات. وهو خبر ثانٍ، أو خبرٌ وحدَه، و﴿مَعَكُم﴾ ظرف لغوٌ.

﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن الوعد الكريم. وليس هذا مُجرّدَ تأكيدٍ للأمر بالذهاب؛ لأنّ معناه الوصول إلى المأتيّ، لا مجرّدُ التوجّه إليه كالذهاب. وإفرادُ "الرسول" إمّا باعتبار رسالة كلّ منهما، أو لاتّحاد مطلبهما، أو لأنّه مصدر وُصِفَ به.

---

[1] انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥١/٣؛ واللباب لابن عادل، ١٢/١٥.

[2] ط س: بما.

﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾

و﴿أَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ مفسِّرة لتضمّن الإرسال المفهوم مِن "الرسول" معنى القول. ومعنى إرسالِهم تخليتُهم وشأنَهم ليذهبوا معهما إلى الشام.

﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لموسى عليه السلام بعد ما أتياه وقالا له ما أُمِرَا به.

يُروى أنّهما انطلقا إلى باب فرعون، فلم يُؤذن لهما سنةً، حتّى قال البوّاب: إنّ ههنا إنسانًا يزعمُ أنّه رسول ربّ العالمين، فقال: ائذَنْ له لعلّنا نضحكُ، فأدّيا إليه الرسالة، فعرف موسى عليه السلام،[1] / فقال عند ذلك: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ في حَجرِنا ومنازلنا ﴿وَلِيدٗا﴾ أي: طفلًا. عُبّر عنه بذلك لقُرب عهده بالولادة. [٢٢١و]

﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل: لبِثَ فيهم ثلاثين سنةً، ثمّ خرج إلى مدين، وأقام به عشر سنين، ثمّ عاد إليهم يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ثلاثين سنةً، ثمّ بقي بعد الغرق خمسين.[2] وقيل: وكَز القبطي وهو ابن ثنتي عشرة سنةً، وفرّ منهم على إثر ذلك،[3] والله تعالى[4] أعلم.

﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾

﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ يعني: قتلَ القبطي. بعد ما عدّد عليه نعمته مِن تربيته وتبليغه مبلغَ الرجال وَبّخه بما جرى عليه مِن قتل خبّازه، وعظّم ذلك وفظّعه. وقُرئ: "فِعْلَتَكَ" بكسر الفاء؛[5] لأنّها كانت نوعًا مِن القتل.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: بنعمتي حيث عمَدتَ إلى قتل رجلٍ مِن خواصّي، أو أنت حينئذ ممّن تُكفّرهم الآن. وقد افترى عليه عليه السلام، أو جَهِل أمرَه عليه السلام

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٣.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٥/٤.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٣.

٤ س - تعالى.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الشعبي. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٦/٨.

حيث كان يعايشهم بالتقيّة، وإلّا فأين هو عليه السلام مِن مشاركتهم في الدين، فالجملة حينئذ حال مِن إحدى التاءين، ويجوزُ أن يكون حكمًا مبتدأً عليه بأنّه مِن الكافرين بإلهيّته، أو ممّن يُكفِّرون في دينهم، حيث كانت لهم آلهة يعبدونهم، أو مِن الكافرين بالنِّعم المعتادين لِغَمطها، ومَن اعتادَ ذلك لا يكون مثلُ هذه الجناية بِدْعًا منه.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾

﴿قَالَ﴾ مُجيبًا له مصدّقًا له في القتل، ومكذّبًا فيما نسبه إليه مِن الكفر: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: مِن الجاهلين، وقد قُرئ كذلك،[1] لا مِن الكافرين كما زعمتَ افتراءً، أي: مِن الفاعلين فِعلَ الجهَلة والسفهاء، أو مِن المُخطئين؛ لأنّه لم يتعمّد قتلَه؛ بل أراد تأديبَه، أو الذاهبين عمّا يؤدّي إليه الوَكْز، أو الناسين كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ / إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٢]. [٢٢١ظ]

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى ربّي ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تصيبوني بمضرّة، وتؤاخذوني بما لا أستحقّه بجنايتي مِن العقاب، ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي: حِكمةً، أو نبوّةً،[2] ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ردٌّ أوّلًا بذلك ما وبّخه به قَدْحًا في نبوّته، ثمّ كرّ على ما عدّه عليه مِن النعمة، ولم يصرّح بردّه حيث كان صِدقًا غيرَ قادح في دعواه؛ بل نبّه على أنّ ذلك كان في الحقيقةِ نِقمة، فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: تلك التربية نعمة تَمُنّ بها عليّ ظاهرًا، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل، وقصدك إيّاهم بذبح أبنائهم، فإنّه السبب في وقوعي عندك، وحصولي في تربيتك.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٣.

[2] وفي هامش م: مقاتل.

وقيل: إنّه مقدّر بهمزة الإنكار، أي: أوَتلك نعمة تمنّها عليّ، وهي أن عبّدت بني إسرائيل؟ ومحلّ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو بدل مِن ﴿نِعْمَةٌ﴾، أو الجرُّ بإضمار "الباء"، أو النصبُ بحذفها.

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى خَصلة شنعاء مبهمة، و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ عطف بيان لها، والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمةٌ تَمُنّها عليّ. وتوحيد الخطاب في ﴿تَمُنُّهَا﴾ وجمعُه فيما قبله؛ لأنّ المِنّة منه خاصّة، والخوفَ والفرارَ منه ومِن مَلَئه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لمّا سمع منه عليه السلام تلك المقالة المتينة وشاهد تَصلّبه في أمره وعدمَ تأثّره بما قدّمه مِن الإبراق والإرعاد شرَع في الاعتراض على دعواه عليه السلام فبدأ بالاستفسار عن المرسِل فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حكايةً لِما وقع في عبارته عليه السلام، أي: أيُّ شيء ربّ العالمين الذي تدّعي[1] أنك رسوله منكِرًا لِأن يكون للعالمين / ربٌّ سواه حسبما يُعرِب عنه قوله: [٢٢٢و]
﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات، ٢٤/٧٩]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص، ٣٨/٢٨]، وينطق به وعيده عند تمام أجوبته عليه السلام.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مجيبًا له: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بتعيين ما أراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] وتفصيلِه لزيادة التحقيق والتقرير، وحَسمِ مادّة تزوير اللعين وتشكيكِه بحمل "العالَمين" على ما تحت مملكته.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم موقنين بالأشياء محقّقين لها علمتم ذلك، أو إن كنتم موقنين بشيء مِن الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإنارة دليله.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون عند سماع جوابه عليه السلام خوفًا مِن تأثيره في قلوب

---

[1] ط س: ادّعيت.

[2] في الآية السابقة.

قومه وإذعانهم له ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ مِن أشراف قومه. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كانوا[١] خمسمائة عليهم الأساور، وكانت للملوك خاصّةً».[٢]

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ مرائيًا لهم أنّ ما سمعوه مِن جوابه عليه السلام مع كونه ممّا لا يليق بأن يُعتدّ به أمرٌ حقيق بأن يُتعجَّبَ منه، كأنّه قال: ألا تستمعون ما يقوله؟ فاستمعوه وتعجّبوا منه حيث يدّعي خلاف أمرٍ محقَّق لا اشتباه فيه، يريد به ربوبيّة نفسه.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام تصريحًا بما كان مندرجًا تحت جوابيه السابقين: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وحَطًّا له مِن ادّعاء الربوبيّة إلى مَرتبة المَربوبيّة.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون، لمّا واجهه موسى عليه السلام بما ذُكر غاظَه ذلك وخاف مِن تأثّر قومه منه، فأراهم أنّ ما قاله عليه السلام ممّا لا يصدر عن العقلاء صدًّا لهم عن قَبوله، فقال مؤكّدًا لِمقالته الشنعاء بحرفَي التأكيد: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لِيفتِنهم بذلك ويَصرِفهم عن قَبول الحقّ. وسمّاه "رسولًا" بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطَبيه ترفّعًا مِن أن يكون مرسَلًا إلى نفسه.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قاله عليه السلام تكميلًا لجوابه الأوّل / وتفسيرًا له، وتنبيهًا على جهلهم، وعدمِ فهمهم لمعنى [٢٢٢ظ]
مقالته، فإنّ بيان ربوبيّته تعالى للسماوات والأرض وما بينهما وإن كان متضمّنًا لبيان ربوبيّته تعالى للخافقين وما بينهما، لكن لمّا لم يكن فيه تصريح باستناد

---

[١] ط س: وكانوا.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٠٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٥٠.

حركات السماوات وما فيها وتغيّرات أحوالها وأوضاعها وكونِ الأرض تارةً مظلمة وأخرى منوَّرةً إلى الله تعالى، أرشدهم إلى طريق معرفة ربوبيّته تعالى لِما ذُكر، فإنّ ذكر ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مُنبئ عن شروق الشمس وغروبها المَنوطَين بحركات السماوات وما فيها على نمطٍ بديع يترتّب عليه هذه الأوضاع الرصينة، وكلُّ ذلك أمور حادثة مفتقِرة إلى مُحدِث قادر عليم حكيم، لا كذَوات السماوات والأرض التي ربّما يَتوهّم جهلة المتوهّمين باستمرارها استغناءَها عن الموجد المتصرّف.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كنتم تعقلون شيئًا مِن الأشياء، أو إن كنتم مِن أهل العقل علمتم أنّ الأمر كما قلته. وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر بحيث لا يشتبه على مَن له عَقل في الجملة، وتلويح بأنّهم بمَعزِل مِن دائرة العقل، وأنّهم المتّصفون بما رمَوه به عليه السلام[1] مِن الجنون.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ لمّا سمع اللعينُ منه عليه السلام هذه[2] المقالاتِ المبنيّة على أساس الحِكَم البالغة، وشاهَدَ شدّة حزمه وقوّةَ عزمه على تمشية أمره، وأنّه ممّن لا يجارَى في حَلْبة[3] المحاورة، ضرَبَ صَفحًا عن المقاولة بالإنصاف، ونَأى بجانبه إلى عُدوة الجَور والاعتساف، فقال مُظهِرًا لِما كان يُضمره عند السؤال والجواب: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ لم يقتنع منه عليه السلام بترك دعوى الرسالة وعدمِ التعرّض له حتّى كلّفه عليه السلام أن يتّخذه إلهًا لغاية عتوّه وغلوّه فيما فيه مِن دعوى الألوهيّة، وهذا صريح في أنّ تعجّبه وتعجيبه مِن الجواب الأوّل ونسبتَه عليه السلام إلى الجنون في الجواب الثاني كان لنسبته عليه السلام الربوبيّة إلى غيره.

وأمّا ما قيل مِن أنّ سؤاله كان عن حقيقة المرسِل، وتعجّبَه مِن جوابه كان لعدم مطابقته له / لكونه يذكر أحواله،[4] فلا يساعده النظم الكريم، ولا حالُ فرعونَ ولا مقالُه. [٢٢٣و]

---

[1] ط س + به.
[2] م ط س: تلك [''صح'' في هامش م].
[3] س: حلبه.
[4] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٣٦.

واللام في ﴿ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ للعهد، أي: لأجعلنّك ممّن عرفت أحوالهم في سجوني، حيث كان يطرحهم في هُوّة عميقة حتّى يموتوا، ولذلك لم يقل: لَأسجُننّك.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين، أي: موضِح لصِدق دعواي؟ يريد به المعجزة، فإنّها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحِكمته وبين الدلالة على صدق دعوى مَن ظهرت على يده. والتعبير عنها بـ"الشيء" للتهويل.

قالوا: "الواو" في ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ للحال، دخلت عليها همزة الاستفهام، أي: جائيًا بشيء مبين،[١] وقد سلف منّا مرارًا أنّها للعطف، وأنّ كلمة "لو" ليست لانتفاء الشيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه، فلا يلاحظُ له جواب قد حُذف تعويلًا على دلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديّة إلّا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعيّة؛ بل هي لبيان تحقّق ما يفيده الكلام السابق مِن الحُكم الموجَب أو المنفيّ على كلّ حال مفروضٍ مِن الأحوال المقارِنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدِّها منافاةً له، ليَظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع ما عداه مِن الأحوال بطريق الأولويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقّق مع المنافي القويّ، فلَأن يتحقّق مع غيره أولى، ولذلك لا يُذكر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتَفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملةِ لجميع الأحوال المغايرةِ لها عند تعدّدها؛ ليظهر ما ذُكر مِن تحقّق الحُكم على جميع الأحوال.

فإنّك إذا قلت: "فلان جواد يعطي ولو كان فقيرًا" تريد بيان تحقّق الإعطاء منه على كلّ حال مِن أحواله المفروضة، فتُعلِّق الحكمَ بأبعدها منه ليَظهر بتحقّقه معه تحقّقُه مع ما عداه مِن الأحوال التي لا منافاةَ بينها وبين الحُكم

---

[١] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ مِن سورة البقرة [البقرة، ٢/١٧٠]، وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ مِن سورة الأعراف [الأعراف، ٧/٨٨]، وفي غيرهما مِن المواقع. «منه».

بطريق الأولويّة المصحِّحة للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها، كأنّك قلت: "فلان جواد يعطي لو لم يكن فقيرًا ولو كان فقيرًا"، أي: يعطي حالَ كونه غنيًّا وحالَ كونه فقيرًا، فالحال في الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين، لا المذكورةُ على أنّ الواو للحال.

وتصدير المجيء بما ذُكر مِن[1] كلمة[2] "لو" دون "إن" ليس لبيان استبعاده في نفسه؛ بل بالنسبة إلى فرعون. والمعنى: أتفعل بي ذلك حال عدم مَجيئي / بشيء مبين، وحالَ مجيئي به؟ [٢٢٣ظ]

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢﴾

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما يدلّ عليه كلامك مِن أنّك تأتي بشيء مبين موضّح لصِدق دعواك، أو في دعوى الرسالة. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ ثعبانيّتُه، لا أنّه شيء يشبهه. واشتقاق "الثعبان" مِن "ثَعَبْتُ الماءَ فَانْثَعَب"، أي: فجّرتُه فانفجر، وقد مرّ بيان كيفيّة الحال في سورة الأعراف[3] وسورة طه.[4]

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ مِن جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ قيل: لمّا رأى فرعون الآية الأولى قال: «هل لكَ غيرها؟» فأخرج يده، فقال: «ما هذه؟» قال فرعون: «يدُك، فما فيها؟» فأدخلها في إبطه ثمّ نزعها ولها شعاع يكاد يُغشي الأبصار ويسدّ الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ أي: مستقرّين حوله، فهو ظرف وقع موقع الحال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائقٌ في فنّ السحر.

---

١ ط س - مِن.
٢ ط س: بكلمة.
٣ الأعراف، ١٠٧/٧.
٤ طه، ٢٠/٢٠.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥﴾

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ قَسْرًا ﴿مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بَهَرَه سلطان المعجزة، وحيّره حَتّى حطّه عن ذروة ادّعاء الربوبيّة إلى حضيض الخضوع لعبيده في زعمه، والامتثال بأمرهم، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعدما كان مستقلًّا في الرأي والتدبير، وأظهر استشعار الخوف مِن استيلائه على مُلكه ونسبةَ الإخراج والأرض إليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخِّر أمرهما، وقيل: احبسهما ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي: شُرَطًا[1] يَحشرون السحرة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ٣٧﴾

﴿يَأْتُوكَ﴾ أي: الحاشرون ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فائق في فنّ السحر. وقُرئ: "بِكُلِّ سَاحِرٍ".[2]

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤٠﴾

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ هو ما عيّنه موسى عليه السلام بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه، ٥٩/٢٠].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ قيل لهم ذلك استبطاءً لهم في الاجتماع، وحثًّا لهم على المبادرة إليه.

/ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: نتّبعهم في دينهم إن كانوا هم [٢٢٤و]
الغالبين، لا موسى عليه السلام،[3] وليس مرادهم بذلك أن يتّبعوا دينهم حقيقة،

---

١ وفي هامش م: جمع شُرطة، وهم عمّال الولاة.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وعاصم. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٥٤/٨.
٣ م – عليه السلام.

وإنّما هو أن لا يتّبعوا موسى عليه السلام، لكنّهم ساقوا كلامهم مَساق الكناية حملًا لهم على الاهتمام والجِدّ في المغالبة.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ أي: أجرًا عظيمًا ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ لا موسى عليه السلام.

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿قَالَ نَعَمۡ﴾ لكم ذلك، ﴿وَإِنَّكُمۡ﴾ مع ذلك ﴿إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عندي. قيل: قال لهم: تكونون أوّلَ مَن يدخل عليّ، وآخرَ مَن يخرج عنّي. وقُرئ: "نَعِمْ" بكسر العين[1] وهما لغتان.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ أي: بعدما قال له السحرة: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٦٥]. ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ ولم يُرِد به الأمر بالسحر والتمويه؛ بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه البتّة توسّلًا به إلى إظهار الحقّ وإبطال الباطل.

﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ﴾ أي: وقد قالوا عند الإلقاء: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ قالوا ذلك لفَرْط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به مِن السحر.

﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ﴾ أي: تَبتلعُ بسرعة. وقُرئ: "تَلَقَّفُ"[2] بحذف إحدى التاءين مِن "تَتَلقّفُ" ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ أي: ما يَقلبونه مِن[3] وجهه وصورته

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.

٣ ط س: عن.

بتمويههم وتزويرهم، فيُخيِّلون حبالهم وعصيّهم أنّها حيّات تسعى، أو إفكَهم، تسميةً للمأفوك به مبالغةً.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أي: إثرَ ما شاهدوا ذلك مِن غير تَلعثُمٍ وتردّدٍ غيرَ متمالِكين، كأنّ مُلقِيًا ألقاهم، لعلمهم بأنّ مثل ذلك خارج عن حدود السحر، وأنّه أمر إلهي قد ظهر على يده عليه السلام لتصديقه. وفيه دليل على أنّ قُصارى ما ينتهي إليه هِمَم السحرة هو التمويه والتزوير وتخييلُ شيء لا حقيقةَ له.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بدل اشتمال، مِن "أُلقِي"، أو حال بإضمار "قد".

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بدل مِن ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للتوضيح ودفع توهّم إرادة فرعونَ حيث كان قومه الجهلة يسمّونه بذلك، وللإشعار بأنّ الموجِب لإيمانهم به تعالى ما أجراه على أيديهما مِن المعجزة القاهرة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: بغير أن آذن لكم -في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف، ١٨/١٠٩]- لا أنّ الإذن منه ممكن أو متوقَّع. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم، أو علّمكم شيئًا دون شيء، فلذلك غلبكم. أراد بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنّهم آمنوا عن بصيرة وظهورِ حقٍّ. وقُرئ: "أَآمَنْتُمْ" بهمزتين.[1]

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وبالَ ما فعلتم. وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيانٌ لِما أوعدهم به.

---

١ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص ورويس وورش مِن طريق الأصبهاني، وهم في الهمزة الثانية على أصولهم في التسهيل والتحقيق، فقرأها بالتسهيل قالون وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وابن ذكوان وهشام بخلف عنه وورش مِن طريق الأزرق، وحقّقها الباقون، وقرأ قنبل في حالة الوصل بإبدال الهمزة الأولى واوًا، واختُلف عنه في تسهيل الهمزة الثانية. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٦٨.

﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: السحرة: ﴿لَا ضَيۡرَ﴾ لا ضرر فيه علينا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ / تعليل لعدم الضير، أي: لا ضيرَ في ذلك؛ بل لنا فيه نفع عظيم، [٢٢٤ظ] لِما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى مِن تكفير الخطايا والثواب العظيم، أو لا ضيرَ علينا فيما تتوعّدنا به مِن القتل، إنّه لا بدّ لنا مِن الانقلاب إلى ربّنا بسببٍ مِن أسباب الموت، والقتلُ أهونُها وأرجاها.

﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ أي: لِأَن كنّا ﴿أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: مِن أتباع فرعون، أو مِن أهل المَشهَد. تعليل ثانٍ لنفي الضير، أي: لا ضيرَ علينا في قتلك، إنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا لكوننا أوّلَ المؤمنين. وقُرئ: "إِنْ كُنَّا"[١] على الشرط لِهضم النفس، وعدمِ الثقة بالخاتمة، أو على طريقة قول المُدِلّ بأمره، كقول العامل لمستأجِرٍ أخَّر أجرته: "إن كنتُ عملتُ لك فوفّني حقّي".

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ﴾ وذلك بعد بِضع سنين أقام بين أظهُرِهم يدعوهم إلى الحقّ، ويُظهِر لهم الآيات، فلم يزيدوا إلّا عُتوًّا وعِنادًا، حسبما فصّل في سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآيات [الأعراف، ١٣٠/٧]. وقُرئ بكسر النون ووصل الألِف،[٢] مِن "سَرَى"،[٣] وقُرئ: "أَنْ[٤] سِرْ" مِن "السَّير".[٥]

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ تعليل للأمر بالإسراء، أي: يتّبعكم فرعونُ وجنوده مصبحين،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٤.

٢ أي: "أَنِ اسْرِ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

٣ ط س: السَّير.

٤ ط س - أن.

٥ ط س - مِن "السَّير".

فأسْرِ بمَن معك حتّى لا يُدرِكوكم قبل الوصول إلى البحر، فيدخلوا مَداخِلكم، فأُطبِقَه عليهم فأُغرِقَهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أُخبِر بمسيرهم ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ جامعين للعساكرِ ليتّبعوهم.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يريد بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ استقلّهم -وهم ستُّمائة ألفٍ وسبعون ألفًا- بالنسبة إلى جنوده، إذ رُوي أنّه أرسلَ في أثَرهم ألفَ ألفٍ وخمسَمائةِ مَلِكٍ مُسَوَّرٍ،[1] مع كلّ مَلِكٍ ألفٌ، وخرَج فرعونُ في جمع عظيم، وكانت مقدِّمته سبعَمائة ألفِ رجلٍ على حصان، وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[2] عنهما خرج فرعونُ في ألفِ ألفِ حِصان سوى الإناث.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾

/ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: فَاعلون ما يَغيظُنا. [٢٢٥و]

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ يريد أنّهم لقِلَّتهم لا يُبالَى بهم، ولا يُتوقَّع غلبتهم وعلوّهم، ولكنّهم يفعلون أفعالًا تُغيظنا، وتضيّق صدورَنا، ونحن قوم مِن عادتنا التيقّظ والحذَر واستعمالُ الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى إطفاء ثائرة فساده، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلّا يُظَنّ به ما يكسِر مِن قهره وسلطانه.

وقُرئ: "حَذِرُونَ"،[3] فالأوّل دالّ على التجدّد، والثاني على الثبات. وقيل: "الحاذِر" المُؤدِّي في السلاح. وقُرئ: "حَادِرُونَ" بالدال المُهملة،[4] أي: أقوياء وأشدّاء. وقيل: مدجَّجون في السلاح، قد كسبهم ذلك حَدارةً في أجسامهم.

---

١ وفي هامش م: مِن السوار. «منه».

٢ ط س - تعالى.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وهشام بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن قيس عن أبي عمارة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٤.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨﴾

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ بأن خلقنا فيهم داعيةَ الخروج بهذا السبب فحملْتُهم عليه ﴿مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ كانت لهم جملة ذلك.

﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إمّا مصدر تشبيهي لـ"أخرجْنا"، أي: مِثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم، أو صفة لـ﴿مَقَامٖ كَرِيمٖ﴾، أي: مِن مقام كريم، كائنٍ كذلك، أو خبر لمبتدإٍ محذوف، أي: الأمر كذلك.

﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ملّكناها إيّاهم على طريقة تمليك مال المورِّث للوارث، كأنّهم مَلكوها مِن حين خروج أربابها منها قبل أن يَقبضوها ويتسلّموها.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾

﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ أي: فلَحِقوهم. وقُرئ: "فَاتَّبَعُوهُمْ"[1] ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شُروق الشمس، أي: طلوعها.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ تقارَبا بحيث رأى كلّ واحدٍ منهما الآخر. وقُرئ: "تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ".[2] ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ جاءوا بالجملة الاسميّة مؤكّدة بحرفي التأكيد للدلالة على تحقّق الإدراك واللحاق وتَنجّزهما. وقُرئ: "لَمُدَّرِكُونَ" بتشديد الدال،[3] مِن "ادَّرَكَ الشَّيْءَ" إذا تتابعَ ففَني، أي: لَمُتَتابِعُون في الهلاك على أيديهم.

﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٖ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعمرو بن عبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٤.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٦/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وعبيد بن عمير. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٠/٨.

﴿قَالَ كَلَّآ﴾ ارتدِعوا عن ذلك، فإنّهم لا يُدركونكم، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالنصرة والهداية ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ البتّةَ إلى طريق النجاة منهم بالكلّيّة. رُوي أنّ يوشع عليه السلام / قال: «يا كليم الله، أين أُمِرتَ، فقد غشِيَنا فرعونُ والبحرُ أمامَنا؟» قال عليه السلام: «ههنا»، فخاض يوشع الماءَ، وضرَب موسى عليه السلام بعصاه البحر، فكان ما كان.[1] [٢٢٥ظ]

ورُوي أنّ مؤمنًا مِن آل فرعونَ كان بين يدَي موسى عليه السلام، فقال: «أين أُمرتَ، فهذا البحر أمامك، وقد غشيك آل فرعونَ؟» قال عليه السلام:[2] «أُمِرتُ بالبحر، ولعلّي أُومَر بما أصنع»، فأُمِر بما أُمِر به.[3]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ القلزم أو النيل، ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ الفاء فصيحة، أي: فضرَب فانفلَق، فصارَ اثني عشر مَسلكًا[4] بعدَد الأسباط،[5] ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ﴾ حاصلٍ بالانفلاق[6] ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ كالجبل المنيف الثابت في مقرّه، فدخلوا في شِعابها، كلُّ سِبط في شِعب منها.

﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾

﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾ أي: قرّبنا ﴿ثَمَّ[7] ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه حتّى دخلوا على أثرهم مداخلَهم.

﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البَرّ.

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ بإطباقه عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في جميع ما فُصِّل ممّا صدر عن موسى عليه السلام،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٣.

٢ س – عليه السلام.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٤.

٤ ط س: فرقًا.

٥ ط س + بينهنّ مسالك.

٦ ط س – حاصلٍ بالانفلاق. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٧ م ط س: ثمّه.

وظهر على يديه مِن المعجزات القاهرة، وممّا فَعل فرعونُ وقومُه مِن الأقوال والأفعال، وما فُعِل بهم مِن العذاب والنَّكال.

وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد لتهويل أمر المشار إليه وتفظيعه، كتنكير "الآية" في قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ أي: أيّةَ آيةٍ، وآيةً عظيمةً لا تكاد تُوصَف موجِبةً لأن يَعتبر بها المعتبِرون، ويقيسوا شأنَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بشأن موسى عليه السلام، وحالَ أنفسِهم بحال أولئك المُهلَكين، ويجتنبوا تعاطِيَ ما كانوا يتعاطَونه مِن الكفر والمعاصي ومخالفةِ الرسولِ، ويؤمنوا بالله تعالى، ويطيعوا رسولَه كيلا يحلّ بهم مثلُ ما حلّ بأُولئك.

أو إنّ فيما فُصِّل مِن القصّة مِن حيث حكايتُه عليه السلام إيّاها على ما هي عليه مِن غير أن يسمعها مِن أحدٍ لآيةً عظيمةً دالّةً على أنّ ذلك بطريق الوحي الصادق موجِبةً للإيمان بالله تعالى وحده وطاعةِ رسوله عليه السلام.

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾ أي: أكثرُ هؤلاء الذين سمعوا قصّتَهم منه عليه السلام ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ لا بأن يقيسوا شأنَه بشأن موسى عليهما السلام وحالَ أنفسهم بحال أولئك المكذّبين المهلَكِين، / ولا بأن يتدبّروا في حكايته عليه السلام لقصّتهم مِن غير أن يسمعها مِن أحد مع كون كلٍّ مِن الطريقين ممّا يؤدّي إلى الإيمان قطعًا. [٢٢٦و]

ومعنى ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ما أكثرهم مؤمنين، على أنّ ﴿كَانَ﴾ زائدة كما هو رأي سيبويه، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف، ١٠٣/١٢]، وهو إخبار منه تعالى بما سيكون مِن المشركين بعدما سمعوا الآياتِ الناطقةَ بالقصّة تقريرًا لِما مرّ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۞ فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾... إلخ [الشعراء، ٥/٢٦-٦]. وإيثارُ الجملة الاسميّة للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان، واستمرارِهم عليه.

ويجوز أن يُجعل ﴿كَانَ﴾ بمعنى "صار" كما فُعِل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٣٤/٢]، فالمعنى: وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا مِن الآية العظيمة الموجِبة له بما ذُكِر مِن الطريقين، فيكون الإخبار

بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحقّقه وتقرّره، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [النحل، ١/١٦].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالبُ على كلّ ما يريده مِن الأمور التي مِن جملتها الانتقام مِن المكذّبين. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، ولذلك يُمهلهم، ولا يعجّل عقوبتَهم بعدم إيمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحي، مع كمال استحقاقهم لذلك. هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم مِن مَطلع السورة الكريمة إلى آخر القَصص السبع؛ بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاءً بيّنًا لا ريب فيه.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ضمير ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ لأهل عصر فرعونَ مِن القِبط وغيرهم، وأنّ المعنى: وما كان أكثر أهل مِصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلّا آسية، وحزقيل، ومريم ابنة ياموشا التي دلّت على تابوت يوسف عليه السلام، وبنو إسرائيل بعد ما نجَوا سألوا بقرةً يعبدونها، واتّخذوا العجل، وقالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة، ٥٥/٢]،[١] فبمَعزِل مِن التحقيق.

كيف لا، ومَساق كلّ قصّة مِن القَصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصّة إبراهيم عليه السلام إنّما هو لبيان حال طائفةٍ معيّنةٍ قد عتَوا عن أمر ربّهم وعصَوا رسله عليهم السلام، كما يُفصح عنه تصدير القَصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بأيديهم مِن الآيات العظام ما يوجب عليهم الإيمان، ويزجرهم عن الكفر والعصيان، وأصرّوا على ما هم عليه مِن التكذيب، فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيويّة، وقَطَع دابرهم بالكلّيّة، فكيف يمكن أن يُخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم لا سيّما بعد الإخبار بهلاكهم؟[٢] وعَدُّ المؤمنين[٣] مِن جملتهم أوّلًا

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٤.

٢ ط س: بإهلاكهم.

٣ وفي هامش م: أي: مِن كلّ طائفة مِن الطوائف المعدودة قبل تكامل الآيات التي معظمها وأقواها إلجاءً للإيمان هلاك المكذّبين. «منه».

وإخراجُهم منها آخرًا مع عدم مشاركتهم لهم في شيء ممّا حُكِي عنهم مِن الجنايات أصلًا ممّا يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله، فتدبّر.[١]

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عطفٌ على المُضمَر المقدّر عاملًا لِـ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾،[٢] أي: واتْلُ على المشركينَ ﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: خبَره العظيم الشأنِ حسبما أوحي إليك لتقف على ما ذُكر مِن عدم إيمانهم بما يأتيهم مِن الآيات بأحد الطريقين.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠﴾

﴿إِذۡ قَالَ﴾ منصوب إمّا على الظرفيّة للنبأ، أي: نبَأه وقتَ قوله ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ أو على المفعوليّة لـ﴿ٱتۡلُ﴾ على أنّه بدل مِن ﴿نَبَأَ﴾، أي: واتلُ عليهم وقتَ قوله لهم: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ على أنّ المتلوّ ما قاله لهم في ذلك الوقت. سألَهم عليه السلام عن ذلك لِيَبنِيَ على جوابهم أنّ ما يعبدونه بمَعزِل مِن استحقاق العبادة بالكلّيّة.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا: ﴿أَصۡنَامٗا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [البقرة، ٢/٢١٩]، وقولِه تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾[٣] [النحل، ١٦/٣٠]، ونظائرِهما، بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل.

وعطفُ دوام عكوفهم على أصنامهم قصدًا إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة مِن الابتهاج والافتخار بذلك. / والمراد بالظلول الدوام. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل. [٢٢٦ظ]

---

١ وفي هامش م: وعدّ بني إسرائيل ههنا مِن المؤمنين الناجين مع موسى عليه السلام يأباه التعرّض لبيان ما سيكون منهم مِن الكفر والفسوق. «منه».

٢ ط س + إلخ. | الشعراء، ٢٦/١٠.

٣ م ط س: قالوا الحقّ. | وهو في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [سبأ، ٣٤/٢٣].

وصلة العُكوف كلمة "على"، وإيرادُ "اللام" لإفادة معنى زائد، كأنّهم قالوا: فنظلّ لأجلها مقبلين على عبادتها، أو مستديرين حولها، وهذا أيضًا مِن جملة إطنابهم.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن تفصيل جوابهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي: هل يسمعون دعاءكم؟ على حذف المضاف، أو يسمعونكم تدعون؟ كقولك: "سمعت زيدًا يقول: كيتَ وكيتَ"، فحُذف لدلالة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه.

وقُرئ: "هَلْ يُسْمِعونكُمْ"[١] مِن "الإسماع"، أي: هل يُسمِعونكم شيئًا مِن الأشياء، أو الجوابَ عن دعائكم؟ وهل يقدرون على ذلك؟

وصيغة المضارع مع ﴿إِذْ﴾ على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها، كأنّه قيل لهم: استحضروا الأحوالَ الماضية التي كنتم تدعونها فيها، وأجيبوا: هل سَمعوا؟ أو أَسمعوا قطّ؟

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ بسبب عبادتكم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي: يضرّونكم بترككم لعبادتها؛ إذ لا بدّ للعبادة لا سيّما عند كونها على ما وَصفتم مِن المبالغة فيها مِن جلب نفع أو دفع ضرّ.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ اعترفوا بأنّها بمَعزِل ممّا ذُكر مِن السمع والمنفعة والمضرّة بالمرّة، واضطرّوا إلى إظهار أن لا سندَ لهم سوى التقليد، أي: ما علمنا أو ما رأينا منهم ما ذُكر مِن الأمور؛ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، أي: مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٥.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: أَنَظرتم فأبصرتم، أو أَتأمّلتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ حقّ الإبصار، أو حقّ العلم؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك، أي: فاعلموا أنّهم أعداء لعابديهم الذين يحبّونهم كحبّ الله تعالى، لِما أنّهم يتضرّرون مِن جهتهم فوق ما يتضرّر الرجل مِن جهة عدوّه، أو لأنّ مَن يغريهم على عبادتهم ويحملهم عليها الشيطان الذي هو أعدى عدوّ الإنسان، لكنّه عليه السلام صوّر الأمر في نفسه تعريضًا بهم، فإنّه أنفع في النصيحة مِن التصريح، وإشعارًا بأنّها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى [٢٢٧و]
إلى القبول. والعدوّ والصديق / يجيئان في معنى الواحد والجمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف، ١٨/٥٠]، شُبِّها بالمصادر للموازنة، كـ"القَبول" و"الوَلوع" و"الحَنين" و"الصَّهيل".

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن ربُّ العالمين ليس كذلك؛ بل هو وَلِيّي في الدنيا والآخرة، لا يزال يتفضّل عليّ بمنافعِهما حسبما يُعرِب عنه ما وصفه تعالى به مِن أحكام الولاية، وقيل: متّصل، وهو قول الزجّاج،[1] على أنّ الضمير لكلّ معبود، وكان مِن آبائهم مَن عبدَ الله تعالى.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي﴾ صفة لـ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وجعلُه مبتدأً وما بعده خبرًا[2] غيرُ حقيق بجزالة التنزيل. وإنّما وصفَه تعالى بذلك وبما عطفه عليه مع اندراج الكلّ تحتَ ربوبيّته تعالى للعالمين تصريحًا بالنعم الخاصّة به عليه السلام وتفصيلًا لها، لكونها أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى، وقصرِ الالتجاء في جلب المنافع الدينيّة والدنيويّة ودفع المضارّ العاجلة والآجلة عليه تعالى.

---

[1] انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٩٣/٤.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤١/٤.

﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ أي: هو يهديني وحده إلى كلّ ما يُهمّني ويُصلحني مِن أمور الدين والدنيا هدايةً مُتّصِلةً بحينِ الخلق ونفخِ الروح متجدّدةً على الاستمرار، كما ينبئ عنه "الفاء" وصيغة المضارع، فإنّه تعالى يَهدي كلَّ ما خَلقَه لِما خُلِق له مِن أمور المعاش والمعاد هدايةً متدرّجةً مِن مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكّن بها مِن جلب منافعه ودفع مضارّه، إمّا طَبعًا، وإمّا اختيارًا مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هدايةُ الجنين لِامْتِصاصِ دمِ الطَّمْثِ، ومنتَهاها الهداية إلى طريق الجنّة والتنعّم بنعيمها المقيم.

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١﴾

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ عطفٌ على الصفة الأولى. وتكرير الموصول في المواقع الثلاثة مع كفاية عطف ما وقع في حيّز الصلة مِن الجمل الستّ على صلة الموصول الأوّل للإيذانِ بأنّ كُلّ / واحدةٍ مِن تلك الصلات نعتٌ [٢٢٧ظ] جليل له تعالى مستقِلّ في استيجاب الحكم، حقيقٌ بأن تُجرَى عليه تعالى بحِيالِها، ولا تُجعلَ مِن روادِف غيرها.

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ عطفٌ على ﴿يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾،[١] نُظِم معهما في سِلك الصلة لموصولٍ واحدٍ، لِما أنّ الصحّة والمرض مِن متفرّعات الأكل والشرب غالبًا.

ونسبةُ المرض إلى نفسه والشفاءِ إلى الله تعالى مع أنّهما منه تعالى لمراعاةِ حُسن الأدب، كما قال الخَضِر عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف، ٧٩/١٨]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف، ٨٢/١٨].

وأمّا الإماتَة فحيث كانت مِن معظم خصائصه تعالى كالإحياء بدءًا وإعادةً وقد نِيطَت أمورُ الآخرة جميعًا بها وبما بعدها مِن البعث، نظمَهما في سِمطٍ[٢] واحدٍ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ على أنّ الموت لكونه ذريعةً إلى نيله عليه السلام للحياة الأبديّة بمَعزِل مِن أن يكون غيرَ مطبوع عنده عليه السلام.

---

١ في الآية السابقة.

٢ السِمط: الخَيط ما دام فيه الخَرزُ، وإلّا فهو سِلْك. الصحاح للجوهري، «سمط».

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ذَكره عليه السلام هَضمًا لنفسه، وتعليمًا للأمّة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذرٍ وطلبِ مغفرةٍ لِما يفرط منهم، وتَلافِيًا لِما عسى يَندُر منه عليه السلام مِن الصغائر، وتنبيهًا لأبيه وقومه على أن يتأمّلوا في أمرهم، فيقِفُوا على أنّهم مِن سوء الحال في درجةٍ لا يُقادَرُ قدرُها، فإنّ حاله عليه السلام مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته في الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة، فما ظنّك بحال أولئك المغمورين في الكفر وفنون المعاصي والخطايا؟

وحملُ "الخطيئة" على كلماته الثلاث: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات، ٨٩/٣٧]، ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء، ٦٣/٢١]، وقولِه لسارة: «هي أُختي»،[١] ممّا لا سبيلَ إليه؛ لأنّها مع كونها معاريضَ لا مِن قَبيل الخطايا المفتقِرةِ إلى الاستغفار، إنّما صدَرتْ عنه عليه السلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه. أمّا الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه السلام إلى الشام، وأمّا الأُولَيان فلأنّهما وقعتا مكتنِفتَين[٢] بكسر الأصنام، / ومن البَيّن أنّ جريان هذه المقالات فيما بينهم [٢٢٨و]
كان في مبادئ الأمر.

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنّها إنّما تُغفَر في الدنيا لأنّ أثرها يومئذ يتبيّن، ولأنّ في ذلك تهويلًا له وإشارةً إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تُغفَر.

﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣﴾

﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ بعدما ذَكر عليه السلام لهم فنونَ الألطاف الفائضة عليه مِن الله عزّ وجلّ مِن مبدأ خلقه إلى يوم بعثه حَمَلَه ذلك على مناجاته تعالى ودعائه، لربط العَتيد، وجلب المزيد. و"الحُكم" الحِكمة التي هي الكمال في العلم والعمل بحيث يتمكّن به مِن خِلافة الحقّ ورياسة الخلق.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٣.

[٢] وفي هامش م: يقال: اكتنف الشيءَ، أي: أحاط به، و"الباء" لتضمين معنى الإحاطة. «منه».

﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ووفّقني مِن العلوم والأعمال والملَكات لِما يُرَشِّحُني للانتظام في زُمرة الكاملين الراسخين في الصلاح، المنزّهين عن كبائر الذنوب وصغائرها، أو اجمع بيني وبينهم في الجنّة. ولقد أجابه تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة، ١٣٠/٢].

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: جاهًا وحُسنَ صيتٍ في الدنيا، بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك لا ترى أمّةً مِن الأمم إلّا وهي محِبّة له ومُثنية عليه، أو صادقًا مِن ذرّيّتي يجدّد أصل ديني، ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه مِن التوحيد، وهو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولذلك قال عليه السلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام».[١]

﴿وَٱجْعَلْنِي﴾ في الآخرة ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وقد مرّ معنى "الوِراثة" في سورة مريم.[٢]

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان كما يلوّح به تعليله بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: طريقَ الحقّ، وقد مرّ تحقيق المقام في تفسير سورة التوبة[٣] وسورة مريم[٤] بما لا مزيد عليه.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ بمعاتبتي على ما فرّطتُ، أو بنقصِ رُتبتي عن بعض الوُرّاث، أو بتعذيبي، لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلًا، كلّ ذلك مبنيّ على هضم النفس منه عليه السلام، أو بتعذيب والدِي، أو ببَعثه في عداد الضالّين

---

١ مسند أحمد، ٥٩٦/٣٦ (٢٢٢٦٢)؛ المستدرك للحاكم، ٦٥٦/٢ (٤١٧٤).

٢ مريم، ٦/١٩.

٣ التوبة، ١١٤/٩.

٤ مريم، ٤٧/١٩.

[٢٢٨ظ] بعدمِ / توفيقه للإيمان. وهو مِن "الخِزْي" بمعنى الهَوان، أو مِن "الخِزاية" بمعنى الحَياء.

﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: الناس كافّةً. والإضمار قبل الذكر لِما في عموم البعث مِن الشهرة الفاشية المُغنية عنه، وتخصيصه بالضالّين[١] ممّا يخلّ بتهويل اليوم.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾،[٢] جيء به تأكيدًا لِلتهويل، وتمهيدًا لِما يَعقُبه مِن الاستثناء، وهو مِن أعمّ المفاعيل، أي: لا ينفع مالٌ -وإن كان مَصروفًا في الدنيا إلى وجوه البِرّ والخيرات- ولا بنونَ -وإن كانوا صلحاءَ مستأهِلين للشفاعة- أحدًا. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: عن مَرَضي الكفر والنفاق ضرورةَ اشتراط نفع كلّ منهما بالإيمان. وفيه تأييدٌ لِكون استغفاره عليه السلام لأبيه طلبًا لهدايته إلى الإيمان، لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرًا مع علمه عليه السلام بعدم نفعه؛ لأنّه مِن باب الشفاعة.

وقيل: هو استثناء مِن فاعل ﴿يَنفَعُ﴾[٣] بتقدير المضاف، أي: إلّا مالُ مَن أو بَنُو مَن أتى اللهَ... الآيةَ. وقيل: المضاف المحذوف ليس مِن جنس المستثنى منه حقيقةً؛ بل بضَربٍ مِن الاعتبار، كما في قوله:

تحيّةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ[٤]

أي: إلّا حالُ مَن أتى الله بقلب سليم، على أنّها عبارة عن سلامة القلب، كأنّه قيل: إلّا سلامة قلب مَن أتى اللهَ... الآيةَ.

وقيل: المضاف المحذوف ما دلّ عليه "المال والبَنون" مِن الغِنَى، وهو المستثنى منه، كأنّه قيل: يوم لا ينفع غِنًى إلّا غِنَى مَن أتى الله... الآيةَ؛ لأنّ غِنَى المرء في دينه بسلامة قلبه. وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لكن سلامةُ قلبه تَنفعه.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٢٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٤٢.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] صدره:

وخيلٍ قد دَلِفتُ لها بخيلٍ

لعمرو بن معدي كرب في ديوانه، ص ١٤٩.

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَنفَعُ﴾،[١] وصيغةُ الماضي فيه وفيما بعده مِن الجمل المنتظَمة معه في سِلك العطف للدلالة على تحقّق الوقوع وتقرّره، كما أنّ صيغة المضارع في المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقامُ / التهويل والتفظيع، أي: قُرِبَتِ الجنّة للمتّقين [٢٢٩و] عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها مِن الموقف، ويَقِفُون على ما فيها مِن فُنون المحاسن، فيَبتهجون بأنّهم المَحشورون إليها.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ الضالّين عن طريق الحقّ الذي هو الإيمان والتقوى، أي: جُعِلَت بارزةً لهم بحيث يَرونها مع ما فيها مِن أنواع الأحوال[٢] الهائلة، ويُوقِنون بأنّهم مُواقِعوها ولا يجدون عنها مَصرفًا.

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ في الدنيا ﴿تَعۡبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنّهم شفعاؤكم في هذا الموقف. ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعِه عن أنفسهم، وهذا سؤال تقريعٍ وتبكيت، لا يُتَوَقَّع له جواب، ولذلك قيل: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾ أي: أُلقوا في الجحيم على وجوههم مرّةً بعد أخرى إلى أن يستقرّوا في قَعرها، ﴿هُمۡ﴾ أي: آلِهتُهم ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ الذين كانوا يعبدونهم. وفي تأخير ذكرِهم عن ذكر آلهتهم رَمزٌ إلى أنّهم يؤخَّرون عنها في الكَبكَبة ليُشاهِدوا سوءَ حالها، فيزدادوا غمًّا إلى غمّهم.

﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ﴾ أي: شياطينه الذين كانوا يُغوُونَهم، ويُوسوِسون إليهم، ويسوّلون لهم ما هم عليه مِن عبادة الأصنام، وسائرِ فنون الكفر والمعاصي،

---

١ الشعراء، ٢٦/٨٨.

٢ ط س: الأهوال.

لِيجتمعوا في العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه. وقيل: متّبعوه مِن عُصاة الثقلين، والأوّلُ هو الوجه. ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للضمير وما عُطف عليه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾... إلخ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية حالهم، كأنّه قيل: ماذا قالوا حين فُعِل بهم ما فُعِل؟ فقيل: قال العَبَدة ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: قالوا معترفين بخطَئِهم في انهماكهم في الضلالة، متحسّرين مُعَيّرين لأنفسهم، والحالُ / أنّهم في الجحيم بصدد الاختصام مع مَن معهم [٢٢٩ظ] مِن المذكورين، مُخَاطِبين لِمَعْبودِيهم على أنّ الله تعالى يجعل الأصنام صالحةً للاختصام بأن يُعطيَها القدرةَ على الفهم والنطق: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن الثقيلة، قد حُذف اسمها الذي هو ضمير الشأن، و"اللام" فارِقة بينها وبين النافية، أي: إنّ الشأن كنّا في ضلال واضح لا خفاءَ فيه.

ووصفهم له بالوضوح للإشباع في إظهار ندَمهم وتحسُّرهم، وبيانِ عِظَم خطئهم في رأيهم مع وضوح الحقّ، كما يُنبئ عنه تصديرُ قَسَمهم بحرف "التاء" المشعِرة بالتعجّب.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ظرف لكونهم في ضلال مبين. وقيل: لِما دلّ عليه الكلام، أي: ضَلَلنا. وقيل: للضلال المذكور، وإن كان فيه ضعف صناعي مِن حيث إنّ المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف. وقيل: ظرف لـ﴿مُبِينٍ﴾.[١] وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية، أي: تاللهِ لقد كنّا في غاية الضلال الفاحش وقتَ تسويتنا إيّاكم أيّها الأصنام في استحقاق العبادة بربّ العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذَلُّهم وأعجزُهم.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

وقولهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم، لكن لا على معنى قصر الإضلال على المجرمين دون مَن عَداهم؛ بل على معنى قَصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم مِن غير أن يَستقِلّوا

---

[١] في الآية السابقة.

في تحققه أو يكونَ بسبب إضلال الغير، كأنّه قيل: وما صدر عنّا ذلك الضلال الفاحش إلّا بسبب إضلالهم.

والمراد بـ"المجرمين" الذين أضلّوهم رؤساؤهم وكُبراؤهم، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب، ٦٧/٣٣]. وعن السُّدّي رحمه الله: «الأوّلون الذين اقتدَوا بهم».[1]

وأيًا ما كان ففيه أوفرُ نصيبٍ مِن التعريض للذين قالوا: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.[2] وعن ابن جريج: «إبليس وابن آدم القاتلُ»؛[3] لأنّه أوّل مَن سَنّ القتلَ وأنواعَ المعاصي.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين مِن الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.[4]

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ / كما نرى[5] لهم أصدقاءَ، أو فما لنا مِن شافعين ولا صديقٍ حميم مِن الذين كنّا نعدّهم شفعاءَ وأصدقاءَ، على أنّ عدمهما كناية عن عداوتهما، كما أنّ عدم المحبّة في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة، ٢٠٥/٢] كناية عن البغض حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف، ٦٧/٤٣]؛ أو وَقَعْنا في مَهلكة لا يخلّصنا منها شافع ولا صديق، على أنّ المراد بعدمهما عدمُ أثرهما. [٢٣٠و]

وجمع "الشافع" لكثرة الشفعاء عادةً، كما أنّ إفراد "الصَّديق" لقِلّته، أو لصحّة إطلاقه على الجمع كالعدوّ تشبيهًا لهما بالمصادر، كـ"الحَنين" و"القَبول".

﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٢﴾

وكلمة ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ للتمنّي كـ"لَيت"، لِما أنّ بين مَعنَيَيهما تلاقِيًا في معنى الفرض والتقدير، كأنّه قيل: فليت لنا كرّةً، أي:

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٧٠/٨.

[2] الشعراء، ٧٤/٢٦.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٧٠/٨. وهو في جامع البيان للطبري، ٥٩٩/١٧، عن ابن جريج عن عكرمة.

[4] س: عليهم السلام.

[5] ط س: يرى.

رجعةً إلى الدنيا. وقيل: هي على أصلها مِن الشرط، وجوابُه محذوف، كأنّه قيل: فَلو أنّ لنا[١] كرّةً لَفعلنا مِن الخيرات كَيتَ وكَيتَ،[٢] ويأباه قوله تعالى: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِتَحَتّم كونِه جوابًا للتمنّي مُفيدًا لِترتّب إيمانهم على وقوع الكرّة البتّة بلا تخلّفٍ كما هو مقتضى حالِهم.

وعطفُه على ﴿كَرَّةً﴾ على طريقة:

لَلُبْسُ عَباءةٍ وتَقرّ عيني[٣]

كما يستدعيه كونُ ﴿لَوْ﴾ على أصلها إنّما يُفيد تحقّق مضمون الجواب، على تقدير تحقّق كَرّتهم وإيمانهم معًا مِن غير دلالة على استلزام الكَرّة للإيمان أصلًا مع أنّه المقصود حتمًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٠٣﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن نبأِ إبراهيم عليه السلام المشتمِل على بيان بطلان ما كان عليه أهل مكّة مِن عبادة الأصنام، وتفصيلِ ما يئول إليه أمرُ عَبَدتها يوم القيامة مِن اعترافهم بخطئهم الفاحش، وندَمِهم وتحسّرِهم على ما فاتهم مِن الإيمان، وتمنّيهم الرجعةَ إلى الدنيا ليكونوا مِن المؤمنين عند مشاهدتهم لِما أُزلفت لهم جنّات النعيم، وبُرّزت لِأنفسِهم الجَحيم، وغَشيهم ما غَشيهم مِن ألوان العذاب وأنواع العقاب.

﴿لَآيَةً﴾ أي: آيةً عظيمةً لا يُقادَر قَدرُها موجبةً على عَبَدة الأصنام كافّةً لا سيّما على أهل مكّة الذين يدّعون أنّهم على ملّة إبراهيم عليه السلام أن يجتنبوا كلّ الاجتناب ما كانوا عليه مِن عبادتها خوفًا أن يَحيق بهم مثلُ ما حاق بأولئك مِن العذاب بحُكم الاشتراك فيما يوجبه، أو أنّ في ذكرِ نَبَئِه وتلاوته عليهم على ما هو عليه مِن غير أن تسمعَه مِن أحدٍ لآيةً عظيمةً دالّةً على أنّ ما تَتلوه عليهم / وحي صادق نازل مِن جهة الله تعالى موجبةً للإيمان به قطعًا. [٢٣٠ظ]

---

[١] س: كنا.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٢٣.

[٣] وفي هامش م: آخره:

أحبُّ إليّ مِن لُبس الشفوفِ

البيت لميسون بنت بَحدل الكلابيّة في لسان العرب لابن منظور، «مسن».

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم النبأ مؤمنين؛ بل هم مُصِرّون على ما كانوا عليه مِن الكفر والضلال. وأمّا أنّ ضمير ﴿أَكْثَرُهُم﴾ لقوم إبراهيم عليه السلام كما توهّموا[١] فممّا لا سبيل إليه أصلًا، لظهور أنّهم ما ازدادوا بما سمعوا منه عليه السلام إلّا طغيانًا وكفرًا حتّى اجترأوا على تلك العظيمة التي فعلوا به عليه السلام، فكيف يُعبَّر عنهم بعدم إيمان أكثرهم، وإنّما آمَن له لوط فنجّاهما الله عزّ وجلّ إلى الشّام؟ وقد مرّ بقيّة الكلام في آخر قصّة موسى عليه السلام.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٠٧ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك، ولكنّه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة، ليؤمن بعض منهم، أو مِن ذرّيّاتهم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ "القوم" مؤنّث، ولذلك يصغّر على "قُوَيْمةٍ"، وقيل: "القوم" بمعنى "الأمّة". وتكذيبُهم للمرسلين إمّا باعتبار إجماع الكلّ على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار، وإمّا لأنّ المراد بالجمع الواحد كما يقال: "فلان يركب الدوابّ، ويلبس البُرود"، وما له إلّا دابّة وبُردة.

و﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ ظرف للتكذيب على أنّه عبارة عن زمان مديدٍ وقع فيه ما وقع مِن الجانبين إلى تمام الأمر، كما أنّ تكذيبهم عبارة عمّا صدَر عنهم مِن حين ابتداء دعوته عليه السلام إلى انتهائها. ﴿أَخُوهُمْ﴾ أي: نَسِيبُهم ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله حيث تعبدون غيرَه. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ مِن جهته تعالى ﴿أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم. ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُرُكم به مِن التوحيد والطاعة لله تعالى.

﴿وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٩ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾

﴿وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أنا متصدٍّ له مِن الدعاء والنصح ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أصلًا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ فيما أتولّاه ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

[١] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٣/٤.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن تنزّهه عليه السلام مِن الطمع، كما أنّ نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على أمانته. والتكرير للتأكيد والتنبيه على أنّ كلًّا منهما مستقِلّ في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا؟ وقُرئ: "إِنْ أَجْرِي" بسكون "الياء".[١]

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي: الأقلّون جاهًا ومالًا، جمع "الأرذل" على الصحّة، فإنّه بالغلبة صار جاريًا مَجرى الاسم، كـ"الأكبر" و"الأكابر". وقيل: جمع "أَرْذُل" جمعِ "رَذْلٍ"، كـ"أَكَالِب" و"أَكْلُب" و"كَلْب".

[٢٣١و] وقُرئ: "وَأَتْبَاعُكَ"،[٢] وهو / جمع "تابع"، كـ"شاهد" و"أشْهَاد"، أو جمع "تَبِعٍ"، كـ"بَطَلٍ" و"أبطال".

يعنون أنّه لا عبرةَ باتّباعهم لك، إذ ليس لهم رَزانةُ عقل ولا إصابةُ رأي، وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي، كما ذُكر في موضع آخر، وهذا مِن كمال سخافة عقولهم، وقَصْرِهم أنظارَهم على حطام الدنيا، وكونِ الأشرف عندهم مَن هو أكثر منها حظًّا، و"الأرذل" مَن حُرِمَها، وجهلِهم بأنّها لا تَزِن عند الله تعالى جناحَ بعوضة، وأنّ النعيم هو نعيم الآخرة، والأشرفُ مَن فَازَ بِه، والأرذَلُ مَن حُرِمَه.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جواب عمّا أشيرَ إليه مِن قولهم: إنّهم لم يؤمنوا عن نظَر وبَصيرة، أي: ما وظيفتي إلّا اعتبارُ الظواهر وبناءُ الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشقّ عن قلوبهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي: ما محاسبةُ أعمالِهم والتنقير عن كيفيّاتها البارزة والكامنة ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فإنّه المُطّلِع على السرائر والضمائر ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي:

---

١ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

٢ قرأ بها يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

بشيء مِن الأشياء، أو لو كنتم مِن أهل الشعور لَعلمتم ذلك، ولكنكم لَستُم كذلك، فتقولون ما تقولون.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١١٥﴾

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب عمّا أوهمه كلامُهم مِن استدعاءِ طَرْدِهم وتعليقِ إيمانِهم بذلك حيث جَعَلوا اتّباعهم مانِعًا عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كالعلّة له، أي: ما أنا إلّا رسول مَبعوث لإنذار المكلَّفين وزجرِهم عن الكفر والمعاصي، سواء كانوا مِن الأعزّاء أو الأذلّاء، فكيف يتسنّى لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟ أو ما عليّ إلّا إنذاركم بالبرهان الواضح، وقد فعلتُه، وما عليّ استرضاء بعضِكم بطرد الآخرين.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عمّا تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ / مِن المَشْتومين، أو المَرميّين بالحجارة، قالوه قاتلهم الله تعالى في أواخر الأمر. [٢٣١ظ]

ومعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ تَمُّوا على تكذيبي وأصَرّوا على ذلك بعد ما دعوتُهم هذه الأزمنةَ المتطاولةَ، ولم يزدهم دعائي إلّا فِرارًا، كما يُعرِب عنه دعاؤه بقوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: احْكُم بيننا بما يستحقّه كلّ واحد منّا، وهذه حكاية إجماليّة لدعائه المفصَّل في سورة نوح.

﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن قَصدِهم، أو مِن شُؤم أعمالهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۝١٢٠ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٢﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ حسب دعائه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المَملوء بهم وبما لا بدّ لهم منه.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعدَ إنجائهم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: مِن قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ، خلا أنّ حَمْل ﴿أَكْثَرُهُم﴾ على أكثر قوم نوح أبعد مِن السداد وأبعد.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤﴾

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أُنِّث ﴿عَادٌ﴾ باعتبار القبيلة، وهو اسم أبيهم الأقصى.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الكلام في أنّ المراد بتكذيبهم وبما وقع فيه مِن الزمان ماذا كما مرّ في صدر قصّة نوح عليه السلام، أي: ألا تتّقون الله تعالى، فتفعلون ما تفعلون.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢٧﴾

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ. وتَصدير القصص به للتنبيه على أنّ مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحقّ، والطاعة فيما يقرّب المدعوّ إلى الثواب، ويبعّده مِن العقاب، وأنّ / الأنبياء عليهم السلام مجمِعون على ذلك [٢٣٢و] وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار، وأنّهم متنزِّهون عن المطامع الدنيّة، والأغراض الدنيويّة بالكلّيّة.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨﴾

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: مكانٍ مرتفع، ومنه "رِيع الأرض" لارتفاعها. ﴿ءَايَةً﴾ عَلَمًا للمارّة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ ببنائها، إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم، فلا يحتاجون إليها، أو بروجَ الحَمام، أو بنيانًا يجتمعون إليه لِيَعبثوا بمَن مرّ عليهم، أو قصورًا عالية يفتخرون بها.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: مآخذ الماء. وقيل: قصورًا مُشيّدةً وحصونًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: راجين أن تَخلُدوا في الدنيا، أي: عاملين عملَ مَن يرجو ذلك، فلذلك تُحكِمون بنيانها.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بسَوطٍ أو سيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ مسلِّطين غاشمين بلا رأفة، ولا قصدِ تأديب، ولا نظرٍ في العاقبة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١﴾

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا هذه الأفعال ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، فإنّه أنفع لكم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣﴾

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن ألوان النَّعماء، وأصناف الآلاءِ. أجمَلَها أوّلًا ثمّ فصّلها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير، فإنّ التفصيل بعد الإجمال والتفسيرَ إثرَ الإبهام أدخَلُ في ذلك.

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥﴾

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذهِ النعم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنّ كُفران النعمة مستتبع للعذاب، كما أنّ شُكرها مستلزم لزيادتها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم، ١٤/٧].

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۝١٣٦ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ فإنّا لن نرعَويَ عمّا نحن
عليه. وتغييرُ الشِّقّ الثاني عن مقابِله للمبالغة في / بيان قِلّة اعتدادهم بوَعظه، [٢٣٢ظ]
كأنّهم قالوا: أم لم تكن مِن أهل الوعظ ومباشريه أصلًا.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا الذي جئتَنا به ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عادتهم، كانوا يلفِّقون مثلَه ويسطِّرونه، أو ما هذا الذي نحن عليه مِن الدين إلّا خُلُق الأوّلين وعادتهم، ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه مِن الموت والحياة إلّا عادة قديمة لم يزَل الناس عليها. وقُرئ: "خَلْقُ الأَوَّلِين" بفتح "الخاء"،[1] أي: اختلاقُ الأوّلين، كما قالوا: "أساطير الأوّلين"، أو ما خَلقُنا هذا إلّا خَلقُهم، نَحْيَى كما حَيُوا، وَنَمُوت كما ماتوا، ولا بعثَ ولا حسابَ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن عليه مِن الأعمال.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: أصرّوا على ذلك، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بسببه بريح صَرصَر. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إنكار ونفي لِأن يُترَكوا فيما هم فيه مِن النعمة، أو تذكير للنعمة في تخليته تعالى إيّاهم وأسبابَ تنعّمهم آمنين.

وقوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ تفسير لِما قبله مِن المبهم. و"الهَضيم": اللّطيف الليّن للطف الثمر، أو لأنّ النخل أنثى،

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

وطلعُ الإناث ألطف، وهو ما يطلع منها كنَصل السيف، في جوفه شماريخ القِنو،[1] أو مُتَدَلٍّ متكسّر مِن كَثرة الحمل. وإفرادُ النخل لفضله على سائر أشجار الجنّات، أو لأنّ المراد بها غيرُها مِن الأشجار.

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ بَطِرين، أو حاذقين، مِن "الفَراهة"، وهي النشاط، فإنّ الحاذق يعمل بنشاطٍ وطِيب قلب. وقُرئ: "فَرِهِينَ"،[2] وهو أبلَغ.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ استعير الطاعة التي هي انقيادُ الأمِر لامتثال الأمر وارتسامِه، أو نُسِب حكم الآمِر إلى أمْره مجازًا.

﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وصفٌ موضّح لإسرافهم، ولذلك عُطف ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ على ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ لبيان خلوص إفسادهم عن مخالطة / الإصلاح. [٢٣٣و]

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي: الذين سُحِرُوا حتّى غلب على عقولهم، أو مِن ذَوي السَّحر، أي: الرئة، أي: مِن الإنس، فيكون قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ تأكيدًا له. ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواك.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥﴾

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ أي: بعدما أخرجها الله تعالى مِن الصخرة بدعائه عليه السلام حسبما مرّ تفصيله في سورة الأعراف[3] وسورة هود،[4] ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ أي:

---

[1] "شَماريخ" جمع شُمْرُوخ؛ وهو غُصن دقيق يكون في أعلى الغُصن الغليظ. والقِنو: العِذق بما فيه مِن الرطب. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شمرخ»؛ «قنو».

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٣٦/٢.

[3] الأعراف، ٧٣/٧.

[4] هود، ٦٤/١١.

نصيب مِن الماء، كـ"السِّقْي" و"القِيتِ" للحظّ مِن "السَّقي" و"القُوت". وقُرئ بالضمّ.[١] ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فاقتنِعوا بشِربكم، ولا تزاحِموا على شِربها.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ كضَرْبٍ وعَقْرٍ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وُصِف اليوم بالعِظَم لعِظَم ما يحلّ فيه، وهو أبلغ مِن تعظيم العذاب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أسندَ العقْر إلى كلّهم لِما أنّ عاقرها عقَرها برأيهم، ولذلك عمّهم العذاب، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ﴾ خوفًا مِن حلول العذاب، لا توبةً، أو عند معاينتهم لمَباديه، ولذلك لم ينفعهم الندم وإن كان بطريق التوبة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: العذاب الموعود.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قيل: في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المَعرِض إيماءٌ إلى أنّه لو آمَن أكثرهم أو شَطرهم لَما أُخِذوا بالعذاب، وأنّ قريشًا إنّما عُصِموا مِن مِثله ببَركة مَن آمَن منهم،[٢] وأنت خبير بأنّ قريشًا هم المشهورون بعدم إيمان أكثرهم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨٣/٨.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٧/٤.

/﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أتأتون مِن بَين مَن عَداكم[١] مِن العالمين الذُّكرانَ لا يشارككم فيه غيركم، أو أتأتون الذُّكرانَ[٢] مِن أولاد آدم مع كَثرتهم وغَلبةِ النساء فيهم[٣] مع كونهنّ أليقَ بالاستمتاع. فالمراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على الأوّل كلُّ ما يُنكح مِن الحيوان،[٤] وعلى الثاني الناسُ.[٥] [٢٣٣ظ]

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ لأجل استمتاعكم. وكلمة ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ للبيان إن أريدَ بها جنس الإناث، وهو الظاهر، وللتبعيض إن أريدَ بها العضو المباحُ منهنّ، تعريضًا بأنّهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضًا.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ متعدّون متجاوزون الحدَّ في جميع المعاصي، وهذا مِن جملتها. وقيل: متجاوزون عن حدّ الشهوة حيث زادوا على سائر الناس؛ بل الحيوانات.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧﴾

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ أي: عن تقبيح أمرنا، أو نَهْينا عنه، أو عن دعوى النبوّة التي مِن جملة أحكامها التعرضُ لنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي: مِن المَنفيّين مِن قريتنا، وكأنّهم كانوا يُخرِجون مَن أخرجوه مِن بينهم على عنف وسُوءِ حال.

---

١ ط س: بني آدم. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ ط س: أو أتأتونهم. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ م ط س - فيهم ["صح" في هامش م].

٤ وفي هامش م: وبـ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾ ذكرانُه، و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿تَأْتُونَ﴾ على أنّ المراد به إثباتًا بحسب المنطوق ونفيًا بحسب المفهوم إتيانُ كلّ عالمٍ لذكرانه، لا لذكران غيره. «منه».

٥ وفي هامش م: وبـ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾ ذكرانُهم، و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾، والمنكر على كِلا الوجهين إتيانهم الرجل قطعًا كما في قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ الآية [الأعراف، ٨١/٧]، خلا أنّ في الأوّل إشباعًا في التوبيخ، والتعبير ببيان أنّهم أسوأ حالًا ممّن عداهم مِن العقلاء وغيرهم جميعًا حيث يفعلون ما لا يفعله أحد منهم. «منه».

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٦٩﴾

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي: مِن المُبغِضين غايةَ البُغض، كأنّه يُقلى الفؤاد والكبد لشدّته، وهو أبلغ مِن أن يقال: إنّي لِعملكم قالٍ، لدلالته على أنّه عليه السلام مِن زُمرة الراسخين في بُغضه المشهورين في قَلاه، ولعلّه عليه السلام أراد إظهار الكراهة مِن مُساكَنتهم، والرغبةِ في الخلاص مِن سوء جِوارهم، ولذلك أعرض عن محاورتهم، وتوجّه إلى الله تعالى قائلًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: مِن شؤم عملهم وغائلته.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٧١﴾

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهلَ بيته ومَن اتّبعه في الدين بإخراجهم مِن بينهم عند مشارفة حلول العذاب بهم.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأة لوط، استُثنيت مِن أهله، فلا يضرّه كونها كافرة؛ لأنّ لها شركةً في الأهليّة بحقّ الزواج. ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: مقدّرًا كونُها مِن الباقين في العذاب؛ لأنّها كانت مائلةً / إلى القوم، راضيةً بفعلهم، وقد أصابها [٢٣٤و]
الحَجَر في الطريق فأهلكها كما مرّ في سورة الحِجر[١] وسورة هود.[٢] وقيل: كانت فيمَن بقيَ في القرية، ولم تخرج مع لوط عليه السلام.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٣ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٧٥﴾

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أهلكناهم أشدَّ إهلاك وأفظعَه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: مطرًا غير معهود. قيل: أمطَر الله تعالى على شُذّاذ القوم حجارة فأهلكتْهم، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ "اللام" فيه للجنس، وبه يتسنّى وقوعُ المضاف إليه فاعلَ ﴿سَآءَ﴾، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو مطرهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

[١] الحجر، ٦٠/١٥.
[٢] هود، ٨١/١١.

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾

﴿كَذَّبَ[1] أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ "الأيكة" الغيضة التي تُنبت ناعم الشجر، وهي غيضة بقرب مَديَن يسكنها طائفة، وكانوا ممّن بُعِث إليهم شعيب عليه السلام، وكان أجنبيًّا منهم، ولذلك قيل: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يَقل: "أخوهم". وقيل: "الأيكة" الشجرُ الملتَفّ، وكان شجرهم الدَّوْمَ، وهو المُقْل.

وقُرئ بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على اللام.[2] وقُرئت كذلك مفتوحةً[3] على أنّها "لَيكَة"، وهي اسم بلدهم، وإنّما كُتبت ههنا وفي "ص"[4] بغير ألف اتّباعًا للَفظ اللافظ.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١﴾

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أتِمّوه ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ أي: حقوقَ الناس بالتطفيف.

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢﴾

﴿وَزِنُواْ﴾ أي: المَوزونات ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ بالميزان السويّ، وهو إن كانَ عربيًّا، فإن كان مِن "القِسْط" فـ"فِعْلَاس" بتكرير العين، وإلّا فـ"فِعلال". وقُرئ بضمّ القاف.[5]

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ / أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي: لا تنقصوا شيئًا مِن حقوقهم، أيّ حقّ [٢٣٤ظ] كان، وهذا تعميم بعد تخصيص بعضِ الموادّ بالذكر لغاية انهماكهم فيها،

---

[1] م ط س: كذّبت.

[2] بجرّ التاء قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٦.

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

[4] ص، ١٣/٣٨.

[5] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وذَوي الجِبلّة الأوّلين، وهم مَن تقدّمهم مِن الخلائق. وقُرئ بضمّ "الجيم" و"الباء"،[1] وبكسر "الجيم" وسكون الباء كـ"الخِلقة".[2]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخال "الواو" بين الجملتين للدلالة على أنّ كلًّا مِن التسحير والبشريّة مُنافٍ للرسالة مبالغةً في التكذيب، ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما تدّعيه مِن النبوّة.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قِطعًا. وقُرئ بسكون السين،[3] وهو أيضًا جمع "كِسفة". وقيل: "الكِسْف" و"الكِسْفَة" كـ"الرِّيع" و"الرِّيعَة"، وهي القِطعة. والمراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إمّا السحاب أو المظِلّة. ولعلّه جواب لِما أشعر به الأمر بالتقوى مِن التهديد.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، ولم يكن طلبُهم ذلك إلّا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، وإلّا لَما أخطروه ببالهم فضلًا أن يطلبوه.

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الكفر والمعاصي، وبما تستحقّون بسببه مِن العذاب، فسيُنزِله عليكم في وقته المقدّر له لا محالةَ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي حصين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨٧/٨.

٣ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فتمّوا على تكذيبه، وأصرّوا عليه، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ حسبما اقترحوا. أمّا إن أرادوا بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ السحابَ فظاهر، وأمّا إن أرادوا المُظِلّة، فلِأنّ نزول العذاب مِن جهتها.

وفي[1] إضافة "العذاب" إلى ﴿يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ دون نفسها إيذانٌ بأنّ لهم يومئذ عذابًا آخر غيرَ عذاب الظُّلّة، وذلك بأن سلّط الله عليهم الحَرّ سبعةَ أيّام ولياليَها، فأخذهم بأنفاسهم لا يَنفعهم ظلّ ولا ماءٌ ولا سَرَبٌ،[2] فاضطرُّوا إلى أن خرجوا إلى البَرِّيّة، فأظلّتهم سحابة وجدوا لها بَردًا ونسيمًا، فاجتمعوا تحتها فأمطَرَتْ عليهم نارًا، فاحترقوا جميعًا.[3]

رُوي أنّ شعيبًا عليه السلام بُعِث إلى أُمّتَين، أصحابِ مَديَن، وأصحابِ الأيكة، فأُهلِكَتْ مَديَن / بالصيحة والرجفة، وأصحابُ الأيكة بعذاب يوم الظلّة. [٢٣٥و]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في الشدّة والهَوْل وفَظاعة ما وقع فيه مِن الطامّة والداهية التامّة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذا آخر القصص السبع التي أُوحِيت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لصَرفه عليه السلام عن الحِرص على إسلام قومه، وقطعِ رجائه عنه، ودفع تحسّره على فواته، تحقيقًا لِمضمون ما مرّ في مطلع السورة الكريمة مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۞ فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ الآيةَ [الشعراء، ٢٦/٥-٦].

فإنّ كلّ واحدة مِن هذه القصص ذِكر مستقلّ متجدّد النزول قد أتاهم مِن جهته تعالى بموجَب رحمته الواسعة، وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها على التفصيل قصّةً بعد قصّة، لا بأن يتدبّروا فيها، ويعتبروا بما في كلّ واحدة منها

---

[1] س + وفي.

[2] السَّرَبُ: بيتٌ في الأرض. انظر: الصحاح للجوهري، «سرب».

[3] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٣٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٤٩.

مِن الدواعي إلى الإيمان، والزواجرِ عن الكفر والطغيان، ولا بأن يتأمّلوا في شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هي عليه مع علمهم بأنّه عليه السلام لم يسمع شيئًا منها مِن أحدٍ أصلًا، واستمرّوا على ما كانوا عليه مِن الكفر والضلال، كأن لم يسمعوا شيئًا يَزجرهم عن ذلك قطعًا، كما حُقّق في خاتمة قصّة موسى عليه السلام.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ما ذُكِر مِن الآيات الكريمة الناطقة بالقَصص المَحكيّة، أو القرآن الذي هي مِن جملته ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مُنَزَّل مِن جهته تعالى، سمّي به / مبالغةً. ووصفُه تعالى بربوبيّة العالمين للإيذان بأنّ تنزيله مِن أحكام تربيته تعالى ورأفته للكلّ، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١]. [٢٣٥ظ]

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي: أنزله ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: جبريل عليه السلام، فإنّه أمينُ وحيه تعالى، ومُوصلُه إلى أنبيائه عليهم السلام. وقُرِئ بتشديد "الزاء"، ونصبِ ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾،[1] أي: جعل الله تعالى الروحَ الأمينَ نازلًا به.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤﴾

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: روحِك، وإن أريدَ به العضو فتَخصيصُه به لأنّ المعاني الروحانيّة تَنزل أوّلًا على الروح، ثمّ تنتقل منه إلى القلب، لِما بينهما مِن التعلّق، ثمّ تتصعّد إلى الدماغ، فينتقش بها لَوح المخيّلة.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ متعلّق بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، أي: أنزله لتنذرهم بما في تضاعيفه مِن العقوبات الهائلة. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم للدلالة على انتظامه عليه السلام في سِلك أولئك المنذِرين المشهورين في حقّيّة الرسالة، وتقرّرِ وقوع العذاب المُنذَر.

---

[1] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٦/٢.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ واضح المعنى، ظاهر المدلول؛ لئلّا يبقى لهم عذر ما، وهو أيضًا متعلّق بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾. وتأخيرُه للاعتناء بأمر الإنذار، وللإيماء إلى أنّ مدارَ كونه مِن جملة المنذِرين المذكورين عليهم السلام مجرّدُ إنزالِه عليه السلام، لا إنزالُه باللسان العربي.

وجعلُه متعلّقًا بـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾ كما جوّزه الجمهور يؤدّي إلى أنّ غاية الإنزال كونُه عليه السلام مِن جملة المنذِرين باللغة العربيّة فقط مِن هود وصالح وشعيب عليهم السلام،[1] ولا يخفى فساده، كيف لا والطامّة الكبرى في باب الإنذار ما أنذره نوح وموسى عليهما السلام، وأشدّ الزواجر تأثيرًا في قلوب المشركين ما أنذره إبراهيم عليه السلام لانتمائهم إليه وادّعائهم أنّهم على مِلّته عليه السلام.

/ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وإنّ ذِكره أو معناه لَفِي الكتب المتقدّمة، فإنّ [٢٣٦و]
أحكامه التي لا تحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدّل الأعصار مِن التوحيد وسائرِ ما يتعلّق بالذات والصفات مسطورةٌ فيها، وكذا ما في تضاعيفه مِن المواعظ والقصص. وقيل: الضمير لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وليس بواضح.[2]

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ "الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: أغَفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آيةً دالّةً على أنّه تنزيل مِن ربّ العالمين، وأنّه في زُبُر الأوّلين؟ على أنّ ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بالكون، قُدّم على اسمه وخبره للاهتمام به، أو بمحذوف هو حال مِن ﴿ءَايَةً﴾ قدّمت عليها لكونها نكرة، و﴿ءَايَةً﴾ خبر للكون، قُدّم على اسمه الذي هو قوله تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لِما مرَّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر، أي: أن يعرفوه بنُعوته المذكورة في كُتبهم، ويعرفوا مَن أُنزل عليه.

---

[1] س - عليهم السلام.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٣٥.

وقُرِئ: "تَكُنْ"[١] بالتأنيث، وجعلت "آيَةٌ" اسمًا، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ خبرًا، وفيه ضعفٌ حيث وقع النكرة اسمًا، والمعرفة خبرًا، وقد قيل: في "تَكُن" ضمير القصّة، و"آيَةٌ أَنْ يَعلمَه" جملة واقعة موقع الخبر، ويجوز أَن[٢] يكون ﴿لَهُمْ ءَايَةً﴾ هي جملة الشأن، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بدلًا مِن "آيَةٌ"، ويجوز مع نصب ﴿ءَايَةً﴾ تأنيث "تَكُن"، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ [الأنعام، ٢٣/٦]. وقُرِئ: "تَعْلَمَهُ" بالتاء.[٣]

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ١٩٨﴾

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ كما هو بنظمه الرائق المُعجز ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يقدرون على التكلّم بالعربيّة. وهو جمع "أعجَمي" على التخفيف، ولذلك جُمِع جمعَ السلامة. وقُرِئ: "الْأَعْجَمِيّينَ"،[٤] وفي لفظ "البعض" إشارة إلى كون ذلك واحدًا مِن عُرض تلك الطائفة كائنًا مَن كان.

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١٩٩﴾

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ قراءةً صحيحةً خارقةً للعادات ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، لِفَرْط عنادهم، وشدّة شَكيمتهم في المكابرة. وقيل: المعنى: ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجَم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين، لعدم فهمهم، واستنكافِهم مِن اتّباع العجَم،[٥] وليس بذاك، فإنّه بمَعزِل مِن المناسبة لمقام بيانِ تماديهم في المكابرة والعناد.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٢٠١﴾

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي: مثلَ ذلك السَّلك البديع المذكور سَلكناه، أي: أدخلنا القرآن ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ففهِموا معانيَه، وعرفوا فصاحته، / وأنّه خارج [٢٣٦ظ] عن القوى البشريّة مِن حيث النظم المعجز، ومِن حيث الإخبار عن الغيب،

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٣٦/٢.
٢ م + أن.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.
٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٠/٤.

وقد انضمّ إليه اتّفاق علماء أهل الكتب المنزَلة قبله على تضمّنها للبِشارة بإنزالِه وبِعثةِ مَن أُنزِل عليه بأوصافه.

فقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان أنّهم لا يتأثّرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به؛ بل يستمرّون على ما هم عليه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الملجئَ إلى الإيمان به حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فُجاءةً[1] في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ تحسُّرًا على ما فات مِن الإيمان، وتمنّيًا للإمهال لتلافي ما فرّطوه.

وقيل: معنى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾[2] مثلَ تلك الحالِ وتلك الصفةِ مِن الكفر به[3] والتكذيبِ له وضعناه في قلوبهم. وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[4] في موقع الإيضاح والتلخيص له، أو في موقع الحال، أي: سلكناه فيها غيرَ مؤمَنٍ به. والأوّل هو الأنسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضُدِ أدلّة الإيمان، وتآخُذِ مبادي الهداية والإرشاد، وانقطاعِ أعذارهم بالكلّيّة.

وقيل: ضمير ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾[5] للكفر المدلول عليه بما قبله مِن قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.[6] ونُقل عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[7] عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله: «أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين».[8]

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ[9] عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا

---

١ س: فجأة.
٢ الشعراء، ٢٦/٢٠٠.
٣ وفي هامش م: أي: مكفورًا به. «منه».
٤ الشعراء، ٢٦/٢٠١.
٥ الشعراء، ٢٦/٢٠٠.
٦ الشعراء، ٢٦/١٩٩.
٧ س - تعالى.
٨ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٦٣؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٨٥.
٩ م ط س: أمطِر.

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، وقولِهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف، ٧٠/٧]، ونحوِهما. وحالهم عند نزول العذاب كما وُصِف مِن طلب الإنظار. / فـ"الفاء" [٢٣٧و] للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أيَكون حالُهم كما ذُكِر مِن الاستنظار عند نزول العذاب الأليم، فيستعجلون بعذابنا، وبينهما مِن التنافي ما لا يخفى على أحد؟ أو أيَغفُلون عن ذلك مع تحقّقه وتقرّره فيستعجلون... إلخ؟

وإنّما قُدِّم الجارّ والمجرور للإيذان بأنّ مَصبّ الإنكار والتوبيخ كونُ المستعجَل به عذابَه تعالى، مع ما فيه مِن رعاية الفواصل.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ لمّا كانت الرؤية مِن أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها شاعَ استعمال "أرَأيتَ" في معنى "أخبِرني". والخِطاب لكلّ مَن يَصلح له، كائنًا مَن كان. و"الفاء" لترتيب الاستخبار على قولهم: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾،[١] وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت، وهي متقدّمة في المعنى على "الهمزة"، وتأخيرها عنها صورةً لاقتضاء "الهمزة" الصدارةَ كما هو رأي الجمهور، أي: فأخبِرني ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ متطاولة بطول الأعمار وطيب المعايِش ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أيَّ شيء، أو أيَّ إغناءٍ أغنى عنهم ﴿مَا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ أي: كونُهم ممتَّعِين ذلك التمتيعَ المديدَ، على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو ما كانوا يُمتَّعون به مِن متاع الحياة الدنيا، على أنّها موصولة حُذف عائدها، وأيًّا ما كان فالاستفهام للإنكار والنفي.

وقيل: ﴿مَا﴾ نافية أي: لم يُغنِ عنهم تمتّعهم المتطاوِل في دفع العذاب وتخفيفه، والأوّل هو الأولى لكونه أوفقَ لصورة الاستخبار، وأدلُّ على انتفاء الإغناء على أبلغ وجه وآكَدِه، كأنَّ كلَّ مَن مِن شأنه الخطابُ قد كُلِّف أن يُخبِر بأنّ تمتيعهم ماذا أفادهم، وأيّ شيء أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يُخبِر بشيء مِن ذلك أصلًا. وقُرئ: "يُمْتَعُونَ"[٢] مِن الإمتاع.

---

[١] الشعراء، ٢٠٣/٢٦.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ١٩٤/٨.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٠٩﴾

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ مِن القرى المهلَكة ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قد أنذروا أهلَها إلزامًا للحجّة.

﴿ذِكۡرَىٰ﴾ أي: تذكِرةً. ومحلّها النصب على العلّة، أو المصدر؛ لأنّها في معنى "الإنذار"، كأنّه قيل: مُذكّرون ذِكرى، أو على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل هو صفة لـ﴿مُنذِرُونَ﴾،[1] أي: إلّا لها منذِرون يذكّرونَهم ذكرى، أو الرفع على أنّها صفة ﴿مُنذِرُونَ﴾[2] بإضمار "ذوُو"، أو بجعلهم ذِكرَى لإمعانهم في التذكرة، أو خبر مبتدأ محذوف، والجملة اعتراضيّة. وضمير ﴿لَهَا﴾[3] للقرى المدلولِ عليها بمفردها الواقعِ في حيّز النفي، على معنى أنّ للكلّ منذرين أعمُّ مِن أن يكون لكلّ قرية منها منذر واحد أو أكثر.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنُهلِكَ غيرَ الظالمين وقبلَ الإنذار. والتعبير عن ذلك بنفي الظالميّة مع أنّ / إهلاكهم قبل الإنذار ليسْ بظلمٍ أصلًا على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره[4] بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى مِن الظلم، وقد مرّ في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران، ١٨٢/٣]. [٢٣٧ظ]

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ردّ لِما زعمه الكفرة في حقّ القرآن الكريم مِن أنّه مِن قَبيل ما يُلقيه الشياطين على الكهَنة بعد تحقيق الحقّ ببيان أنّه نَزل به الروح الأمين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ أي: وما يصحّ وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ ذلك أصلًا.

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.
[4] س: بتصويرة.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة في صفاء الذوات، والاستعدادِ لقَبول فيضان أنوار الحقّ، والانتقاشِ بصور العلومِ الربّانيّة والمعارفِ النورانيّة، كيف لا ونفوسُهم خبيثة ظلمانيّة شرّيرة بالذات غيرُ مستعدّة إلّا لقبول ما لا خير فيه أصلًا مِن فنون الشرور؟ فمِن أين لهم أن يَحوموا حولَ القرآن الكريم المنطوي على الحقائق الرائعة الغيبيّة التي لا يمكن تلقّيها إلّا مِن الملائكة عليهم السلام؟

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع ظهور استحالة صدور المنهيّ عنه عليه السلام تهييجًا وحثًّا على ازدياد الإخلاص ولُطفًا لسائر المكلَّفين ببيان أنّ الإشراك مِن القبح والسوء بحيث يُنهَى عنه مَن لا يمكن صدوره عنه، فكيف بمَن عداه؟

﴿وَأَنذِرْ﴾ العذابَ الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأقربَ منهم فالأقربَ، فإنّ الاهتمام بشأنهم أهمّ.

رُوي أنّه لمّا نزلت صَعِد الصفا، وناداهم فَخِذًا فَخِذًا حتّى اجتمعوا إليه، فقال: «لو أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبلِ خيلًا أكنتم مصَدِّقِيَّ؟» / قالوا: نعم، [٢٣٨و]
قال: «فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد».[١] ورُوي أنّه قال: «يا بني عبدِ المطّلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف؛ افتدوا أنفسكم مِن النار، فإنّي لا أغني عنكم شيئًا»، ثمّ قال: «يا عائشة بنت أبي بكر، ويا حفصة بنت عمر، ويا فاطمة بنت محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ويا صفيّة عمّة محمّد؛ اشترِينَ أنفسكنّ مِن النار، فإنّي لا أغني عنكنّ شيئًا».[٢]

---

[١] صحيح البخاري، ٦/١٧٩ (٤٩٧١)؛ صحيح مسلم، ١/١٩٣ (٢٠٨).

[٢] بنحوه: صحيح البخاري، ٤/٦ (٢٧٥٣)؛ صحيح مسلم، ١/١٩٢ (٢٠٦).

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٢١٦﴾

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لَيِّن جانبك لهم. مستعار مِن حال الطائر، فإنّه إذا أراد أن ينحطَّ خفض جناحه. و﴿مِنۡ﴾ للتبيين؛ لأنّ مَن اتّبع أعمّ ممّن اتّبع لدين أو لغيره، أو للتبعيض على أنّ المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان، أو المصدّقون باللسان فحسب.

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾ ولم يتّبعوك ﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: ممّا تعملونه، أو مِن أعمالكم.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه، يَكفِكَ شرّ مَن يعصيك منهم ومِن غيرهم. وقُرئ: "فَتَوَكَّلْ"[1] على أنّه بدل مِن جواب الشرط.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: إلى التهجّد.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وتردّدَك في تصفّح أحوال المتهجّدين، كما رُوي أنّه لمّا نُسخ فرض قيام الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حِرصًا على كثرة طاعتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لِما سمع منها مِن دَندَنَتهم بذكر الله تعالى والتلاوة.[2]

أو تصرّفَك فيما بين المصلّين بالقيام والركوع والسجود / والقعود إذا أمَمتَهم. [٢٣٨ظ]
وإنّما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله عليه السلام التي بها يستأهل ولايته

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر، وكذلك هي في مصاحف المدينة والشام. النشر لابن الجزري، ٣٣٦/٢.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣٤١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥١/٤.

بعد أن عبّر عنه بما ينبئ عن قهر أعدائه ونصر أوليائه مِن وصفَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تحقيقًا للتوكّل، وتوطينًا لقلبه عليه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما تقوله ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما تنويه وتعمَله.

﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢﴾

﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: تتنزّل، بحذف إحدى التاءين، وهو استئناف مَسوق لبيان استحالة تنزُّلِ الشياطين على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد بيان امتناع تنزّلهم **بالقرآن**. ودخول حرف الجرّ على ﴿مَن﴾ الاستفهاميّة لِما أنّها ليست موضوعة للاستفهام، بل الأصل "أمَنْ" فحُذف حرف الاستفهام، واستمرّ الاستعمال على حذفه كما حُذف مِن "هل"، والأصل "أهَلْ".

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ قَصرٌ لتَنزُّلِهم على كلّ مَن اتّصف بالإفك الكثير والإثم الكبير مِن الكهنة والمتنبِّئة، وتخصيصٌ له بهم بحيث لا يتخطّاهم إلى غيرهم، وحيث كانت ساحة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منزّهةً مِن أن يحوم حولها شائبةُ شيء مِن تلك الأوصاف اتّضح استحالة تنزّلهم عليه عليه السلام.

﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣﴾

﴿يُلۡقُونَ﴾ أي: الأفّاكون ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ إلى الشياطين، فيتلقّون منهم أوهامًا وأماراتٍ لنقصان علمِهم، فيضمّون إليها بحسب تخيّلاتهم الباطلة خُرافاتٍ لا يطابق أكثرها الواقع، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه مِن الأقاويل، وقد ورد في الحديث: «الكلمة يخطَفها الجنّي فيَقُرُّها في أُذُن وَلِيّه، فيزيد فيها أكثرَ مِن مائة كَذْبة».[1]

أو يُلقون السمعَ -أي: المسموعَ- مِن الشياطين إلى الناس، وأكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يُوحوا إليهم. والأظهر أنّ الأكثريّة باعتبار أقوالهم،

---

[1] **صحيح البخاري**، ٤٧/٨ (٦٢١٣)؛ **صحيح مسلم**، ١٧٥٠/٤ (٢٢٢٨).

على معنى أنّ هؤلاء قلّما يَصدُقون فيما يَحكون عن الجنّي، وأمّا في أكثره فهم كاذبون. ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة، لا باعتبار ذواتهم حتّى يلزَم مِن نسبة الكذب إلى أكثرهم كونُ أقلّهم صادقين على الإطلاق. / وليس معنى "الأفّاك" [٢٣٩و] مَن لا ينطق إلّا بالإفك حتّى يمتنع منه الصدق؛ بل مَن يُكثِر الإفك، فلا ينافيه أن يصدق نادِرًا في بعض الأحايين.

وقيل: الضمير لـ﴿ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾، أي: يُلقون السمعَ -أي: المسموعَ- مِن الملأ الأعلى قَبل أن رُجِموا مِن بعض المغيّبات إلى أوليائهم، وأكثرُهم كاذبون فيما يوحون به إليهم، إذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلّمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم، أو ضبطهم، أو إفهامِهم.

ولا سبيل إلى حمل "إلقاءِ السمع" على تَسمُّعِهم وإنصاتِهم إلى الملأ الأعلى قبل الرجم كما جوّزه الجمهور، لِما أنّ ﴿يُلْقُونَ﴾ كما صرّحوا به إمّا حال مِن ضمير ﴿تَنَزَّلُ﴾[١] مفيدة لمقارَنةِ التنزّل للإلقاء، أو استئناف مُبيّن للغرض مِن التنزّل مبنيّ على السؤال عنه. ولا ريبَ في أنّ إلقاء السمع إلى الملأ الأعلى بمَعزِل مِن احتمال أن يقارِنَ التنزّلَ أو يكونَ غرَضًا منه، لتقدّمه عليه قطعًا، وإنّما المحتمِلُ لهما الإلقاءُ بالمعنى الأوّل، فالمعنى على تقدير كونه حالًا: تنزَّل الشياطين على الأفّاكين مُلقِين إليهم ما سمِعوه مِن الملأ الأعلى، وعلى تقدير كونه جوابًا على سؤالِ مَن قال: لِمَ تَنَزّل عليهم؟ وماذا يفعلون بهم؟: يُلقون إليهم ما سمعوه.

وحملُه على استئناف الإخبار -كما فعله بعضهم-[٢] غيرُ سديد؛ لأنّ ذِكر حالهم السابقة على تنزّلهم المذكور قبله غير خَليق بجزالة التنزيل.

وأمّا على تقدير كون ضمير ﴿يُلْقُونَ﴾ للأفّاكين، فهو صفة لكلّ أفّاك، لأنّه في معنى الجمع، / سواء أريدَ بإلقاء السمع الإصغاءُ إلى الشياطين، أو إلقاءُ [٢٣٩ظ] المسموع إلى الناس. ويجوز أن يكون استئنافَ إخبارٍ بحالهم على كِلا التقديرين،[٣]

---

١ في الآية السابقة.

٢ وفي هامش م: أبو حيّان. | انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١٩٩/٨.

٣ س: التقدير.

لِما أنّ كُلًّا مِن تلقّيهم مِن الشياطين وإلقائِهم إلى الناس يكون بَعد التنزُّل، وأن يكون استئنافًا مبنيًّا على السؤال على التقدير الأوّل فقط، كأنّه قيل: ما يفعلون عند تنزّل الشياطين عليهم؟ فقيل: يُلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ على التقدير الأوّل استئناف فقط، وعلى الثاني يحتمل الحاليّة مِن ضمير ﴿يُلْقُونَ﴾، أي: يُلقُون ما سمعوه مِن الشياطين إلى الناس، والحال أنّهم في أكثر أقوالهم كاذبون، فتدبّر.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ استئناف مَسوق لإبطال ما قالوا في حقّ القرآن العظيم مِن أنّه مِن قَبيل الشعر وأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله صلّى الله عليه وسلّم بعد إبطال ما قالوا: إنّه مِن قبيل ما يُلقي الشياطين على الكهَنة مِن الأباطيل؛ بما مرّ مِن بيان أحوالهم المُضادّة لأحواله عليه السلام. والمعنى: أنّ الشعراء يَتّبِعُهم -أي: يُجارِيهم ويَسلكُ مَسلكَهم، ويكون مِن جُملتهم- الغاوون الضالُّون عن السَّنن، الحائرون فيما يأتون وما يذرون، لا يستمرّون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال والأحوال، لا غيرُهم مِن أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحقّ الثابتين عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ استشهاد على أنّ الشعراء إنّما يتبعهم الغاوون، وتقريرٌ له، والخطابُ لكلّ مَن يتأتّى منه الرؤية للقصد إلى أنّ حالهم مِن الجلاء والظهور بحيث لا يختصّ برؤيةِ راءٍ دون راء، أي: ألَم ترَ أنّ الشعراء في كلّ وادٍ مِن أودية القيل والقال، وفي كلّ شِعْبٍ مِن شِعاب الوَهم والخيال، وفي كلّ مَسلك مِن مَسالك الغيّ والضلال يَهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيلٍ معيّن مِن السبل؛ / بل يتحيّرون في فَيافي الغواية والسفاهة، [٢٤٠و]
ويتيهون في تِيه المُجون والوقاحة، دَيدنهم تمزيق الأعراض المحميّة، والقَدْحُ

في الأنساب الطاهرة السنيّة، والنسيبُ بالجُرَمِ،[١] والغَزَلُ،[٢] والابتهارُ،[٣] والتردّدُ بين طرفَي الإفراط والتفريط في المدح والهِجاء.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن الأفاعيل غيرَ مبالين بما يستتبعه مِن اللوائم، فكيف يُتوهّم أن يتّبعهم في مَسلكهم ذلك، ويلتحقَ بهم، وينتظمَ في سِلكهم مَن تَنَزَّهَت ساحته عن أن يحوم حولَها شائبة الاتّصاف بشيء مِن الأمور المذكورة، واتَّصف بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلّقَ بمكارم الأخلاق الجميلة، وحازَ جميع الكمالات القدسيّة، وفاز بجملة المَلَكات الأنسيّة، مستقِرًّا على المنهاج القويم، مستمِرًّا على الصراط المستقيم، ناطقًا بكلّ أمر رشيد، داعيًا إلى صراط العزيز الحميد، مؤيّدًا بمعجزات قاهرة، وآياتٍ ظاهرة، مشحونةٍ بفنون الحِكَم الباهرة، وصنوف المعارف الزاهرة، مستقلّةٍ بنظم رائقٍ أعجَز كلّ مِنطِيقٍ[٤] ماهر، وبكّت كلّ مُفْلِقٍ[٥] ساحر.

هذا وقد قيل في تنزيهه عليه السلام مِن أن يكون مِن الشعراء: إنّ أتباعَ الشعراء الغاوُون، وأتباعُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ليسوا كذلك. ولا ريب في أنّ تعليل عدم كونه عليه السلام منهم بكون أتباعه عليه السلام غيرَ غاوين ممّا لا يليق بشأنه العالي.

وقيل: ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الراوُون. وقيل: الشياطين. وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزِّبَعْرَى، وهُبَيرة بن أبي وهب المخزومي،[٦] ومسافع بن عبد مناف،[٧]

---

١ وفي هامش م: نَسَب الشاعر بالمرأة ينسِب نَسيبًا إذا شَبّب بها. صحاح. | الصحاح للجوهري، «نسب».

٢ وفي هامش م: مغازلة النساء: محادثتهنّ ومراودتهنّ، والاسم الغَزَل. صحاح. | الصحاح للجوهري، «غزل».

٣ وفي هامش م: الابتِهار: ادّعاء الشيء كذبًا، وابتُهِر فلان بفلانة شُهِر بها. صحاح. | الصحاح للجوهري، «بهر».

٤ المِنطِيق: البليغ. الصحاح للجوهري، «نطق».

٥ شاعر مُفْلِق: مُجيد، يَجيء بالعجائب في شعره. لسان العرب لابن منظور، «فلق».

٦ هو هُبَيرة بن أبي وهب بن عامر بن عائذ بن عمران بن مخزوم، كان زوجَ أمّ هانئ بنت أبي طالب، فأسلمت وثبتَ هو على الشرك، وكان شاعرًا مِن رجال قريش المعدودين، وكان شديد العداوة لله ولرسوله فأخمله الله، ولمّا دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّةَ هرَب هُبيرةُ إلى نَجران. انظر: الاشتقاق لابن دريد، ص ١٥٢؛ وطبقات فحول الشعراء لابن سلّام، ١/٢٣٥-٢٥٧؛ ومعرفة الصحابة لأبي نعيم، ٣/١٦٦٢.

٧ هو مسافع بن عبد مناف بن عُمير بن وَهب بن حذافة بن جمح، الشاعر، وهو الذي خرج يوم أُحُد

وأبو عَزّة الجُمَحي،[١] ومِن ثقيف: أميّة بن أبي الصلت، قالوا: نحن نقول مثلَ قول محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وقُرئ: "وَالشُّعَرَاءَ" بالنصب[٢] على إضمار فعل يفسّره الظاهر. وقُرئ: "يَتْبَعُهُمْ" على التخفيف،[٣] / و"يَتَّبِعْهُمْ" بسكون العين[٤] تَشْبِيهًا لِـ"بِعُهُ" بـ"عَضْدِ". [٢٤٠ظ]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكثِرون ذكر الله عزّ وجلّ، ويكون أكثر أشعارِهم في التوحيد والثناء على الله تعالى، والحثّ على طاعته، والحكمة والموعظة، والزهد في الدنيا، والترغيب عن الركون إليها، والزجر عن الاغترار بزخارفها، والافتتان بملاذّها الفانية، ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجوٌ وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممّن هجاهم.

وقيل: المراد بالمستثنَيْنَ عبد الله بن رَواحة، وحسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير بن أبي سُلمى، والذين كانوا ينافِحون عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويكافحون هُجاة قريش.

وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى[٥] عنهم[٦] أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

إلى بني مالك بن كنانة يحرّضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال في ذلك شعرًا. انظر: سيرة ابن هشام، ٦١/٢؛ ونسب قريش للزبيري، ص ٩٢.

١ هو عمرو بن عبد الله، أبو عَزّة الجُمَحي، كان شاعرًا يحرّض بشعره على قتال المسلمين، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مَنّ عليه يوم بدر، فذهب إلى مكّة، وقال: «سَخِرتُ بمحمّد». فلمّا كان يوم أُحُد حضرَ وحرّض بشعره على قتال المسلمين، فقتله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صَبْرًا. تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ٥٣٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.

٣ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٧٤/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٠٠/٨.

٥ س – تعالى.

٦ س: عنه.

قال له: «اهجُهم، فوَالذي نفسي بيده لَهُو أَشَدُّ عليهم مِن النَّبل».[١] وكان يقول لحسّان: «قُل ورُوح القدس معك».[٢]

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لِما في ﴿سَيَعْلَمُ﴾ مِن تهويل متعلَّقه، وفي ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مِن الإطلاق والتعميم، وفي ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ مِن الإبهام والتهويل، وقد قاله أبو بكر لعُمر رضي الله تعالى عنهما حين عَهِد إليه.[٣] وقُرئ: "أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ"[٤] مِن الانفلات بمعنى النجاة، والمعنى: إنّ الظالمين يطمعون أن ينفلتوا مِن عذاب الله تعالى، وسيعلمون أن ليس لهم وجه مِن وجوه الانفلات.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الشعراء كان له عشر حسنات بعدد مَن صدّق بنُوح وكذَّب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم، وبعدد مَن كذّب بعيسى وصدّق بمحمّد عليهم الصلاة والسلام».[٥]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٤٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٥٢. ونحوه في مسند أحمد، ٤٥/١٤٨ (٢٧١٧٥).

٢ مسند أحمد، ٣٠/٥٩٧ (١٨٦٤١)؛ المستدرك للحاكم، ٣/٥٥٥ (٦٠٦٢).

٣ أخرج البيهقي في السنن الكبرى، ٨/٢٥٧-٢٥٨ (١٦٥٧٦)، أنّ أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه أوصى في مرضه، فقال لعثمان رضي الله عنه: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قُحافة عند آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وأوّل عهده بالآخرة داخلًا فيها، حين يَصدق الكاذب، ويؤدّي الخائن، ويؤمن الكافر، إنّي أستخلف بعدي عمرَ بن الخطّاب، فإن عدَل فذلك ظنّي به ورجائي فيه، وإن بدّل وجار فلا أعلم الغيب، ولكلّ امرئ ما اكتسب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/١٥٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٥٠. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

# سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

وفي تفسير الإمام مالكٍ تسميتُها بسورة الجامعة[1]. وقد جاء في رواية ابن مردويه عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ﷺ إطلاقُ القول بمكّيتها[2]. وأخرج النحاس عن ابن عباس ﷺ: أنها نزلت بمكةَ سوى خمسِ آياتٍ من آخرها نزلت بالمدينة: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرها [الآية: ٢٢٤][3]. وروي ذلك عن عطاءٍ وقتادةَ. وقال مقاتل: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ الآية [١٩٧] مدنيةٌ أيضاً.

قال الطبرسيُّ: وعِدَّةُ آياتها مئتان وسبعٌ وعشرون آيةً في الكوفيِّ والشاميِّ والمدنيِّ الأوَّلِ، ومئتان وستٌّ وعشرون في الباقي[4].

ووجهُ اتِّصالها بما قبلَها اشتمالُها على بَسْطٍ وتفصيلٍ لبعض ما ذُكر فيما قبلُ، وفيها أيضاً من تسليته ﷺ ما فيها، وقد افتُتِحَتْ كلتا السورتين بما يفيد مدحَ القرآن الكريم وخُتِمتَا بإيعاد المكذِّبين به كما لا يخفى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١﴾ تقدَّم الكلام في أمثاله إعراباً وغيرَه، والكلامُ هنا كالكلام هناك، بَيْدَ أنه أخرج ابنُ أبي حاتم عن محمد بن كعب أنه قال في هذا: الطاءُ من ذي الطَّوْل، والسينُ من القدُّوس، والميمُ من الرحمن[5].

---

(١) الإتقان ١/ ١٧٣، وذكر ذلك أيضاً ابن كثير في أول هذه السورة.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٨٢، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً ابن الضريس في فضائل القرآن ص٢٣-٢٤.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧١.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٣٤.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٧.

وأمال فتحةَ الطاء حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر[١]. وقرأ نافع كما رَوَى عنه أبو عليٍّ الفارسيُّ في «الحجة» بينَ بين ولم يُمِلْ صِرْفاً[٢]، لأنَّ الألف منقلبةٌ عن ياءٍ، فلو أُمِيلت إليها انتقضَ غرضُ القَلْبِ، وهو التخفيف.

ورَوَى بعضٌ عنه أنه قرأ كباقي السبعة من غير إمالة أصلاً[٣]، نظراً إلى أنَّ الطاء حرفُ استعلاءٍ يمنع من الإمالة.

وقرأ حمزةُ بإظهار نونِ «سين»[٤] لأنه في الأصل لكونه أحدَ أسماء الحروف المقطَّعةِ منفصلٌ عمَّا بعده، وأدغمها الباقون لمَّا رأوها متصلةً في حُكْم كلمةٍ واحدةٍ، خصوصاً على القول بالعَلَمية.

وقرأ عيسى بكَسْرِ الميم من «طسم» هنا وفي «القصص»، وجاء كذلك عن نافعٍ[٥].

وفي مصحف عبد الله: «ط س م» من غير اتِّصالٍ، وهي قراءةُ أبي جعفر[٦].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ إشارةٌ إلى السورة، وما في ذلك من معنى البُعْد للتنبيه على بُعْد منزلةِ المشار إليه في الفخامة. والمرادُ بالكتاب: القرآنُ، وبالمبين: الظاهرُ إعجازُه على أنه من أبانَ بمعنى بان، والكلامُ على تقدير مضافٍ أو على أنَّ الإسناد فيه مجازيٌّ. وجوِّز أن يكون «المبين» من أبان المتعدِّي ومفعولُه محذوفٌ، أي: الأحكامَ الشرعية، أو الحقَّ. والأولُ أنسبُ بالمقام.

والمعنى: هذه آياتٌ مخصوصةٌ من القرآن، مترجَمةٌ باسمٍ مستقلٍّ. والمرادُ ببيان كونها بعضاً منه وَصْفُها بما اشتهر به الكلُّ من النعوت الجليلة.

---

(١) التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٧٠، وأمالها أيضاً خلف من العشرة.

(٢) الحجة ٥/ ٣٥٥، وقال صاحب النشر ٢/ ٧٠: انفرد أبو القاسم الهذلي عن نافع ببين اللفظين، ووافقه في ذلك صاحب العنوان، إلا أنه عن قالون ليس من طريقنا. اهـ. وينظر العنوان في القراءات السبع لأبي طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ الأندلسي الأنصاري ص ١٤٢.

(٣) التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٧٠.

(٤) التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ١٩.

(٥) البحر ٧/ ٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ٥. ومذهب أبي جعفر هو السكت على كل حرف من حروف الفواتح. النشر ١/ ٢٤١ و٢/ ١٩.

وقيل: الإشارةُ إلى القرآن، والتأنيثُ لرعاية الخبر، والمرادُ بالكتاب السورةُ، والمعنى: آيات هذا القرآن المؤلَّف من الحروف المبسوطة كآيات هذه السورة المتحدَّى بها، فأنتم عجزتُم عن الإتيان بمثل هذه السورة، فحُكْمُ تلك الآيات كذلك. وهو كما ترى.

ومن الناس مَن فسَّر «الكتاب المبين» باللوح المحفوظ، ووَصْفُه بالمبين لإظهاره أحوالَ الأشياء للملائكة عليهم السلام. والأَوْلَى ما سمعتَه أوَّلاً.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾ أي: قاتلٌ إياها من شدَّةِ الوَجْدِ كما قال الليث، وأنشد قولَ الفرزدق(١):

أَلَا أيُّهذا الباخعُ الوَجْدُ نفسَه لشيءٍ نَحَتْه عن يديه المَقادِرُ(٢)

وقال الأخفش والفرَّاء(٣): يقال: بَخَع يَبْخَعُ بَخْعاً وبُخوعاً، أي: أهلكَ من شدَّة الوَجْدِ، وأصلُه الجهد. ومنه قول عائشةَ في عمر رضي الله عنهما: بَخَعَ الأرضَ(٤). أي: جَهَدَها حتى أَخَذَ ما فيها من أموال الملوك.

وقال الكسائيُّ: بَخَع الأرضَ بالزراعة: جَعَلَها ضعيفةً بسببِ متابعة الحراثة. وقال الزمخشريُّ وتبعه المطرّزيُّ: أصل البَخْعِ أن تَبْلُغَ بالذبح البِخَاع بكَسْرِ الباء، وهو عِرْقٌ مستبطنُ الفَقَارِ، وذلك أقصى حدِّ الذبح(٥). ولم يطَّلِعْ على ذلك ابنُ الأثير مع مزيد بَحْثِه(٦)، ولا ضَيْرَ في ذلك.

(١) كذا ذكر، والصواب أنه لذي الرمة على ما يأتي.
(٢) ديوان ذي الرمة ٢/ ١٠٣٧، والعين ١/ ١٢٣ و٣/ ٣٠٣، وسلف عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف. قال شارح الديوان: نَحَتْه المقادر، أي: حَرَفَتْه المقادر، فاصبر أن لا تكون نِلْتَه.
(٣) كما في البحر ٦/ ٩٢، وعنه نقل المصنف. وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٤ و٢٧٥.
(٤) الخبر في تهذيب اللغة ١/ ١٦٨، والنهاية (بخع)، وغريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٥٨، والكلام من البحر٦/ ٩٢.
(٥) الكشاف ٣/ ١٠٤، والمُغرب في ترتيب المُعْرِب لأبي الفتح ناصر الدين الخوارزمي الحنفي المشهور بالمطرزي ص٢٩٣. وسلف كلام الزمخشري عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.
(٦) النهاية (بخع)، وفيه بعد نَقْلِ كلام الزمخشري في الفائق والتفسير: ولم أجده لغيره - يعني الزمخشري - وطالما بحثت عنه في كتب اللغة والطب والتشريح فلم أجد البخاع - بالباء - مذكوراً في شيء منها. اهـ. وينظر تاج العروس (بخع).

وقرأ زيد بن عليٍّ وقتادةُ رحمهم الله تعالى: «باخعُ نَفْسِكَ»[١] بالإضافة على خلافِ الأصل؛ فإنَّ الأصل في اسم الفاعل إذا استوفى شروطَ العمل أن يعمل، على ما أشار إليه سيبويه في «الكتاب»[٢]. وقال الكسائيُّ: العملُ والإضافةُ سواءٌ. وذهبَ أبو حيان إلى أنَّ الإضافة أحسنُ من العمل[٣].

و«لعل» في مثل هذا الموضع لإشفاق المتكلِّم، ولمَّا استحال في حقِّه سبحانه جعلوه متوجِّهاً إلى المخاطب، ولمَّا كان غير واقعٍ منه أيضاً قالوا: المراد الأمرُ به لدلالة الإنكار المستفاد من سوق الكلام عليه، فكأنه قيل: أَشْفِقْ على نفسك أن تقتُلها وَجْداً وحَسْرةً على ما فاتك من إسلام قومك.

وقال العسكريُّ: هي في مثل هذا الموضع موضوعةٌ موضعَ النهي، والمعنى: لا تَبْخَعْ نفسَك[٤].

وقيل: وُضِعَتْ موضعَ الاستفهام، والتقدير: هل أنت باخعٌ. وحُكي مثلُه عن ابن عطية، إلا أنه قال: المراد الإنكارُ، أي: لا تكن باخعاً نفسَك[٥].

﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ تعليلٌ للبَخْع، ولمَّا لم يَصِحَّ كونُ عَدَم كونهم في المستقبل مؤمنين ـ كما يفيدُه ظاهرُ الكلام ـ علَّةً لذلك لعدم المقارَنة، والعلَّةُ ينبغي أن تُقارِنَ المعلولَ، قدَّروا: خِيفة، فقالوا: أي[٦]: خيفةَ أنْ لا يؤمنوا بذلك الكتاب المبين.

ومن الأجلَّة مَن لم يقدِّر ذلك بناءً على أنَّ المراد: لاستمرارهم على عدم قبول الإيمان بذلك الكتاب؛ لأنَّ كلمة «كان» للاستمرار، وصيغةُ الاستقبال لتأكيده، وأُريدَ استمرارُ النفي.

وجوِّز أن يكون الكونُ بمعنى الصحة، والمعنى: لامتناع إيمانهم. والقولُ بأنَّ فِعْلَ الكون أُتي به لأَجْلِ الفاصلة، ليس بشيءٍ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ٥.
(٢) سلف قوله عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.
(٣) البحر ٦/ ٩٨، وسلف عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.
(٤) البحر ٦/ ٩٨، وسلف عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦، وسلف عند تفسير الآية (٦) من سورة الكهف.
(٦) قوله: أي، ليس في (م).

وقوله تعالى: ﴿إن نَّشَأْ﴾ إلخ استئنافٌ لتعليل الأمر بإشفاقه على نفسه ﷺ، أو النهي عن البَخْعِ، ومفعول المشيئة محذوف، وهو على المشهور ما دلَّ عليه مضمونُ الجزاء، وجوِّز أن يكون مدلولاً عليه بما قَبلُ، أي: إن نشأ إيمانَهم ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ مُلْجئةً لهم إلى الإيمان قاسِرةً عليه، كما نتق الجبل فوق بني إسرائيل. وتقديمُ الظرفين على المفعول الصريح لِمَا مرَّ مراراً من الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

وقرأ أبو عمرو في رواية هارون عنه: «إنْ يَشأْ يُنزِّلْ» على الغيبة، والضمير له تعالى[١]. وفي بعض المصاحف: «لو شئنا لأنزلنا»[٢].

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾ أي: منقادين، وهو خبرٌ عن الأعناق، وقد اكْتَسبتِ التذكيرَ وصِفَةَ العقلاء من المضاف إليه، فأخبر عنها لذلك بجَمْعِ مَن يَعْقِلُ كما نقله أبو حيان عن بعض أجلَّة علماء العربية[٣].

واختصاصُ جوازِ مِثْلِ ذلك في[٤] الشعر كما حكاه السيرافيُّ عن النحويين مما لم يَرْتَضِه المحقِّقون، ومنهم أبو العباس، وهو ممن خرَّج الآية على ذلك.

وجوِّز أن يكون ذلك لِمَا أنَّها وُصِفَتْ بفِعْلٍ لا يكونُ مقصوداً إلا للعاقل وهو الخضوعُ، كما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وأن يكون الكلامُ على حذفِ مضافٍ وقد رُوعيَ بعد حَذْفِه، أي: أصحابُ أعناقِهِم، ولا يخفى أنَّ هذا التقدير ركيكٌ مع الإضافة إلى ضميرهم.

وقال الزمخشريُّ: أصلُ الكلام: فظلُّوا لها خاضعين، فأُقْحِمَتِ الأعناقُ لبيانِ موضعِ الخضوع؛ لأنه يتراءى قبل التأمُّل لظهور الخضوع في العنق بنحوِ الانحناء أنه هو الخاضعُ دون صاحبه، وتُرِكَ الجمعُ بعد الإقحام على ما كان عليه قبلُ[٥].

---

(١) البحر ٧/ ٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ٥.
(٣) البحر ٧/ ٦.
(٤) قوله: في، ليس في (م).
(٥) بنحوه في الكشاف ٣/ ١٠٤.

وقال الكسائي: إنَّ «خاضعين» حالٌ للضمير المجرور لا للأعناق.

وتعقَّبه أبو البقاء فقال: هو بعيدٌ في التحقيق لأنَّ «خاضعين» يكون جارياً على غير فاعل «ظلَّت»، فيفتقرُ إلى إبراز ضمير الفاعل، فكان يجب أن يكون: خاضعين هم(١)، فافهم.

وقال ابن عباس ومجاهد وابن زيد والأخفش(٢): الأعناق: الجماعات؛ يقال: جاءني عنقٌ من الناس، أي: جماعةٌ، والمعنى: ظلَّت جماعاتُهم، أي: جملتُهم.

وقيل: المراد بها الرؤساءُ والمقدَّمون مجازاً، كما يقال لهم: رؤوس وصدور، فيثبت الحكم لغيرهم بالطريق الأولى. وظاهرُ كلامهم أنَّ إطلاق العنق على الجماعة مطلقاً رؤساء أم لا حقيقةٌ، وذكر الطيبي عن «الأساس» أنَّ من المجاز: أتاني عنقٌ من الناس، للجماعة المتقدِّمة. وجاؤوا رَسَلاً رَسَلاً وعُنقاً عُنقاً، والكلامُ يأخذ بعضُه بأعناقِ بعضٍ(٣). ثم قال: يُفْهَم من تَقابُلِ رَسَلاً رَسَلاً لقوله: عنقاً عنقاً أنَّ في إطلاق الأعناق على الجماعات اعتبارَ الهيئة المجتمعة، فيكون المعنى: فظلُّوا خاضعين مجتمعين على الخضوع، متَّفقين عليه لا يخرجُ أحدٌ منهم عنه(٤).

وقرأ عيسى وابنُ أبي عبلة: «خاضعةً»(٥) وهي ظاهرةٌ على جميع الأقوال في الأعناق، بيدَ أنه إذا أُريدَ بها ما هو جمعُ العنق بمعنى الجارحةِ، كان الإسناد إليها مجازيًّا.

و«لها» في القراءتين صلةُ «ظلت»، أو الوصفِ، والتقديمُ للفاصلة أو نحوِ ذلك لا للحصر.

---

(١) الإملاء ٤/١٠٨-١٠٩، وتعقبه السمين في الدر ٨/٥١٢ بأن «خاضعين» لم يجر في اللفظ والمعنى إلا على من هو له، وهو الضمير في «أعناقهم»، والمسألة التي قالها هي أن يجري الوصف على غير مَن هو له في اللفظ دون المعنى. على أنه لو كان كذلك لم يلزم ما قاله؛ لأن الكسائي والكوفيين لا يوجبون إبراز الضمير في هذه المسألة إذا أمن اللبس.

(٢) في معاني القرآن له ٢/٦٤٣-٦٤٤.

(٣) أساس البلاغة (عنق).

(٤) في الأصل: عنهم.

(٥) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/٦.

و«ظلَّت» عطفٌ على «ننزِّل»، ولا بدَّ من تأويل أحد الفعلين بما هو من نوع الآخر؛ لأنه وإن صحَّ عطفُ الماضي على المضارع إلا أنه هنا غيرُ مناسبٍ؛ فإنه لا يترتَّبُ الماضي على المستقبل بالفاء التعقيبية أو السببية، ولا يُعْقَلُ ذلك، والمعقولُ عكسُه، وبتأويلِ أحد الفعلين يُدْفَعُ ذلك، لكن اختار بعضُهم تأويلَ «ظلَّت» بـ : تَظَلُّ، وكأنَّ العدول عنه إليه ليؤذِنَ الماضي بسرعة الانفعال، وأنَّ نزول الآية ـ لقوة سلطانه وسرعةِ ترتُّب ما ذُكر عليه ـ كأنه كان واقعاً قبله. وبعضُهم تأويلَ «ننزِّل» بـ : أنزلنا، ولعل وَضْعَه مَوْضِعَه لاستحضارِ صورةِ إنزالِ تلك الآيةِ العظيمةِ المُلجِئةِ إلى الإيمان، وحصولِ خضوعِ رقابِهم عند ذلك في ذهن السامع ليَتَعَجَّبَ منه، فتأمَّل.

وقرأ طلحة: «فتَظْلَلْ» بفكِّ الإدغام والجزم[1]، وضعَّف الحريريُّ في «درَّة الغوَّاص» الفكَّ في مثل ذلك[2]. ورجَّح صاحب «الكشف» القراءةَ بأنها أبلغُ؛ لإفادة الماضي ما سمعْتَه آنفاً.

هذا، والظاهرُ أنه لم يتحقَّق إنزالُ هذه الآيةِ لأنَّ سنَّة الله تعالى تكليفُ الناس بالإيمان من دون إلجاءٍ، نعم إذا قيل: المرادُ: آيةٌ مذلَّةٌ لهم ـ كما روي عن قتادة ـ جاز أن يقال بتحقُّق ذلك. ولعل ما رُوي عن ابن عباس كما في «البحر» و«الكشاف» من قوله: نزلتْ هذه الآيةُ فينا وفي بني أمية، ستكونُ لنا عليهم الدولةُ، فتَذِلُّ أعناقُهم بعد صعوبةٍ ويلحقُهم هوانٌ بعد عزَّةٍ[3]، ناظرٌ إلى هذا.

وعن أبي حمزة الثماليِّ: أنَّ الآيةَ صوتٌ يُسْمَعُ من السماء في نصفِ شهرِ رمضان، وتخرجُ له العواتقُ من البيوت. وهذا قولٌ بتحقُّق الإنزال بعدُ، وكأنَّ ذلك زمانَ المهديِّ ﷺ.

ومن صحة ما ذُكر من الأخبار في القلب شيءٌ، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ بيانٌ لشدَّة شكيمتهم وعَدَم ارْعِوائهم عمَّا كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذُكر من الآية الملجئة، تأكيداً لصَرْفِ رسولِ الله ﷺ عن الحرص على إسلامهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ٥.
(٢) درة الغواص ص١١٣-١١٦.
(٣) البحر ٧/ ٦، والكشاف ٣/ ١٠٥، وعزاه القرطبي ١٦/ ١٠ للثعلبي والغزنوي.

و«مِن» الأولى مزيدةٌ لتأكيد العموم. وجوِّز أن تكون تبعيضيةً، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لمقدَّرٍ، كما نشير إليه إن شاء الله تعالى. والثانيةُ لابتداءِ الغاية مجازاً متعلِّقةٌ بـ «يأتيهم» أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ «ذِكْرٍ»، وأيًّا ما كان ففيه دلالةٌ على فَضْلِه وشَرَفِه وشناعةِ ما فعلوا به.

والتعرُّضُ لعنوان الرحمة؛ لتغليظِ شناعتهم وتهويلِ جنايتهم؛ فإنَّ الإعراضَ عمَّا يأتيهم من جنابه جلَّ وعلا على الإطلاق شنيعٌ قبيحٌ، وعمَّا يأتيهم بموجب رحمته تعالى لِمَحْضِ منفعتهم أشنعُ وأقبحُ، أي: ما يأتيهم تذكيرٌ وموعظةٌ، أو طائفةٌ من القرآن، من قِبَلِه عزَّ وجلَّ بمقتضَى رحمته الواسعة، مجدَّدٌ[1] تنزيلُه حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ، إلا جدَّدوا إعراضاً عنه، واستمرُّوا على ما كانوا عليه.

والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، محلُّه النصبُ على الحالية من مفعول «يأتيهم» بإضمارِ «قد» أو بدونه على الخلاف المشهور، أي: ما يأتيهم من ذِكْرٍ في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كونهم مُعْرِضين عنه.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: بالذِّكر الذي يأتيهم، تكذيباً صريحاً مقارِناً للاستهزاء به، ولم يكتفوا بالإعراض عنه، حيث جعلوه تارةً سحراً، وتارة أساطيرَ الأوَّلين، وأخرى شِعْراً.

وقال بعض الفُضَلاء: أي: فقد تمُّوا على التكذيب وكان تكذيبُهم مع ورود ما يوجبُ الإقلاعَ من تكرير إتيان الذِّكر كتكذيبهم أوَّلَ مرَّةٍ، وللتنبيه على ذلك عبَّر عنه بما يعبَّر عن الحادث.

ويُشعر باعتبارِ مقارنةِ الاستهزاء حَسْبَما أشير إليه قولُه تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ لاقتضائه تقدُّمَ الاستهزاء. وقيل: إنَّ ذاك لدلالة الإعراض والتكذيب على الاستهزاء.

والمرادُ بأنباءِ ذلك: ما سيحيقُ بهم من العقوباتِ العاجِلَةِ والآجلةِ، وكلُّ آتٍ قريب. وقيل: مِن عذابِ يومِ بدرٍ، أو يومِ القيامة.

---

(١) في (م): يجدد، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٤.

والأوَّلُ أَوْلَى، وعبَّر عن ذلك بالأنباء لكونه مما أنبأ به القرآنُ العظيم، أو لأنهم بمشاهدته يقفون على حقيقة حالِ القرآن، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء. وفيه تهويلٌ له؛ لأن النبأ يطلقُ على الخبر الخطير الذي له وقعٌ عظيمٌ، أي: فسيأتيهم لا محالةَ مِصْداقُ ما كانوا يستهزؤون به قبلُ من غير أن يتدبَّروا في أحواله ويقفوا عليها.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ بيانٌ لإعراضهم عن الآيات التكوينية بعد بيانِ إعراضهم عن الآياتِ التنزيلية، والهمزةُ للإنكار التوبيخيِّ، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، أي: أأصرُّوا على ما هم عليه من الكفر بالله تعالى وتكذيب ما يَدْعوهم إلى الإيمان به عزَّ وجلَّ ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرةِ لهم عن ذلك، والداعيةِ إلى الإيمان به تعالى.

وقال أبو السعود بعد جَعْلِ الهمزة للإنكار، والعَطْفِ على مقدَّرٍ يقتضيه المقام: أي: أفَعلوا ما فَعَلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيبِ والاستهزاءِ بها ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرةِ عمَّا فعلوا، والداعيةِ إلى الإقبال على ما أَعْرَضوا عنه[1]. انتهى.

وهو ظاهرٌ في أنَّ الآية مرتبطةٌ بما قبلها من قوله تعالى: (وَمَا يَأْتِيهِم) إلخ، وهو قريبٌ بحسب اللَّفظ، إلَّا أنَّ فيه أنَّ النظر إلى عجائب الأرض لا يَظْهرُ كونُه زاجراً عن التكذيب بكونِ القرآن منزلاً من الله عزَّ وجلَّ، وداعياً إلى الإقبال إليه.

وقال ابن كمال: التقديرُ: ألم يتأمَّلوا في عجائب قدرته تعالى ولم ينظروا. انتهى. والظاهر أن الآية عليه ابتداءُ كلامٍ، فافهم.

وقيل: هو بيانٌ لتكذيبهم بالمعاد إثْرَ بيانِ تكذيبهم بالمبدأ وكُفْرِهم به عزَّ وجلَّ، والعطفُ على مقدَّرٍ أيضاً، والتقديرُ: أكذَّبوا بالبعث ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عن التكذيب بذلك. والأوَّلُ أَوْلَى وأظهرُ.

وأيًّا ما كان فالكلامُ على حَذْفِ مضافٍ كما أُشيرَ إليه، وجوِّز أن يراد من الأرض عجائبُها مجازاً.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٥.

وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لِمَا في الأرض من الآيات الزاجرة عن الكُفْرِ الدَّاعيةِ إلى الإيمان.

و«كم» خبريةٌ في موضع نَصْبٍ على المفعولية بما بعدها، وهي مفيدةٌ للكثرة، وجيء بـ «كلّ» معها لإفادة الإحاطة والشمولِ، فيفيدانِ[1] كثرةَ أفرادِ كلِّ صنفٍ صنفٍ، فيكونُ المعنى: أنبتنا فيها شيئاً كثيراً من كلِّ صنفٍ، على أنَّ «مِن» تبعيضيةٌ، أو كثرةَ الأصناف، فيكون المعنى: أنبتنا فيها شيئاً كثيراً هو كلُّ صنفٍ، على أنَّ «من» بيانيةٌ. وأيًّا ما كان فلا تكرار بينهما.

وقد يقال: المعنى: أوَ لم ينظروا إلى نفسِ الأرض التي هي طبيعةٌ واحدةٌ كيف جعلناها مَنْبتاً لنباتاتٍ كثيرةٍ مختلفةِ الطبائع، وحينئذٍ ليس هناك حذفُ مضافٍ ولا مَجازٌ، ويكونُ قولُه تعالى: ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ إلخ بَدَلَ اشتمالٍ بحسب المعنى، وهو وجهٌ حَسَنٌ فافْهَمْه لئلَّا تظنَّ رجوعَه إلى ما تقدَّم، واحتياجَه إلى ما احتاجَ إليه من الحذف أو التجوُّز.

والزوجُ: الصِّنفُ، كما أَشَرْنا إليه. وذكر الراغب: أنَّ كلَّ ما في العالم زوجٌ من حيث إنَّ له ضدّاً ما، أو مِثْلاً ما، أو تركيباً ما، بل لا ينفكُّ بوجهٍ من تركيب[2].

والكريمُ من كلِّ شيءٍ مَرْضيُّه ومحمودُه، ومنه قوله:

حتى يشقَّ الصفوفَ من كَرَمِه[3]

فإنه أراد: من كونه مرضيّاً في شجاعته. وهو صفةٌ لـ «زوج»، أي: من كلِّ زوجٍ كثيرِ المنافع، وهي تحتملُ التخصيصَ والتوضيحَ، ووجهُ الأول دلالتُه على ما يدلُّ عليه غيرُه في شأن الواجب تعالى وزيادة، حيث يدلُّ على النعمة الزاجرة لهم عمَّا هم عليه أيضاً، ووجهُ الثاني التنبيهُ على أنه تعالى ما أنبت شيئاً إلَّا وفيه فائدةٌ، كما يؤذن به قولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

(١) في (م): فيفيد أن.
(٢) مفردات الراغب (زوج).
(٣) وصدره: ولا يَخِيمُ اللقاءَ فارسهم، وهو لبعض شعراء حمير كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٣٣.

وأيًّا ما كان فالظاهرُ عدمُ دخول الحيوان في عموم المُنْبَتِ، وذهب بعضٌ إلى دخوله بناءً على أنَّ خَلْقَه من الأرض إنباتٌ له كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧].

وعن الشعبيِّ التصريحُ بدخولِ الإنسان فيه، فقد روي عنه أنه قال: الناسُ من نبات الأرض، فَمَن صار إلى الجنة فهو كريم، ومَن صار إلى النار فبِضِدِّ ذلك.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: الإنباتِ أو المُنْبَتِ ﴿لَءَايَةً﴾ عظيمةً دالَّةً على ما يجب عليهم الإيمانُ به من شؤونه عزَّ وجلَّ، وما أَلْطَفَ ما قيل في وصف[1] النرجس:

تـأمَّـل فـي ريـاضِ الـوَرْدِ وانْـظُـرْ ... إلـى آثـارِ مـا صَـنَـعَ الـمـلـيـكُ
عـيـونٌ مـن لُـجـيـنٍ شـاخـصـاتٌ ... عـلـى أهـدابـهـا ذَهَـبٌ سَـبـيـكُ
عـلـى قُـضُـبِ الـزَّبَـرْجَـدِ شـاهـداتٌ ... بـأنَّ الله لـيـس لـه شـريـكُ[2]

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ قيل: أي: وما كان في عِلْم الله تعالى ذلك. واعتُرض - بناءً على أنه يفهم من السياق العلِّيةُ - بأنَّ علمه تعالى ليس علَّةً لعدم إيمانهم؛ لأنَّ العلم تابعٌ للمعلوم لا بالعكس.

ورُدَّ بأنَّ معنى كونِ عِلْمِه تعالى تابعاً للمعلوم: أنَّ عِلْمَه سبحانه في الأزل بمعلومٍ معينٍ حادثٍ تابعٌ لماهيته، بمعنى أنَّ خصوصيةَ العلم وامتيازَه عن سائر العلوم إنما هو باعتبار أنه علمٌ بهذه الماهية، وأمَّا وجودُ الماهية فيما لا يزالُ فتابعٌ لعلمه تعالى الأزليِّ التابعِ لماهيته، بمعنى أنه تعالى لمَّا عَلِمَها في الأزل على هذه الخصوصية لزم أن تتحقَّق وتُوجَدَ فيما لا يزال كذلك، فنفسُ موتهم على الكفر وعَدَمُ إيمانهم متبوعٌ لعلمه الأزليِّ، ووقوعُه تابعٌ له.

ونقل عن سيبويه[3] أنَّ «كان» صلةٌ، والمعنى: وما أكثرُهم مؤمنين، فالمرادُ الإخبارُ عن حالهم في الواقع لا في عِلْمِ الله تعالى الأزليِّ.

(١) في (م): صف، وهو تصحيف.
(٢) سلفت هذه الأبيات ٢/ ٢٧-٢٨.
(٣) كما في تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٥، وينظر الكتاب ١/ ٧٣.

وارتضاه شيخ الإسلام، وقال[١]: هو الأنسبُ بمقام بيانِ عتوِّهم وغلوِّهم في المكابرة والعنادِ مع تَعاقُدِ[٢] موجباتِ الإيمان من جهته عزَّ وجلَّ، وأما نسبةُ كفرهم إلى عِلْمِه تعالى فربما يُتَوهَّمُ منها كونُهم معذورين فيه بحسب الظاهر، ويحتاجُ حينئذٍ إلى تحقيق عَدَمِ العُذْرِ بما يَخْفَى على العلماء المُتْقِنِينَ، والمعنى على الزيادة: وما أكثرُهم مؤمنين مع عظم الآية الموجبة للإيمان؛ لغايةِ تماديهم في الكفر والضلالةِ، وانهماكِهم في الغي والجهالة.

ويجوز على قياس ما مرَّ عن بعض الأجلَّةِ[٣] في قوله تعالى: (أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) أن يقال: إنَّ «كان» للاستمرار واعتُبِرَ بعد النفي، فالمرادُ استمرارُ نفي إيمان أكثرهم مع عظم الآية الموجبة لإيمانهم، وفيه من تقبيح حالهم ما فيه.

وهذا المعنى وإنْ تأتَّى على تقديرِ إسقاطِ «كان» بأن يُعتبر الاستمرار الذي تفيدُه الجملةُ الاسمية بعد النفي أيضاً، إلَّا أنه فَرْقٌ بين الاستمرارين بعد اعتبار «كان» قوةً وضَعْفاً فتدبَّر. ونسبةُ عَدَمِ الإيمان إلى أكثرهم لأنَّ منهم مَن لم يكن كذلك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالبُ على كلِّ ما يريده من الأمور التي من جملتها الانتقامُ من هؤلاء الكفرة. ﴿ٱلرَّحِيمُ ⑨﴾ أي: البالغُ في الرحمة، ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتةً بما اجترؤوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات.

أو «العزيزُ» في انتقامه ممن كَفَر، «الرحيمُ» لمن تاب وآمَنَ. أو «العزيزُ» في انتقامه من الكفرة، «الرحيم» لك بأن يقدِّرَ مَن يؤمنُ بك إن لم يؤمن هؤلاء.

و[في][٤] التعرُّضُ لوَصْفِ الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تشريفه عليه الصلاة والسلام والعِدَةِ الخفيَّةِ له ﷺ ما لا يخفى.

---

(١) في تفسيره ٦/ ٢٣٥.
(٢) في تفسير أبي السعود: تعاضد.
(٣) ص٥٩ من هذا الجزء.
(٤) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٥، والكلام منه.

وتقديمُ «العزيز» لأنَّ ما قبله أظهرُ في بيان القدرة، أو لأنه أدلُّ على دَفْعِ المضارِّ الذي هو أهمُّ من جَلْبِ المصالح.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقرِّرٌ لسوء حالهم، ومسلٍّ له ﷺ أيضاً، لكن بنوعٍ آخَرَ من أنواع التسلية على ما قيل. و«إذ» منصوبٌ على المفعولية بمقدَّرٍ خوطب به النبيُّ ﷺ معطوفٍ على ما قبله عَطْفَ القصة على القصة.

والتقديرُ عند بعضٍ: واذْكُرْ في نفسك وقتَ ندائه تعالى أخاك موسى عليه السلام، وما جرى له مع قومه من التكذيب مع ظهورِ الآيات وسُطوعِ المعجزات؛ لتعلم أنَّ تكذيبَ الأمم لأنبيائهم ليس بأول قارورةٍ كسرت، ولا بأولِ صحيفةٍ نُشرت، فيهونُ عليك الحالُ، وتستريحُ نفسُكَ مما أنت فيه من البلبال.

وعند شيخ الإسلام(١): واذكر لقومك وقتَ ندائه تعالى موسى عليه السلام، وذكِّرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام زجراً(٢) لهم عمَّا هم عليه من التكذيب، وتحذيراً من أنْ يحيقَ بهم مثلُ ما حاق بهم، حتى يتَّضح لديك أنهم في غاية العناد والإصرار(٣)، لا يَرْدَعُهم أَخْذُ أضرابِهم من المكذِّبين الأشرار، ولا يؤثِّرُ فيهم الوعظُ والإنذار.

وهذا التقديرُ يناسِبُ صَدْرَ القصة الآتية، أعني قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والأول يناسبُ القصصَ المصدَّرة بـ «كذَّبَتْ» على ما قيل.

والأظهرُ عندي تقديرُ: واذكر لقومك؛ لوضوح اقتضاءِ «واتلُ عليهم» له. ولا نسلِّمُ اقتضاءَ تلك القصص المصدَّرةِ بـ «كذَّبَتْ» تقديرَ: اذْكُر في نفسك، وأمرُ المناسبةِ مشتركٌ، وإن سُلِّم اختصاصُها به فهي لا تقاوِمُ الاقتضاءَ المذكور. نعم الأظهرُ أن يكون وجه التسلِّي بما ذُكر كونَه عليه الصلاة والسلام ليس بِدْعَاً من الرسل، ولا قومُه بدعاً من الأقوام في التكذيب مع ظهور الآيات وسطوعِ المعجزات، وقد تضمَّن الأمرُ بذِكْرِ ذلك لهم الأمرَ بالتسلِّي به على أتمِّ وجهٍ، فتدبَّر.

---

(١) في تفسيره ٦/ ٢٣٦.
(٢) في (م): زاجراً.
(٣) في الأصل: في غاية الفساد والإضرار.

وأيًّا ما كان فوجهُ توجيهِ الأمرِ بالذِّكر إلى الوقت مع أنَّ المقصودَ ذِكْرُ ما فيه قد مرَّ مراراً.

وقيل: إنَّ ذلك المقدَّرَ معطوفٌ على مقدَّرٍ آخَر، أي: خُذِ الآياتِ ـ أو: ترقَّبْ إتيانَ الأنباء ـ واذْكُر. وهو تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

وقيل: «إذ» ظرفٌ لـ «قال» بعدُ. وليس بذاك.

ومعنى «نادى»: دعا. وقيل: أَمَر.

﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ أي: بأنِ ائتِ، على أنَّ «أن» مصدريةٌ حُذِفَ عنها حرفُ الجرِّ، أو: أي ائتِ، على أنها مفسِّرة. ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠﴾ بالكفر والمعاصي، واستِعْباد بني إسرائيل، وذَبْحِ أبنائهم.

وليس هذا مطلعُ ما وَرَدَ في حيِّز النداء، وإنما هو ما فصِّل في سورة «طه» من قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [الآيات: ١٢-٢٣]، وسنَّةُ القرآن الكريم إيرادُ ما جرى في قصةٍ واحدة من المقالات بعباراتٍ شتَّى وأساليبَ مختلفةٍ؛ لاقتضاء المقام ما يكون فيه من العبارات، كما حقِّق في موضعه[(١)].

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ عطفُ بيانٍ لـ «القوم الظالمين» جيءَ به للإيذان بأنهم عَلَمٌ في الظلم، كأنَّ معنى «القوم الظالمين» وترجمتَه قوم فرعون. وقال أبو البقاء: بدلٌ منه[(٢)]. ورجَّح أبو حيان[(٣)] الأولَ بأنه أَقْضَى لحقِّ البلاغةِ؛ لإيذانه بما سمعتَ.

ولعل الاقتصارَ على القوم للعِلْم بأنَّ فرعون أَوْلَى بما ذُكِر[(٤)]، وقد خصَّ في بعض المواضع للدلالة على ذلك. وجوِّز أن يقال: «قوم فرعون» شاملٌ له شمولَ بني آدمَ آدمَ عليه السلام.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ حالٌ بتقديرِ القول، أي: ائتهم قائلاً لهم: أَلَا يتقون[(٥)].

---

(١) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٥) من سورة الأعراف.

(٢) الإملاء ٤/ ١٠٩.

(٣) في البحر ٧/ ٧.

(٤) أي: من الإتيان، أو الوصف بالظلم. حاشية الشهاب ٧/ ٥.

(٥) في الأصل: تتقون.

وقرأ عبد الله بنُ مسلم بنِ يسار وشقيق بنُ سلمة وحماد بنُ سلمة وأبو قلابةَ بتاء الخطاب[١]، ويجوزُ في مِثْلِ ذلك الخطابُ والغيبةُ، فيقال: قل لزيد: تعطي عَمْراً كذا، و: يعطي عمراً كذا.

وقرئ بكَسْرِ النون مع الخطاب والغيبةِ[٢]، والأصلُ: يتقونني، فحُذفت إحدى النونين لاجتماع المِثْلَينِ وحُذفتْ ياءُ المتكلِّم اكتفاءً بالكسرة. وقولُ موسى عليه السلامُ ذلك بطريق النيابة عنه عزَّ وجلَّ نظيرُ ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦] فكأنه قيل: ائتهم قائلاً قولي لهم: ألا تتقونني.

وقال الزمخشريُّ[٣]: هو كلامٌ مستأنفٌ أَتْبعَه عزَّ وجلَّ إرسالَه إليهم؛ للإنذار والتسجيلِ عليهم بالظلم تعجيباً لموسى عليه السلام من حالهم التي شَنُعت في الظلم والعسف، ومن أَمْنِهم العواقبَ وقلة خوفهم وحَذَرِهم من أيام الله عزَّ وجلَّ. وقراءةُ الخطاب على طريقة الالتفاتِ إليهم وجَبْهِهم وضَرْبِ وجوههم بالإنكار والغضبِ عليهم، وإجراءُ ذلك في تكليم المرسَل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه في مسامعهم لأنه مبلِّغه ومُنْهِيه وناشرُه بين الناس، فلا يضرُّ كونُهم غُيَّباً حقيقةً في وقت المناجاة، وفيه مزيدُ حثٍّ على التقوى لمن تدبَّر وتأمَّل. انتهى.

والاستئناف عليه، قيل: بيانيٌّ بتقديرِ: لِمَ هذا الأمر؟ وقيل: هو نحويٌّ؛ إذ لا حاجةَ إلى هذا السؤال بعد ذِكْرِهم بعنوان الظلم، ودفع بالعناية. ولعل ما ذكرناه أسرعُ تبادُراً إلى الفهم.

وقال أيضاً[٤]: يحتمل أن يكون «لا يتقون» حالاً من الضمير في «الظالمين»، أي: يظلمون غيرَ متَّقين اللهَ تعالى وعقابَه عزَّ وجلَّ، فأدخلت همزةُ الإنكار على الحال دلالةً على إنكارِ عَدَمِ التقوى والتوبيخِ عليه؛ ليفيد إنكارَ الظلم من طريق الأولى، فإنَّ فائدةَ الإتيانِ بهذه الحال الإشعارُ بأن عدمَ التقوى هو الذي جرَّأهم على الظلم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والمحتسب ٢/ ١٢٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٦، والبحر ٧/ ٧.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٦، والكشاف ٣/ ١٠٦، والبحر ٧/ ٧.
(٣) في الكشاف ٣/ ١٠٦.
(٤) في الكشاف ٣/ ١٠٦.

وتعقَّبه أبو حيان بأنه خطأٌ فاحشٌ؛ لأنَّ فيه مع الفَصْلِ بين العامل والمعمول بالأجنبيِّ لزومَ إعمالِ ما قَبْلَ الهمزة فيما بعدها[١].

وأُجيبَ بمنع كون الفاصلِ أجنبيًّا، وأنه يُتوسَّعُ في الهمزة. وهو كما ترى.

وجوَّز أيضاً في «ألا يتقون» بالياء التحتية وكَسْرِ النون أن يكون بمعنى: ألا يا ناسُ اتَّقونِ، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾[٢] [النمل: ٢٥]. فتكون «ألا» كلمةً واحدةً للعَرْضِ، و«يا» ندائية سقطت أَلِفُها لالتقاءِ الساكنينِ وحذف المنادى، وما بعده فعلُ أمرٍ، ويكونُ إسقاطُ الألفين مخالفاً للقياس.

ولا يخفى أنه تخريجٌ بعيدٌ، وأنَّ الظاهر أنَّ «ألا» للعَرْضِ المضمَّنِ الحضَّ على التقوى في جميع القراءات.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام؟ فقيل: قال متضرِّعاً إلى الله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾ مِن أوَّل الأمر.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ معطوفان على خبر «إنَّ»، فيفيدُ أنَّ فيه عليه السلام ثلاثَ عللٍ: خوفَ التكذيب، وضِيقَ الصدر، وامتناعَ انطلاقِ اللسان.

والظاهرُ ثبوتُ الأمرين الأخيرين في أنفسهما غيرَ متفرِّعَينِ على التكذيب ليدخلا تحت الخوف، لكنْ قرأ الأعرجُ وطلحةُ وعيسى وزيد بنُ عليٍّ وأبو حيوةَ، وزائدةُ عن الأعمش، ويعقوبُ، بنصب الفعلين عَطْفاً على «يكذبون»[٣]، فيفيدُ دخولَهما تحت الخوف.

ولأنَّ الأصل توافُقُ القراءتين قيل: إنهما متفرِّعان على ذلك، كأنه قيل: ربِّ إنِّي أخاف تكذيبَهم إيَّاي، ويضيق صدري انفعالاً منه، ولا ينطلق لساني من سجن اللُّكنة وقيدِ العِيِّ بانقباض الروح الحيوانيِّ الذي تتحرَّكُ به العضلاتُ، الحاصِلِ عند ضيقِ الصدرِ واغتمامِ القلب.

---

(١) البحر ٧/٧.
(٢) الكشاف ٣/١٠٦. وما بعده من حاشية الشهاب ٧/٦.
(٣) النشر ٢/٣٣٥ عن يعقوب، وذكرها عنهم أبو حيان في البحر ٧/٧.

والمرادُ حدوثُ تَلَجْلُجِ اللسان له عليه السلام بسبب ذلك، كما يشاهَدُ في كثيرٍ من الفُصَحاءِ إذا اشتدَّ غمُّهم وضاقَتْ صدورُهم، فإنَّ ألسنتهم تتلَجْلَجُ حتى لا تكاد تُبِينُ عن مقصودٍ. هذا إن قلنا: إنَّ هذا الكلامَ كان بعد دعائه عليه السلام بحَلِّ العقدة، واستجابةِ الله تعالى له بإزالتها بالكلِّية.

أو المرادُ ازديادُ ما كان فيه عليه السلام إن قلنا: إنه كان قبل الدعاء، أو بعده لكنْ لم تَزُل العقدةُ بالكلِّية، وإنما انحلَّ منها ما كان يمنعُ من أن يُفْقَهَ قولُه عليه السلام فصار يُفْقَهُ قولُه مع بقاءِ يسيرِ لُكْنةٍ.

وقال بعضهم: لا حاجةَ إلى حديث التفرُّع، بل هما داخلان تحت الخوف بالعطف على «يكذِّبون» كما في قراءة النصب، وذلك بناءً على ما جوَّزه البقاعيُّ[1] من كونِ «أخاف» بمعنى أعلم أو أظنُّ، فتكون «أنْ» مخفَّفةً من الثقيلة لوقوعها بعد ما يفيدُ علماً أو ظنًّا. ويُلْتزَمُ على هذا كونُ «أخاف» في قراءة النصب على ظاهره لئلَّا تأبى ذلك، ويُدعَى اتحاد المآل.

وحَكَى أبو عمرو الداني عن الأعرج أنه قرأ بنصبِ «يضيق» ورَفْع «ينطلق»[2]، والكلامُ في ذلك يُعْلَم مما ذكر.

وأيًّا ما كان فالمرادُ من ضيقِ الصَّدْرِ ضيقُ القلب، وعبَّر عنه بما ذُكِرَ مبالغةً، ويراد منه الغمُّ.

ثم هذا الكلامُ منه عليه السلام ليس تشبُّثاً بأذيال العِلَلِ والاستعفاءِ عن امتثال أمره عزَّ وجلَّ وتَلَقِّيهِ بالسمع والطاعة، بل هو تمهيدُ عذرٍ في استدعاء عونٍ له على الامتثال وإقامةِ الدعوة على أتمِّ وجهٍ؛ فإنَّ ما ذكره ربَّما يوجبُ اختلالَ الدعوة وانتباذَ الحجَّةِ.

وقد تضمَّن هذا الاستدعاءُ قولَه تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ كأنه قال: أَرْسِلْ جبريلَ عليه السلام إلى هارون واجْعَلْه نبيًّا، وآزِرْني به واشْدُدْ به عَضُدي،

---

(١) في نظم الدرر ١٤/١٦، وذكره عنه أيضاً الشهاب في الحاشية ٧/٦.
(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٢٦، والبحر ٧/٧.

لأنَّ في الإرسالِ إليه عليه السلامُ حصولَ هذه الأغراضِ كلِّها، لكنْ بُسِطَ في سورة القصص واكتُفي ها هنا بالأصل عما في ضِمْنه.

ومن الدليل على أنَّ المعنى على ذلك لا أنه تعلُّلٌ وقوعُ «فأَرْسِلْ» معترضاً بين الأوائل والرابعة، أعني «ولهم» إلخ، فأذِنَ بتعلُّقه بها، ولو كان تعلُّلاً لأُخِّر، وليس أمرُه بالإتيان مستلزماً لِمَا استَدْعاه عليه السلام.

وتقديرُ مفعولِ «أَرْسِلْ» ما أشرنا إليه، قد ذهب إليه غيرُ واحدٍ. وبعضُهم قدَّر: مَلَكاً؛ إذ لا جَزْمَ في أنه عليه السلام كان يعلمُ إذ ذاك أن جبريل عليه السلام رسولُ الله عزَّ وجلَّ إلى من يستنبئُه سبحانه من البشر.

وفي الخبر: أنَّ الله تعالى أرسل موسى إلى هارون وكان هارونُ بمصر حين بعث الله تعالى موسى نبيّاً بالشام.

وأخرج ابن أبي حاتم(١) عن السدِّيِّ قال: أَقبلَ موسى عليه السلام إلى أهله(٢) فسار بهم نحو مصرَ حتى أتاها ليلاً، فتَضيَّفَ على أمِّه ـ وهو لا يعرفهم ـ في ليلةٍ كانوا يأكلون [فيها] الطَّفَيْشَلَ(٣)، فنزل(٤) في جانب الدار، فجاء هارونُ عليه السلام فلمَّا أبصر ضيفه سأل عنه أمَّه فأخبرته أنه ضيفٌ، فدعاه فأكل معه، فلمَّا قعدا تحدَّثا فسأله هارون: من أنت؟ قال: أنا موسى. فقام كلٌّ واحدٍ منهما إلى صاحبه فاعتنقه، فلمَّا أنْ تعارَفا قال له موسى: يا هارون، انْطَلِقْ معي إلى فرعونَ فإنَّ الله تعالى قد أرسلنا إليه. قال هارون: سَمْعاً وطاعةً. فقامت أُمُّهم فصاحت وقالت: أَنشدُكما بالله تعالى أنْ لا تَذْهَبا إلى فرعونَ فيقتلكما. فأَبَيا، فانطلقا إليه ليلاً، الخبرَ والله تعالى أعلمُ بصحَّتِه.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ أي: تبعةُ ذنبٍ، فحُذِفَ المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مقامَه،

---

(١) في تفسيره ٨/ ٢٦٩٣، وذكره عنه السيوطي في الدر ٥/ ٨٣، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.
(٢) في الدر: بأهله، بدل: إلى أهله.
(٣) جاء في هامش الأصل و(م): الطفيشل كسَمَيْذَع نوع من المرق. وزاد في (م): قاموس. والكلام في القاموس (طفل).
(٤) في الأصل و(م): فنزلت، والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم والدر المنثور.

أو سمِّي باسمه مجازاً بعلاقةِ السببية، والمراد به قَتْلُ القِبْطيِّ خبَّازِ فرعونَ بالوَكْزَةِ التي وَكَزَها، وقصتُه مبسوطةٌ في غير موضعٍ، وتسميتُه ذنباً بحَسَبِ زَعْمِهم كما[1] ينبئُ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾.

﴿فَأَخَافُ﴾ إنْ أتيتُهم وحدي ﴿أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ بسبب ذلك، ومرادُه عليه السلام بهذا استدفاعُ البليةِ خوفَ فواتِ مصلحةِ الرسالة وانتشارِ أمرها، كما هو اللائقُ بمقام أُولي العَزْمِ من الرُّسُل عليهم السلام، فإنهم يتوقون لذلك كما كان يفعلُ ﷺ حتى نزل عليه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، ولعلَّ الحقَّ أنَّ قَصْدَ حِفْظِ النفسِ معه لا يُنافي مقامَهم.

وفي «الكشاف»: أنه عليه السلامُ فَرِقَ أنْ يُقتَلَ قبل أداء الرسالة[2]. وظاهرُه أنه وإن كان نبيّاً غيرُ عالمٍ بأنه يبقى حتى يؤدِّيَ الرسالةَ، وإليه ذهب بعضُهم لاحتمالِ أنه إنما أُمر بذلك بشرطِ التمكين مع أنَّ له تعالى نَسْخَ ذلك قبله.

وقال الطيبيُّ: الأقربُ أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام يعلمون إذا حَمَلَهم الله تعالى على أداء الرسالة أنه سبحانه يمكِّنُهم، وأنهم سيبقَوْنَ إلى ذلك الوقتِ. وفيه منعٌ ظاهر.

وفي «الكشف»: أنه على القولين يصحُّ قولُ الزمخشريِّ: فَرِقَ.. إلخ؛ لأنَّ ذلك كان قبل الاستنباء، فإنَّ النداء كان مقدِّمتَه. ولا أظنُّك تقول به.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ إجابةٌ له عليه السلام إلى الطلبتين، حيث وعده عزَّ وجلَّ دَفْعَ بليةِ الأعداء بردْعِه عن الخوف. وضمَّ إليه أخاه بقوله: «اذهبا»، فكأنَّه قال له عزَّ وجلَّ: ارْتَدِعْ عن خوف القتل فإنك بأعيننا، فاذْهَبْ أنت وأخوك هارونُ الذي طَلَبْتَه. وجاء النشرُ على عَكْسِ اللَّفِّ لاختصاصِ ما قدِّم بموسى عليه السلام.

وظاهرُ السياق يقتضي عَدَمَ حضورِ هارون، ففي الخطاب المذكور تغليبٌ، والفعلُ معطوفٌ على الفعل الذي يدلُّ عليه «كلَّا» كما أشرنا إليه. وقيل: الفاءُ فصيحةٌ.

---

(١) في الأصل و(م): بما، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٧، والكلام منه.
(٢) الكشاف ٣/ ١٠٧.

والمرادُ بالآيات ما بعثهما الله تعالى به من المعجزات، وفيها رمزٌ إلى أنها تَدفعُ ما يخافُه.

وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ تعليلٌ للرَّدْعِ عن الخوف، ومزيدُ تسليةٍ لهما بضمانِ كمالِ الحفظ والنصرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] والخطابُ لموسى وهارون ومَن يتَّبعُهما من بني إسرائيل، فيتضمَّنُ الكلام البشارةَ بالإشارة إلى علوِّ أمرهما واتِّباع القوم لهما.

وذهب سيبويه[١] إلى أنه لهما عليهما السلام، ولشرفهما وعظمتهما عند الله تعالى عُومِلَا في الخطاب معَاملةَ الجمع. واعتُرض بأنه يأباه ما بعده وما قبله من ضمير التثنية.

وقيل: هو لهما عليهما السلام ولفرعونَ، واعتُبِرَ لكون الموعود بمحضرٍ منه، وإن شئتَ ضُمَّ إلى ذلك قوم فرعون أيضاً.

واعتُرِضَ بأنَّ المعية العامةَ ـ أعني المعيَّةَ العِلْمِيةَ ـ لا تختصُّ بأحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧] والمعيَّةُ الخاصَّةُ وهي معيَّةُ الرأفة والنصرة لا تليقُ بالكافر ولو بطريق التغليب.

وأجيب بأنَّ خصوص المعيَّة لا يلزم أن يكون بما ذُكر، بل بوجهٍ آخر وهو تخليصُ أحدِ المتخاصمين من الآخر بنصرة المُحِقِّ والانتقام من المبطِلِ.

وأيًّا ما كان فالظرفُ في موضع الخبر لـ «إنَّ» و«مستمعون» خبرٌ ثانٍ، أو الخبرُ «مستمعون» والظرفُ متعلِّقٌ به، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من ضميره، وتقديمُه للاهتمام، أو الفاصلة، أو الاختصاص بناءً على أنْ يرادَ بالمعية معيَّةٌ مخصوصةٌ على ما هو اللائق بالمقام، وهي في ذلك وكذا في المعيَّة العامةِ مجازٌ، ومثلُها[٢] الاستمَاعُ في حقِّه عزَّ وجلَّ، وهو مجازٌ عن السمع اختير للمبالغة لأنَّ فيه تَلَمُّساً[٣] للإدراك، وهو ممَّا ينزَّه الله تعالى عنه سواءٌ كان بحاسَّةٍ أم لا، فسقط ما قيل من أنَّ

---

(١) كما في البحر ٧/ ٨.
(٢) من قوله: معية مخصوصة، إلى هذا الموضع ساقط من (م).
(٣) في (م): تسلماً، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٧، والكلام منه.

السمع في الحقيقة إدراكٌ بحاسةٍ فإنْ أريدَ به مطلقُ الإدراك فالاستماعُ مثلُه فلا حاجةَ إلى التجوُّز فيه.

وإلى التجوُّز هنا ذهب غيرُ واحدٍ، وقال بعضهم: «إنَّا معكم مستمعون» جملتُه[١] استعارةٌ تمثيليةٌ؛ مثَّل سبحانه حالَه عزَّ وجلَّ بحالِ ذي شوكةٍ قد حضر مجادلةَ قومٍ يستمع ما يجري بينهم؛ ليمدَّ أولياءه ويُظْهِرَهم على أعدائهم، مبالغةً في الوعد بالإعانة. وحينئذٍ لا تجوُّز في شيءٍ من مفرداته، ولا يكون «مستمعون» مُطْلَقاً عليه تعالى، فلا يُحتاجُ إلى جَعْلِه بمعنى سامعين، إلَّا أن يقال: إنه في المستعارِ منه كذلك؛ لأنَّ المقصود السمعُ دون الاستماع الذي قد لا يوصل إليه، لكنه كما ترى.

وجوِّز أن يكون «إنا معكم» فقط تمثيلاً لحاله عزَّ وجلَّ في نَصْرِه وإمدادِه بحالِ مَن ذُكِرَ، ويكون الاستماعُ مجازاً عن السمع، وهو بحسب ظاهره ـ لِكونه لم يُطلَقْ عليه سبحانه كالسمع ـ كالقرينةِ وإن كان مجازاً، والقرينةُ في الحقيقة عقليةٌ، وهي استحالةُ حضوره تعالى شأنُه في مكان. ولا بدَّ على هذا من أن يقال: إنَّ الاستماع المذكورَ في تقريرِ التمثيل ليس هو الواقعَ في النظم الكريم، بل هو من لوازم حضورِ الحكم للخصومة، وفيه بعدٌ.

ثم إنَّ ما ذكروه وإن كان مبنيًّا على جَعْلِ الخطاب لموسى وهارون وفرعون، يمكنُ إجراؤه على جَعْلِه لهما عليهما السلام ولمن يتَّبعُهما، أوْ لهما فقط أيضاً بأدنى عنايةٍ، فافهم ولا تغفل.

وزعم بعضهم أنَّ المعيَّة والاستماعَ على حقيقتهما ولا تمثيل، والمراد: إنَّ ملائكتنا معكم مستمعون. وهو ممَّا لا ينبغي أن يُسْتَمع، ولا بدَّ في الكلام على هذا التقدير من إرادةِ الإعانة والنصرة، وإلَّا فبمجرَّدِ معيَّةِ الملائكة عليهم السلام واستماعِهم لا يَطِيبُ قلبُ موسى عليه السلام.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد الكريم، وليس هذا مجرَّدَ تأكيدٍ للأمر بالذهاب؛ لأنَّ معناه الوصولُ إلى المأتيِّ، لا مجرَّدُ التوجُّهِ إلى المأتيِّ كالذهاب.

---

(١) في (م): جملة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب.

وأفرد الرسول هنا لأنه مصدرٌ بحسب الأصل وُصِفَ به كما يوصَفُ بغيره من المصادر للمبالغة، كـ : رجل عَدْل، فيجري فيه ما[1] يجري فيه من الأَوْجُه، ولا يخفى الأَوْجَهُ منها، وعلى المصدرية ظاهرُ قول كُثيِّر عزَّة:

لقد كَذَبَ الواشُونَ ما فُهْتُ عندهم ... بسرٍّ ولا أَرْسَلْتُهم برسولِ[2]

وأظهرُ منه قولُ العباس بن مرداس:

أَلَا مَن مُبْلِغٌ عنِّي خُفافاً ... رسولاً بيتُ أَهْلِك مُنْتَهاها[3]

أو لاتِّحادهما للأخوَّةِ، أو لوحدة المرسِلِ أو المرسَلِ به[4]، أو لأنَّ قوله تعالى: (إِنَّا) بمعنى: إنَّ كلًّا منَّا، فصحَّ إفرادُ الخبر كما يصحُّ في ذلك، وفائدتُه الإشارةُ إلى أنَّ كلًّا منهما مأمورٌ بتبليغ ذلك ولو منفرداً.

وفي التعبير بـ «ربِّ العالمين» ردٌّ على اللَّعين، ونَقْضٌ لِمَا كان أَبْرَمَه من ادِّعاء الألوهية، وحَمْلٌ لطيفٌ له على امتثالِ الأمر.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ مفسِّرةٌ؛ لتضمُّنِ الإرسال المفهومِ من الرسول معنى القول. وجوَّز أبو حيان كونَها مصدريةً، على معنى: إنَّا رسولُه عزَّ وجلَّ بالأمر بالإرسال، وهو بمعنى الإطلاق والتَّسريح، كما في قولك: أرسلتُ الحجر من يدي، وأرسل الصقر[5].

والمراد: خلِّهم يذهبوا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهما عليهما السلام، وكان بنو إسرائيل قد استُعبدوا أربعَ مئةِ سنةٍ، وكانت عِدَّتُهم حين أُرْسِلَ موسى عليه

---

(١) في (م): كما، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٨، والكلام منه.

(٢) ديوان كثير عزة ص٢٧٨، والكشاف ٣/ ١٠٧، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٥، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٨، قال الشهاب: المعنى: ما أرسلتهم برسالة. ورواية الديوان: بليلى، بدل: بسرٍّ. وبرسيل، بدل: برسول، ويروى بالوجهين كما قال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٢٧٧.

(٣) الحماسة البصرية ١/ ١٣، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٥، والخزانة ٤/ ٣٦٧. وجاء في هامش (م) عند قوله منتهاها: حيث أنَّث الضمير باعتبار الرسالة.

(٤) المرسَل به: الشريعةُ والتوحيد. حاشية الشهاب ٧/ ٨.

(٥) البحر ٧/ ٨-٩.

السلام ستَّ مئةٍ وثلاثين ألفاً، على ما ذكره البغوي[(١)].

﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ لموسى عليه السلام بعدَ ما أَتَياه وقالا له ما أُمِرا به. ويُرْوَى أنهما انطلقا إلى باب فرعون، فلم يُؤْذَنْ لهما سنةً حتى قال البوَّابُ: إنَّ ها هنا إنساناً يزعمُ أنه رسولُ ربِّ العالمين. فقال: ائذنْ له لعلَّنا نضحكُ منه. فأَذِنَ له، فدخلا فأدَّيا إليه الرسالة، فعَرَفَ موسى عليه السلام فقال عند ذلك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[(٢)].

وفي خبرٍ آخَرَ: أنهما أَتَيا ليلاً فقرعا[(٣)] الباب، ففزِع فرعونُ وقال: مَن هذا الذي يضربُ بابي هذه الساعة؟ فأشرف عليهما البوَّابُ فكلَّمهما، فقال له موسى: إنَّا رسولُ ربِّ العالمين. فأتى فرعونَ وقال: إنَّ ها هنا إنساناً مجنوناً يزعمُ أنه رسولُ ربِّ العالمين. فقال: أَدْخِلْه، فدخل فقال ما قصَّ الله تعالى[(٤)].

وأراد اللَّعينُ من قوله: «ألم نربِّك» إلخ الامتنانَ. و«فينا» على تقدير المضاف، أي: منازِلنا. والوليدُ فعيلٌ بمعنى مفعول، يقال لمن قَرُبَ عهدُه بالولادة، وإن كان ـ على ما قال الراغب ـ يصحُّ في الأصل لمن قرب عهدُه أو بَعُدَ، كما يقالُ لِمَا قَرُبَ عهدُه بالاجْتِنَاءِ: جَنيٌّ، فإذا كبر سقط عنه هذا الاسم[(٥)].

وقال بعضهم: كأن دلالته على قُرْبِ العهد من صيغة المبالغة، وكونِ الولادة لا تفاوُتَ فيها نفسها.

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ⑱﴾ قيل: لبث فيهم ثلاثين سنةً ثم خرج إلى مَدْيَنَ وأقام به عشر سنين، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثين سنة، ثم بقي بعد الغرق خمسين.

وقيل: لبث فيهم اثنتي عَشْرَة سنةً، ففرَّ بعد أن وَكَزَ القِبْطيَّ إلى مَدْينَ فأقام به عشر سنين يَرْعَى غَنَم شعيبٍ عليه السلام، ثم ثماني عَشْرَةَ سنةً بعد بنائه على امرأته

(١) في تفسيره ٣/ ٣٨٢.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣.
(٣) في (م): فقرع.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي كما في الدر المنثور ٥/ ٨٣.
(٥) مفردات الراغب (ولد).

بنتِ شعيبٍ، فكَملَ له أربعون سنةً، فبعثه الله تعالى وعاد إليهم يدعوهم إليه عزَّ وجلَّ، والله تعالى أعلم.

وقرأ أبو عمرو في روايةٍ: «من عُمْرِكَ» بإسكان الميم[(١)]. والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال من «سنين» كما هو المعروفُ في نَعْتِ النكرة إذا قدِّم.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني قَتْلَ القِبْطيِّ؛ وبَّخه به بَعْدَ ما امتنَّ، وعظَّمه عليه بالإبهام الذي في الموصول، وأراد في ذلك القَدْحَ في نبوَّته عليه السلام.

وقرأ الشعبيُّ: «فِعْلَتَكَ» بكَسْرِ الفاء[(٢)]، يريد الهيئةَ، وكانت قِتْلَةً بالوَكْزِ[(٣)]. والفتحُ في قراءة الجمهور لإرادةِ المرَّة.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: بنعمتي، حيث عَمَدْتَ إلى قتلِ رجلٍ من خواصِّي، كما روي عن ابن زيد.

أو: وأنت حينئذ من جملة القوم الذين تدَّعي كُفْرَهم الآن، كما حُكي عن السدِّيِّ، وهذا الحكم منه بناء على ما عرفه من ظاهرِ حاله عليه السلام إذ ذاك؛ لاختلاطه بهم، والتقيَّةِ معهم بعَدَمِ الإنكار عليهم، وإلَّا فالأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكفر قبل النبوَّةِ وبعدها.

وقيل: كان ذلك افتراءً منه عليه عليه السلام. واستُبْعِدَ بأنه لو عَلِمَ بإيمانه أوَّلاً لسَجَنه أو قتَله.

والجملةُ على الاحتمالين في موضع الحالِ من إحدى التاءين في الفعلين السابقين.

وجوِّز أن يكون ذلك حُكماً مبتَدأً عليه عليه السلام بأنه من الكافرين بإلهيَّته، كما روي عن الحسن، أو ممن يكفرون في دينهم حيث كانت لهم آلهةٌ يعبدونهم، أو من الكافرين بالنعم المعتادين لغَمْطِها، ومَن اعتاد ذلك لا يكون مِثْلُ هذه الجناية بِدْعاً منه، فالجملةُ مستأنفةٌ أو معطوفةٌ على ما قبلها.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٠، وينظر السبعة ص٤٧١.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٦، والمحتسب ٢/ ١٢٧، والبحر ٧/ ١٠.
(٣) وهو الضربُ بجَمْعِ كفِّه. حاشية الشهاب ٧/ ٩.

والأَوْلَى عندي ما تقدَّم من جَعْلِ الجملةِ حالاً؛ لتكون مع نظيرتها في الجواب على طرزٍ واحدٍ؛ لتعيُّنِ الحالية هناك.

ولمَّا تضمَّن[1] كلامُ اللعينِ أمرين تَصَدَّى عليه السلام لردِّهما على سبيل اللَّفِّ والنَّشْرِ المشوَّشِ، فردَّ أوَّلاً ما وبَّخه به قدحاً في نبوَّته، أعني قوله: «وفعلت فعلتك» إلخ، اعتناءً بذلك واهتماماً به، وذلك بما حكاه سبحانه عنه بقوله جلَّ وعلا: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ﴾ أي: تلك الفَعْلَةَ ﴿إِذًا﴾ أي: إذ ذاك، على ما آثَره بعضُ أفاضل[2] المحقِّقين سَقَى اللهُ تعالى ثَرَاه، من أنَّ «إذاً» ظرفٌ مقطوعٌ عن الإضافة مؤثَراً فيه الفتحة على الكسرة لخفَّتها وكثرة الدَّور.

وأقرَّ عليه السلامُ بالقتلِ لثقته بحِفْظِ الله تعالى له، وقيَّد الفِعْلَ بما يَدْفَعُ كونَه قادحاً في النبوَّة، وهو جملةُ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾ أي: من الجاهلين، وقد جاء كذلك في قراءة ابن عباس وابن مسعود كما نقله أبو حيان في «البحر» لكنه قال: ويَظْهَرُ أنَّ ذاك تفسيرٌ للضالِّين لا قراءةٌ مرويَّةٌ عن الرسول ﷺ[3].

وأراد عليه السلامُ بذلك ـ على ما روي عن قتادة ـ أنه فَعَل ذلك جاهلاً به غيرَ متعمِّدٍ إيَّاه، فإنَّه عليه السلامُ إنما تعمَّد الوَكْزَ للتأديب، فأدَّى إلى ما أدَّى، وفي معنى ما ذُكر ما رُوي عن ابن زيدٍ من أنَّ المعنى: وأنا من الجاهلين بأنَّ وَكْزتي تأتي على نَفْسِه.

وقيل: المعنى: فعلتُها مُقْدِماً عليها من غير مبالاةٍ بالعواقب، على أنَّ الجهل بمعنى الإقدام من غير مبالاةٍ، كما فسِّر بذلك في قوله:

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنَجْهَلَ فوق جَهْلِ الجاهِلِينا[4]

وهذا مما يحسُنُ على بعض الأوجُهِ في تقرير الجواب المذكور.

قيل[5]: إنَّ الضلال ها هنا المحبةُ، كما فسِّر بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَفِى

---

(١) في (م): يتضمن.

(٢) قوله: أفاضل، ليس في (م).

(٣) البحر ٧/ ١١، والقراءة ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٦.

(٤) سلف عند تفسير الآية (١٧) من سورة النساء.

(٥) في الأصل: وما قيل.

ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥] وعَنَى عليه السلام أنه قَتَل القِبْطيَّ غيرةً لله تعالى، حيث كان عليه السلام من المحبِّين له عزَّ وجلَّ. وهو كما ترى.

ومثله ما قيل: أراد: من الجاهلين بالشرائع، وفسِّر الضلال بذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

وقال أبو عبيدة[1]: من النَّاسِينَ، وفسّر الضلال بالنسيان في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢] وعليه قيل: المرادُ: فعلتُها ناسياً حُرْمتَها. وقيل: ناسياً أنَّ وَكْزي ذلك مما يفضي إلى القتل عادةً.

والذي أميلُ إليه من بين هذه الأقوالِ ما رُوي عن قتادةَ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة القصص ما يتعلَّقُ بهذا المقام.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن [جرير عن ابن] جريج عن ابن مسعود أنه قرأ: «فعلتُها إذ أنا من الضالِّين»[2].

﴿فَفَرَرْتُ﴾ أي: خرجتُ هارباً ﴿مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي: حين توقَّعْتُ مكروهاً يُصِيبُني منكم، وذلك حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:٢٠] ومن هنا يعلم وجهُ جمع ضمير الخطاب، وقرأ حمزةُ في روايةٍ: «لِمَا» بكسر اللام وتخفيفِ الميم[3] على أنَّ اللامَ حرفُ جرٍّ و«ما» مصدرية، أي: لخوفي إياكم.

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي: نبوَّةً، أو علماً وفَهْماً للأشياء على ما هي عليه. والأولُ مرويٌّ عن السدِّي، وتأوّل بعضُهم ذلك بأنه أراد علماً هو من خواصِّ النبوة، فيكونُ الحُكْمُ بهذا المعنى أخصَّ منه بالمعنى الثاني. وقرأ عيسى: «حُكُماً» بضم الكاف[4].

---

(١) كما في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٧١، وزاد المسير ٦/ ١١٩، والبحر ٧/ ١١.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٨٣، وما بين حاصرتين منه، وفيه: «فعلتها إذاً وأنا من الجاهلين». وهي كذلك في فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٨٠، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٥٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١١.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ إشارةٌ على ظاهر الأول من تفسيري الحكم إلى تفضُّله تعالى عليه برتبةٍ هي فوقَ رتبةِ النبوَّة، أعني رتبةَ الرسالة، ولم يقل: فوهب لي ربِّي حكماً ورسالةً، أو: وجعلني رسولاً، إعظاماً لأمر الرسالة، وتنبيهاً لفرعون على أنَّ رسالته عليه السلام ليس أمراً مبتدعاً، بل هو مما جَرَتْ به سنَّةُ الله تعالى شأنُه.

وحاصلُ الردِّ: إنَّ ما ذكرتَ من نِسْبةِ القتل إليَّ مسلَّمٌ، لكنه ليس مما أُوبَّخ به ويقْدَحُ في نبوَّتي؛ لأنه كان قبل النبوَّة من غيرِ تعمُّدٍ، حيث كان الوَكْزُ للتأديب وتَرَتَّبَ عليه ذلك.

وردَّ ثانياً امتنانَه الذي تضمَّنه قولُه: «ألم نربك فينا وليداً» إلخ فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: التربيةُ المفهومةُ من قوله: «ألم نربك» إلخ ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا﴾ أي: تُنْعِمُ بها ﴿عَلَيَّ﴾ فهو من باب الحذف والإيصال، و«تمنُّ» من المنَّةِ بمعنى الإنعام، والمضارعُ لاستحضارِ الصورة. وجوِّز أن يكون من المنِّ، والمعنى: تلك نعمةٌ تَعُدُّها عليَّ، فليس هناك حذف وإيصال، والمضارعُ قيل: على ظاهره من الاستقبال، وفيه منعٌ ظاهر.

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ذلَّلْتَهم واتَّخذْتَهم عبيداً، يقال: عبَّدتُ الرجل وأَعْبَدْتُه: إذا اتخذته عبداً، قال الشاعر:

عَلامَ يُعْبِدُني قومي وقد كَثُرتْ ... فيهم أباعرُ ما شاؤوا وعُبْدانُ[١]

و«أنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ مرفوعٍ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ والجملةُ حاليةٌ أو مفسِّرةٌ، أو على أنه بدلٌ من «تلك» أو «نعمةٌ»، أو عطفُ[٢]، أو منصوبٌ على أنه بدلٌ من الهاء في «تمنُّها». أو مجرورٌ بتقديرِ الباء السببيةِ أو اللَّام على أحد القولين في محلِّ «أنْ» وما بعدها بعد حَذْفِ الجارِّ، والقولُ الآخَرُ أنَّ محلَّه النصبُ.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٩، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٣٣، والصحاح وأساس البلاغة (عبد)، والكشاف ٣/ ١٠٩، واللسان والتاج (عبد). وذكره صاحب اللسان أيضاً شاهداً على تعدية عَبِد يَعْبَد - بمعنى غضب - بغير حرف، وعزاه للفرزدق، وليس في ديوانه.

(٢) أي: عطف بيان. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٠.

وحاصلُ الردِّ: إنَّ ما ذَكَرْتَ نعمةٌ ظاهراً، وهي في الحقيقة نقمةٌ حيث كانت بسبب إذلال قومي وقَصْدِكَ إياهم بذبح أبنائهم، ولولا ذلك لم أَحْصُلْ بين يديك، ولم أكن في مهد تربيتك.

وقيل[١]: «تلك» إشارةٌ إلى خصلةٍ شنعاءَ مبهمةٍ لا يُدْرَى ما هي إلا بتفسيرها، و«أن عبَّدْتَ» عطفُ بيانٍ لها، والمعنى: تعبيدُك بني إسرائيل نعمةٌ تمنُّها عليَّ، وحاصل الردِّ إنكارُ ما امتَنَّ به أيضاً.

ويؤيِّد[٢] حَمْلَ الكلام على ردِّ كونِ ذلك نعمةً في الحقيقة قراءةُ الضَّحَّاك: «وتلك نعمةٌ ما لَكَ أنْ تمنَّها عليَّ»[٣]، وإلى ذلك ذهب قتادةُ، وكذا الأخفشُ والفرَّاءُ إلَّا أنَّهما قالا بتقديرِ همزةِ الاستفهام للإنكار بعد الواو، والأصل: وأتلك[٤] نعمةٌ.. إلخ.

وأبى بعضُ النحاة حَذْفَ حرفِ الاستفهام في مثل هذا الموضع[٥].

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنَّ هذا الكلامَ إقرارٌ منه عليه السلام بنعمة فرعونَ، كأنه يقول: وتربيتُك إياي نعمةٌ عليَّ من حيث إنك عبَّدْتَ غيري وتركتني واتَّخذْتني ولداً، لكنْ لا يدفعُ ذلك رسالتي، وإلى هذا التأويل ذهب السدِّيُّ والطبريُّ[٦]. وليس بذاك.

وأيًّا ما كان فالآيةُ ظاهرةٌ في أنَّ كُفْرَ الكافر لا يُبْطِلُ نعمته. وذهب بعضُهم

---

(١) هو قول الزمخشري في الكشاف ٣/١٠٩.

(٢) في (م): ويريد، وهو تصحيف، وينظر المحرر الوجيز ٤/٢٢٨، والبحر ٧/١١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٢٢٨، والبحر ٧/١١.

(٤) كذا ذكر المصنف، والذي في معاني القرآن للأخفش ٢/٦٤٦: أوتلك، فقدَّر الهمزة قبل الواو، وكذا نُقل عنه في إعراب القرآن للنحاس ٣/١٧٦، وتهذيب اللغة ٢/٢٣٢، والمحرر الوجيز ٤/٢٢٨، والبحر ٧/١١، وفيه: وقال الأخفش والفراء: قَبْلَ الواو همزةُ استفهامٍ يُراد به الإنكارُ، وحُذفت لدلالة المعنى عليها.

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/١٧٦، وتهذيب اللغة ٢/٢٣٢، والمحرر الوجيز ٤/٢٢٨. وقال النحاس بعد أن ذكر قول الأخفش: وهذا لا يجوز؛ لأن ألف الاستفهام تُحْدِثُ معنًى، وحذفها محال، إلا أن يكون في الكلام «أم» فيجوز حذفها في الشعر.

(٦) البحر ٧/١١، وكلام الطبري في تفسيره ١٧/٥٥٩ و٥٦٢.

إلى[1] أنَّ الكفر يُبْطِلُ النعمةَ لئلَّا يجتمع استحقاقُ المدحِ واستحقاقُ الذمِّ. وفيه أنه لا ضير في ذلك لاختلاف جهتي الاستحقاقين.

هذا وذهب الزمخشريُّ[2] إلى أنَّ «إذاً» في قوله تعالى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ جوابٌ وجزاءٌ، وبيَّن وجهَ كونِ الكلام جزاءً بقوله: قولُ [فرعون]: «وفَعَلْتَ فَعْلَتَك» فيه معنى: أنك جازيتَ نعمتي بما فَعَلْتَ، فقال له موسى عليه السلام: نعم فعلتُها مُجازياً لك، تسليماً لقوله، كأنَّ[3] نعمته عنده جديرةٌ بأن تُجازى بنحو ذلك الجزاء.

واعتُرض بأنَّ هذا لا يلائم قوله: «وأنا من الضالين» لأنه يدلُّ على أنه اعترف بأنه فَعَلَ ذلك جاهلاً أو ناسياً.

وفي «الكشف»: تحقيقُ ما ذكره الزمخشريُّ أنَّ الترتيب الذي هو معنى الشرطِ والجزاء حاصلٌ، ولمَّا كانا ماضيين كان ذلك تقديريًّا، كأنه قال: إنْ كان ذلك كفراناً بنعمتك فقد فعلتُه جزاءً، ولكنَّ الوصفَ ـ أي: كونَه كفراناً ـ غير مُسلَّم، وأمدَّه بقوله: «وتلك نعمةٌ تمنُّها»، وفيه القولُ بالموجب أيضاً. وقولُه: «وأنا من الضالين» على هذا كأنه اعتذارٌ ثانٍ، أي: كنتَ تستحقُّ ذلك عندي، وأيضاً كنتَ من الحائدين عن منهج الصواب لا في اعتقاد استحقاقِ مكافأةِ صنيعك بمثل تلك، ولكن في الإقدام قبل الإذن من الملك العلَّام.

والحاصلُ أنه نَسَبَه إلى مقابلة الإحسان بالإساءة، وقرَّرها بكونه كافراً، فأجاب عليه السلام بأنَّ المقابلة حاصلةٌ، ولكنْ أين الإحسان، وما كنتُ كافراً بك ـ فإنه عينُ الهدى ـ بل ضالاً في الإقدام على الفعل، وما كنتُ كافراً لنعمةِ منعم أصلاً، ولكن كنتُ فاعلاً لذلك خطأً. ومنه ظهر أنَّ قوله: «وأنا من الضالِّين» لا ينافي تقريرَ الزمخشريِّ بل يؤيِّدُه. اهـ.

---

(١) قوله: إلى، ليس في (م).

(٢) في الكشاف ٣/ ١٠٩، ونقله عنه أيضاً أبو حيان في البحر ٧/ ١٠-١١، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

(٣) في مطبوع الكشاف: لأن.

ولا يخفى أنَّ الأَوْفَقَ بحديث الجزاء أن يكون المرادُ بقوله: فعلتُها وأنا من الضالِّين: فعلتُها مُقْدِماً عليها من غير مبالاةٍ، على أنَّ الضلال بمعنى الجهل المفسَّر بالإقدام من غيرِ مبالاةٍ، لكنَّ التزامَ كونِ «إذاً» هنا للجواب والجزاء التزامُ ما لا يَلْزمُ، فإنَّ الصحيح الذي قال به الأكثرون أنها قد تتمحَّض للجواب، وفي «البحر»: أنهم حَمَلوا ما في هذه الآية على ذلك[١]، وتوجيهُ كونها للجزاء فيها بما ذُكِرَ لا يخلو عن تكلُّفٍ.

والأظهرُ عندي معنًى ما آثره بعضُ أفاضل المحقِّقين[٢] من أنها ظرفٌ مقطوعٌ عن الإضافة، ولا أرى فيه ما يقال سوى أنه معنًى لم يذكره أكثر علماء العربية، وهم لم يُحيطوا بكلِّ شيءٍ علماً. وإن أبيتَ هذا فهي للجواب فقط.

ومن العجيب قولُ ابن عطية: إنَّها هنا صلةٌ في الكلام، ثم قولُه: وكأنها بمعنى حينئذٍ[٣]. ولو اكتفى به على أنه تفسيرُ معنًى لكان له وجهٌ، فتأمل، والله تعالى أعلم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستفهماً عن المرسِلِ سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وتحقيقُ ذلك على ما قال العلَّامةُ الطيبيُّ: أنه عزَّ وجلَّ لمَّا أمرهما بقوله سبحانه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآيتان: ١٦-١٧] فلا بدَّ أن يكونا ممتثلين مؤدِّيين لتلك الرسالة بعينها عند اللَّعين، فلمَّا أُدِّيتْ عنده اعتَرَضَ أوَّلاً بقوله: «ألم نربك فينا وليدا» إلى آخره، وثانياً بقوله: «وما رب العالمين»، ولذلك جيءَ بالواو العاطفة، وكرَّر «قال» للطُّول، فكأنه قال: أأنت الرسولُ، وما ربُّ العالمين؟.

وقال الزمخشريُّ: إنَّ اللعين لمَّا قال له بوَّابُه: إنَّ هاهنا مَن يزعمُ أنه رسولُ ربِّ العالمين. قال له عند دخوله: وما ربُّ العالمين؟

واعتُرِضَ بأنه نَظْمٌ مختلٌّ؛ لسَبْق المقاوَلة بينهم كما أشار إليه هو في سابق كلامه.

---

(١) البحر ٧/ ١١.

(٢) سلف كلامه ص١٥٦ من هذا الجزء.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨.

وانتصر له صاحب «الكشف» فقال: أراد أنه تعالى ذَكَر مرَّةً: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ﴾[١] [طه:٤٧] وأخرى: (فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) والقصةُ واحدةٌ والمجلسُ واحدٌ، فحمله على أنَّ الثانيَ ما أدَّاه البوَّاب من لسانه عليه السلام، والأول ما خاطبه به موسى عليه السلام مُشافهةً، وأنَّ اللعين أخذ أوَّلاً في الطعن فيه، وأن مثلَه ممن قُرِفَ[٢] برذائل الأخلاق لا يُرشَّحُ لمنصبٍ عالٍ فَضْلاً عمَّا ادَّعاه. وثانياً في السؤال عن شأنِ مَن ادَّعى الرسالة عنه استهزاءً. ومن هذا تبيَّن أنَّ سَبْقَ المقاولةِ لا يدلُّ على اختلالِ النَّظْمِ الذي أشار إليه. انتهى.

وجوَّز بعضُهم وقوعَ الأمر مرَّتين، وأنَّ فرعون سأل أولاً بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩] وسأل ثانياً بقوله: (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقد قصَّ الله تعالى الأول فيما أنزله[٣] جلَّ وعلا أولاً وهو سورةُ طه، والثاني فيما أنزله سبحانه ثانياً وهو سورةُ الشعراء، فقد روي عن ابن عباس أنَّ سورة طه نزلت، ثم الواقعة، ثم «طسم» الشعراء.

وقال آخر: يحتمل أنهما إنما قالا: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) والاقتصارُ في سورة طه على ذِكْرِ ربوبيته تعالى لفرعون؛ لكفايته فيما هو المقصودُ.

وعلى القول بوقوع الأمر مرَّتين قيل: إنَّ فرعون سأل في المرة الأولى بقوله: «مَن ربُّكما» طلباً للوصف المشخَّصِ كما يقتضيه ظاهرُ الجواب، خلافاً للسكاكيِّ[٤] في دعواه أنه سؤالٌ عن الجنس، كأنه قال: أبَشرٌ هو أم مَلَكٌ أم جنيٌّ؟ والجوابُ من الأسلوب الحكيم، وأخرى بـ «ما ربُّ العالمين» طلباً للماهية والحقيقة، انتقالاً لِمَا هو أصعبُ؛ ليتوصَّل[٥] بذلك إلى بعض أغراضه الفاسدةِ حَسْبَما قصَّ الله تعالى بعدُ.

و«ما» يُسأل بها عن الحقيقة مطلقاً سواءٌ كان المسؤول عن حقيقته مِن أُولي

---

(١) في الأصل و(م): أن أرسل، بدل: فأرسل.
(٢) أي: اتُّهم. القاموس (قرف).
(٣) في (م): أنزل.
(٤) في مفتاح العلوم ص٣١١.
(٥) في الأصل: ليتوسَّل.

العلم أوْ لا، فلا يتوهَّم أنَّ حقَّ الكلام حينئذٍ أن يقال: من ربُّ العالمين؟ حتى يوجَّه بأنه لإنكارِ اللَّعين له عزَّ وجلَّ عبَّر بـ «ما».

ولمَّا كان السؤالُ عن الحقيقة مما لا يليقُ بجنابه جلَّ وعلا ﴿قَالَ﴾ عليه السلام عادلاً عن جوابه إلى ذِكْرِ صفاته عزَّ وجلَّ على نَهْجِ الأسلوب الحكيم إشارةً إلى تعذُّرِ بيانِ الحقيقة: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ والكلامُ في امتناع معرفةِ الحقيقة وعَدَمِه قد مرَّ عليك فتذكَّر(١).

ورُفع «ربُّ» على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما من العناصر والعنصريات.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ أي: إن كنتم موقنين بالأشياء محقِّقين لها علمتُم ذلك، أو: إن كنتُم موقنين بشيءٍ من الأشياء فهذا أَوْلَى بالإيقان لظهوره وإنارةِ دليله، فإنَّ هذه الأجرامَ المحسوسةَ ممكنةٌ لتركُّبِها وتعدُّدِها وتغيُّرِ أحوالها، فلها مبدأ واجبٌ لذاته، ثم ذلك المبدأُ لا بدَّ أن يكون مبدأً لسائر الممكنات، ما يمكن أن يُحَسَّ بها وما لا يمكن، وإلَّا لَزِمَ تعدُّد الواجب أو استغناءُ بعضِ الممكنات عنه، وكلاهما محالٌ. وجوابُ «إنْ» محذوفٌ كما أشرنا إليه.

﴿قَالَ﴾ فرعونُ عند سماع جوابه عليه السلام خوفاً من أن يَعْلَقَ منه في قلوب قومه شيءٌ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من أشراف قومه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا خمسَ مئةِ رجلٍ عليهم الأساورُ، وكانت للملوك خاصةً:

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥﴾ جوابَه، يريدُ التعجيب(٢) منه والإزراءَ بقائله، وكان ذلك لعَدَمِ مطابقته للسؤال حيث لم يبيِّن فيه الحقيقةَ المسؤولَ عنها، وكونِه في زعمه ـ نظراً لِمَا عليه قومُه من الجهالة ـ غيرَ واضحٍ في نفسه؛ لخفاء العلم بإمكان ما ذُكِر أو حدوثِه ـ الذي هو علَّةُ الحاجة إلى المبدأ الواجب لذاته ـ عليهم، وقد بالغ اللَّعين في الإشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكورِ، حيث أَوْهَم أنَّ مجرَّد استماعِهِم له كافٍ في ردِّه وعدمِ قبوله.

---

(١) ينظر ما سلف ١٦/ ٢٣٠ وما بعدها.

(٢) في الأصل: التعجب.

وكأنَّ موسى عليه السلام لمَّا استشعر ذلك من اللعين ﴿قَالَ﴾ عُدولاً إلى ما هو أوضحُ وأقربُ، إعطاءً لمنصب الإشارة حقَّه حَسبَ الإمكان؛ لتعذُّرِ الوقوف على الحقيقة كما سمعتَ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ فإنَّ الحدوثَ والافتقارَ إلى واجبٍ مصوِّرٍ حكيم في المخاطبين وآبائهم الذين ذهبوا وعُدِمُوا أظهرُ، والنظرُ في الأنفس أقربُ وأوضحُ من النظر في الآفاق.

ولمَّا رأى اللعينُ ذلك، وقَوِيَ عنده خوفُ فتنةِ قومه ﴿قَالَ﴾ مبالغاً في الردِّ والإشارةِ إلى عدم الاعتداد بذلك، مصرِّحاً بما ينفِّرُ قلوبَهم عن قائله وقبول ما يجيءُ به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ حيث يُسألُ عن شيءٍ ويجيبُ عن شيءٍ آخَرَ، وينبَّه على ما في جوابه ولا يَنْتَبِهُ.

وسمَّاه رسولاً بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطَبيه ترفُّعاً من أن يكون مرسَلاً إلى نفسه، وأكَّد ذلك بالوصف، وفيه إثارةٌ لغضبهم، واستدعاءٌ لإنكارهم رسالتَه بعد سماع الخبر؛ ترفُّعاً بأنفسهم عن أن يكونوا أهلاً لأنْ يُرسَلَ إليهم مجنونٌ.

وقرأ مجاهد وحميد والأعرج: «أَرْسَلَ» على بناء الفاعل[١]، أي: الذي أَرْسَله ربُّه إليكم.

وكأنَّه عليه السلام لمَّا رأى خشونةً في ردِّ اللَّعينِ، وإيماءً منه إلى[٢] أنه عليه السلام لم يتنبَّه لِمَا في جوابه الأولِ من الخفاء عند قومه، بل كان عدولُه عنه إلى الجواب الثاني لِمَا رماه به عليه اللَّعنةُ ﴿قَالَ﴾ عليه السلام تفسيراً لجوابه الأولِ، وإزالةً لخفائه ليُعْلِمَ أنَّ العدول ليس إلا لظهور ما عَدَلَ إليه ووضوحِه وقُرْبِه إلى الناظر، لا لِمَا رُمي به وحاشاه، مع الإشارة إلى تعذُّر بيانِ الحقيقة أيضاً بالإصرار على الجواب بالصفات:

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وذلك لأنه لم يكن في الجواب الأول تصريحٌ باستنادِ حركات السماواتِ وما فيها، وتغيُّراتِ أحوالها وأوضاعها، وكونِ الأرض

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٣.

(٢) في (م): إلا، وهو تصحيف.

تارةً مظلمةً وأخرى منوّرةً، إلى الله تعالى. وفي هذا إرشادٌ إلى ذلك، فإنَّ ذِكْرَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ منبئٌ عن شروق الشمس وغروبها المَنوطَيْنِ بحركات السماوات وما فيها على نمطٍ بديعٍ يترتَّبُ عليه هذه الأوضاعُ الرصينةُ، وكلُّ ذلك أمورٌ حادثةٌ لا شكَّ في افتقارها إلى مُحْدِثٍ قادرٍ عليمٍ حكيم.

وارْتَكَبَ عليه السلام الخشونةَ كما ارْتُكِبَ معه بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: إن كنتم تعقلون شيئاً من الأشياء، أو: إن كنتم من أهل العقل، عَلِمتُم أنَّ الأمر كما قلتُه وأشَرْتُ إليه، فإنَّ فيه تلويحاً إلى أنهم بمعزلٍ من دائرة العقل، وأنهم الأحقَّاءُ بما رمَوه به عليه السلام من الجنون.

وقرأ عبد الله وأصحابُه والأعمش: «ربُّ المشارق والمغارب» على الجمع فيهما[1].

ولمَّا سمع اللَّعينُ منه عليه السلام تلك المقالات المبنية[2] على أساس الحِكَم البالغة، وشاهَدَ شدَّةَ حَزْمِه وقوَّةَ عَزْمِه على تمشيةِ أمره، وأنَّه ممن لا يُجارَى في حلبة المُحاوَرةِ ﴿قَالَ﴾ ضارباً صفحاً عن المقاوَلةِ إلى التهديد، كما هو دَيْدنُ المحجوج العنيد:

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وفيه مبالغةٌ في ردِّه عن دعوى الرسالة، حيث أراد منه ما أراد ولم يَقْنَعْ منه عليه السلام بتَرْكِ دعواها وعَدَمِ التعرُّض له، وفيه أيضاً عتوٌّ آخرُ حيث أَوْهَمَ أنَّ موسى عليه السلام متَّخذٌ له إلهاً في ذلك الوقت، وأنَّ اتّخاذَه غيره إلهاً بعدُ مشكوك، وبالَغ في الإيعاد[3] على تقدير وقوع ذلك، حيث أكَّد الفعلَ بما أكَّد. وعَدَلَ عن: لأسجُننَّكَ - الأخصر - لذلك أيضاً، فإن «أل» في «المسجونين» للعهد، فكأنه قال: لأجعلنَّك ممن عَرفْتَ أحوالهم في سجوني، وكان عليه اللعنةُ يطرحُهم في هوَّةٍ عميقةٍ - قيل: عمقُها خمسُ مئةِ ذراعٍ، وفيها حياتٌ وعقاربُ - حتى يموتوا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٣.

(٢) في (م): المبينة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٠.

(٣) في (م): الإبعاد.

هذا وقال بعضهم: السؤالُ هنا وفي سورة طه عن الوصف، والقصةُ واحدةٌ والمجلسُ واحدٌ، واختلافُ العبارات فيها لاقتضاءِ كلِّ مقامٍ ما عبِّر به فيه، ويُلتزمُ القول بأنَّ الواقع هو القَدْرُ المشتركُ بين جميع تلك العباراتِ، وبهذا ينحلُّ إشكالُ اختلافِ العبارات مع دعوى اتِّحادِ القصة والمجلسِ، لكن تعيين القَدْرِ المشتركِ الذي يصحُّ أن يعبَّر عنه بكلٍّ من تلك العبارات يحتاجُ إلى نظرٍ دقيق مع مزيدِ لُطْفٍ وتوفيقٍ.

ثم إنَّ العلماء اختلفوا في أنَّ اللَّعين: هل كان يعلم أنَّ للعالَم ربًّا هو الله عزَّ وجلَّ أوْ لا؟.

فقال بعضهم: كان يعلمُ ذلك بدليلِ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. ومنهم مَن استدلَّ بطلبه شَرْحَ الماهيةِ زَعْماً منه أنَّ فيه الاعترافَ بأصلِ الوجود، وذكروا أنَّ ادِّعاءه الألوهيةَ وقولَه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] إنما كان إرهاباً لقومه الذين استخفَّهم، ولم يكن ذلك عن اعتقاد، وكيف يَعتقِدُ أنه ربُّ العالَم وهو يعلمُ بالضرورة أنه وُجِدَ بعد أنْ لم يكن، ومضى على العالم ألوفٌ من السنين وهو ليس فيه، ولم يكن له إلَّا ملكُ مصرَ؟ ولذا قال شعيبٌ لموسى عليهما السلام لمَّا جاءه في مدين: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وقال بعضُهم: إنه كان جاهلاً بالله تعالى، ومع ذلك لا يعتقدُ في نفسه أنه خالقُ السماواتِ والأرضِ وما فيهما، بل كان دهريًّا نافياً للصانع سبحانه، معتقِداً وجوبَ الوجودِ بالذات للأفلاك، وأنَّ حركاتها أسبابٌ لحصول الحوادث، ويعتقد أنَّ مَن مَلَكَ قُطْراً وتولَّى أَمْرَه لقوَّةِ طالِعِه استحقَّ العبادةَ من أهله وكان ربًّا لهم، ولهذا خصَّص ألوهيته وربوبيته ولم يعمِّمْهما[1]، حيث قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] و: (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ).

وجوِّز أن يكون من الحلولية القائلين بحلولِ الربِّ سبحانه وتعالى في بعض الذَّواتِ، ويكون معتقداً حلولَه عزَّ وجلَّ فيه، ولذلك سمَّى نفسه إلهاً.

---

(١) في (م): يعممها.

وقيل: كان يدَّعي الألوهيةَ لنفسه ولغيره، وهو ما كان يعبدُه من دون الله عزَّ وجلَّ، كما يدلُّ عليه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧]. وهو وكذا ما قبلَه بعيدٌ.

والذي يغلبُ على الظنِّ ويقتضيه أكثر الظواهر أنَّ اللَّعينَ كان يعرفُ الله عزَّ وجلَّ، وأنه سبحانه هو خالقُ العالَم، إلا أنه غلبتْ عليه شقوتُه وغرَّتْه دولتُه، فأَظْهَر لقومه خلافَ عِلْمِه، فأذْعَنَ منهم له مَن كَثُر جَهْلُه ونَزُرَ عَقْلُه، ولا يَبْعُدُ أن يكون في الناس مَن يُذْعِنُ بمثل هذه الخرافات ولا يعرفُ أنَّها مخالفةٌ للبديهيات.

وقد نَقَلَ لي مَن أثقُ به أنَّ رجلين من أهل نجدٍ قبل ظهورِ أمرِ الوهَّابيِّ فيما بينهم بينما هما في مزرعةٍ لهما إذ مرَّ بهما طائرٌ طويلُ الرجلين لم يَعْهَدَا مثلَه في تلك الأرض، فنزل بالقرب منهما، فقال أحدُهما للآخرِ: ما هذا؟ فقال له: لا ترفع صوتَك هذا ربُّنا. فقال له معتقداً صِدْقَ ذلك الهذيان: سبحانه ما أطولَ كراعيه وأعظمَ جناحيه.

وأمَّا مَن له عقلٌ منهم ولا يَخْفَى عليه بطلانُ مثلِ ذلك فيحتمل أن يكون قد وافَقَ ظاهراً؛ لمزيدِ خوفه من فرعون، أو مزيدِ رغبته بما عنده من الدنيا، كما نشاهد كثيراً من العقلاء وفَسَقةِ العلماء وافقوا جبابرةَ الملوك في أباطيلهم العِلْميَّةِ والعَمَليَّةِ حبًّا للدنيا الدنيَّةِ، أو خوفاً مما يتوهَّمونه من البليَّة، ويحتملُ أن يكون قد اعتقد ذلك حقيقةً بضَرْبٍ من التوجيه وإن كان فاسداً، كزَعْم الحلول ونحوه. والمنكرُ على القائل: أنا الحقُّ، والقائلِ: ما في الجبَّةِ إلا الله[1]، يزعُمُ أنَّ معتقدي صِدْقِهما كمعتقدي صِدْقِ فرعونَ في قوله: (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ).

وسؤالُ اللعين لموسى عليه السلام حكايةٌ لِمَا وقع في عبارته بقوله: «ما ربُّ العالمين» كان لإنكاره الظاهرِ[2] أن يكون للعالمين ربٌّ سواه. وجوابُ موسى عليه السلام له لم يكن إلَّا لإبطال ما يدَّعيه ظاهراً، وإرشادِ قومه إلى ما هو الحقُّ الحقيقُ بالقبول، ولذا لم يقصُرِ الخطابَ في الأجوبة عليه. والتعجيبُ المفهومُ من قوله:

---

(١) هو طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامي، كما في سير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٨.
(٢) في (م): لظاهر.

«ألا تستمعون»؛ لزَعْمِه ظاهراً أنه عليه السلام ادَّعى خلافَ أمرٍ محقَّقٍ، وهي ربوبيةُ نَفْسِه.

ولمَّا داخَلَه من خوفِ إذعانِ قومه لِمَا قاله موسى عليه السلام ما داخَلَه بالَغَ في صَرْفِهم عن قبول الحقِّ بقوله: «إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون». ولمَّا رأى أنَّ ذلك لم يُفِدْ في دَفْعِ موسى عليه السلام عن إظهار الحقِّ وإبطالِ ما كان يُظْهِرُه من الباطل، ذبَّ عن دعواه الباطلةِ بالتهديد وتشديدِ الوعيد فقال: «لئن اتَّخذْتَ إلهاً غيري لأجعلنَّكَ من المسجونين».

ولعل أجوبتَه عليه السلام مشيرةٌ إلى إبطال اعتقادِ نحو الحلول، بأنَّ فيه الترجيحَ بلا مرجِّحٍ، وبأنه يستلزمُ المربوبيةَ لِمَا فيه من التغيُّر.

وبعدَ هذا القول عندي قولُ بعضهم: إنه عليه اللعنة كان دهريًّا إلى آخر ما سمعتَه آنفاً، والتعجيب؛ لزَعْمِه حقيقةً أنه عليه السلام ادَّعى خلافَ أمرٍ محقَّقٍ وهو ربوبيةُ نفسِه عليه اللعنة، والله تعالى أعلم.

ولمَّا رأى عليه السلام فظاظةَ فرعون ﴿قَالَ﴾ على جهة التلطُّفِ به والطمعِ في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: تفعلُ ذلك ولو جئتُك بشيءٍ مبين، أي: موضِّحٍ لصِدْقِ دعوايَ، يريد به المعجزةَ فإنها جامعةٌ بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صِدْقِ دعوى مَن ظهرتْ على يده، والتعبيرُ عنها بـ «شيء» للتهويل.

والواوُ للعطف على جملةٍ مقابِلةٍ للجملة المذكورة، ومجموعُ الجملتين المتعاطفتين في موضع الحال، و«لو» لبيان[1] تحقيق ما يفيدُه الكلامُ السابقُ من الحُكْمِ على كلِّ حالٍ مفروضٍ من الأحوال المقارِنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدِها منه وأشدِّها منافاةً له، ليَظْهَرَ تَحقُّقُه مع ما عَدَاه من الأحوال بطريقِ الأولوية، أي: أتفعلُ فيَّ ذلك حالَ عَدَمِ مجيئي بشيءٍ مبينٍ وحالَ مجيئي به. وتصديرُ المجيء بـ «لو» دون «إنْ» ليس لبيانِ استبعاده في نفسه بل بالنسبة إلى فرعون.

(١) في (م): للبيان، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٠، والكلام منه.

وجَعَل بعضهم الواوَ للحال على معنى أنَّ الجملة التي بعدها حال، أي: أتفعلُ فيَّ ذلك جائياً بشيءٍ مبينٍ، وهو ظاهرُ كلام «الكشاف» هنا[1]. وظاهرُ كلام «الكشف» أنَّ الاستفهام للإنكار، على معنى: لا تقدِرُ على فِعْلِ ذلك مع أنِّي نبيٌّ بالمعجزة. والظاهرُ تعلُّقُ هذا الكلام بالوعيد الصادر من اللعين، فذلك في تفسيره إشارةٌ إلى جَعْلِه عليه السلام من المسجونين، فكأنه قال: أتجعلُني من المسجونين إن اتَّخذتُ إلهاً غيرَك ولو جئتك بشيءٍ مبين؟.

وعلى ذلك حَمَلَ الطيبي كلام «الكشاف»، ثم قال: يمكن أن يقال: إنَّ الواو عاطفةٌ، وهي تستدعي معطوفاً عليه، وهو ما سبق في أول المكالمة بين نبيِّ الله تعالى وعدوِّه، والهمزةُ مُقْحَمةٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه للتقرير، والمعنى: أتُقِرُّ بالوحدانية وبرسالتي إن جئتُك بعد الاحتجاج بالبراهين القاهرةِ والمعجزاتِ الباهرةِ الظاهرة، و«لو» بمعنى: إنْ عزَّ بزَّ، ويؤيِّد هذا التأويلَ ما في «الأعراف»: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۞ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الآيتان: ١٠٥-١٠٦] انتهى.

وهو كما ترى، وفيه جَعْلُ «مُبين» مِن أبانَ اللَّازمِ بمعنى بان. وجَعْلُه مِن أبان المتعدِّي وحَذْفُ المفعول كما أشرنا إليه أنسبُ للمقام.

ولمَّا سمع فرعونُ هذا الكلامَ من موسى عليه السلام ﴿قَالَ﴾ حيث طَمِعَ أن يجد موضعَ معارَضةٍ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ أي: بشيءٍ مبين ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: فيما يدلُّ عليه كلامُك من أنَّكَ تأتي بشيءٍ موضحٍ لصِدْقِ دعواك، أو من الصادقين في دعوى الرسالةِ من ربِّ العالمين، وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتَ من الصادقين فأتِ به. وقدَّره الزمخشريُّ: أتيتَ به. والمشهورُ تقديرُه من جنس الدليل.

وقال الحوفيُّ: يجوز أن يكون ما تقدَّم هو الجوابَ، وجاز تقديمُ الجوابِ لأنَّ حَرْفَ[2] الشرط لم يعمل في اللفظ شيئاً.

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٠.
(٢) في (م): حذف.

وقد بَهَتَ الزمخشريُّ عامَلَه الله تعالى بعَدْلِه أهلَ السنة بما هم منه بُرآءُ[١]، كما بيَّنه صاحب «الكشف» وغيره فارْجِعْ إليه إنْ أَرَدْتَه.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى بعد أنْ قال له فرعونُ ذلك ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ ظاهرٌ ثعبانيَّتُهُ، أي: ليس بتمويهٍ وتخييلٍ كما يفعلُه السَّحرةُ، والثعبانُ أعظمُ ما يكون من الحيَّات، واشتقاقُه من ثَعَبَ الماءُ بمعنى: جَرَى جَرْياً متَّسعاً، وسمِّي به لجَرْيِه بسرعةٍ من غيرِ رِجْلٍ كأنه ماءٌ سائل.

والظاهرُ أنَّ نفس العصا انقلبت ثعباناً، وليس ذلك بمُحَال إذا كان بسَلْبِ الوَصْفِ الذي صارت به عصاً، وخَلْقِه الوَصْفَ الذي تصيرُ به ثعباناً[٢]، بناءً على رأي بعضِ المتكلِّمين من تجانُسِ الجواهر واستوائها في قبول الصفات، إنما المحالُ انقلابُها ثعباناً مع كونها عصاً؛ لامتناع كونِ الشيء الواحدِ في الزمن الواحد عصاً وثعباناً.

وقيل: إنَّ ذلك بخَلْقِ الثعبانِ بَدَلَها، وظواهرُ الآيات تُبْعِدُ ذلك.

وقد جاء في الأخبار ما يدلُّ على مزيدِ عظم هذا الثعبان، ولا يُعْجِزُ الله تعالى شيءٌ، وقد مرَّ بيانُ كيفيةِ الحالِ[٣].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: بياضُها يجتمعُ النظَّارةُ على النظر إليه لخروجه عن العادة، وكان بياضاً نُورانيًّا. رُوي أنه لمَّا أبصر أمر

---

(١) حيث قال: وفي قوله: «إن كنت من الصادقين» أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه؛ لأنَّ المعجزة تصديقٌ من الله لمدَّعي النبوَّة، والحكيم لا يصدِّق الكاذب، ومن العَجَبِ أن مثل فرعون لم يَخْفَ عليه هذا، وخفي على ناسٍ من أهل القبلة، حيث جوَّزوا القبيح على الله تعالى. وتعقبه ابن المنير بقوله: ليته سلَّم وجهَ تصنيفه من ثآليل هذه الأباطيل، وكَلَفِ هذا التكلُّف في كيده لأهل السنة وإن كيده لفي تضليل، بينا هو يعرِّض بتفضيل فرعون عليهم إذا هو قد حتَّم على إخوانه القدرية أنهم فراعنة... لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خَلْقَهم، وأنهم لها مبدعون خالقون... إلى آخر كلامه. الكشاف مع الانتصاف ٣/ ١١٠-١١١.

(٢) في (م): وخلقه وصف الذي يصير ثعباناً.

(٣) ينظر ما سلف ٩/ ٢٨٠-٢٨١، و١٦/ ٢٧٤-٢٧٥.

العصا قال: هل لك غيرُها؟ فأخرج عليه السلام يده فقال: ما هذه؟ قال: يدك. فأَدْخَلَها في إبطه ثم نزعها ولها شعاعٌ يكاد يُغْشِي[1] الأبصار ويسدُّ الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ﴾ أشراف قومه ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾ منصوبٌ لفظاً على الظرفية، وهو ظرفٌ مستقرٌّ وقع حالاً، أي: مستقرِّين حولَه. وجوِّز أن يكونَ في موضع الصفة للملأ على حدِّ:

ولقد أمرُّ على اللئيم يَسُبُّني[2]

والأول أسهلُ وأنسبُ.

ومن العجيب ما نقله أبو حيان عن الكوفيين أنهم يجعلون «الملأ» اسمَ موصول و«حوله» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صلةً له، كأنه قيل: قال للذين استقروا حوله[3]:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ فائقٌ في عِلْم السحر ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ قسراً ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾ التي نشأتُم فيها وتوطَّنْتُموها ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ وفي هذا غايةُ التنفيرِ عنه عليه السلام، وابتغاءُ الغوائلِ له؛ إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقةُ الوطن، لا سيما إذا كان ذلك قسراً، وهو السرُّ في نسبةِ الإخراج والأرضِ إليهم.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: أيَّ أمرٍ تأمرون، فمَحَلُّ «ماذا» النصبُ على المصدرية، و«تأمرون» من الأمر ضدِّ النهي، ومفعولُه محذوفٌ: أي: تأمروني. وفي جَعْلِه عبيدَه بزَعْمِه آمِرِينَ له مع ما كان يظهرُه لهم من دعوى الألوهيةِ والربوبية ما يدلُّ على أنَّ سلطانَ المعجزةِ بَهَرَه وحيَّره حتى لا يدري أيّ طرفيه أطول، فزَلَّ عنه[4] ذكرُ دَعْوَى الألوهيَّةِ، وحطَّ عن منكبيه كبرياءَ الربوبيةِ، وانحطَّ عن ذروةِ الفَرْعَنةِ إلى حضيض المَسْكَنةِ، ولهذا أظهر استشعارَ الخوفِ من استيلائه عليه السلام على ملكه.

وجوِّز أن يكون «ماذا» في محلِّ النصب على المفعولية، وأن يكون «تأمرون» من المؤامرةِ بمعنى المُشاورةِ لأمرِ كلٍّ بما يقتضيه رأيه، ولعلَّ ما تقدَّم أَوْلَى.

---

(١) في (م): يغش.
(٢) وعجزه: فمضيتُ ثمة قلت ما يعنيني، وسلف ٧/ ٤٦٧.
(٣) البحر ٧/ ١٥.
(٤) في (م): عند.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أي: أَخِّرْ أمرَهما إلى أنْ تأتِيَكَ السحرةُ، من أَرْجَأْتُه: إذا أخَّرته. ومنه المرجِئةُ، وهم الذين يؤخِّرون العملَ لا يأتونه، ويقولون: لا يضرُّ مع الإيمان معصيةٌ كما لا ينفعُ مع الكفر طاعةٌ.

وقرأ أهل المدينة والكسائيُّ وخلفٌ: «أَرْجِهِ» بكَسْرِ الهاء[1]. وعاصمٌ وحمزةُ «أَرْجِهْ» بغيرِ همزٍ وسكونِ الهاء، والباقون: «أَرْجِئْهُ» بالهمز وضمِّ الهاء[2]. وقال أبو عليٍّ: لا بدَّ من ضمِّ الهاء مع الهمزةِ، ولا يجوزُ غيرُه، والأحسن أن لا يبلغَ بالضمِّ إلى الواو[3].

ومَن قرأ بكسر الهاء فـ «أرجه» عنده من أَرْجَيْتُه بالياء دون الهمزة، والهمزُ على ما نقل الطيبيُّ أفصحُ. وقد تُوْصَلُ الهاءُ المذكورةُ بياءٍ فيقال: أرجهي، كما يقال: مررتُ بهي.

وذكر الزجَّاج أنَّ بعضَ الحُذَّاقِ بالنحو لا يجوِّزُ إسكانَ نحوِ هاءِ «أرجه» أعني هاءَ الإضمار، وزعم بعضُ النحويين جوازَ ذلك، واستَشْهدَ عليه ببيت مجهولٍ[4]، ذكره الطبرسيُّ وقال: هو شعرٌ لا يُعْرَفُ قائلُه، والشاعر يجوز أن يخطئ[5].

وقال بعض الأجلَّة: الإسكانُ ضعيفٌ؛ لأنَّ هذه الهاءَ إنما تُسكَّنُ في الوقف، لكنه أجرى الوصل مجرى الوقف.

وقيل: المعنى: احْبِسْه، ولعلَّهم قالوا ذلك لفَرْطِ الدهشة، أو تجلُّداً ومداهنةً لفرعون، وإلا فكيف يمكنه أن يحبسه مع ما شاهد منه من الآيات؟

---

(١) التيسير ص١١١، والنشر ١/ ٣١٢، وروى قالون عن نافع، وابن وردان عن أبي جعفر اختلاس الكسرة.

(٢) قرأ ابن كثير وهشام بإشباع الضم، وأبو عمرو ويعقوب بالاختلاس. وقرأ ابن ذكوان: «أرجئهِ» بكسر الهاء والاختلاس. التيسير ص١١١، والنشر ١/ ٣١١-٣١٢.

(٣) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٤/ ٦٠.

(٤) وهو:

لـمـا رأى ألّا دَعَــهْ ولا شِـبَـعْ مـالَ إلى أرطاةِ حِقْفٍ فـالـطـجع

معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٦٥، والبيت في سر صناعة الإعراب ١/ ٣٢١، والخصائص ٣/ ٣٢٦، وشرح شواهد الشافية ٤/ ٢٧٤-٢٧٥.

(٥) مجمع البيان ٩/ ١٤٠، وأصل الكلام للزجاج قاله إثر البيت المذكور.

﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ شُرَطاً يَحْشُرون السَّحَرة ويجمعونهم عندك. ﴿يَأْتُوكَ﴾ مجزومٌ في جواب الأمر، أي: إن تبعثْهم يأتوك ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ كثيرِ العملِ بالسحر ﴿عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ فائقٍ في عِلْمِه. ولكون المهمِّ هنا هو العملَ أتوا بما يدلُّ على التفضيل فيه. وقرأ الأعمش وعاصمٌ في رواية: «بكلِّ ساحرٍ عليم»[(١)].

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ أي: المعهودون، على أنَّ التعريف كما في «المفتاح» عهديٌّ[(٢)]. وقال الفاضل المحقِّقُ: إنَّ المعهود قد يكون عامًّا مستغرقاً كما هنا، ولا منافاة بينهما كما يتوهَّمُ، وفيه بحثٌ فتأمَّل.

﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ لِمَا وُقِّتَ به من ساعاتِ يوم معيَّنٍ، وهو وقتُ الضُّحى من يوم الزينةِ، على أنَّ الميقات من صفات الزمان. وفي «الكشاف»: هو ما وقِّتَ به، أي: حدِّد من زمانٍ أو مكانٍ، ومنه مواقيتُ الإحرام[(٣)].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ استبطاءً لهم في الاجتماع، وحثًّا على التبادُرِ إليه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ في ذلك الميقاتِ، فالاستفهامُ مجازٌ عن الحثِّ والاستعجالِ، كما في قول تأبَّط شرًّا:

هل أنت باعثُ دينارٍ لحاجتنا ... أو عبدَ ربٍّ أخا عون بنِ مخراق[(٤)]

فإنه يريد: ابعَثْ أحدَهما إلينا سريعاً ولا تُبْطِئْ به.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ أي: في دينهم ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ لا موسى عليه السلام. وليس مرادُهم بذلك إلَّا أن لا يتَّبعوا موسى عليه السلام في دينه، لكنْ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٥.
(٢) مفتاح العلوم ص١٨٦.
(٣) الكشاف ٣/ ١١٢.
(٤) جاء في هامش الأصل و(م): دينار اسم رجل، وعبد ربٍّ منصوب بالعطف على محلِّه، وهو اسم رجلٍ أيضاً، وأخا عون منادى لا نعتٌ، ويجوز أن يكون عطف بيان لعبد رب. اهـ منه. وينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٢. والبيت في ملحق ديوان تأبط شرّاً ص٢٤٥، وهو من شواهد الكتاب ١/ ١٧١، والخزانة ٨/ ٢١٥.
قال البغدادي: البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، وقال ابن خلف: وقيل: هو لجابر بن خلف النِّنْبِسي. ونسبه غير خَدَمة سيبويه إلى جرير، وإلى تأبط شرّاً، وإلى أنه مصنوع. اهـ.

ساقوا كلامهم مساقَ الكناية حَمْلاً للسحرة على الاهتمام والجدِّ في المُغالبةِ.

وجوِّز أن يكون مرادُهم اتِّباعَ السحرة، أي: الثباتَ على ما كانوا عليه من الدِّين، ويدَّعى أنهم كانوا على ما يريد فرعون من الدِّين.

والظاهرُ أنَّ فرعون غيرُ داخلٍ في القائلين، وعلى تقديرِ دخوله لم يجوِّز بعضُهم إرادةَ المعنى الحقيقيِّ لهذا الكلام؛ لامتناع اتِّباع مدَّعي الإلهية السحرةَ. وجوَّزه آخرون لاحتمال أن يكون قال ذلك لِمَا استولى عليه من الدهشة من أمر موسى عليه السلام، كما طلب الأمرَ ممن حوله لذلك.

ولعل إتيانَهم بـ «إنْ» للإلهاب، وإلَّا فالأوفَقُ بمقامهم أن يقولوا: إذا كانوا هم الغالبين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: لأجراً عظيماً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾ لا موسى عليه السلام، ولعلهم أخرجوا الشرط على أسلوبِ ما وقع في كلام القائلين موافقةً لهم، وإلَّا فلا يناسبُ حالَهم إظهارُ الشكِّ في غلبتهم.

﴿قَالَ﴾ فرعونُ لهم: ﴿نَعَمْ﴾ لكم ذلك ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ عندي. قيل: قال لهم: تكونون أولَ مَن يدخل عليَّ وآخِرَ مَن يخرج عني.

و«إذاً» عند جمعٍ على ما تقتضيه في المشهور من الجواب والجزاء، ونقل الزركشيُّ في «البرهان»(١) عن بعض المتأخِّرين أنها هنا مركَّبةٌ من «إذا»(٢) التي هي ظرفُ زمانٍ ماضٍ، والتنوينِ الذي هو عوضٌ عن جملةٍ محذوفةٍ بعدها، وليست هي الناصبة للمضارع.

وقد ذهب إلى ذلك في نظير الآية الكافيجيُّ، والقاضي تقيُّ الدين بنُ رزين(٣)، وأنا ممن يقول بإثبات هذا المعنى لها، والمعنى عليه: وإنَّكم إذا غلبتم - أو إذا كنتم الغالبين - لمن المقرَّبين.

---

(١) ٤/ ١٨٧، وسلف ١٣/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٢) في البرهان: إذ، والمذكور أعلاه موافق لما في الإتقان ١/ ٤٧٥ نقلاً عن البرهان.

(٣) سلف كلام الكافيجي ١١/ ٣١٣، و١٣/ ٤٠٧-٤٠٨، وكلام القاضي تقي الدين ١٣/ ٤٠٧-٤٠٨، ونقل المصنف قولهما عن الإتقان ١/ ٤٧٥.

وقرئ: «نَعِم» بفَتْحِ النون وكَسْرِ العين[١]، وذلك لغةٌ في «نعم».

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ أي: بعد ما قال له السَّحَرة: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ لم يُرِدْ عليه السلام الأمرَ بالسِّحر والتمويهِ حقيقةً؛ فإنَّ السِّحر حرامٌ وقد يكون كفراً، فلا يليقُ بالمعصوم الأمرُ به، بل الإذنَ بتقديمِ ما عَلِمَ بإلهام أو فراسةٍ صادقةٍ أو قرائنِ الحال أنهم فاعلوه البتة، ولذا قال: «ما أنتم ملقون» ليتوسَّل[٢] بذلك إلى إبطاله.

وهذا كما يؤمرُ الزنديقُ بتقرير حجَّته لتُردَّ، وليس في ذلك الرضا الممتنع فإنه الرضا على طريق الاستحسان، وليس في الإذن المذكور، ومطلقُ الرضا غيرُ ممتنع، وما اشتهر من قولهم: الرضا بالكفر كفرٌ، ليس على إطلاقه كما عليه المحقِّقون من الفقهاء والأصوليين.

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ﴾ أي: وقد قالوا عند الإلقاء: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بقوَّته التي يمتنعُ بها من الضيم، من قولهم: أرض عَزَازٌ، أي: صلبةٌ. ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ لا موسى عليه السلام.

والظاهرُ أنَّ هذا قَسَمٌ منهم بعزَّته عليه اللعنةُ على الغلبة، وخصُّوها بالقَسَم هنا لمناسبتها للغلبة، وقسمُهم على ذلك لفَرْطِ اعتقادِهم في أنفسهم، وإتيانِهم بأقصى ما يمكنُ أنْ يؤتَى به من السحر. وفي ذلك إرهابٌ لموسى عليه السلام بزَعْمِهم. وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة في قولهم: (بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ) تعظيماً له.

وهذا القَسَمُ من نوع أقسام الجاهلية، وقد سلك كثيرٌ من المسلمين في الأيمان ما هو أشنعُ من أيمانهم، لا يرضون بالقسم بالله تعالى وصفاتِه عزَّ وجلَّ، ولا يعتدُّون بذلك، حتى يحلفَ أحدُهم بنعمة السلطان، أو برأسه، أو برأسِ المحلِّف، أو بلحيته، أو بترابِ قبر أبيه، فحينئذٍ يستوثقُ منه، ولهم أشياءُ يعظِّمونها ويحلفون بها غير ذلك. ولا يَبْعدُ أن يكون الحَلِفُ بالله تعالى كذباً أقلَّ إثماً من

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٢، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٢.

(٢) في (م): ليتوصل، والمثبت من الأصل، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٢، والكلام منه.

الحَلِفِ بها صدقاً، وهذا ممَّا عمَّتْ به البَلْوَى، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله تعالى العليِّ العظيم.

وقال ابن عطيةَ[١] بعد أنْ ذَكَر أنه قَسَمٌ: والأحرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرُّكِ باسمه إذ[٢] كانوا يعبدونه، كما تقول إذا ابتدأتَ بشيءٍ: بسم الله تعالى، وعلى بركة الله[٣]، ونحو ذلك.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلعُ بسرعةٍ، وأصلُ التلقُّفِ: الأخذُ بسرعةٍ. وقرأ أكثر السبعة: «تَلَقَّفُ» بفتح اللام والتشديدِ[٤]، والأصلُ: تتلقَّفُ، فحُذِفَتْ إحدى التاءين. والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة[٥] والدلالةِ على الاستمرار.

﴿مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: الذي يَقْلبونه من حاله الأولِ وصورتِه بتمويههم وتزويرهم، فيخيِّلون حبالَهم وعصيَّهم أنها حياتٌ تسعى، فـ «ما» موصولةٌ حُذِفَ عائدُها للفاصلة، وجوِّز أن تكون مصدريةً، أي: تلقفُ إفْكَهم، تسميةً للمأفوك به مبالغةً.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: خرُّوا ساجدينَ إثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثُمٍ وتردُّدٍ؛ لعِلْمِهم بأنَّ مثلَ ذلك خارجٌ عن حدود السِّحر، وأنه أمرٌ إلهيٌّ قد ظهر على يده عليه السلام لتصديقه.

وعبَّر عن الخرور بالإلقاء لأنه ذُكر مع الإلقاءات، فسلك به طريق المشاكلة، وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنْ رَمَوا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أُخذوا فطُرحوا طرحاً، فهناك استعارةٌ تبعيةٌ زاد[٦] حُسْنَها المشاكلةُ.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٠، ونقله عنه أيضاً أبو حيان في البحر ٧/ ١٥.
(٢) في (م): إذا، وهو تصحيف.
(٣) في الأصل و(م): وعلى بركة رسول الله ﷺ، والمثبت من المحرر والبحر.
(٤) قرأ حفص: «تَلْقَفُ» بسكون اللام وتخفيف القاف، والباقون: «تَلَقَّفُ»، وشدد البزي التاء وصلاً. وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١١٧) من سورة الأعراف.
(٥) في (م): السورة، وهو تصحيف.
(٦) في (م): زادت.

وبَحَثَ في ذلك بعضُهم بأنَّ الله تعالى خالقُ خرورِهم عند أهلِ الحقِّ، وخَلْقُه هو الإلقاء، فلا حاجة إلى التجوُّز. وأنت تعلم أنَّ إيجاد خرورهم وخَلْقَه فيهم لا يسمَّى إلقاءً حقيقةً ولغةً.

ثم ظاهرُ كلامِهم أن فاعل الإلقاء ـ لو صرّح به ـ هو اللهُ عزَّ وجلَّ بما خوَّلهم من التوفيق، وجوَّز الزمخشريُّ(١) أن يكون إيمانَهم، أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة، ثم قال: ولك أن لا تقدِّر فاعلاً؛ لأنَّ «ألقوا» بمعنى: خرُّوا وسقطوا.

وتعقَّب هذا أبو حيان بأنه ليس بشيءٍ، إذ لا يمكن أن يُبْنَى الفعلُ للمفعول الذي لم يسمَّ فاعلُه إلَّا وقد حُذِفَ الفاعلُ فناب ذلك عنه، أمَّا أنه لا يقدَّرُ فاعلٌ فقولٌ ذاهبٌ عن الصواب(٢).

ووجَّه ذلك صاحبُ «الكشف»: بأنه أراد أنه لا يحتاجُ إلى تقديرِ فاعلٍ آخَر غيرِ مَن أُسْنِدَ إليه المجهولُ؛ لأنه فاعلُ الإلقاء، ألا ترى أنك لو فسَّرتَ سقط بـ: ألقى نفسِه لصحَّ؟.

والطيبيُّ: بأنه أراد أنه لا يحتاج إلى تعيين فاعلٍ؛ لأنَّ المقصود المُلْقَى لا تعيينُ من ألقاه، كما تقول: قُتل الخارجيُّ.

وأنت تعلم أنَّ التعليل الذي ذكره الزمخشريُّ إلى ما اختاره صاحب «الكشف» أقرب. وبالجملةِ لا بدَّ من تأويل كلام صاحب «الكشاف»، فإنه أجلُّ من أن يريد ظاهرَه الذي يَرِدُ عليه ما أَوْرَدَه أبو حيان.

وفي سجود السحرة وتسليمِهم دليلٌ على أنَّ منتهى السحر تمويهٌ وتزويقٌ يخيِّل شيئاً لا حقيقة له؛ لأنَّ السحر أقوى ما كان في زمن موسى عليه السلامِ، ومن أتى به فرعونُ أعلمُ أهلِ عَصْرِه به، وقد بَذَلوا جهدهم، وأظهروا أعظم ما عندهم منه، ولم يأتوا إلا بتمويهٍ وتزويقٍ، كذا قيل. والتحقيقُ أنَّ ذلك هو الغالبُ في السحر، لا أنَّ كلَّ سحرٍ كذلك.

---

(١) في الكشاف ٣/ ١١٣.
(٢) البحر ٧/ ١٦.

وقولُ القزوينيِّ: إنَّ دعوى أنَّ في السحر تبديلَ صورةٍ حقيقةً من خرافات العوامِّ وأسمار النسوة؛ فإن ذلك مما لا يمكن في سِحْرٍ أبداً = لا يخلو عن مجازفةٍ.

واستُدِلَّ بذلك أيضاً على أنَّ التبحُّر في كلِّ علمٍ نافعٌ، فإنَّ أولئك السَّحرةِ لتبحُّرهم في علم السحر علموا حقِّيةَ[1] ما أتى به موسى عليه السلام وأنه معجزةٌ، فانتفعوا بزيادة عِلْمِهم لأنه أدَّاهم إلى الاعتراف بالحقِّ والإيمان؛ لفَرْقِهم بين المعجزة والسحر.

وتعقِّب بأنَّ هذا إنما يُثْبِتُ حكماً جزئيًّا كما لا يخفى.

وذكر بعضُ الأجلَّةِ أنهم إنما عرفوا حقِّيةَ ذلك بعد أن أخذ موسى عليه السلام العصا فعادت كما كانت، وذلك أنهم لم يروا لحبالِهم وعصيِّهم بعدُ أثراً، وقالوا: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالُنا وعصيُّنا. ولعلها على هذا صارت أجزاءً هَبائيَّة وتفرَّقَتْ أو عُدِمَتْ لانقطاع تعلُّق الإرادة بوجودها.

وقال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في الباب السادس عَشَرَ والبابِ الأربعين من «الفتوحات»[2]: إنَّ العصا لم تَلْقَفْ إلَّا صُوَرَ الحيَّات من الحبال والعصيِّ، وأمَّا هي فقد بقيت ولم تعدم كما توهَّمه بعض المفسِّرين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ وهم لم يصنعوا إلا الصُّوَرَ، ولولا ذلك لوقعت الشبهةُ للسحرة في عصا موسى عليه السلام فلم يؤمنوا. انتهى ملخَّصاً فتأمَّل.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بدلُ اشتمالٍ من «ألقي»؛ لِمَا بَيْنَ الإلقاءِ المذكورِ وهذا القولِ من الملابَسة، أو حالٌ بإضمار «قد» أو بدونه، ويحتمل أن يكون استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فما قالوا؟ فقيل: «قالوا آمنا برب العالمين».

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عطفُ بيانٍ لـ «ربِّ العالمين» أو بدلٌ منه، جيء به لدَفْعِ توهُّم إرادةِ فرعونَ، حيث كان قومُه الجهلةُ يسمُّونه بذلك، وللإشعارِ بأنَّ الموجبَ لإيمانهم به تعالى ما أجراه سبحانه على أيديهما من المعجزة القاهرة. ومعنى كونه تعالى ربَّهما أنه جلَّ وعلا خالقهما ومالِكُ أمرِهما.

---

(١) في الأصل: حقيقة.

(٢) الفتوحات المكية ١/١٥٨، ٢٣٤.

وجوِّز أن يكون إضافةُ الربِّ إليهما باعتبار وَصْفِهما له سبحانه بما تقدَّم من قول موسى عليه السلام: «ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما» وقوله: «ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين» وقوله: «ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما»، فكأنهم قالوا: آمنَّا بربِّ العالمين الذي وَصَفَه موسى وهارون. ولا يَخْفَى ما فيه وإن سلِّم سماعُهم للوصف المذكور بعد أن حُشروا من المدائن.

﴿قَالَ﴾ فرعونُ للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: بغير أنْ آذَنَ[1] لكم بالإيمان له، كما في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩] إلّا أنَّ الإذن منه ممكنٌ أو متوقَّعٌ.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتُم على ما فعلتُم، فيكون كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ إلخ [الأعراف:١٢٣]، أو علَّمكم شيئاً دون شيءٍ فلذلك غلبكم كما قيل، ولا يَرِدُ عليه أنه لا يتوافَقُ الكلامان حينئذٍ، إذ يجوزُ أن يكون فرعون قال كلّاً منهما وإن لم يُذْكَرا معاً هنا. وأراد اللعين بذلك التلبيسَ على قومه كيلا يعتقدوا أنّهم آمنوا عن بصيرةٍ وظهورِ حقٍّ.

وقرأ الكسائيُّ وحمزةُ وأبو بكر وروح: «أآمنتم» بهمزتين[2].

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وَبالَ ما فعلتُم. واللامُ قيل: للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملةِ، والمبتدأ محذوف، أي: فلَأنتم سوف تعلمون. وليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلّا مع النون المؤكِّدة. وجمعُها مع «سوف» للدلالة على أنَّ العلم كائنٌ لا محالةَ، وإن تأخَّر لداعٍ.

وقيل: هي للقسم، وقاعدةُ التلازُم بينها وبين النون فيما عدا صورةَ الفَصْلِ بينها وبين الفعل بحرف التنفيس، وصورةَ الفَصْلِ بينهما بمعمولِ الفعل، كقوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٨].

وقال أبو عليٍّ: هي اللامُ التي في لأقومنَّ، ونابَتْ «سوف» عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قيل: فلَتعلمُنَّ.

---

(١) في الأصل: بغير إذن، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٤٣، والكلام منه.
(٢) سلفت هذه القراءة عند تفسير الآية (١٢٣) من سورة الأعراف.

وقولُه تعالى حكايةً عنه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩﴾ بيانٌ لمفعولِ «تعلمون» المحذوفِ الذي أشرنا إليه، وتفصيلٌ لِمَا أُجْمِلَ، ولذا فُصِلَ وعُطِفَ بالفاء في محلٍّ آخر[1]. وقد مرَّ معنى «من خلافٍ»[2].

﴿قَالُوا﴾ أي: السَّحرةُ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لاضَرَرَ علينا فيما ذَكَرْتَ مِن قَطْعِ الأيدي وما معه. والضيرُ مصدرُ ضارَ، وجاء مصدرُه أيضاً: ضَوْراً، وهو اسمُ «لا»، وخبرُها محذوفٌ، وحَذْفُه في مثل ذلك كثيرٌ.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ أي: الذي آمنَّا به ﴿مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾ تعليلٌ لنفي الضير، أي: لا ضير في ذلك، بل لنا فيه نفعٌ عظيمٌ لِمَا يَحْصُلُ لنا من الصبر عليه لوجهِ الله تعالى من الثواب العظيم.

أو لا ضير علينا فيما تفعلُ لأنه لا بدَّ من الموت بسببٍ من الأسباب، والانقلابِ إلى الله عزَّ وجلَّ:

ومَن لم يَمُتْ بالسيفِ مات بغيره    تعدَّدتِ الأسبابُ والموتُ واحد[3]

وحاصلُه نفيُ المبالاة بالقتل معلّلاً بأنه لا بدَّ من الموت، ونظيرُ ذلك قولُ عليٍّ كرم الله وجهه: لا أبالي أَوَقعْتُ على الموت أم وقع الموتُ عليَّ.

أو: لا ضيرَ علينا في ذلك؛ لأنَّ مصيرنا ومصيرَكَ إلى ربٍّ يحكمُ بيننا فينتقم لنا منك، وفي معنى ذلك قولُه:

إلى ديَّانِ يوم الدِّين نمضي    وعند الله تجتمعُ الخصومُ[4]

ولم يَرْتَضِه بعضُهم لأنَّ فيه تفكيكَ الضمائر لكونها للسحرة فيما قبلُ وبعدُ، ومُنِعَ بدخولهم في ضمير الجمع، فتأمَّل.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ أي: لِأَنْ كنَّا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ تعليلٌ ثانٍ لنفي الضَّيْرِ، ولم يعطف إيذاناً بأنه مما يستقلُّ بالعلِّية.

---

(١) في الآية (٧١) من سورة طه.

(٢) عند تفسير الآية (١٢٤) من سورة الأعراف.

(٣) سلف عند تفسير الآية (١٢٥) من سورة الأعراف.

(٤) سلف عند تفسير الآية (١٢٥) من سورة الأعراف.

وقيل: إنَّ عدم العطف لتعلُّق التعليل بالمعلَّل الأولِ مع تعليله، وجوِّز أن يكون تعليلاً للعلَّة. والأول أظهر، أي: لا ضيرَ علينا في ذلك إنَّا نطمعُ أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا لكوننا أولَ المؤمنين.

والطمع إمَّا على بابه كما استظهَره أبو حيان[١]؛ لعَدَمِ الوجوب على الله عزَّ وجلَّ، وإمَّا بمعنى التيقُّنِ كما قيل به في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

وقولُهم: «أول المؤمنين» يحتملُ أنهم أرادوا به: أول المؤمنين من أتباع فرعونَ، أو: أولَ المؤمنين من أهل المَشْهَدِ، أو: أولَ المؤمنين من أهل زمانهم. ولعل الإخبار بكونهم كذلك لعَدَمِ علمهم بمؤمنٍ سبقهم بالإيمان، فهو إخبارٌ مبنيٌّ على غالب الظنِّ، ولا محذورَ فيه، كذا قيل.

وقيل: أرادوا: أولَ مَن أَظْهَرَ الإيمانَ بالله تعالى وبرسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوةِ وظهورِ الآية، فلا يَرِدُ مؤمنُ آلِ فرعون وآسيةُ، وكذا لا يَرِدُ بنو إسرائيل - لأنهم كما في «البحر» كانوا مؤمنين قبلهم[٢] - إمَّا لعدم عِلْمِ السحرة بذلك، أو لأنَّ كلّاً من المذكورين لم يُظْهِرِ الإيمانَ بالله تعالى ورسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوة وظهورِ الآية، فتأمل.

وقرأ أبان بن تغلب وأبو معاذ: «إنْ كنَّا» بكَسْرِ همزة «إنْ»[٣]، وخرِّج على أنَّ «إنْ» شرطيةٌ والجوابُ محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله، أي: إن كنَّا أولَ المؤمنين فإنَّا نطمعُ. وجَعَل صاحب «اللوامح»[٤] الجوابَ «إنَّا نطمعُ» المتقدِّمَ، وقال: جاز حذف الفاء منه لتقدُّمه. وهو مبنيٌّ على مذهب الكوفيين وأبي زيد والمبرِّد، حيث يجوِّزون تقديمَ جوابِ الشرط. وعلى هذا فالظاهرُ أنهم لم يكونوا متحقِّقين بأنهم أولَ المؤمنين.

---

(١) في البحر ٧/ ١٦.
(٢) البحر ٧/ ١٧.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٦، والمحتسب ٢/ ١٢٧، والبحر ٧/ ١٦.
(٤) كما في البحر ٧/ ١٦، وعنه نقل المصنف.

وقيل: كانوا متحقِّقينَ ذلك، لكنهم أبرزوه في صورة الشكِّ لتنزيل الأمر المعتمد منزلةَ غيره تمليحاً وتضرُّعاً لله تعالى، وفي ذلك هضمُ النفس، والمبالغةُ في تحرِّي الصدق، والمشاكلةُ مع «نطمع» على ما هو الظاهرُ فيه.

وجوَّز أبو حيان أن تكون «إنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، ولا يُحتاج إلى اللام الفارقة لدلالة الكلام على أنهم مؤمنون، فلا احتمالَ للنفي. وقد ورد مثلُ ذلك في الفصيح؛ ففي الحديث: إنْ كان رسول الله ﷺ يحبُّ العَسَل[1]. وقال الشاعر:

ونحن أباةُ الضيم من آل مالكٍ وإنْ مالكٌ كانت كرامَ المعادنِ[2]

وعلى هذا الوجه يكونون جازمين بأنهم أولُ المؤمنين أتمَّ جَزْمٍ.

واختُلف في أنَّ فرعونَ هل فَعَل بهم ما أقسم عليه أوْ لا؟ والأكثرون على أنه لم يفعل؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. وبعضُ هؤلاء زعم أنهم لمَّا سجدوا رأوا الجناتِ والنيرانَ وملكوتَ السماواتِ والأرضِ، وقُبضت أرواحُهم وهم ساجدون. وظواهرُ الآياتِ تكذِّبُ أمرَ الموتِ في السجود، وأمَّا أمرُ رؤيةِ[3] ما ذُكر فلا جَزْمَ عندي بصِدْقِه، والله تعالى أعلم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ وذلك بعد سنينَ أقامَ بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الحقِّ، ويُظْهِرُ لهم الآيات، فلم يزيدوا إلّا عُتوًّا وعناداً حَسْبَما فصَّل في سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ الآيات [الأعراف: ١٣٠].

وقرئ: «أنِ اسْرِ» بكسر النون ووَصْلِ الألف من سَرَى[4]. وقرأ اليمانيُّ: «أنْ سِرْ»[5] أمراً من سار يسير.

---

(١) البحر ٧/ ١٦، والحديث أخرجه البخاري (٥٢٦٨) عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: كان رسول الله ﷺ يحب العسل والحلوى، وكان إذا انصرف.... الحديث، ولم نقف عليه برواية البحر.

(٢) البحر ٧/ ١٦، والبيت للطرمَّاح، وهو في ديوانه ص٥١٢، برواية: أنا ابنُ أباةِ....

(٣) في (م): وأما رؤية أمر.

(٤) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠ عن نافع وابن كثير وأبي جعفر.

(٥) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٧.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾ تعليلٌ للأمر بالإسراء، أي: يتَّبعكم فرعونُ وجنودُه مُصْبِحينَ، فأَسْرِ ليلاً بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول إلى البحر، بل يكونون على أَثَرِكم حين تَلِجُون البحرَ، فيدخلون مداخِلَكم، فأطبقُه عليهم فأُغْرِقُهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فأَسْرَى بهم وأُخْبِرَ فرعونُ بذلك فأرسل ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي: مدائنِ مصر ﴿حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾ جامعينَ للعساكر ليتبعوهم.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يريد بني إسرائيلَ، والكلامُ على إرادة القول، والظاهرُ أنه حالٌ، أي: قائلاً: إنَّ هؤلاء ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي: طائفةٌ من الناس. وقيل: هي السَّفِلَةُ منهم. وقيل: بقيةُ كلِّ شيءٍ خسيسٍ، ومنه: ثوبٌ شراذمُ وشراذمة(١)، أي: خَلِقٌ مقطَّعٌ، قال الراجز:

جاء الشتاءُ وقميصي أخلاقْ
شراذمٌ يضحك منه التَّوَّاقْ(٢)

وقرئ: «لِشرُّ ذمَّةٍ» بإضافة «شر» مقابلِ خير إلى «ذمة»، قال أبو حاتم: وهي قراءةُ مَن لا يؤخَذُ منه. ولم يَرْوِها أحدٌ عن رسول الله ﷺ(٣).

﴿قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ صفةُ «شرذمة» وكان الظاهر: قليلةٌ، إلا أنه جُمِعَ باعتبار أنَّ الشرذمة مشتملةٌ على أسباطٍ، كلُّ سبطٍ منهم قليل، وقد بالَغَ اللعينُ في قلَّتهم حيث ذَكَرهم أوَّلاً باسمٍ دالٍّ على القلَّة وهو «شرذمة»، ثم وَصَفَهم بالقلَّة، ثم جَمَعَ القليلَ للإشارة إلى قلَّةِ كلِّ حزبٍ منهم، وأتى بجمع السلامة وقد ذُكر أنه دالٌّ على القلة؛ واستقلَّهم بالنسبة إلى جنوده.

---

(١) في الأصل و(م): شرذام وشرذامة، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ١٤، والكلام منه، وهو الموافق لما في كتب اللغة. ينظر مادة (شرذم) في الصحاح ومفردات الراغب واللسان وغيرها.

(٢) العين ٦/ ٣٠٢، وتهذيب اللغة ٧/ ٣٠ و٩/ ٢٥٦، والصحاح (نوق)، واللسان (توق). ورواية الصحاح: النوَّاق بالنون، وهما روايتان كما ذكر صاحب اللسان. قال الجوهري: النَّوَّاق من الرجال: الذي يَروض الأمور ويصلحها. وقال الأزهري: التوَّاق: الذي تتوق نفسه إلى كل دناءة. وقيل: التوَّاق اسم ابنه. اهـ.

(٣) البحر ٧/ ١٨.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن السديِّ أنَّ موسى عليه السلام خرج في ستِّ مئةِ ألفٍ وعشرين ألفاً لا يُعدُّ فيهم ابنُ عشرين لصغره، ولا ابنُ ستِّين لكبره، وتَبِعَهم فرعونُ على مقدِّمته هامان في ألفِ ألفٍ وسبعِ مئةِ ألفِ حصان[1].

وقيل: أرسلَ فرعونُ في أثرهم ألفَ ألفٍ وخمسَ مئةِ ألفِ مَلِكٍ مسوَّرٍ، مع كلِّ مَلِكٍ ألفٌ، وخرج هو في جمعٍ عظيمٍ، وكانت مقدِّمتُه سبعَ مئة ألفِ رجلٍ، كلُّ رجلٍ على حصانٍ وعلى رأسه بيضة، وهم كانوا ـ على ما روي عن ابن عباس ـ ستَّ مئة ألفٍ وسبعين ألفاً.

وأنا أقول: إنهم كانوا أقلَّ من عساكر فرعون، ولا أجزِمُ بعددٍ في كِلَا الجمعين، والأخبارُ في ذلك لا تكاد تصحُّ، وفيها مبالَغاتٌ خارجةٌ عن العادة.

والمشهورُ عند اليهود أنَّ بني إسرائيل كانوا حين خرجوا من مصر ستَّ مئةِ ألفِ رجلٍ خلا الأطفالَ، وهو صريحُ ما في التوراة التي بأيديهم[2].

وجوِّز أن يُراد بالقلَّة الذلةُ لا قلَّةُ العدد، بل هي مستفادةٌ من «شرذمة»، يعني أنهم لقلَّتهم أذلَّاء لا يُبالَى بهم ولا يُتوقَّعُ غلبتُهم.

وقيل: الذلَّة مفهومةٌ من «شرذمة» بناءً على أنَّ المراد منها بقيةُ كلِّ شيءٍ خسيسٍ، أو السَّفِلَةُ من الناس، و«قليلون» إمَّا صفةٌ لها أو خبرٌ بعد خبرٍ لـ «إنَّ». والظاهرُ ما تقدَّم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ لفاعلون ما يغيظُنا، من مخالفةِ أمرنا، والخروجِ بغير إذْننا، مع ما عندهم من أموالنا المستعارَةِ، فقد روي أنَّ الله تعالى أمرهم أن يستعيروا الحلي من القِبْطِ، فاستعاروه وخرجوا به. وتقديمُ «لنا» للحَصْرِ والفاصلةِ، واللامُ للتقوية أو تنزيلِ المتعدِّي منزلةَ اللَّازم.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: إنَّا لجمعٌ[3] من عاداتنا الحذرُ والاحترازُ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨١.

(٢) العهد القديم، سفر الخروج ص١٧٢.

(٣) في الأصل: لجميع، والمثبت من (م) وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٤، والكلام منه. قال الشهاب قوله: لجمع، إشارة إلى أن جميع بمعنى الجمع وليست التي يؤكد بها.

واستعمالُ الحَزْمِ في الأمور. أشار أوّلاً إلى عدم ما يمنع اتِّباعَهم من شوكتهم، ثم إلى تحقُّقِ ما يدعو إليه من فَرْطِ عداوتهم ووجوبِ التيقُّظ في شأنهم؛ حثّاً عليه، أو اعتذاراً بذلك إلى أهل المدائن كيلا يُظَنَّ به ـ عليه اللعنةُ ـ ما يكسِرُ سلطانه.

وقرأ جمعٌ من السبعة وغيرهم: «حَذِرون» بغير ألفٍ[1]. وفُرِّق بين حاذِرٍ بالألف وحَذِرٍ بدونها بأنَّ الأول اسمُ فاعلٍ يفيد التجدُّدَ والحدوثَ، والثاني صفةٌ مشبَّهةٌ تفيدُ الثباتَ، وقريبٌ منه ما رُوي عن الفرَّاء والكسائيِّ، أنَّ الحَذِر من كان الحَذَرُ في خِلْقتِه، فهو متيقِّظٌ مُنْتَبِهٌ[2]. وقال أبو عبيدة: هما بمعنًى واحدٍ[3]. وذهب سيبويه إلى أن حذراً يكون للمبالغة، وأنه يعملُ كما يعملُ حاذِر، فينصب المفعولَ به، وأنشد:

حَــذِرٌ أمــوراً لا تــضـيــرُ وآمِــنٌ ... مــا لــيس مُـنْـجِـيَـه مـن الأقـدارِ[4]

وقد نُوزِعَ في ذلك بما هو مذكورٌ في كتب النحو.

وعن ابن عباسٍ وابن جُبيرٍ والضَّحَّاك وغيرِهم: أنَّ الحاذِرَ التامُّ السلاح. وفسَّروا ما في الآية بذلك، وكأنه بمعنى: صاحب حذرٍ، وهي آلةُ الحرب سمِّيت بذلك مجازاً، وحُمِلَ على ذلك قولُه تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

---

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وهشام، وقرأ بها من العشرة أبو جعفر ويعقوب. التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٣٣٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٠، ونقله المصنف عنه وعن الكسائي بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٨٦، والبحر ٧/ ١٨.

(٤) الكتاب ١/ ١١٣، والبحر ٧/ ١٨، والكلام منه، والمقتضب ٢/ ١١٦، والحلل للبَطَلْيَوْسي ص١٣١، والخزانة ٨/ ١٦٩. قال المبرد: هذا بيت موضوع محدَث. وقال السمين في الدر المصون ٦/ ٨٠: قيل: إنه مصنوع، وهو فاسدُ أُتقنت حكايته في شرح التسهيل. وقال البطليوسي: هذا البيت مصنوع ليس بعربي، ولأجل هذا رُدَّ على سيبويه.
قال البغدادي: إن طُعن على سيبويه بهذا البيت فقد استُشهد ببيت آخر لا مطعن فيه، وهو قول لبيد:

أو مِـسْـحَـلٌ شَـنِـجٌ عِـضَـادةَ سَـمْـحَـجٍ ... بِـسَـراتــه نَــدَبٌ لــهــا وكُــلــومُ

وكذا ذكر البطليوسي بيتاً آخر لزيد الخيل لا مطعن فيه.

وقرأ سميط بن عجلان وابنُ أبي عمار وابن السميفع: «حادِرون» بالألف والدالِ المهملة[١]، من قولهم: عينٌ حَدْرةٌ، أي: عظيمة، وفلانٌ حادِرٌ، أي: متورِّم.

قال ابن عطية: والمعنى: ممتلئون غيظاً وأنفةً[٢]. وقال ابن خالويه: الحادِر: السمينُ القويُّ الشديد[٣]. والمعنى: أقوياء أشدَّاء، ومنه قولُ الشاعر:

أحبُّ الصبيَّ السَّوْءَ من أجل أمِّه ... وأُبغضُه من بُغْضِها وهو حادِرُ[٤]

وقيل: المعنى: تامُّو السلاح، على هذه القراءة أيضاً، أَخْذاً من الحَدَارة بمعنى الجَسَامةِ والقوة، فإنَّ تامَّ السلاح يَتقوَّى به كما يَتقوَّى بأعضائه.

و«جميع» على جميع القراءات والمعاني بمعنى الجمع، وليست التي يؤكَّد بها كما أشرنا إليه، ولو كانت هي المؤكِّدةَ لنُصِبَتْ.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ أي: فرعونَ وجنودَه، أي: خلقنا فيهم داعيةَ الخروجِ بهذا السبب الذي تضمَّنته الآياتُ الثلاث، فحَمَلَتْهم عليه، أو: خَلَقْنا خُروجَهم.

﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧﴾ كانت لهم بحافتي النيل، كما روي عن ابن عمر[٥] وغيره.

﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي: أموالٍ كَنَزوها وخزنوها تحت الأرض. وخُصَّتْ بالذِّكر لأنَّ الأموال الظاهرةَ أمورٌ لازمةٌ لهم؛ لأنها من ضروريات معاشِهم، فإخراجُهم عنها معلومٌ بالضرورة.

(١) القراءات الشاذة ص١٠٦، والمحتسب ٢/ ١٢٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢، والبحر ٧/ ١٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢، والبحر ٧/ ١٨.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٦، والبحر ٧/ ١٨.
(٤) العين ٣/ ١٧٦، وتهذيب اللغة ٤/ ٤٠٨، والكشاف ٣/ ١١٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٤، والبحر ٧/ ١٨، واللسان (حدر). قال الشهاب يقول: إني أحب بعض الصبيان وإن كان قبيحاً لحبِّ أمِّه، وقد أبغض بعض الصبيان لبغض أمه وإن كان حسناً، فكنى عن حسنه بكونه حادراً.
(٥) كذا في الأصل و(م) والبحر ٧/ ١٨: ابن عمر، وأخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٨١ مطولاً من طريق ابن لهيعة، عن واهب بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وكذا ذكره عن عبد الله بن عمرو القرطبي ١٦/ ٢٦، وابن كثير عند تفسير الآية (٢٦) من سورة الدخان.

وقيل: لأنَّ أموالهم الظاهرةَ قد انطمستْ بالتدمير.

وتعقِّب بأنَّ الإخراج قبل الانطماس، إذ من جملة الأموال الظاهرة الجناتُ، والإخبارُ عنهم بأنهم أُخْرِجوا منها بعنوانِ كونِها جناتٍ، والأصلُ فيه الحقيقة.

وعلى تقديرِ تسليم أنه بَعْدُ يَرِدُ أنَّ المدمَّر ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يعرشون، وهو مفسَّرٌ بالقصور والعمارات والجنان، فيبقى ما سوى ذلك غيرَ محكومٍ عليه بالتدمير من الأموال الظاهرة، مع أنهم أُخرجوا منه أيضاً، فيُحتاج توجيه عدم التعرُّضِ له بغير ما ذكر.

وقيل: المراد بالكنوز أموالُهم الباطنةُ والظاهرةُ، وأُطلق عليها ذلك لأنها لم يُنْفَقْ منها في طاعة الله تعالى، ونُقل ذلك عن مجاهد، والأولُ أوفقُ باللغة.

وأكثرُ جَهَلةِ أهلِ مصر يزعمون أنَّ هذه الكنوزَ في المقَطَّم[(١)] من أرض مصر، وأنها موجودةٌ إلى الآن، وقد بذلوا على إخراجها أموالاً كثيرةً لشياطينِ المغاربة وغيرِهم فلم يظفروا إلا بالتراب، أو حجر الكذَّان[(٢)].

وقال ابن جبير: المراد بالعيون عيونُ الذهب. وهو خلافُ المتبادر. ومِثْلُه ما قاله الضحاك، من أنَّ المراد بالكنوز الأنهار.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾ هي المساكنُ الحِسانُ كما قال النقَّاشُ[(٣)]. وعن ابن لهيعة: أنها كانت بالفيوم من أرض مصر. وقيل: مجالس الأمراء والأشراف والحكَّام التي تحفُّها الأتْباعُ.

وقيل: الأسرَّة في الكلل. وحكى الماورديُّ أنها مرابطُ الخيل[(٤)]. وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك أنها المنابر للخطباء.

---

(١) هو الجبل المشرف على القرافة مقبرةِ فسطاطِ مصرَ والقاهرة، وهو جبلٌ يمتد من أسوان على شاطئ النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة، ويسمى في كل موضع باسم. معجم البلدان ٥/ ١٧٦.

(٢) الكذَّان: حجارة رِخوة، وربما كانت نخرة، وقيل: هي الحجارة التي ليست بصلبة. اللسان (كذذ). والكلام منقول من البحر ٧/ ١٨-١٩ باختصار.

(٣) البحر ٧/ ١٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٧٢ عن سعيد بن جبير.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٧٢، ونقله عنه المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٩.

وقرأ قتادةُ والأعرج: «ومُقام» بضمِّ الميم من أقام[١].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إمَّا في موضع نصبٍ على أنْ يكون صفةً لمصدرٍ مقدَّرٍ، أي: إخراجاً مثلَ ذلك الإخراجِ أخرجنا، والإشارةُ إلى مصدرِ الفعل. أو في موضع جرٍّ على أن يكون صفة لـ «مقام»، أي: مقامٍ كريمٍ مثل ذلك المقَام الذي كان لهم.

وعلى الوجهين لا يَرِدُ أنه يلزمُ تشبيهُ الشيء بنفسه كما زعم أبو حيان[٢]؛ لِمَا مرَّ تحقيقه.

أو في موضع رفعٍ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمرُ كذلك، والمرادُ تقريرُ الأمرِ وتحقيقُه.

واختار هذا الطيبيُّ فقال: هو أقوى الوجوهِ؛ ليكون قولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ ـ أي: ملَّكناها لهم تمليكَ الإرثِ ـ عَطْفاً عليه، والجملتان معترضتان بين المعطوف عليه وهو «فأخرجناهم»، والمعطوفِ وهو قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾؛ لأنَّ الإتباع عقبَ الإخراج لا الإيراث؛ قال الواحديُّ: إنَّ الله تعالى ردَّ بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومَه، فأعطاهم جميعَ ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن[٣]. وعلى غير هذا الوجه يكون «أورثنا» عطفاً على «أخرجنا»، ولا بدَّ من تقدير نحوِ: فأردنا إخراجهم وإيراثَ بني إسرائيل ديارَهم، فخرجوا وأتبعوهم. انتهى.

ويُفْهم من كلام بعضهم أنَّ جملة «أورثناها» إلخ معترضةٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه في جميع الأوجُهِ. وما ذُكر عن الواحديِّ من أنَّ الله تعالى ردَّ بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعونَ وقومه، ظاهرُه وقوعُ ذلك بعد الغرق من غير تطاوُلِ مدَّة.

وأظهرُ منه في هذا ما رُوي عن الحسن قال: كما عبروا البحر رجعوا[٤] وورثوا ديارهم وأموالهم.

---

(١) البحر ٧/ ١٩.

(٢) في البحر ٧/ ١٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥٤.

(٤) في (م): ورجعوا، والمثبت من الأصل والبحر ٧/ ١٩، وعنه نقل المصنف.

ورأيتُ في بعضِ الكتب أنهم رجعوا مع موسى عليه السلام، وبَقُوا معه في مصر عَشْرَ سنين.

وقيل: إنه رجع بعضُهم بعد إغراق فرعونَ، وهم الذين أُورِثوا أموال القِبْطِ، وذهب الباقون مع موسى عليه السلام إلى أرض الشام.

وقيل: إنَّهم بعد أن جاوزوا البحرَ ذهبوا إلى الشام، ولم يدخلوا مصرَ في حياة موسى عليه السلام، وملَكوها زمنَ سليمان عليه السلام.

والمذكورُ في التوراة[١] التي بأيدي اليهود اليومَ صريحٌ في أنهم بعد أنْ جاوَزوا البحر توجَّهوا إلى أرض الشام، وقد فصلت قصة ذهابهم إليها، وأكثرُ التواريخ على هذا. وظواهرُ كثيرٍ من الآيات تقتضي ما ذكره الواحديُّ، والله تعالى أعلم.

ومعنى «أتبعوهم»: لحقوهم؛ يقال: تَبِعْتُ القومَ فأَتْبَعْتُهم[٢]، أي: تلوتُهم فلحقتُهم، كأن المعنى: فجعلتُهم تابعين لي بعدما كنتُ تابعاً لهم، مبالَغةً في اللحوق. وضميرُ الفاعل لقوم فرعون، والمفعولِ لبني إسرائيل.

وقرأ الحسن: «فاتَّبعوهم» بوَصْلِ الهمزة وشدِّ التاء[٣].

﴿مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ أي: داخلين في وقت شروق الشمس، أي: طلوعِها، من أَشْرَقَ زيدٌ: دَخَلَ في وقت الشروق، كأصبح: دَخَلَ في وقت الصباح، وأمسى: دَخَلَ في وقت المساء.

وقال أبو عبيدةَ[٤]: هو من أَشْرَقَ: توجَّه نحو الشرق، كأَنْجَدَ توجَّه نحو نجد، وأَعْرقَ توجَّه نحو العراق. أي: فأتبعوهم متوجِّهين نحو الشرق. والجمهورُ على الأول.

وعن السديِّ: أنَّ الله تعالى ألقى على القِبْطِ الموتَ ليلةَ خرج موسى عليه السلام بقومه، فمات كلُّ بِكْر رجلٍ منهم، فشُغلوا عن طلبهم بدفنهم حتى طلعت

(١) ينظر العهد القديم، سفر الخروج ص١٧٩ وما بعدها.
(٢) في(م): فأتبعهم.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ١٩.
(٤) كما في البحر ٧/ ١٩.

الشمس. ومثلُ ذلك في التوراة بزيادةِ موتِ أبكار بهائمهم أيضاً[١].

والوصفُ حالٌ من الفاعل. وقيل: هو حالٌ من المفعول؛ ومعنى «مشرقين»: في ضياء، بناءً على ما روي أنَّ بني إسرائيل كانوا في ضياء، وكان فرعونُ وقومُه في ضبابٍ وظلمةٍ تحيَّروا فيها حتى جاوز بنو إسرائيل البحرَ، ولا يكاد يصحُّ ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقارَبا بحيث رأى كلٌّ واحدٍ منهما الآخر. نعم ذُكر في التوراة ما حاصلُه أنَّ بني إسرائيل لمَّا خرجوا كان أمامهم نهاراً عمودٌ من غمام، وليلاً عمودٌ من نارٍ؛ ليدلَّهم على الطريق، فلمَّا طلبهم فرعونُ ورأوا جنودَه خافوا جدًّا، ولاموا موسى عليه السلام في الخروج، وقالوا له: أَمِنْ عَدَمِ القبور بمصر أخرجتنا لنموت في البرِّ؟ أمَا قلنا لك: دعنا نخدُم المصريين فهو خيرٌ من موتنا في البرِّ؟ فقال لهم موسى: لا تخافوا، وانظروا إغاثَة الله تعالى لكم. ثم أَوْحَى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر، فتحوَّل عمودُ الغمام إلى ورائهم، وصار بينهم وبين فرعون وجنودِه، ودخل الليلُ ولم يتقدَّم أحدٌ من جنود فرعون طولَ الليل، وشقَّ البحر ثم دخل بنو إسرائيل[٢]. وليس في هذا ما يصحِّح أمرَ الحالية المذكورة، فتأمَّل.

وقرأ الأعمش وابنُ وثَّاب: «ترا» بغير همزٍ على مذهب التخفيف بين بين، ولا يصحُّ تحقيقُها بالقلب؛ للزومِ ثلاثِ أَلِفاتٍ متَّسقةٍ، وذلك مما لا يكون أبداً؛ قاله أبو الفضل الرازيُّ[٣].

وقال ابن عطية: وقرأ حمزةُ: «تريئى» بكسر الراء وبمدٍّ ثم بهمزٍ، وروي مثلُه عن عاصم، وروي عنه أيضاً: «تراءى» بالفتح والمد[٤].

وقال أبو جعفر أحمد بن عليٍّ الأنصاريُّ في كتابه «الإقناع»: «تراءى الجمعان» في «الشعراء» إذا وقف عليها حمزةُ والكسائيُّ أمالا الألفَ المنقلبةَ عن لام الفعل،

---

(١) العهد القديم، سفر الخروج ص١٧٢.

(٢) العهد القديم، سفر الخروج ص١٧٥-١٧٧.

(٣) البحر ٧/ ١٩، وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٧ دون نسبة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣. والمشهور عن عاصم تخليص فتحة الراء والهمزة، وينظر ما سيأتي.

وحمزةُ يُميلُ ألفَ تَفاعَلَ وصلاً ووقفاً كإمالة الألف المنقلبة[(١)].

وقرئ: «فلما ترات الفئتان»[(٢)].

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لملحَقون، جاؤوا بالجملة الاسمية مؤكَّدةً بحرفي التأكيد للدلالة على تحقُّق الإدراك واللحاقِ وتَنْجيزِهما، وأرادوا بذلك التحزُّنَ وإظهارَ الشكوى طلباً للتدبير.

وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير: «لَمُدَّرِكون» بفَتْحِ الدَّالِ مشدَّدة وكَسْرِ الراء[(٣)]، من الادِّراك بمعنى الفناء والاضمحلال، يقال: ادَّرَكَ الشيءُ: إذا فَنيَ تتابُعاً، وأصلُه التتابعُ وهو ذهابُ أحدٍ على إثرِ آخَرَ، ثم صار في عُرْفِ اللغة بمعنى الهلاك، وأن يفنَى شيئاً فشيئاً حتى يذهبَ جميعُه، وقد جاء التتابُعُ بهذا المعنى في قول الحماسيِّ:

أَبَعْدَ بني أمِّي الذين تتابعوا أُرَجِّي حياةً أم من الموتِ أَجْزَعُ[(٤)]

والمعنى: إنَّا لهالِكونَ على أيديهم شيئاً فشيئاً.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام رَدْعاً لهم عن ذلك، وإرشاداً إلى أنَّ تدبير الله عزَّ وجلَّ يغني عن تدبيره: ﴿كَلَّآ﴾ لن يُدْرِكوكم ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بالحفظ والنصرة ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ قريباً إلى ما فيه نجاتُكم منهم ونصرُكم عليهم.

---

(١) نقله المصنف عن الإقناع بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٩، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٦٥-١٦٦، وذكر الداني أن حمزة إذا وقف أمال الهمزة مع جَعْلِها بين بين على أصله.

(٢) الآية (٤٨) من سورة الأنفال، وهذه القراءة في القراءات الشاذة ص١٠٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحتسب ٢/ ١٢٩، والكشاف ٣/ ١١٥، والبحر ٧/ ٢٠. وذكر أبو حيان أنها من ادَّرك اللازم؛ قال: ولذلك كسرت الراء، نصَّ على كسرها أبو الفضل الرازي في «اللوامح»، والزمخشري في كشافه، وغيرهما، وقال أبو الفضل الرازي: وقد يكون ادَّرك على افتَعَلَ بمعنى أَفْعلَ متعدياً، فلو كانت القراءة من ذلك لوجب فتح الراء، ولم يبلغني ذلك عنهما. يعني عن الأعرج وعبيد بن عمير. اهـ.

(٤) البيت للبراء بن رِبْعيٍّ الفَقْعَسيِّ كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨٤٩، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص١١٩، وهو دون نسبة في الكشاف ٣/ ١١٥، والبحر ٧/ ٢٠.

ولم يُشْرِكْهم عليه السلام في المعيَّةِ والهدايةِ إخراجاً للكلام على حَسَبِ ما أشاروا إليه في قولهم: «إنَّا لمدركون» من طلب التدبير منه عليه السلام.

وقيل: لمَّا كان عليه السلامُ هو الأصلَ وغيرُه تبعٌ له محفوظون منصورون بواسطته وشرفه وكرامته، قال: «معي» دون: معنا، وكذا قال: «سيهدين» دون: سيهدينا.

وقيل: قال ذلك جزاءً على غَفْلَتِهم عن قوله تعالى له عليه السلام: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥] حتى خافوا فقالوا ما قالوا؛ فإنَّ الظاهر أنهم سمعوا ذلك من موسى عليه السلام في مدَّةِ بقائهم معه في مصر، أو غَفْلَتِهم عن عناية الله تعالى بهم حين كانوا مع القِبْطِ في مصر، حيث لم يُصِبْهم ما أصابهم من الدم ونحوه من الآيات المقتضيةِ بواسطة حُسْنِ الظنِّ إنجاءَهم منهم حين أمروا بالخروج فلحقوهم، وكان تأديبه لهم على ذلك بمجرَّد عَدَمِ إشراكهم فيما ذكر، لا أنه نفاه عنهم كما يُتوهَّم من تقديم الخبر، فإنَّ تقديمه لأجل الاهتمام بأمر المعية التي هي مدارُ النجاة المطلوبة. وقيل: للحصر، لكنْ بالنسبة إلى فرعونَ وجمعِه.

وقيل على القول الثاني في توجيهِ عدم إشراكهم: إنه للحصر بالنسبة إليهم أيضاً، على معنى: إنَّ معي أوَّلاً وبالذات ربِّي لا معكم كذلك.

وقيل: قدَّم المعية هنا وأخِّرتْ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] لأنَّ المخاطب هنا بنو إسرائيلَ، وهم أغبياءُ يعرفون الله عزَّ وجلَّ بعد النظر والسماع من موسى عليه السلام، والمخاطَبُ هناك الصدِّيقُ رضي الله عنه، وهو ممن يرى الله تعالى قبل كلِّ شيءٍ، ولاختلاف المقام نَظَمَ نبيُّنا ﷺ صاحبه معه في المعية ولم يقدِّم له ردعاً وزجراً، وخاطبه على نحو مخاطبة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام عند تسليته بما صورتُه النهيُ عن الحزن، وأتى بالاسم الجامع وهو لفظ: الله، دون اسمٍ مشعِرٍ بصفةٍ واحدةٍ مثلاً، ولم يكن كلامُ موسى عليه السلام ومخاطبته لقومه على هذا الطرز، وسبحانَ مَن فضَّل بعضَ العالَمين على بَعْضٍ.

وزعم بعضُهم أنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: إنَّ معي وَعْدَ ربِّي، ولذلك قال: «معي» دون: معنا، وفيه ما فيه.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ هو القُلْزُمُ(١) على الصحيح. وقيل: بحرٌ من وراء مصر يقال له: إساف. وقيل: النيل.

والظاهرُ أنَّ هذا الإيحاءَ كان بعد القول المذكورِ، ولم يكن مأموراً بالضرب يومَ الأمر بالإسراء، فقد أخرج ابنُ عبد الحكم عن مجاهدٍ: أنه لما انتهى موسى عليه السلام وبنو إسرائيل إلى البحر قال مؤمنُ آل فرعون: يا نبيَّ الله أين أُمِرْتَ، فإنَّ البحر أمامك وقد غَشِيَنا آل فرعون؟ فقال: أمرتُ بالبحر. فاقتحم مؤمنُ آلِ فرعون فرسَه فردَّه التيَّارُ، فجعل موسى عليه السلام لا يدري كيف يصنع، وكان الله تعالى قد أَوْحَى إلى البحر: أنْ أَطِعْ موسى، وآيَةُ ذلك إذا ضربك بعصاه، فأَوْحَى الله تعالى إلى موسى أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر(٢).

وأخرج أيضاً من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس بأنَّ موسى لمَّا انتهى إلى البحر أقبل يوشع بنُ نون على فرسه فمشى على الماء واقتحم غيرُه خيولَهم فَرَسَوْا في الماء، وقال أصحاب موسى: «إنَّا لمدرَكون»، فدعا موسى ربَّه فغشيتْهم ضبابةٌ حالت بينهم وبينه، وقيل له: اضْرِبْ بعصاك البحر(٣).

وأخرج ابنُ جَريرٍ وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى: أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر، وأوحى إلى البحر: أنِ اسْمَعْ لموسى وأَطِعْ إذا ضربك. فبات البحرُ له أَفْكَل - أي: رعدةٌ - لا يدري من أيِّ جوانبه يَضْرِبُه(٤).

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام: أنَّ موسى عليه السلام لمَّا انتهى إلى البحر قال: يا مَن كان قبل كلِّ شيءٍ، والمكوِّنُ لكلِّ شيء، والكائنُ بعد كلِّ شيء، اجْعَلْ لنا مخرجاً. فأَوْحَى الله تعالى إليه: أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر(٥).

---

(١) يعني البحر الأحمر.
(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص٨٥-٨٦.
(٣) فتوح مصر ص٨٣، وفيه: فرسبوا، بدل: فرسوا.
(٤) تفسير الطبري ١/ ٦٥٨-٦٥٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٧١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٧١.

وروي أنه عليه السلام قال: اللهمَّ لك الحمدُ، وإليك المشتكَى، وإليك المستغاثُ، وأنت المستعانُ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم. وفي «الدر المنثور» من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً ما يدلُّ على أنه عليه السلام قال ذلك حين الانفلاق[١].

﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي: فَضَرَبه فانفلق، فالفاءُ فصيحةٌ. وزعم ابن عصفور في مثل هذا التركيب أنَّ المحذوف هو «ضَرَبَ» وفاءُ «انفلق»، والفاءُ الموجودة هي فاءُ «ضرب»[٢]، وهذا أشبهُ شيءٍ بِلَغَا[٣] العصافير، وكأنه كان سكرانَ حين قاله.

وفي هذا الحذف إشارةٌ إلى سرعة امتثاله عليه السلام، وإنما أُمر عليه السلام بالضَّرب فضرب وترتُّب الانفلاقُ عليه؛ إعظاماً لموسى عليه السلام بجَعْلِ هذه الآية العظيمةِ مترتِّبةً على فِعْلِه، ولو شاء عزَّ وجلَّ لفَلَقه بدون ضَرْبِه بالعصا. ويُروَى أنه لم ينفلق حتى كناه بأبي خالد، فقال: انْفَلِق أبا خالد. وكان بأمر الله تعالى إياه بذلك.

وعن قيس بن عباد أنه عليه السلام حين جاءه قال له: انْفَلِقْ أبا خالد. فقال: لن أنْفَلِقَ لك يا موسى، أنا أقدمُ منك وأشدُّ خَلْقاً. فنودي عند ذلك: اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق[٤].

وفي روايةٍ عن ابن مسعود أنه عليه السلام حين انتهى إليه قال: انفَرِقْ. فقال له: لقد استكبرتَ يا موسى، وهل انفرقتُ لأحدٍ من ولد آدم؟ فأوحَى الله تعالى إليه: أن اضْرِبْ بعصاك البحر. فضربه فانفلق[٥].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٨٦، وفيه: وإليك المتكل، بدل: وإليك المشتكى، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٣٩٤) دون قوله: وإليك المستغاث، والصيداوي في معجم الشيوخ ص٣٣٨-٣٣٩، وفيه: وبك المستغاث، بدل: وإليك المستغاث.

(٢) المقرب لابن عصفور ١/ ٢٣٦، والبحر ٧/ ٢٠.

(٣) اللغا واللغو: السَّقط، وما لا يعتد به من كلام وغيره. القاموس (لغو).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٢٧، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٧٢.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٢٨-٥٢٩، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٧٤. وجاء عند ابن أبي شيبة: استكثرت، بدل: استكبرت.

وفي حديثٍ أخرجه الخطيبُ في «المتفق والمفترق» عن أبي الدرداء مرفوعاً: أنه عليه السلام ضربه فتأطَّطَ كما يتأطَّطُ العرشُ، ثم ضربه الثانيةَ فمثل ذلك، ثم ضربه الثالثة فانْصَدَعَ[1]. وهذا صريحٌ في أن الضرب كان ثلاثاً.

وقيل: ضربه مرةً واحدة فانفلق. وقيل: ضربه اثنتي عَشْرةَ مرةً فانفلق في كلِّ مرةٍ عن مسلكٍ لسِبْط.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أنه قال: كان البحر ساكناً لا يتحرَّكُ، فلمَّا كان ليلةَ ضَرَبه موسى بالعصا صار يمدُّ ويجزرُ[2]. ولا أظنُّ لهذا صحةً، والظاهرُ أنَّ المدَّ والجَزْرَ كانا قبل أن يخلق الله تعالى موسى عليه السلام، ولا ينبغي لعاقلٍ اعتقادُ غيره، ومثلُ هذا عندي كثيرٌ من الأخبار السابقة. والأسلمُ الاقتصارُ على ما قَصَّ الله تعالى من أنه أوحى سبحانه إلى موسى أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر، فضربه، فانفلق.

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ أي: كالجبل المُنيفِ الثابت في مقرِّه. وظاهرُ الآية أنَّ الطَّوْدَ مطلقُ الجبل، وقال في «الصحاح»: الطودُ: الجبلُ العظيم[3]. والمراد بالفِرْقِ قطعةٌ من الماء ارتفعتْ فصار ما تحتها كالسرداب، على ما ذكره بعضُ الأجِلَّة، وحينئذٍ لا إشكال في قولِ مَن قال: إنَّ الفروق اثنا عَشَر[4] والمسالكَ كذلك، بعِدَّةِ أسباطِ بني إسرائيل، وقد سَلَكَ كلُّ سبطٍ منهم في مسلكٍ منها.

والمشهورُ أنَّ الفِرْقَ قطعةٌ انفصلتْ من الماء عمَّا يقابلُها، وحينئذٍ لا يتأتَّى ذلك القولُ، بل لا بدَّ عليه ـ على ما قيل ـ من كون الفروق ثلاثةَ عَشَر حتى يحصل في خلالها اثنا عشر مسلكاً بعدد الأسباط.

---

(١) المتفق والمفترق ٢/ ١٢٦٤-١٢٦٥، وذكره عنه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٨٦، وفيه: الفرش، بدل: العرش. وسيأتي الحديث بتمامه عند تفسير الآية (٦٧) من هذه السورة.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٧١.

(٣) الصحاح (طود).

(٤) في (م): عشرة.

وقيل: إذا كانت الفروقُ اثني عشر فلا بدَّ أن تكون المسالكُ ثلاثة عَشَرَ؛ لأنَّ الفِرْقَ الأولَ والثانيَ عشر لا بدَّ أن يكونا منفصلين عما يحاذيهما من البحر، فيكون بين كلٍّ منهما وبين ما يحاذيه من البحر مسلكٌ وإن لم يكن كسائر المسالك بين فرقين، إذ لو اتَّصلا لم يميزا عنه ولم يتحقَّق حينئذٍ اثنا عشر فِرْقاً، بل أقلّ.

ولا بُعْدَ في أنْ يُختارَ كونُ الفروقِ اثني عشر والمسالكِ ثلاثةَ عَشَرَ بجعل الفِرْقِ الأول والثاني عشر منفصلين عما يحاذيهما من البحر بين كلٍّ منهما وبينه مسلك.

ويقال: إنَّ كلَّ سِبْطٍ من الأسباط الاثني عَشَرَ سَلَكَ في مَسْلكٍ وسَلَكَ في الثالثِ عَشَرَ مَن آمنَ بموسى عليه السلام من القِبْطِ. انتهى.

وأُورد عليه أنه لم يُذكر في الآثار أنَّ المسالك ثلاثةَ عَشَرَ، وإنَّما المذكورُ فيها أنَّها اثنا عشر، ومَن ادَّعى ذلك فعليه البيان.

والأبعدُ عن القيل والقال ما تقدَّم عن بعض الأجلَّةِ، وأثرُ قدرة الله تعالى عليه أعظم، وخَلْقُ الداعيةِ إلى سلوك ذلك في قلوب الداخلين لاسيما قوم فرعونَ أغربُ، وكذا الاحتياجُ إلى الكُوَى أَظْهرُ. فقد روي أنَّ بني إسرائيل قالوا: نخاف أن يغرق بعضُنا ولا نشعر، فجعل الله تعالى بينهم كُوًى حتى يرى بعضُهم بعضاً.

نعم قيل عليه: إنَّ في بعض الآثار ما يأباه، فقد أخرج أبو العباس محمد بن إسحاق السَّراج في «تاريخه» وابنُ عبد البرِّ في «التمهيد» من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ صاحب الروم[١] كتب إلى معاوية يسأله عن أشياء، منها: مكانٌ طلعتْ فيه الشمس لم تَطْلُعْ قبلُ ولا بعدُ فيه، فلم يعلم معاويةُ جوابَ ذلك، فكتب يسأل ابنَ عباس، فأجاب عن كلٍّ إلى أن قال: وأمَّا المكان الذي طلعت فيه الشمسُ لم تطلع قبلُ ولا بعدُ فيه فالمكانُ الذي انفلق من البحر لبني إسرائيل[٢]. فإنَّ كونَ الفِرْقِ مقبَّباً كالسرداب مانعٌ من طلوع الشمس وشروقها على الأرض من غير واسطة كما هو الظاهر من السؤال.

---

(١) في (م): الردم، وهو تصحيف.

(٢) التمهيد ٦/ ٤٩، وعزاه للسراج السيوطي في الدر ٥/ ٨٦. وأخرج القصة أيضاً عبد الرزاق في المصنف (٩٠٨٠) عن مجاهد، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٢٠ عن سعيد بن جبير.

وأجيب بأنه بعد تسليم صحة الخبر لا إباءَ لجواز شروق الشمس على أرض الفِرْقِ المقبَّب من غير واسطةٍ من جهة المدخل والمخرج، أو شروقها على أرض البحر قبل التقبيب.

ولم يتعرَّض المفسِّرون هنا فيما وقفتُ عليه لكيفية الانفلاق[1]، وقد رأيتُ فيما ينسب إلى «كليات» أبي البقاء: أنه قد ورد أنَّ بني إسرائيل لمَّا دخلوا البحر خرجوا من الجانب الذي دخلوا منه، وحينئذٍ لا يتأتَّى ذلك على كون الانفلاق خطِّياً، وإنما يتأتَّى على كونه قوسيّاً.

ثم إنه ذُكر في عدَّةِ الفروق والمسالك كلاماً ظاهرُه الاختلالُ، وقد تصدَّى بعضُ الفضلاء لشرحه وتوجيهه بما لا يخلو عن تعسُّفٍ، وحاصلُ ما ذكره ذلك البعضُ مع زيادةٍ ما: أنه يحتمل إذا كان انفلاقُ البحر إلى اثني عَشَر فِرْقاً أن يكون الفِرْقُ الأولُ والثاني عشر متَّصلين بالبرِّ الشطيِّ بأن يكون الماء الواقعُ حذاءَ كلٍّ منهما من جهة البرِّ مرتفعاً ومنضمَّا إلى كلٍّ، ومعدود[2] من أجزائه، بحيث يصير الماء المرتفع المنضمُّ والفِرْقُ الأصليُّ المنضمُّ إليه فِرْقاً واحداً متَّصلاً طرفُه بالبرِّ من غير فَصْلٍ بينه وبينه بشيء.

وأُورد عليه أنه يلزم عليه أن تكون المسالكُ أحد عشر، فيحتاجُ إلى سلوك سبطين معاً أو متعاقباً في مسلكٍ واحدٍ أوسعَ من سائر المسالك أو مساوٍ له، ولا خفاءَ في أنه خلافُ الظاهر والمأثور.

وأيضاً يلزمُ أن يكون كلٌّ من الفِرْقينِ الأولِ والثاني عَشَرَ أعظمَ غلظاً من كلٍّ من البواقي؛ لِمَا سمعتَ من الانضمام، والظاهرُ تساويها فيه.

وأيضاً يلزمُ خروجُ الماء الملاصق للبرِّ عمَّا الأصل فيه من غير داعٍ إليه.

ويحتمل أن يكون الماء الواقعُ حذاءَ كلٍّ من الأول والثاني عَشَرَ من جهة البرِّ مرتفعاً بمعنى ذاهباً، ويكون الفرقان المذكوران متَّصلينِ بالبرِّ باعتبارِ أنهما متَّصلان بالمسلكين الظاهرين من تحت الماء الذاهب المتَّصلينِ بالبرّ.

---

(١) في (م): الانطلاق، وهو تصحيف.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: ومعدوداً.

ويَرِدُ عليه بعضُ ما وَرَدَ على سابقه، وبقاءُ سبطٍ من بني إسرائيل أو سبطين بلا حاجبٍ لهم عن فرعون وجنوده من الماء.

ويحتمل أن يكونا منفصلين عن البرِّ بأن يبقى الماء المتصلُ به على حاله بحراً من غير ارتفاع، وحينئذٍ يحتمل أن تكون المسالك ثلاثةَ عَشَرَ باعتبارِ انكشافِ الأرض بين الفِرْقِ الأول والبحرِ الباقي على حاله المتَّصلِ بالبرِّ، فيكون هذا المسلكُ خارجَ الطود الأول، وانكشافِها بين الفرق الثاني عشر والبحرِ الباقي على حاله المتصل بالبرِّ من الجانب الآخر، فيكون هذا المسلكُ خارجَ الفِرْقِ الثاني عشر.

وعلى هذا الاحتمال يلزمُ تعطُّلُ أحد المسالك، أو التزامُ سلوكِ مَن آمَنَ من القبط فقط فيه.

ويحتمل أن تكون المسالكُ اثني عشر كالفروق، بأنْ يكون الانكشافُ بين الفِرْقِ الأولِ والبحرِ الباقي على حاله المتصلِ بالبرِّ من جهة فرعون وجنوده فقط، أو يكون الانكشافُ بين الفرق الثاني عشر والبحر الباقي على حاله من الجانب الآخر فقط.

وهذا بعيدٌ؛ لعظم هذا القوس المنكشف جدّاً، وطولِ زمان قَطْعِه. فالظاهرُ وقوعُ احتمالِ كون الانكشافِ بين الفِرْقِ الأوَّلِ والبحر الباقي على حاله من جهة فرعون.

وبالجملة احتمالُ انفصالِ الفرقين الأول والأخير، وكون الانكشافِ بين الأولِ والبحرِ مما يلي فرعون دون الأخير والبحرِ مما يلي الجانب الآخر، واتحاد المسالك والفروق في كون كلٍّ اثني عشر = هو الأقربُ للوقوع. اهـ.

ولا يخفى أنه يلزم عليه أن لا يكون جميعُ المسالك في خلال الفروق، فإنْ لم يتعيَّن القولُ بكون جميعها فيه ـ إذ ليس في الآثار أكثرُ من كون المسالك اثني عشر مسلكاً ـ فلا بأس به، وإن استحسنتَ ما تقدَّم عن بعض الأجلَّة في المراد بالفِرْقِ فاعتَبِرْه على تقدير كون الانفلاق قوسيّاً أيضاً.

ثم إنَّ ما ذُكر من كون الخروج من جهة الدخول، لم أره في غير ما يُنسَبُ إلى

«كليات» أبي البقاء، وهو أوفقُ بالقول برجوع موسى عليه السلام وقومِه إلى مصر بعد الخروج من البحر وإغراقِ فرعونَ وجنودِه فيه، وتوقُّفِ ذلك على كون الانفلاق قوسيّاً؛ لأنه لو كان خطِّيّاً يلزم أن يكون الرجوعُ في طريق الدخول، وهو ظاهرُ البطلان؛ لأنَّ الأعداء في أثرهم.

واحتمالُ أن تكون المسالكُ الخطيةُ ثلاثةَ عشر، وأنَّ بني إسرائيل سلكوا اثني عشر منها وأتبعهم فيها فرعونُ وجنودُه، وخرجوا قبل أن يصلوا إليهم، ودخلوا جميعاً في المسلك الثالثِ عَشَرَ من الجانب المخالف لجانب دخولهم متوجِّهين فيه إلى جانب دخولهم، فلم يخرجوا حتى صار جميع أعدائهم في تلك المسالك الاثني عشر التي أتبعوهم فيها، فخرجوا وغَشِيَ أعداءهم من اليمِّ ما غشيهم = لا يخفى ما فيه.

والقولُ بالعود إلى مصرَ مع القول بأنَّ الانفلاق كان خطيّاً يتوقَّفُ على هذا، أو على الانفلاق مرةً أخرى، أو على العبور بالسفن، أو سلوكِ طريقٍ إلى مصر غيرِ الطريق الذي سلكوه خارجينَ منها إلى البحر. والظاهرُ أنه لم يكن شيءٌ من ذلك.

ولا بأس - على ما قيل - بالقول بكون الانفلاق قوسيّاً سواءٌ قلنا بالرجوع إلى مصر أم لا.

وما يقال عليه من أنه يلزمُ حينئذٍ أن تكون مداخلُ تلك المسالك ومخارجُها في جانب فرعون وجنوده، وذلك ممَّا يوجبُ خوفَ بني إسرائيل من الدخول؛ لاحتمالِ أن يدخل عليهم أعداؤهم من الطرف الآخر الذي هو محلُّ الخروج، فيلاقوهم في الطريق = على طرف الثمام[1] كما لا يَخْفَى على ذوي الأفهام.

وجوِّز على القول بأنَّ الانفلاق كان قوسيّاً أن يكون دخول موسى عليه السلامُ وقومِه من أحد طرفي القوس، ودخولُ فرعون وجنودِه من الطرف الآخر ليلاقوا موسى عليه السلام وقومَه، حتى إذا كمل الجمعان دخولاً رجع موسى عليه السلام

---

(١) الثمام: نبت، ويقال لما لا يعسُرُ تناوله: على طرف الثمام؛ لأن الثمام لا يطول فيشقّ على المتناول. المستقصى ٢/ ٣٨٧، والقاموس (ثمم).

وقومُه القهقرى، حتى إذا خرجوا جميعاً أغرق الله تعالى فرعونَ وجنودَه، أو حتى إذا كمل جمعُ موسى عليه السلام دخولاً وبانَ لهم أولُ الداخلين لملاقاتهم رجعوا القهقرى، حتى إذا خرجوا جميعاً وقد كمل جمع فرعون دخولاً أهلك الله تعالى عدوَّهم، فغشِيَه من اليمِّ ما غشيه، وهو كما ترى.

والذي ذهب إليه أهلُ الكتاب أنَّ الانفِلاقَ كان خطِّيّاً وأن المسالك اثنا[1] عشر مسلكاً، لكلِّ سبطٍ مسلكٌ، ولا تقبيبَ هناك، وأنه قد فُتحت لهم كوًى ليرى القريبُ قريبَه، ويرى الرجلُ من سبطٍ زوجتَه من سبطٍ آخَرَ، وأنهم خرجوا من الجهة المقابِلة لجهة دخولهم وتوجَّهوا إلى أرض الشام. وليس في كتابنا ما هو نصٌّ في تكذيبه، بل في الأخبار ما يشهدُ بصحة بعضه.

واتحادُ الفروقِ والمسالك في العدد يحتاجُ إلى نقلٍ صحيح يثبته، والآيةُ هنا لا تدلُّ على أكثر من تعدُّدِ الفروق، والله تعالى أعلم.

وحكى يعقوبُ عن بعض القرَّاء أنه قرأ: «كلُّ فِلْقٍ» باللام بدلَ الراء[2]، قال الراغب: الفرْقُ يقارِبُ الفلْقَ، لكنَّ الفلْقَ يقال اعتباراً بالانشقاق، والفرْق يقال اعتباراً بالانفصال. ومنه الفِرقةُ للجماعة المنفردة من الناس[3].

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ عطفٌ على «أوحينا». وقيل: على محذوفٍ يقتضيه السياقُ، والتقدير: فأدخلنا بني إسرائيل فيما انفلق من البحر وأزلفنا ﴿ثَمَّ﴾ أي: هنالك ﴿ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: فرعون وجنودَه، أي: قرَّبناهم من قوم موسى عليه السلام حتى دخلوا على إثرهم مَداخلَهم. وجوِّز أن يراد: قرَّبنا بعضَهم من بعضٍ وجمعناهم لئلَّا ينجوَ منهم أحد.

أخرج ابن عبد الحكم عن مجاهد قال: كان جبريلُ عليه السلام بين الناس، بين بني إسرائيل وبين آلِ فرعون، فجعل يقول لبني إسرائيل: ليلحَقْ آخرُكم بأوَّلكم. ويستقبلُ آلَ فرعون فيقول: رويدكم ليلحقَكم آخركم. فقالت بنو إسرائيل: ما رأينا

(١) في (م): اثني، وهو خطأ.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٢٠.
(٣) مفردات الراغب (فرق).

سائقاً أحسنَ سياقاً من هذا. وقال آل فرعون: ما رأينا وازعاً أحسنَ زعةً من هذا[1].

وقرأ الحسن وأبو حيوة: «وزَلَفْنا» بدون همزة[2]. وقرأ أبيٌّ وابن عباس وعبد الله بن الحارث: «وأزْلَقْنا» بالقاف عوضَ الفاء[3]، أي: أزلقنا أقدامهم، والمعنى: أذهبنا عزَّهم كقوله:

تداركتُما عبساً وقد ثُلَّ عرشُها وذبيان إذ زلَّتْ بأقدامها النعلُ[4]

ويحتملُ أن يجعل الله تعالى طريقهم في البحر على خلافِ ما جعله لبني إسرائيل يَبَساً، فيزلقهم فيه.

هذا، وقال صاحب «اللوامح»: قيل: مَن قرأ[5] بالقاف أراد بـ «الآخَرين» فرعونَ وقومَه، ومَن قرأ بالفاء أراد بهم موسى عليه السلام وأصحابَه، أي: جمعنا شملَهم وقرَّبناهم بالنجاة.

ولا يخفى أنه يُبْعِدُ إرادةَ موسى عليه السلام وأصحابِه من «الآخَرين» قولُه سبحانه: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: وأنجيناهم من الهلاك في أيدي أعدائهم، ومن الغَرَقِ في البحر بحِفْظِه على تلك الهيئة إلى أن خرجوا إلى البرِّ.

وقيل: «ومَن معه» للإشارة إلى أنَّ إنجاءهم كان ببركة مصاحبةِ موسى عليه السلام ومتابعتِه.

وقيل: لينتظم مَن آمَن به عليه السلام من القِبْطِ؛ إذ لو قيل: وقومَه، لَتَبادَرَ منه بنو إسرائيل، وفيه بحثٌ.

---

(١) فتوح مصر ص٨٥-٨٦.
(٢) البحر ٧/ ٢٠.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحتسب ٢/ ١٢٩، والبحر ٧/ ٢٠.
(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص١٠٩ برواية: تداركتما الأحلاف قد ثلَّ...، قال الشارح: الأحلاف: عبس وفزارة. وثُلَّ عرشها: هذا مَثَلٌ، أي: أصابها ما كسرها وهدمها.
(٥) كذا ذكر المصنف، والذي في البحر ٧/ ٢٠ يشير إلى أن هذا الكلام هو لصاحب البحر، ففيه: «أزلقنا» بالقاف، أي: أزللنا؛ قاله صاحب «اللوامح». قيل: من قرأ ....

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٦٦﴾ فرعونَ وجنودَه بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى عليه السلام ومَن معه، وكان له وجبةٌ؛ روي عن ابن عباس: أنَّ بني إسرائيلَ لمَّا خرجوا سمعوا وجبةَ البحر، فقالوا: ما هذا؟ فقال موسى عليه السلام: غَرِقَ فرعونُ وأصحابه. فرجعوا ينظرون، فألقاهم البحرُ على الساحل.

والتعبيرُ عن فرعون وجنوده بـ «الآخَرين» للتحقير. والظاهر أنَّ «ثُم» للتراخي الزماني، ولعل الأولى حملُها على التراخي المعنوي لِمَا بين المعطوفين من المباعَدةِ المعنوية.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من القصة، وما فيه من معنى البُعْدِ لتعظيم شأن المشارِ إليه. وقيل: لبُعْدِ المسافة بالنظر إلى مبدأ القصة. ﴿لَـَٔايَةً﴾ أي: لآيةً عظيمةً تُوْجِبُ الإيمانَ بموسى عليه السلام، وتصديقَه بما جاء به. وأريدَ بها ـ على ما قيل ـ انقلابُ العصا ثعباناً، وخروجُ يدِه عليه السلام بيضاءَ للناظرين، وانفلاقُ البحر، وأُفرِدتْ لاتِّحاد المدلول.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧﴾ أي: أكثرُ قوم فرعونَ الذين أُمِرَ موسى عليه السلام أن يأتيهم، وهم القِبْطُ على مااستظهره أبو حيان[(١)]، حيث لم يؤمن منهم سوى مؤمنِ آلِ فرعون، وآسيةَ امرأةِ فرعون، وبعضِ السحرة على القول بأنَّ بعضَهم من القِبْطِ لا كلَّهم كما عليه أهلُ الكتاب، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ كلام بعضٍ منَّا، والعجوزِ التي دلَّت موسى على قبرِ يوسفَ عليهما السلام ليلةَ الخروج من مصر ليحمِلَ عظامه معه.

وقيل: المراد بالآية ما كان في البحر من إنجاء موسى عليه السلام ومَن معه وإغراقِ الآخَرين، وضميرُ «أكثرهم» للناس الموجودين بعد الإغراق والإنجاءِ من قوم فرعونَ الذين لم يخرجوا معه لعذرٍ ومن بني إسرائيل، والمراد بالإيمان المنفيِّ عنهم التصديقُ اليقينيُّ الجازم الذي لا يقبل الزوال أصلاً، أي: وما كان أكثر الناس الموجودين بعد تحقُّق هذه الآية العظيمة وظهورِها مصدِّقين تصديقاً يقينياً جازماً لا يقبلُ الزوال، فإنَّ الباقين في مصر من القِبْطِ لم يؤمن أحدٌ منهم مطلقاً،

---

(١) في البحر ٧/ ٢١.

وأكثرُ بني إسرائيل كانوا غير متيقّنين، ولذا سألوا بقرةً يعبدونها وعبدوا العجلَ، فلا يقال لهم مؤمنون بالمعنى المذكور، ويكفي في إيمان البعض الذي يدلُّ عليه المفهومُ كونُ البعضِ المؤمنِ من بني إسرائيل، وحيث كان المراد: وما كان أكثرهم بعد تحقُّقِ آيتي الإغراق والإنجاء وظهورِهما مؤمنين، لا يصحُّ جَعْلُ الضمير للقِبْطِ إلا ببيانِ الأقلِّ المؤمنِ والأكثرِ الكافر منهم بعد تحقُّقِ الآيتين، وما ذكر في بيان الأقلِّ المؤمنِ منهم ليس كذلك؛ إذ إيمانُ مَن ذُكِرَ كان في ابتداء الرسالة، على أنَّ العجوز من بني إسرائيل كما جاء في حديثٍ أخرجه الفريابيُّ وعبد بن حميد وابنُ أبي حاتم والحاكمُ وصحَّحه عن أبي موسى مرفوعاً[(١)]، بل أخرج ابن عبد الحكم من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها شارح ابنة أشير بن يعقوب عليه السلام[(٢)]. فهي بنتُ أخي يوسف عليه السلام، فتكونُ أقربَ من موسى عليه السلام إلى إسرائيل.

وأجيب بأنَّ مَن يُرْجِعُ الضميرَ على القِبْطِ لا يلزمُه أن يفسِّر الآيةَ بالإغراق والإنجاء، بل يقول: المراد بها المعجزاتُ من العصا واليدِ وانفلاقِ البحر، ويقول: إنَّ إيمان الأقلِّ بعد تحقُّقِ بعضها كافٍ لاتِّحاد مدلولها في تحقُّق المفهوم.

وأمَّا إرجاعُ الضمير على الناس الموجودين بعد الإغراق والإنجاءِ من بني إسرائيل وقومِ فرعونَ الذين لم يخرجوا معه فخلافُ الظاهر.

وكذا حَمْلُ الإيمان على ما ذُكر، وجَعْلُ أكثر بني إسرائيل المخصوصين بالإنجاء غيرَ مؤمنين، وإنْ حَصَلَ منهم عند وقوع بعض الآيات ما لا ينبغي صدُوره من المؤمنين فإنهم لم يستمرُّوا عليه؛ فقد أخرج الخطيب في «المتفق والمفترق» عن أبي الدرداء: جَعَلَ النبيُّ ﷺ يصفِّق بيديه ويعجَبُ من بني إسرائيل وتعنُّتِهم، لمَّا

---

(١) المستدرك ٢/٤٠٤-٤٠٥ و٥٧١-٥٧٢، وعزاه لعبد بن حميد والفريابي وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/٨٧-٨٨. وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٧٢٥٤)، وابن حبان (٧٢٣). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٧١: رجال أبي يعلى رجال الصحيح. اهـ. وذكره ابن كثير عند تفسير الآيات (٥٢-٥٩) من سورة الشعراء بإسناده عن ابن أبي حاتم وقال: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف.

(٢) فتوح مصر ص٨١، وفيه: آشار، بدل: أشير، وذكره عنه السيوطي في الدر ٥/٨٨، وفيه: آشي. وجاء في حاشية (م): وذكر بعضهم أن اسم هذه العجوز مريم بنت ياموشا. اهـ منه.

حضروا البحرَ وحضر عدوُّهم جاؤوا موسى عليه السلام فقالوا: قد حَضَرَنا العدوُّ فماذا أمرتَ؟ قال: أن أنزل ها هنا، فإمَّا أنْ يفتحَ لي ربِّي ويهزمَهم، وإمَّا أن يَفْرقَ لي هذا البحرَ. فانطلق نفرٌ منهم حتى وقعوا في البحر، فأوحى الله تعالى إلى موسى: أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر، فضَربه فتأطَّط كما يتأطَّطُ العرشُ، ثم ضربه الثانيةَ فمثل ذلك، ثم ضربه الثالثةَ فانصدع، فقالوا: هذا عن غير سلطانِ موسى. فجازُوا البحرَ، فلم يُسمَعْ بقومٍ أعظمَ ذنباً ولا أسرعَ توبةً منهم[١].

ومتى حُمِلَ الإيمانُ على ما ذُكر، وصحَّ نفيُ الإيمان عمَّن صدر منه ما يدلُّ على عدم رسوخه، جاز إرجاع الضمير على بني إسرائيل خاصة، فإنَّ أكثرهم لم يكونوا راسخين فيه. وظاهرُ عبارةِ بعضهم يوهمُ إرجاعَه إليهم، وليس ذاك بشيء.

وقد سلك شيخ الإسلام[٢] في تفسير الآية مسلكاً تفرَّد في سلوكه فيما أظنُّ، فقال: «إنَّ في ذلك»، أي: في جميع ما فُصِّل مما صَدَرَ عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة، ومما فعل فرعونُ وقومُه من الأقوال والأفعال، وما فُعِلَ بهم من العذاب والنكال، «لآيةً» أي: آيَةً آيَةٍ، أو آيةً[٣] عظيمة لا تكاد توصفُ، مُوجِبةً لأنْ يَعْتبِرَ بها المعتبرون، ويقيسوا شأنَ النبيِّ ﷺ بشأن موسى عليه السلام، وحالَ أنفسِهم بحال أولئك المهلَكين، ويجتنبوا تعاطيَ ما كانوا يتعاطَوْنه من الكفر والمعاصي ومخالفةِ الرسولِ، ويؤمنوا بالله تعالى، ويطيعوا رسولَه ﷺ؛ كيلا يحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك.

أو: إنَّ فيما فصِّل من[٤] القصة من حيث حكايتُه عليه السلام إياها على ما هي عليه من غير أن يسمعها من أحدٍ، «لآيةً» عظيمةً دالَّةً على أنَّ ذلك بطريق الوحي الصادقِ، موجبةً للإيمان بالله تعالى وحدَه وطاعةِ رسوله ﷺ، «وما كان أكثرهم»

---

(١) المتفق والمفترق ٢/ ١٢٦٤-١٢٦٥، وسلف بعضه ص٨٦ من هذا الجزء. وذكره عن الخطيب السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٨٦، وفيه: الفرش، بدل: العرش. وجاء في مطبوع المتفق والمفترق: ويقينهم، بدل: وتعنتهم. و: وقفوا، بدل: وقعوا.

(٢) في تفسيره ٦/ ٢٤٦.

(٣) في الأصل و(م): وآية، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٤) في (م): في، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

أي: أكثرُ هؤلاء الذين سمعوا قصَّتهم منه عليه الصلاة والسلام «مؤمنين» لا بأنْ يقيسوا شأنه ﷺ بشأن موسى عليه السلام، وحالَ أنفسهم بحالِ أولئك المكذِّبين المهلَكينَ، ولا بأنْ يتدبَّروا في حكايته عليه الصلاة والسلام لقصَّتهم من غير أن يسمعها من أحد، مع كون كلٍّ من الطريقين ممَّا يؤدِّي إلى الإيمان قطعاً.

ومعنى «ما كان أكثرهم مؤمنين»: ما أكثرهم مؤمنين، على أنَّ «كان» زائدةٌ كما هو رأي سيبويه(١)، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وهو إخبارٌ منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد سماع الآيات الناطقة بالقصة تقريراً لِمَا مرَّ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ إلخ [الشعراء: ٥-٦]. وإيثارُ الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان، واستمرارِهم عليه.

ويجوز أن تُجعل «كان» بمعنى «صار» كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤] فالمعنى: وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمةِ الموجبة للإيمان بما ذُكر من الطريقين، فيكون الإخبارُ بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحقُّقه وتقرُّرِه، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١].

وادَّعى أن هذا التفسيرَ هو الذي تقتضيه جزالةُ النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة إلى آخرِ القصص السبع، بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاءً بيِّناً.

ثم قال: وأمَّا ما قيل من أنَّ ضمير «أكثرهم» لأهل عَصْرِ فرعون من القِبْطِ وغيرهم، وأنَّ المعنى: وما كان أكثرُ أهلِ مصرَ مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلَّا آسيةُ ومؤمنُ آلِ فرعون والعجوزُ التي دلَّت على قبر يوسفَ عليه السلام، وبنو إسرائيل بعد ما نَجَوا سألوا بقرةً يعبدونها، واتَّخذوا العجل، وقالوا: «لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً» = فبمعزلٍ عن التحقيق، كيف لا ومساقُ كلِّ قصةٍ من القصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصةِ إبراهيم عليه السلام إنما هو لبيان حالِ طائفةٍ معيَّنةٍ قد عَتَوا عن أمر ربِّهم وعَصَوا رسلَه، كما يُفْصِحُ عنه تصديرُ القصص بتكذيبهم

---

(١) في الكتاب ١/ ٧٣.

المرسَلين بعد ما شاهدوا[1] بأيديهم من الآيات العظام ما يوجبُ عليهم الإيمان، ويزجرُهم عن الكفر والعصيان، وأصرُّوا على ما هم عليه من التكذيب، فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية، وقطع دابرهم بالكلِّية، فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم، لا سيما بعد الإخبار بهلاكهم؟ وعدُّ المؤمنين من جملتهم أوّلاً، وإخراجُهم منها آخِراً، مع عدم مشاركتهم لهم في شيء مما حكي عنهم من الجنايات أصلاً، مما يجب تنزيهُ التنزيل عن أمثاله.

ورجوعُ ضمير «أكثرهم» في قصة إبراهيم عليه السلام إلى قومه مما لا سبيلَ إليه أيضاً أصلاً؛ لظهورِ أنهم ما ازدادوا بما سمعوه منه إلا طغياناً وكفراً، حتى اجترؤوا على تلك العظيمة التي فعلوها به، فكيف يعبَّر عنهم بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمَنَ له لوطٌ فنجَّاهما الله تعالى إلى الشام، فتدبَّر[2]. اهـ.

وتعقِّب بأنَّ فيه[3] محذوراً من عدَّة أوجهٍ:

أمَّا أوّلاً: فلِأنَّ حَمْلَ «كان» على الصلة مع ظهورِ الوجه الصحيح غيرُ صحيح. وقد لزم هنا بعد هذا حَمْلُ الجملة الاسمية باعتبارِ الاستمرار على أنهم لا يكونون بعد نزول هذه الآية مؤمنين. وإن جُعِلَ بمعنى «صار» يلزمُ جَعْلَه مضارعاً، لكن عدل عنه للدلالة على كمال التحقُّق. وهذا أيضاً ـ مع إمكان المعنى العاري عن الاحتياج لذلك ـ غيرُ مناسب.

وأمَّا ثانياً: فلأنَّ إرجاع ضمير «أكثرهم» إلى قوم نبيِّنا ﷺ صَرْفٌ عن مرجعه المتقدِّم المذكورِ لفظاً سيَّما في القصص الآتية المصدَّرةِ بـ «كذَّبتْ».

وأمَّا ثالثاً: فلأنَّ قوله: لا بأن يقيسوا شأنه عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام.. إلخ. لا يخلو عن صعوبةٍ؛ إذ الأمرُ المشترك بينهما عليهما الصلاة والسلام ليس إلَّا أنَّ كلاًّ منهما نبيٌّ مؤيَّدٌ بالمعجزات مطلقاً، وأمَّا إنْ نُظِرَ إلى خصوصيات المعجزات فلا يخفى أنه لا مشاركةَ بينهما. وكذا قياسُ حالهم على حال فرعون وقومِه لا يخلو عنها على هذا القياس.

---

(١) بعدها في الأصل و(م): ما، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/٢٥٣-٢٥٤.

(٣) في (م): فيها.

وأما رابعاً: فلأنَّ قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً) إلخ قد ذكر على هذا النسق في سبعة مواضع، ولا بد من تنسيق تفسيره على نظام واحد فيها مهما أمكن. ومن جملة ذلك ما في قصة نبيِّ الله تعالى لوطٍ عليه السلام وقد ذُكر فيها من حالِ قومه فِعْلُهم الشنيعُ المعهود ثم إهلاكُ جميعهم. وما في قصة نبيِّ الله تعالى شعيبٍ عليه السلام وقد ذكر فيها من حال أصحاب الأيكة عملُهم المتعلِّقُ بالكيل والوزن ثم إهلاكُ جميعهم، من غير تصريحٍ بحيثيةِ كُفْرِ كلِّ قومٍ، فلا يناسب فيهما أن يقال: إنَّ في ذلك لآيةً موجبةً لإيمان قريش بأن يقيسوا حالَ أنفسهم بحال أولئك المهلكين، ويجتنبوا تعاطيَ ما كانوا يتعاطون من المعاصي.

هذا على الطريق الأول. وأما الطريقُ الثاني ففيه أيضاً عدَّةُ محذورات:

أما أوّلاً وثانياً فلِمَا ذُكر أوّلاً وثانياً.

وأما ثالثاً: فلأنَّ كلّاً من كلتا القصتين ذُكر هنا على وجه الإجمال، وذُكر مفصَّلاً في سورةٍ أخرى، وكلٌّ منهما ذِكْرٌ مُحْدَثٌ بحسب نزوله، فلا وجاهةَ في أنْ يقال: وما أكثرهم مؤمنين بك بأنْ يتدبَّروا في حكايتك لقصتهم من غير أن تسمعها من أحدٍ، بناءً على أنهم قد سمعوها منه عليه الصلاة والسلام مفصَّلةً قبل نزول هذه الآية، مع أنَّ كون حكايته ﷺ ذلك من غير أنْ يسمعه من أحدٍ مما يؤدِّي إلى إيمانهم قطعاً محلُّ تردُّدٍ.

وأمَّا رابعاً: فلأنَّ آخِرَ هذه القصة قولُه تعالى: (وَأَنجَيْنَا) (ثُمَّ أَغْرَقْنَا) وكذا آخرُ قصةِ لوطٍ عليه السلام قولُه تعالى: (فَنَجَّيْنَٰهُ) (ثُمَّ دَمَّرْنَا) (وَأَمْطَرْنَا) فالمتبادرُ أن تكون الإشارةُ إلى نفس المحكيِّ المشتملِ على الأفعال العجيبة الإلهية لا إلى حكايتها.

وأما ما قاله في تزييف ما قيل فليس بشيءٍ أيضاً؛ لأنَّ نسبة التكذيب إلى كلِّ قومٍ من الأقوام الذين نسب إليهم إنما هي باعتبارِ الأكثر، كما يرشد إليه قولُه تعالى في قصة قوم نوح عليه السلام حكايةً عنهم بعد أن قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. وقولُه عزَّ وجلَّ بعد ذلك حكايةً عن نوح عليه السلام ما قال في جوابهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤] فيكون ضمير «أكثرهم» راجعاً إلى القوم غير ملاحظٍ فيهم ذلك.

ومثله كثيرٌ في الكلام، ويرادُ بالأكثر في المواضع السبعة جمعٌ موصوفون بزيادة الكثرة، سواءٌ كان البعض المؤمنُ واحداً أو أكثر، فلا يَرِدُ أنه كيف يعبر عن قوم إبراهيم عليه السلام بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمن له لوط عليه السلام، فتأمل. انتهى.

ولا يخفَى ما فيه من الغثِّ والسمين.

وأنا أختار كما اختار شيخُ الإسلام رجوعَ الضمير إلى قوم نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وأولُ السورة الكريمة وآخِرُها في الحديث عنهم، وتسليتِه ﷺ عما قالوه في شأن كتابه الأكرم، ونَهْيِه صريحاً وإشارةً عن أن يذهب بنفسه الشريفة عليهم حسرات، وكلُّ ذلك يقتضي اقتضاءً لا ريبَ فيه رجوعَ الضمير إلى قومه عليه الصلاة والسلام، ويهوِّن أمرَ عدمِ رجوعه إلى الأقرب لفظاً، ويكون الارتباط على هذا بينَ الآيات أقوى.

وأختار أنَّ الإشارة إلى ما تضمَّنَتْه القصةُ، وأنَّ المعنى: إنَّ فيما تضمَّنَتْه هذه القصةُ لآيةً عظيمةً دالَّةً على ما يجب على قومك الإيمانُ به من شؤونه عزَّ وجلَّ، وما كان أكثرُهم مؤمنين بذلك.

وكذا يقال في جميع ما يأتي إن شاء الله تعالى، وكلُّ ذلك على نمطِ ما تقدَّم. وكذا الكلامُ في «كان» وما يتعلَّق بالجملة، والكلامُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ كالكلام فيما تقدَّم أيضاً، ولعل تخريج ما ذُكر على هذا الوجه أحسنُ من تخريج شيخ الإسلام، فتأمَّل، واللهُ تعالى أعلم بحقائق ما أنزله من الكلام.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على المضمَرِ العامل في «إذ نادى» إلخ، أي: اذكُر ذلك لقومك واتْل عليهم ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: خبرَه العظيمَ الشأنِ حَسْبَما أُوحِيَ إليك؛ ليتأكَّد عندك ـ لعَدَمِ تأثُّرهم بما فيه ـ العلمُ بشدَّةِ عنادِهم.

وتغييرُ الأسلوب لمزيد الاعتناء بأمر هذه القصة؛ لأنَّ عدم الإيمان بعد وقوفهم على ما تضمَّنته أقوى دليلٍ على شدة شكيمتهم؛ لِمَا أنَّ إبراهيم عليه السلام جدُّهم الذي يفتخرون بالانتساب إليه والتأسِّي به عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ﴾ منصوبٌ على الظرفية لـ «نبأ» على ما ذهب إليه أبو البقاء[1]، أي: نبأه وقتَ قوله ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾. أو على المفعولية لـ «اتل» على أنه بدلٌ من «نبأ» على ما يقتضيه كلام الحوفيِّ[2]، أي: اُتل عليهم وقتَ قوله لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠﴾ على أنَّ المتلوَّ ما قاله عليه السلام لهم في ذلك الوقت.

وضمير «قومه» عائدٌ على إبراهيم. وقيل: عائدٌ على أبيه ليوافق قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]. ويلزمُ عليه التفكيك.

وسألهم عليه السلام عمَّا يعبدون ليبنيَ على جوابهم أنَّ ما يعبدونه بمعزلٍ عن استحقاق العبادة بالكلِّيةِ، لا للاستعلام؛ إذ ذلك معلومٌ مشاهَدٌ له عليه السلام.

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأنْ يقولوا: أصناماً، كما في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ [النحل: ٣٠] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] إلى غير ذلك، بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل وعَطْفِ دوام عكوفهم على أصنامهم مع أنه لم يَسأل عنه؛ قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثةِ من الابتهاج والافتخارِ بذلك. وهو على ما في «الكشف» من الأسلوب الأحمق.

والمرادُ بالظلول الدوامُ، كما في قولهم: لو ظلَّ الظلمُ هلك الناس. وتكون «ظلَّ» على هذا تامةً. وقد قال بمجيئها كذلك ابنُ مالك[3]، وأنكره بعضُ النحاة.

وقيل: فِعْلُ الشيءِ نهاراً، فقد كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، فتكون «ظلَّ» على هذا ناقصةً دالَّةً على ثبوت خبرها لاسمها في النهار.

واختار بعضُ الأجلَّةِ الأولَ لتبادُرِ الدوام، وكونِه أبلغَ مناسباً لمقام الابتهاج والافتخار، واختار الزمخشريُّ[4] الثاني لأنه أصلُ المعنى، وهو مناسبٌ للمقام أيضاً؛ لأنه يدلُّ على إعلانهم الفعلَ لافتخارهم به.

و«عاكفين» على الأول حالٌ، وعلى الثاني خبرٌ، والجارُّ متعلِّقٌ به. وإيرادُ اللام

---

(١) في الإملاء ٤/ ١١٣.
(٢) كما في البحر ٧/ ٢٢.
(٣) في التسهيل ص٥٣.
(٤) في الكشاف ٣/ ١١٦، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٦.

دون «على» لإفادةِ معنًى زائدٍ، كأنهم قالوا: نظلُّ لأَجْلِها مُقْبِلين على عبادتها، أو مستديرين حولها. وهذا أيضاً ـ على ما قيل ـ من جملةِ إطنابهم.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من تفصيل جوابهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ دَخَلَ فِعْلُ السماع على غيرِ مسموعٍ. ومذهبُ الفارسيِّ[1] أنه حينئذٍ يتعدَّى إلى اثنين، ولا بدَّ أن يكون الثاني مما يدلُّ على صوتٍ، فالكافُ هنا عنده مفعولٌ أولُ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ، والتقدير: هل يسمعونكم تدعون، وحُذِفَ لدلالة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ عليه.

ومذهبُ غيره أنه حينئذٍ متعدٍّ إلى واحد، وإذا وقعت بعده جملةٌ ملفوظةٌ أو مقدَّرةٌ فهي في موضع الحال منه إن كان معرفةً، وفي موضع الصفة له إن كان نكرةً. وجوَّز فيها البدليةُ أيضاً.

وإذا دخل على مسموعٍ تعدَّى إلى واحدٍ اتفاقاً، ويجوز أن يكون ما هنا داخلاً على ذلك على أنَّ التقدير: هل يسمعون دعاءكم، فحُذِفَ المضافُ لدلالة «إذ تدعون» أيضاً عليه.

وقيل: السماع هنا بمعنى الإجابة، كما في قوله ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من دعاءٍ لا يُسْمَع»[2]، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨]، أي: هل يجيبونكم، وحينئذٍ لا نزاعَ في أنه متعدٍّ لواحدٍ ولا يحتاج إلى تقديرِ مضافٍ.

والأَوْلَى إبقاؤه على ظاهرِ معناه فإنه أنسبُ بالمقام. نعم ربما يقال: إنَّ ما قيل أوفقُ بقراءةِ قتادة ويحيى بن يعمر: «يُسْمِعونكم» بضم الياء وكَسْرِ الميم من أَسْمعَ[3]، والمفعولُ الثاني محذوفٌ تقديره: الجوابَ.

---

(١) كما في البحر ٧/ ٢٣.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٦٥٥٧)، والترمذي(٣٤٨٢)، والنسائي ٨/ ٢٥٤-٢٥٥ عن عبد الله بن عمرو. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
وأخرجه أحمد (٨٤٨٨)، وأبو داود (١٥٤٨)، والنسائي ٨/ ٢٦٣، وابن ماجه (٣٨٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحتسب ٢/ ١٢٩، والبحر ٧/ ٢٣.

و«إذ» ظرفٌ لِمَا مضى، وجيء بالمضارع لاستحضارِ الحالِ الماضية وحكايتها. وأمَّا كونُ «هل» تخلِّصُ المضارعَ للاستقبال فلا يضرُّ هنا؛ لأنَّ المعتبرَ زمانُ الحُكْمِ لا زمانُ التكلُّم، وهو هنا كذلك لأنَّ السماع بعد الدعاء.

وقال أبو حيان: لا بدَّ من التجوُّز في «إذ» بأن تُجْعلَ بمعنى «إذا»، أو التجوُّز في المضارع بأنْ يُجعلَ بمعنى الماضي[1]. واعتبارُ الاستحضارِ أبلغُ في التبكيت.

وقرئ بإدغام ذال «إذ» في تاء «تدعون» وذلك بقَلْبِها تاءً وإدغامها في التاء[2].

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ بسبب عبادتكم لهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾ أي: يضرُّونكم بتَرْكِكُم لعبادتهم؛ إذ لا بدَّ للعبادة ـ لا سيما عند كونها على ما وصفتُم من المبالغة فيها ـ من جَلْبِ نَفْعٍ أو دفع ضرٍّ. وتُرِكَ المفعولُ للفاصلة، ويدلُّ عليه ما قبله. وقيل: المراد: أو يضرُّون مَن أعرضَ عن عبادتهم كائناً مَن كان، وهو خلافُ الظاهر الذي يقتضيه العطفُ.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ أَضْرَبوا عن أن يكون لهم سمعٌ أو نفعٌ أو ضرٌّ اعترافاً بما لا سبيل لهم إلى إنكاره، واضطرُّوا إلى إظهار أنْ لا سَنَدَ لهم سوى التقليدِ، فكأنهم قالوا: لا يسمعون، ولا ينفعوننا ولا يضرُّون، وإنما وجدْنا آباءنا يفعلون مثلَ فِعْلِنا، ويعبدونهم مثلَ عبادتنا، فاقتدينا بهم. وتقديمُ المفعول المطلقِ للفاصلة.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥﴾ أي: أَنَظرتُم فأبْصَرْتُم، أو: أتأمَّلتم[3] فعلمتُم أيَّ شيءٍ استدمتُم على عبادته، أو: أيَّ شيءٍ تعبدونه ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾ والكلامُ إنكارٌ وتوبيخٌ يتضمَّن بطلانَ آلهتهم وعبادتِها، وأنَّ عبادتها ضلالٌ قديمٌ لا فائدةَ في قِدَمِهِ إلا ظهورُ بطلانِه، كما يؤذِنُ بهذا وصفُ آبائهم بالأقدمين. وقولُه

(١) البحر ٧/ ٢٣، وقال أبو حيان أيضاً: وقد ذكر أصحابنا أن من قرائن صرف المضارع إلى الماضي إضافة «إذ» إلى جملة مصدَّرة بالمضارع، ومثَّلوا بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي: وإذ قلت.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي وهشام وخلف. التيسير ص٤١-٤٢، والنشر ٢/ ٢-٣.

(٣) في (م): تأملتم.

تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ قيل: تعليلٌ لِمَا يُفهم من ذلك من أني لا أعبدهم، أو لا تصحُّ عبادتهم. وقيل: خبرٌ لـ «ما كنتم» إذ المعنى: أفأخبِرُكم وأُعْلِمُكم بمضمون هذا.

واختار بعض الأجلَّةِ أنه بيانٌ وتفسيرٌ لحالِ ما يعبدونه، التي لو أحاطوا بها علماً لَمَا عبدوه، أي: فاعلموا أنهم أعداءٌ لعابِدِيهم الذين يحبُّونهم كحبِّ الله تعالى؛ لما أنهم يتضرَّرون من جهتهم تضرُّرَ الرجل من جهة عدوِّه، فإطلاقُ العدوِّ عليهم من باب التشبيه البليغ.

وجوِّز أن يكون من باب المجازِ العقليِّ بإطلاق وَصْفِ السَّبب على المسبَّب من حيث إن المُغْريَ والحاملَ على عبادتهم هو الشيطانُ الذي هو عدوٌّ مبينٌ للإنسان. والأول أظهر.

والداعي للتأويل أنَّ الأصنام لكونها جماداتٍ لا تصلحُ للعداوة. وما قيل: إنَّ الكلامَ على القلب، والأصل: فإني عدوٌّ لهم، ليس بشيء. وقال النسفي: العدوُّ اسمٌ للمُعادي والمُعادَى جميعاً[1]، فلا يحتاجُ إلى تأويل ويكون كقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وصوَّر الأمر في نفسه تعريضاً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢] ليكون أبلغَ في النصح، وأدْعَى للقبول.

ومن هنا استعمل الأكابرُ التعريضَ في النصح، ومنه ما يُحكَى عن الشافعيِّ رضي الله عنه أنَّ رجلاً واجهه بشيءٍ، فقال: لو كنتُ بحيث أنتَ لاحتجتُ إلى أدب. وسمع رجلٌ ناساً يتحدَّثون في الحِجْرِ فقال: ما هو بيتي ولا بيتُكم[2].

وضميرُ «إنهم» عائدٌ على «ما» وجُمع مراعاةً لمعناها، وإفرادُ العدوِّ مع أنه خبرٌ عن الجمع إمَّا لأنه مصدرٌ في الأصل، فيطلقُ على الواحد المذكَّر وغيرِه، أو لاتِّحاد الكلِّ في معنى العداوة، أو لأن الكلام بتقديرِ: فإنَّ كلاً منهم، أو لأنه بمعنى النسب، أي: ذو كذا، فيستوي فيه الواحدُ وغيره[3]، كما قيل.

---

(١) لم نقف عليه في تفسير النسفي.

(٢) ذكرهما الزمخشري في الكشاف ٣/ ١١٦.

(٣) كما في قولك: هم ذو عداوة. حاشية الشهاب ٧/ ١٧.

وقوله سبحانه ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ استثناءٌ منقطعٌ من ضمير «إنهم» عند جماعةٍ منهم الفرَّاء[١]، واختاره الزمخشريُّ[٢]،أي: لكن ربُّ العالمين ليس كذلك؛ فإنه جلَّ وعلا وليُّ مَن عَبَدَه في الدنيا والآخرة، لا يزال يتفضَّلُ عليه بالمنافع.

وقال الزجَّاج: هو استثناءٌ متَّصلٌ من ذلك الضمير العائدِ على «ما تعبدون»، ويُعتبر شمولُه لله عزَّ وجلَّ، وفي آبائهم الأقدمين مَن عَبَدَ الله جلَّ وعلا من غير شكٍّ. أو يقال: إنَّ المخاطبين كانوا مشركين وهم يعبدون الله تعالى والأصنام[٣]. وتخصيصُ الأصنام هنا بالذكر للردِّ، لا لأنَّ عبادتهم مقصورةٌ عليها، ولو سلِّم أنه لذلك فهو باعتبارِ دوام العكوف،وذلك لا ينافي عبادتَهم إياه عزَّ وجلَّ أحياناً.

وقال الجرجانيُّ[٤]: إنَّ الاستثناء من «ما كنتم تعبدون»، و«إلا» بمعنى «دون» و«سوى»، وفي الآية تقديمٌ وتأخيرٌ، والأصل: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلَّا ربَّ العالمين ـ أي: دون ربِّ العالمين ـ فإنَّهم عدوٌّ لي. ولا يَخْفى ما فيه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ صفةٌ لـ «رب العالمين»، ووَصَفَه تعالى بذلك وبما عُطِفَ عليه مع اندراجِ الكلِّ تحت ربوبيته تعالى للعالمين زيادةً في الإيضاح في مقام الإرشاد.

وقيل: تصريحاً بالنعم الخاصَّةِ به عليه السلام وتفصيلاً لها؛ لكونها أَدْخَلَ في اقتضاءِ تخصيصِ العبادة به تعالى، وقَصْرِ الالتجاء في جَلْبِ المنافع الدينية والدنيوية ودَفْعِ المضارِّ العاجلة والآجلة عليه تعالى.

﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ عطفٌ على الصلة،أي: فهو يهديني وحده جلَّ شأنُه إلى كلِّ ما يهمُّني ويُصْلِحُني من أمور المعاش والمعادِ هدايةً متصلةً بحين الخَلْقِ ونَفْخِ الروح، متجدِّدةً على الاستمرار كما ينبئ عنه الفاء وصيغةُ المضارع. فإنه تعالى يهدي كلَّ ما خَلَقَه لِمَا خُلِقَ له هدايةً متدرِّجةً من مبتدأ إيجاده إلى منتهى أَجَلِه،

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٢٤.

(٢) في الكشاف ٣/ ١١٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٣ بذكر الوجه الثاني فقط، وهو كون المخاطبين كانوا يعبدون الله تعالى والأصنام.

(٤) كما في تفسير القرطبي ١٦/ ٣٨، والبحر ٧/ ٢٤، والدر المصون ٨/ ٥٣٠.

يتمكَّن بها من جَلْبِ منافعه ودَفْعِ مَضارِّه إمَّا طبعاً وإمَّا اختياراً، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هدايةُ الجنين لامتصاص دم الطمث في المشهور، ومنتهاها الهدايةُ إلى طريق الجنة والتنعُّمِ بنعيمها المقيم.

وجوَّز الحوفيُّ وغيرُه كونَ الموصول مبتدأً، وجملة «هو يهديني» خبره، ودخلت الفاء في خبره لتَضمُّنه معنى الشرط، نحو: الذي يأتيني فله درهمٌ.

وتعقَّبه أبو حيان: بأنَّ الفاء إنما يؤتى بها في خبر الموصول لتضمُّنه معنى الشرط إذا كان عامًّا، وهنا لا يُتخيَّل فيه العموم، فليس ما نحن فيه نظيرَ المثال. وأيضاً الفعلُ الذي هو «خلق» ممَّا لا يمكنُ فيه تجدُّدٌ بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام، فلعل ذلك على مذهب الأخفش من جواز زيادة الفاء في الخبر مطلقاً، نحو: زيدٌ فاضْرِبْه[1].

وأجيب بأن اشتراط العموم غير مسلَّم - كما فصَّله الرضيُّ - وإنما هو أغلبيٌّ. وبأنَّ مطلق الخلق مما يمكن فيه التجدُّدُ، وهو ممكنُ الإرادة وإن ظهر في صورة المخصوص. وتَسبُّبُ الخَلْقِ للهداية بمقتضى الحكمة[2]، وقيل: إنه سببٌ للإخبار بها لتحقُّقِها، وليس بشيء.

ويلزمُ على الإعراب المذكور أن يكون الموصولُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾ مبتدأً محذوفَ الخبر لدلالة ما قبله عليه، وكذا اللَّذانِ بعده. ولا يخفى ما في ذلك لفظاً ومعنًى، فاللائقُ بجزالةِ التنزيل الإعرابُ الأول، وعليه يكون الموصول عطفاً على الموصول الأول. وإنما كرِّر الموصول في المواضع الثلاثة، مع كفاية عَطْفِ ما في حيِّز الصلة من الجمل الستِّ على صلة الموصول الأول؛ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدةٍ من تلك الصلات نعتٌ جليلٌ له تعالى، مستقلٌّ في استيجاب الحُكْمِ؛ حقيقٌ بأنْ تجريَ عليه عزَّ وجلَّ بحيالها ولا تُجعلَ من روادف غيرها.

---

(١) بنحوه في البحر ٧/ ٢٤.

(٢) يشير المصنف بهذا إلى أن الفاء في «فهو يهدين» للسببية على القول بأن الموصول مبتدأ دخلت الفاء في خبره لتضمنه معنى الشرط. حاشية الشهاب ٧/ ١٨.

والظاهرُ أنَّ المراد إطعامُ الطعام المعروف، وسَقْيُ الشراب المعهود، وجيءَ بـ «هو» هنا دون الخلق؛ لشيوع إسناد الإطعام والسَّقْي إلى غيره عزَّ وجلَّ بخلافِ الخَلْقِ. وعلى هذا القياسُ فيما جيء فيه بـ «هو» وما تُرِكَ مما يأتي إنْ شاء الله تعالى.

وعن أبي بكر الورَّاقِ أنَّ المعنى: يطعمني بلا طعامٍ، ويسقيني بلا شرابٍ، كما جاء: «إني أَبِيتُ يطعمني ربِّي ويسقين»(١) وهو مشربٌ صوفيٌّ.

وأتي بهذين الصفتين بعد ما تقدَّم لِمَا أنَّ دوام الحياة وبقاءَ نظام خَلْقِ الإنسان بالغذاء والشراب ما سَلَكَ فيهما مَسْلَكَ العدل، وهو أشدُّ احتياجاً إليهما منه إلى غيرهما، ألا ترى أنَّ أهل النار وهم في النار لم يشغلهم ما هم فيه من العذاب عن طلبهما فقالوا: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ عطفٌ على «يطعمني ويسقين» نُظم معهما في سلك الصلة لموصولٍ واحد؛ لِمَا أنَّ الصحة والمرضَ من متفرِّعات الأكل والشرب غالباً:

فــإنَّ الــداء أكــثــر مــا تــراه ... يـكـون مـن الـطـعـام أو الـشـراب(٢)

وقالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سببُ آجالكم؟ لقالوا: التُّخَمُ.

ونسبةُ المرض الذي هو نقمةٌ إلى نفسه، والشفاء الذي هو نعمةٌ إلى الله جلَّ شأنُه؛ لمراعاة حُسْنِ الأدب كما قال الخضر عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

ولا يَرِدُ إسنادُه الإماتةَ - وهي أشدُّ من المرض - إليه عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ لإمكان الفَرْقِ بأنَّ الموت قد عُلِمَ واشْتَهَر أنه قضاءٌ محتومٌ من الله عزَّ وجلَّ على سائر البشر، وحكمٌ عامٌّ لا يُخَصُّ، ولا كذلك المرضُ، فكم من معافىً منه إلى أنْ يَبْغتَه الموتُ. فالتأسِّي بعموم الموت يُسْقِطُ أثَرَ كونِه نقمةً، فيَسُوغُ [في] الأدب نسبتُه إليه، وأمَّا المرضُ فلمَّا كان يُخَصُّ به بعضُ البشر دون

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه ١/ ٢٣١، وفيه: يحول، بدل: يكون.

بعضٍ كان نقمةً محقَّقةً، فاقتضى العلوُّ في الأدب أن ينسبه الإنسانُ إلى نفسه باعتبار السبب الذي لا يخلو منه. ويؤيِّد ذلك أنَّ كلَّ ما ذُكر مع غير المرض أخبر عن وقوعه بتّاً وجزماً؛ لأنه أمرٌ لا بدَّ منه، وأمَّا المرضُ فلمَّا كان قد يتَّفق وقد لا، أورده مقروناً بشَرْطِ «إذا»، فقال: «وإذا مرضتُ»، وكان يمكنه أن يقول: والذي أَمْرضُ[١] فيشفيني، كما قال في غيره، فما عدل عن المطابقة والمجانسة المأثورة إلا لذلك، كذا قاله ابن المنير[٢].

وقال الزمخشريُّ: إنما قال: «مرضتُ» دونَ: أَمْرَضَني؛ لأنَّ كثيراً من أسباب المرض يَحْدثُ بتفريطٍ من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغيرِ ذلك[٣].

وكأنه إنما عَدَلَ في التعليل عن حُسْنِ الأدب لمَّا رأى أنه عليه السلام أضاف الإماتة إليه عزَّ وجلَّ، وهي أشدُّ من المرض، ولم يخطُر له الفرقُ بما مرَّ أو نحوِه، وغفل عن أنَّ المعنى الذي أبداه في المرض ينكسِرُ بالموت أيضاً، فإنَّ المرض كما يكون بسببِ تفريط الإنسان في المطعم وغيره، كذلك الموتُ الناشئ عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان، وقد أضاف عليه السلام الإماتةَ مطلقاً إليه عزَّ شأنهُ[٤].

وقال بعضُ الأجلَّة[٥] بعد التعليل بحُسْنِ الأدب في وجهِ إسناد الإماتة إليه تعالى: إنها حيث كانت [من] معظم خصائصه عزَّ وجلَّ كالإحياء بدءاً وإعادةً، وقد نيطتْ أمورُ الآخرةِ جميعاً بها وبما بعدها من البعث، نَظَمهما في سمطٍ واحدٍ في قوله: «والذي يُميتني ثم يُحْيِين»، على أنَّ الموت لكونه ذريعةً إلى نَيْلِه عليه السلام للحياة الأبدية بمعزلٍ من أن يكون غيرَ مطبوعٍ عنده عليه السلام. انتهى.

وأَوْلَى من هذه العلاوةِ ما قيل: إنَّ الموت لأهل الكمال وصلةٌ إلى نيل المَحَابِّ الأبدية، التي تُسْتَحْقَرُ دونها الحياة الدنيوية، وفيه تخليصُ العاصي من اكتساب المعاصي.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والذي في الانتصاف ٣/١١٧ (والكلام منه): والذي يُمرضني.
(٢) في الانتصاف ٣/١١٧، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٣) الكشاف ٣/١١٧.
(٤) الانتصاف ٣/١١٧.
(٥) هو أبو السعود في تفسيره ٦/٩٧، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

ثم إنَّ حَمْلَ المرض والشفاء على ما هو الظاهرُ منهما هو الذي ذهب إليه المفسِّرون. وعن جعفر الصادقِ ﷺ أنَّ المعنى: وإذا مرضتُ بالذنوب فهو يشفيني بالتوبة. ولعله لا يصحُّ، وإن صحَّ فهو من باب الإشارة لا العبارة.

و«ثم» في قوله: «ثم يحيين» للتراخي الزمانيِّ؛ لأنَّ المراد بالإحياء: الإحياءُ للبعث، وهو متراخٍ عن الإماتة في الزمان في نفس الأمر، وإنْ كان كلُّ آتٍ قريبٌ.

وأثبتَ ابنُ أبي إسحاق ياء المتكلِّم في «يهديني» وما بعده، وهي روايةٌ عن نافع[1].

﴿وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ استَعْظَم عليه السلام ما عسى يَنْدُرُ منه من فِعْلِ خلافِ الأَوْلَى حتى سمَّاه خطيئة.

وقيل: أراد بها قولَه: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]، وقولَه ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقولَه لسارة: هي أختي[2]. ويدلُّ على أنه عليه السلام عدَّها من الخطايا ما ورد في حديث الشفاعة من امتناعه عليه السلام من أن يَشْفَعَ حياءً من الله عزَّ وجلَّ لصدور ذلك عنه[3].

وفيه أنه وإنْ صحَّ عدُّها من الخطايا بالنظر إليه عليه السلام لِمَا قالوا: إنَّ حسناتِ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين، إلَّا أنه لا يصحُّ إرادتُها هنا لِمَا أنها إنما صَدَرتْ عنه عليه السلام بعد هذه المقاوَلةِ الجارية بينه وبين قومه: أمَّا الثالثةُ فظاهرةٌ؛ لوقوعها بعد مهاجرته عليه السلام إلى الشام، وأمَّا الأُوليان فلأنهما وقعتا مُكْتَنَفتين بكَسْرِ الأصنام، ومن البيِّن أنَّ جريان هذه المقالات فيما بينهم كان في مبادي الأمر.

وهذا أولى ممَّا قيل: إنها من المعاريض، وهي لكونها في صورة الكذب يمتنعُ لها مَن تَصْدُرُ عنه من الشفاعة، ولكونها ليست كذباً حقيقةً لا تفتقر إلى الاستغفار،

(١) [illegible]حر ٧/ ٢٥، وهي خلاف المشهور عن نافع.
(٢) وردت هذه الثلاثة في حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٩٢٤١)، والبخاري (٣٣٥٧) و(٣٣٥٨) و(٥٠٨٤)، ومسلم (٢٣٧١)، والترمذي (٣١٦٦).
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٦١)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فلا يصحُّ إرادتُها هنا؛ لأنَّ ذلك الامتناعَ ليس إلا لعدِّه إياها من الخطايا، ومتى عدَّتْ منها افتقرت إلى الاستغفار.

وقيل: أراد بها ما صَدَرَ عنه عند رؤية الكوكب والقمر والشمس من قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦] وكان ذلك قبل هذه المقاولة كما لا يخفى. وقد تقدَّم أنَّ ذلك ليس من الخطيئة في شيء[1].

وقيل: أراد بها ما عسى يندرُ منه من الصغائر، وهو قريبٌ مما تقدَّم.

وقيل: أراد بها خطيئة مَن يؤمِنُ به عليه السلام، كما قيل نحوُه في قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]، وهو كما ترى.

والطمعُ على ظاهره، ولم يَجْزِمْ عليه السلام لعِلْمِه أنْ لا وجوبَ على الله عزَّ وجلَّ. وعن الحسن أنَّ المراد به اليقين، وليس بذاك.

والظرفان متعلِّقان بـ «يغفر»، والإتيانُ بالأول للإشارة إلى أنَّ نَفْعَ مغفرته تعالى إنما يعود إليه عليه السلام. وتعليقُ المغفرةِ بيوم الدين مع أنَّ الخطيئة إنما تُغفَرُ في الدنيا لأنَّ أثرها يتبيَّنُ يومئذٍ، ولأنَّ في ذلك تهويلاً لذلك اليوم، وإشارةً إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تُغفر. وفي هذه الجملة من التلطُّفِ بأبيه وقومه في الدعوة إلى الإيمان ما فيها.

وقرأ الحسن: «خطاياي» على الجمع[2].

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ لمَّا ذَكَر لهم من صفاته عزَّ وجلَّ مما يدلُّ على كمالِ لُطْفِه تعالى به ما ذَكَر حَمَله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لرَبْطِ العتيد وجَلْبِ المزيد.

والمراد بالحُكْم على ما اختاره الإمام[3]: الحكمةُ التي هي كمالُ القوة العِلْمِيةِ، بأن يكون عالماً بالخير لأجل العمل به.

---

(١) ينظر ما سلف ٨/ ٢٥٩ وما بعدها.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٢٥.
(٣) هو الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٤٧-١٤٨ بنحوه.

وقيل: الأَوْلَى أن يفسَّر بكمال العلم المتعلِّق بالذات والصفات، وسائرِ شؤونه عزَّ وجلَّ وأحكامِه التي يُتعبَّد بها.

وقيل: هي النبوَّة. ورُدَّ بأنها كانت حاصلةً له عليه السلام، فالمطلوبُ إمَّا عينُ الحاصل، وهو محالٌ ضرورةَ امتناعِ تحصيل الحاصل، أو غيرُه وهو محالٌ أيضاً لأنَّ الشخص الواحد لا يكون نبيًّا مرتين.

وأجيب بمنع كونها حاصلةً وقت الدعاء، سلَّمنا ذلك إلا أنه لا محذورَ؛ لجوازِ أن يكون المرادُ طلبَ كمالِها، ويكونُ بمزيدِ القرب والوقوف على الأسرار الإلهية، والأنبياءُ عليهم السلام متفاوتون في ذلك.

وجوِّز أن يكون المرادُ طلبَ الثبات، ولا يجبُ على الله تعالى شيء.

والمراد بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ طلبُ كمالِ القوَّة العَمَليةِ، بأنْ يكون موفَّقاً لأعمالٍ ترشِّحه للانتظام في زمرة الكاملين، الراسخين في الصلاح، المنزَّهينَ عن كبائر الذنوب وصغائرِها.

وقدِّم الدعاء الأولُ على الثاني لأنَّ القوة العِلْمية مقدَّمةٌ على القوة العَمَلية؛ لأنه يمكن أن يعلم الحقَّ وإن لم يعمل به، وعَكْسُه غيرُ ممكنٍ، ولأنَّ العلم صفةُ الروح، والعملَ صفةُ البدن، فكما أنَّ الروح أشرفُ من البدن، كذلك العلمُ أشرفُ من العمل.

وقيل: المراد بالحُكْمِ الحكمةُ التي هي الكمالُ في العلم والعمل، والمرادُ بقوله: «وألحقني» إلخ طلبُ الكمال في العمل، وذِكْرُه بعد ذلك تخصيصٌ بعد تعميم؛ اعتناءً بالعمل من حيث إنه النتيجةُ والثمرةُ للعلم.

وقيل: المراد بالأول ما يتعلَّقُ بالمعاش، وبالثاني ما يتعلَّق بالمعاد.

وقيل: المراد بالحُكْمِ رياسةُ الخَلْقِ، وبالإلحاق بالصالحين التوفيقُ للعَدْلِ فيما بينهم مع القيام بحقوقه تعالى. وقيل: المراد بهذا: الجمعُ بينه عليه السلام وبين الصالحين في الجنة. وأنت تعلمُ أنه لا يَحْسُنُ بعد هذا الدعاءِ طلبُه أن يكون من ورثة جنة النعيم.

والأَوْلَى عندي أن يفسَّر الحكمُ بالحكمة بمعنى الكمالِ في العلم والعمل، والإلحاقُ بالصالحين بجَعْلِ منزلته كمنزلتهم عنده عزَّ وجلَّ، والمراد بطلب ذلك أن يكون عِلْمُه وعملُه مقبولَيْنِ، إذ ما لم يُقْبَلَا لا يُلْحَقُ صاحبهما بالصالحين، ولا تُجعَلُ منزلتُه كمنزلتهم، وكأنه لذلك عدل عن قول: ربِّ هَبْ لي حكماً وصلاحاً، أو: ربِّ هَبْ لي حكماً واجعلني من الصالحين، إلى ما في النظم الكريم، فتأمل ولا تغفل.

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: اجْعَلْ لنفعي ذكراً صادقاً في جميع الأمم إلى يوم القيامة، وحاصلُه: خَلِّدْ صِيْتِي وذكري الجميلَ في الدنيا، وذلك بتوفيقه للآثار الحسنةِ، والسننِ المَرْضِيَّةِ لديه تعالى، المستحسَنةِ التي يقتدي بها الآخرون، ويَذْكُرونه بسببها بالخير وهم صادقون.

فاللسانُ مجازٌ عن الذِّكر بعلاقةِ السببية، واللامُ للنفع، ومنه يستفادُ الوصفُ بالجميل. وتعريفُ «الآخرين» للاستغراق.

والكلامُ مستلزمٌ لطلب التوفيق للآثار الحسنةِ التي أشرنا إليها، وكأنه المقصودُ بالطلب على أبلغ وجهٍ.

ولا بأس بأنْ يريدَ تخليدَ ذِكْرِه الجميل، ومَدْحَه بما كان عليه عليه السلام في زمانه. ولكون الثناء الحَسَنِ مما يدلُّ على محبة الله تعالى ورضائه كما ورد في الحديث(١)، يَحْسُنُ طلبُه من الأكابر من هذه الجهة، والقَصْدُ كلُّ القصد هو الرضا.

ويحتمل أن يُراد بـ «الآخِرين» آخِرُ أمةٍ يُبعَثُ فيها نبيٌّ، وأنه عليه السلام طلب الصيتَ الحسن والذِّكْرَ الجميل فيهم ببعثة نبيٍّ فيهم يجدِّدُ أصلَ دينه، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد، معلِّماً لهم أنَّ ذلك ملَّةَ إبراهيم عليه السلام، فكأنه طَلَبَ بعثةَ نبيٍّ كذلك في آخر الزمان لا تُنْسَخُ شريعتُه إلى يوم القيامة، وليس ذلك إلا نبيَّنا محمداً ﷺ، وقد طَلَبَ بعثتَه عليهما الصلاة والسلام بما هو أصرحُ

---

(١) الذي أخرجه مسلم (٢٦٤٢) عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

ممَّا ذُكر، أعني قولَه: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩] إلخ، ولذا قال ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام»(١).

وقيل: إذا أُريدَ ذلك فلا بدَّ من تقدير مضافٍ في كلامه عليه السلام، أي: اجْعَلْ لي صاحبَ لسانِ صدقٍ في الآخِرين، أو جَعْلِ اللسان مجازاً عن الدَّاعي بإطلاق الجزء على الكلِّ؛ لأنَّ الدعوة باللسان، فكأنه قال: اجْعَلْ لي داعياً إلى الحقِّ صادقاً في الآخرين. ولا يخفى أنَّ فيما ذكرناه غنًى عن ذلك كلِّه.

وفي تعليقات شيخ مشايخنا العلَّامةِ صبغةِ الله الحيدريِّ ـ طاب ثراه ـ على تفسير البيضاويِّ في هذه الآية كلامٌ ناشئٌ من قلَّة إمعانِ النظر فلا تغترَّ به.

واستدلَّ الإمامُ مالكٌ بهذه الآية على أنه لا بأس أن يحبَّ الرجلُ أن يُثنى عليه صالحاً. وفائدةُ ذلك بعد الموت ـ على ما قال بعضُ الأجلَّة ـ انصرافُ الهمم إلى ما به يحصُلُ له عند الله تعالى زُلْفَى، وأنه قد يصير سبباً لاكتساب المُثْني أو غيرِه نحوَ ما أثْنَى به، فيثابُ فيشاركُه فيه المُثْنَى عليه، كما هو مقتضَى: «مَن سَنَّ سُنَّةً حسنةً فلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامة»(٢). ولا يخفَى عليك أنَّ الأمور بمقاصدها.

﴿وَٱجۡعَلۡنِي﴾ في الآخرة ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ قد مرَّ معنى وراثة الجنة(٣) فتذكَّر. واستُدِلَّ بدعائه عليه السلام بهذا بعد ما تقدَّم من الأدعية على أنَّ العمل الصالح لا يوجبُ دخولَ الجنة، وكذا كونُ العبدِ ذا منزلةٍ عند الله عزَّ وجلَّ، وإلَّا لاستَغْنَى عليه السلام بطلب الكمال في العلم والعمل وكذا بطلب الإلحاق

---

(١) في (م): أنا دعوة إبراهيم عليه السلام. والحديث أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/ ١٦٦، وابن سعد ١/ ١٥٠، والحاكم ٢/ ٦٠٠ من طريق خالد بن معدان عن النبي ﷺ. قال الحاكم: خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديثاً إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه. وله شاهد من حديث العرباض بن سارية ﵁، عند أحمد (١٧١٥٠) وآخر من حديث أبي أمامة عند أحمد أيضاً (٢٢٢٦١).

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله ﵁.

(٣) عند تفسير الآيتين (١٠-١١) من سورة المؤمنون.

بالصالحين ذوي الزُّلْفَى عنده تعالى عن طلب ذلك. وأنت تعلم أنه تَحسُنُ الإطالةُ في مقام الابتهال، ولا يُسْتَغْنى بملزومٍ عن لازمٍ في المقال، فالأَوْلَى الاستدلالُ على ذلك بغيرِ ما ذُكِر، وهو كثيرٌ مشتهر.

هذا وفي بعض الآثار ما يدلُّ على مزيدِ فَضْلِ هذه الأدعية، أخرج ابن أبي الدنيا في «الذكر» وابنُ مردويه من طريق الحسن عن سَمُرةَ بنِ جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضَّأ العبدُ لصلاةٍ مكتوبةٍ فأسْبغَ الوضوءَ، ثم خرج من باب داره يريدُ المسجد، فقال حين يخرج: بسم الله الذي خلقني فهو يهدين، هداه الله تعالى للصواب ـ ولفظُ ابن مردويه: لصواب الأعمال ـ والذي هو يُطْعِمُني ويَسْقين، أطعمه الله تعالى من طعام الجنة، وسقاه من شراب الجنة، وإذا مرضتُ فهو يشفين، شفاه الله تعالى وجَعَلَ مرضه كفارةً لذنوبه، والذي يُميتني ثم يحيين، أحياه الله تعالى حياةَ السعداء وأماته ميتةَ الشهداء، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يومَ الدِّين، غفر الله تعالى له خطاياه كلَّها ولو كانت مِثْلَ زَبَدِ البحر، ربِّ هَبْ لي حُكماً وألْحِقْني بالصالحين، وَهَبَ الله تعالى له حكماً وألْحقَه بصالحِ مَن مَضَى وصالحِ مَن بقيَ، واجْعَلْ لي لسانَ صِدْقٍ في الآخرين، كُتب في ورقةٍ بيضاءَ أنَّ فلانَ بنَ فلانٍ من الصادقين، ثم يوفِّقُه الله تعالى بعد ذلك للصِّدق، واجْعَلْني من ورثة جنة النعيم، جَعَلَ الله تعالى له القصورَ والمنازلَ في الجنة» وكان الحسن ﵁ يزيد فيه: واغفر لوالديَّ كما ربَّياني صغيراً[1]. وكأنه أخذ من قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ قال ابن عباس كما أخرج عنه ابن أبي حاتم: أي: امنُنْ عليه بتوبةٍ يستحقُّ بها مغفرتَك[2]. وحاصلُه: وفِّقْه للإيمان، كما يَلُوحُ به تعليلُه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وهذا ظاهرٌ إذا كان هذا الدعاء قبل موته، وإن كان بعد الموت فالدعاءُ بالمغفرة على ظاهره، وجاز الدعاءُ بها لمشركٍ ـ والله تعالى لا يغفر أن يُشْرَكَ به ـ لأنه لم يُوحَ إليه عليه السلام بذلك إذ ذاك، والعقلُ لا يحكم بالامتناع.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٨٦، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٢/ ٤٦٨-٤٦٩. قال الذهبي في الميزان ١/ ٣٥٠: وهو موضوع.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨٢.

وفي «شرح مسلم» للنووي[1] أنَّ كونه عزَّ وجلَّ لا يغفرُ الشركَ مخصوصٌ بهذه الأمة، وكان قبلهم قد يُغفر، وفيه بحثٌ.

وقيل: لأنه كان يُخفي الإيمانَ تَقيَّةً من نمروذ، ولذلك وَعَده بالاستغفار، فلمَّا تبيَّن عداوتَه للإيمان في الدنيا بالوَحْي، أو في الآخرة، تبرَّأ منه.

وقوله على هذا: «من الضالين» بناءً على ما ظهر لغيره من حاله، أو معناه: من الضالِّين في كتم إيمانه وعَدَم اعترافه بلسانه تقيةً من نمروذ، والكلامُ في هذا المقام طويلٌ، وقد تقدَّم شيءٌ منه فتذكَّرْ.

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ بتعذيبِ أبي، أو ببَعْثِه في عداد الضالِّين بعدم توفيقه للإيمان، أو بمعاتبتي على ما فرَّطْتُ، أو بنَقْصِ رتبتي عن بعض الورَّاث، أو بتعذيبي، وحيث كانت العاقبةُ مجهولةً وتعذيبُ مَن لا ذنبَ له جائزٌ عقلاً صحَّ هذا الطلبُ منه عليه السلام. وقيل: يجوزُ أن يكون ذلك تعليماً لغيره. وهو من الخزي بمعنى الهوان، أو من الخَزاية بفتح الخاء بمعنى الحياء.

﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: الناسُ كافةً، والإضمارُ وإن لم يسبق ذكرهم لِمَا في عموم البعث من الشهرة الفاشِيَةِ المغنية عنه. وقيل: الضمير للضالِّين، والكلامُ من تتمَّةِ الدعاء لأبيه، كأنه قال: لا تُخْزِني يومَ يُبعَثُ الضالُّون وأبي فيهم. ولا يَخْفَى أنه يجوزُ على الأول أن يكون من تتمَّةِ الدعاء لأبيه أيضاً، واستُظْهِرَ ذلك لأنَّ الفَصْلَ بالدعاء لأبيه بين الدعوات لنفسه خلافُ الظاهر، وعلى ما ذُكِرَ يكون قد دعا لأشدِّ الناس التصاقاً به بعد أن فرغ من الدعاء لنفسه.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ بدلٌ من (يَوْمَ يُبْعَثُونَ) جيءَ به تأكيداً لتهويلِ ذلك اليوم، وتمهيداً لِمَا يعقبُه من الاستثناء، وهو إلى قوله تعالى: (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً) إلخ من كلام إبراهيم عليه السلام.

وابنُ عطية بعد أن أَعْرَبَ الظَّرفَ بدلاً من الظرف الأول قال: إنَّ هذه الآياتِ عندي منقطعةٌ عن كلام إبراهيم عليه السلام، وهي إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ تتعلَّقُ

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): نقله الشهاب. اهـ منه. والكلام في حاشية الشهاب ٧/ ١٩، وشرح صحيح مسلم ٧/ ٧٢.

بصفة ذلك اليوم الذي طلب إبراهيمُ أنْ لا يُخْزِيَه الله تعالى فيه[١]. ولا يَخْفَى عدمُ صحة ذلك مع البَدَلية.

والمرادُ بالبنون معناه المتبادرُ. وقيل: المرادُ بهم جميعُ الأعوان. وقيل: المعنى: يوم لا ينفعُ شيءٌ من محاسن الدنيا وزينتها، واقْتَصَر على ذكر المال والبنين لأنهما معظمُ المحاسن والزينة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ استثناءٌ من أعمِّ المفاعيل، و«مَن» في[٢] محلِّ نصبٍ، أي: «يومَ لا ينفعُ مالٌ» وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه البرِّ والخيرات «ولا بنونَ» وإن كانوا صُلَحاءَ مستأهلين للشفاعة أحداً إلَّا مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ عن مرضِ الكفر والنفاق، ضرورةَ اشتراطِ نَفْعِ كلٍّ منهما بالإيمان. وفي هذا تأييدٌ لكون استغفارِه عليه السلام لأبيه طلباً لهدايته إلى الإيمان؛ لاستحالةِ طلب مغفرته بعد موته كافراً مع عِلْمِه عليه السلام بعَدَمِ نَفْعِه لأنه من باب الشفاعة.

وقيل: هو استثناءٌ من فاعل «ينفع»، و«مَن» في محلِّ رفع بدلٍ منه، والكلامُ على تقدير مضافٍ إلى «مَن»، أي: لا ينفع مالٌ ولا بنونَ إلا مالُ وبنو مَن أتى الله بقلبٍ سليم، حيث أنفق ماله في سبيل البرِّ، وأَرْشَدَ بَنِيْه إلى الحقِّ، وحثَّهم على الخير، وقَصَدَ بهم أن يكونوا عباداً لله تعالى مطيعين شُفَعاءَ له يوم القيامة.

و قيل: هو استثناءٌ مما دلَّ عليه المالُ والبنون دلالةَ الخاصِّ على العامِّ، أعني مطلقَ الغِنَى، والكلامُ بتقدير مضافٍ أيضاً، كأنه قيل: يوم لا ينفع غنًى إلَّا غِنَى مَن أتى الله بقلبٍ سليم، وغِناه سلامةُ قلبه، وهو من الغنى الدينيِّ، وقد أُشير إليه في بعض الأخبار؛ أخرج أحمد والترمذيُّ وابنُ ماجه عن ثوبان قال: لمَّا نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الآية [التوبة: ٣٤] قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: لو علمنا أيّ المال خيرٌ اتَّخذناه. فقال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُه لسانٌ ذاكرٌ، وقلبٌ شاكرٌ، وزوجةٌ صالحةٌ تُعِينُ المؤمنَ على إيمانه»[٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٦.

(٢) قوله: في، ليس في (م).

(٣) مسند أحمد (٢٢٣٩٢)، وسنن الترمذي (٣٠٩٤)، وسنن ابن ماجه (١٨٥٦)، من طريق

وقيل: هو استثناءٌ منقطعٌ من «مال»، والكلامُ أيضاً على تقدير مضافٍ، أي: لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا حال مَن أتى الله بقلبٍ سليم، والمرادُ بحاله: سلامةُ قلبه، قال الزمخشريُّ: ولا بدَّ من تقدير المضاف، ولو لم يقدَّر لم يَحْصُلْ للاستثناء معنًى[(١)].

ومنع ذلك أبو حيان بأنه لو قدِّر مثلاً: لكنْ مَن أتى الله بقلبٍ سليم يَسْلَم أو ينتفع، يستقيم المعنى[(٢)].

وأجاب عنه في «الكشف» بأنَّ المراد أنه على طريق الاستثناء من «مال» لا يتحصَّلُ المعنى بدون تقدير المضاف، وما ذَكَره المانعُ استدراكٌ من مجموع الجملة إلى جملةٍ أخرى، وليس من المبحث في شيء، ولمَّا لم يكن هذا مناسباً للمقام جَعَلَه الزمخشريُّ مفروغاً عنه، فلَمْ يُلَم عليه بوجهٍ.

وقد جوّز اتصال الاستثناء بتقدير الحال، على جَعْلِ الكلام من باب:

تحيةُ بينِهم ضربٌ وَجيع[(٣)]

ومثالُه أن يقال: هل لزيدٍ مالٌ وبنونَ؟ فتقول: مالهُ وبنوه سلامةُ قلبه، تريد نفيَ المال والبنين عنه، وإثباتَ سلامةِ القلب بدلاً عن ذلك.

هذا وكونُ المراد من القلب السليم: القلبَ السليمَ عن مرض الكفر والنفاق، هو المأثورُ عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وقتادةَ وابن سيرين وغيرهم.

وقال الإمام: هو الخالي عن العقائد الفاسدة، والميلِ إلى شهوات الدنيا ولذَّاتها، ويَتْبعُ ذلك الأعمال الصالحات، إذ من علامة سلامة القلب تأثيرُها في الجوارح[(٤)].

---

= سالم بن أبي الجعد عن ثوبان به. قال الترمذي: هذا حديث حسن. سألت محمد بن إسماعيل: سالم بن أبي الجعد سمع من ثوبان؟ قال: لا.

(١) الكشاف ٣/ ١١٨.

(٢) البحر ٧/ ٢٦، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٠.

(٣) الكشاف ٣/ ١١٨. وصدر البيت: وخيلٍ قد دلفتُ لها بخَيْلٍ، وقائله عمرو بن معدي كرب، وسلف ٤/ ٩٢.

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١٥١.

وقال سفيان: هو الذي ليس فيه غيرُ الله عزَّ وجلَّ.

وقال الجنيد قدِّس سرُّه: هو اللَّديغُ من خشية الله تعالى، القلقُ المنزعجُ من مخافة القطيعة. وشاع إطلاقُ السليم في لسان العرب على اللَّديغ.

وقيل: هو الذي سَلِمَ من الشرك والمعاصي، وسلَّم نفسه لحُكْمِ الله تعالى، وسالَمَ أولياءه وحارَبَ أعداءه، وأَسْلَم حيث نَظَر فعرف، واستسلم وانقاد لله تعالى وأذعن لعبادته سبحانه.

والأنسبُ بالمقام المعنى المأثور، وما ذُكر من تأويلات الصوفية. وقال في «الكشاف» فيما نُقِلَ عن الجنيد قدِّس سرُّه وما بعده: إنه من بِدَعِ التفاسير[١]. وصدَّقه أبو حيان بذلك في شأن الأول[٢].

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ عطفٌ على «لا ينفع»، وصيغةُ الماضي فيه وفيما بعده من الجمل المنتظِمةِ معه في سلك العطف للدلالة على تحقُّقِ الوقوع وتقرُّرِه، كما أنَّ صيغة المضارع في المعطوف عليه للدلالة على الاستمرار، وهو متوجِّهٌ إلى النفع، فيدلُّ الكلام على استمرار انتفاءِ النفع واستمراره[٣] حَسْبَما يقتضيه مقامُ التهويل، أي: قرِّبتِ الجنةُ للمتقين عن الكفر ـ وقيل: عنه وعن سائر المعاصي ـ بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، فيبتهجون بأنهم المحشورون[٤] إليها.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ الضالِّين عن طريق الحقِّ وهو التقوى والإيمان، أي: جُعلت بارزةً لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلةِ، ويتحَسَّرون على أنهم المسوقون إليها.

وفي اختلافِ الفعلين على ما ذكره بعض المحقِّقين ترجيحٌ لجانب الوعد؛ لأنَّ التعبير بالإزلاف ـ وهو غايةُ التقريب ـ يشيرُ[٥] إلى قرب الدخول وتحقُّقِه، ولذا قدِّم

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٨.

(٢) البحر ٧/ ٢٧.

(٣) في تفسير أبي السعود ٦/ ٢٥١ (والكلام منه): ودوامه، بدل: واستمراره.

(٤) في الأصل و(م): المحشرون، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٥) في الأصل: يشعر، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٢٠، والكلام منه.

لسَبْقِ رحمته تعالى، بخلافِ الإبراز وهو الإراءةُ ولو مِن بُعْدٍ، فإنه مُطْمِعٌ في النجاة، كما قيل: من العمود إلى العمود فَرَجٌ.

وقال ابن كمال: في اختلاف الفعلين دلالةٌ على أنَّ أرض الحشر قريبةٌ من الجحيم، وحاصلهُ أنَّ الجنة بعيدةٌ من أرض المحشر بُعداً مكانيًا، والنار قريبةٌ منها قرباً مكانياً، فلذا أسند الإزلاف ـ أي: التقريب ـ إلى الجنة دون الجحيم.

قيل: ولعله مبنيٌّ على أنَّ الجنة في السماء، وأنَّ النار تحت الأرض، وأنَّ تبديل الأرض يومَ القيامة بمدِّها وإذهابِ كُرَيَّتها؛ إذ حينئذٍ يظهر أمرُ البُعْدِ والقُرْب.

لكن لا يخفى أنَّ كون الجنة في السماء مما يعتقده أهل السُّنة، وليس في ذلك خلافٌ بينهم يعتدُّ به، وأمَّا كونُ النار تحت الأرض ففيه توقُّفٌ؛ قال الجلال السيوطيُّ في «إتمام الدراية»: نعتقد أنَّ الجنة في السماء، ونقفُ عن النار ونقول: محلُّها حيث لا يعلمه إلَّا اللهُ تعالى، فلم يثبت عندي حديثٌ أعتمدُه في ذلك، وقيل: تحت الأرض[١]. انتهى.

وكونُ تبديل الأرض بمدِّها وإذهابِ كريَّتها قولٌ لبعضهم، واختار الإمام القرطبيُّ ـ بعد أن نقل في «التَّذْكِرة» أحاديثَ كثيرةً ـ أنَّ تبديلَ الأرض بمعنى أنَّ الله سبحانه يخلقُ أرضاً أخرى بيضاءَ من فضةٍ لم يُسْفَكْ عليها دمٌ حرامٌ، ولا جرى فيها ظلمٌ قطُّ[٢].

والأولى أن يقال في بُعْدِ الجنة وقُرْبِ النار من أرض المحشر: إنَّ الوصول إلى الجنة بالعبور على الصراط، وهو منصوبٌ على متن جهنم كما نطقتْ به الأخبارُ[٣]، فالوصولُ إلى جهنم أولاً وإلى الجنة آخِراً بواسطة العبور، وهو ظاهرٌ في القُرْبِ والبعد.

ثم إنَّ ظاهر الآية يقتضي أنَّ الجنة تُنقَلُ عن مكانها اليوم يومَ القيامة، إذ

---

(١) إتمام الدراية لقراء النقاية ص١٥.

(٢) التذكرة ص١٩١و١٩٢و٢٠٣.

(٣) ينظر حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٧٣) باب: الصراط جسر جهنم، ومسلم (١٨٢).

التقريبُ يستدعي النقلَ، وليس في الأحاديث على ما نعلم ما يدلُّ على ذلك، نعم جاء فيها ما يدلُّ على نقل النار.

ففي «التذكرة»: أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول ﷺ: «يؤتَى بجهنَّم يومئذٍ لها سبعون ألفَ زمامٍ مع كلِّ زمام سبعون ألف مَلَكٍ»[1]، والظاهرُ أنَّ معنى «يؤتى بها»: يجاء بها من المحلِّ الذي خلقها الله تعالى فيه، وقد صرَّح بذلك في «التذكرة»[2].

وقال أبو بكر الرازيُّ في أسئلته[3]: فإنْ قيل: قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قرِّبت، والجنة لا تنتقل عن مكانها ولا تحوَّل.

قلنا: معناه: وأُزلفتِ المتَّقون إلى الجنة، وهذا كما يقول[4] الحاجُّ إذا دنوا إلى مكة: قربَتْ مكةُ منَّا. وقيل: معناه أنها كانت محجوبةً عنهم، فلمَّا رُفِعَتِ الحجُبُ بينها وبينهم كان ذلك تقريباً. انتهى.

ويَرِدُ على الأخير أنه يمكن أن يقال مثلُه في الجحيم، وحينئذٍ يُسألُ عن وجه اختلاف الفعلين.

ويَرِدُ على القول بأنَّ الجنة لا تنتقل عن مكانها أنه خلافُ ظاهرِ الآية، ولا يلزمُ لصحةِ القول به نقلُ حديثٍ يدلُّ على نقلها يومئذٍ، فلا مانع من القول به وتفويضِ الكيفية إلى عِلْمِ مَن لا يُعْجِزُه شيءٌ وهو بكلِّ شيءٍ عليم، وإذا أُريدَ التأويلُ فليكن ذلك بحَمْلِ التقريب على التقريب بحَسَبِ الرؤية وإن لم يكن هناك نقلٌ، فقد يُرى الشيء قريباً وإن كان في نفس الأمر في غاية البعد كما يشاهَدُ ذلك في النجوم، وقد يقرَّبُ البعيد في الرؤية بواسطة المناظر والآلات الموضوعة لذلك، وقد ينعكسُ الحال بواسطتها أيضاً فيُرى القريبُ بعيداً، ومتى جاز وقوعُ ذلك بواسطة الآلات

---

(١) التذكرة ص٣٨٧، والحديث في صحيح مسلم (٢٨٤٢).

(٢) ص٣٨٨.

(٣) واسمه: أسئلة القرآن وأجوبتها، لأبي بكر محمد بن أبي بكر الرازي صاحب مختار الصحاح، المتوفى سنة (٦٦٠هـ)، وهي ألف ومئتا سؤال. كشف الظنون ١/ ٩٢.

(٤) في (م): قال.

في هذه النشأة جاز أن يقع في النشأة الأخرى بما لا يعلمُه إلا اللطيف الخبير، فتأمَّلْ والله تعالى أعلم.

وقرأ الأعمش: «فبرِّزت» بالفاء. وقرأ مالك بن دينار: «وبَرَزَت» بالفتح والتخفيف، و«الجحيمُ» بالرفع على الفاعلية(١).

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْبُدُونَ ۝٩٢﴾ تستمرُّون على عبادته ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاؤكم في هذا الموقف.

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بدَفْعِ ما تشاهدون من الجحيم وما فيها من العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾ بدَفْعِ ذلك عن أنفسهم.

وهذا سؤالُ تقريعٍ لا يُتَوَقَّعُ له جوابٌ، ولذلك قيل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي: أُلقوا في الجحيم على وجوههم مرةً بعد أخرى إلى أن يستقرُّوا في قَعْرِها، فالكبكبةُ تكريرُ الكبِّ، وهو مما ضُوعِفَ فيه الباء(٢) كما قال الزجَّاج(٣) وجمهور البصريين(٤).

وذهب الكوفيون إلى أنَّ الثالث بدلٌ من مِثْلِ الثاني، فأصلُ كَبْكَبَ عندهم: كبَّبَ، فأُبدِلَ من الباء الثانية كافٌ.

وضمير الجمع لِمَا يعبدون من دون الله وهم الأصنام، وأُكِّد بالضمير المنفصل أعني: ﴿هُمْ﴾ وكِلَا الضميرين للعقلاء، واستعملا في الأصنام تهكُّماً، أو بناءً على

---

(١) القراءتان في المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٦، والبحر ٧/ ٢٧. قال أبو حيان عن قراءة الأعمش: جعل تبريز الجحيم بعد تقريب الجنة يعقبه، وهو من تقديم الرحمة على العذاب، وهو حسنٌ لولا أنَّ رسم المصحف بالواو.

(٢) في الأصل و(م): الفاء، والمثبت من البحر ٧/ ٣، والكلام منه، ومثله في تفسير الثعالبي ٣/ ١٤٩.

(٣) البحر ٧/ ٣، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٤، وفيه: وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب، كأنه إذا ألقي ينكبُّ مرةً بعد مرَّةٍ حتى يستقر فيها.

(٤) كذا ذكر المصنف، والذي في البحر ٧/ ٣، والدر المصون ٨/ ٥٣٤، وتفسير الثعالبي ٣/ ١٤٩ أن مذهب البصريين هو أن كبكب حروفه كلها أصلية. ففيها ثلاثة مذاهب كما ذكر السمين: الأول مذهب الزجّاج، والثاني مذهب البصريين، والثالث مذهب الكوفيين، وسيأتي.

إعطائها الفَهْمَ والنطق، أي: كُبْكِبَ فيها الأصنامُ ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ ۝٩٤﴾ الذين عبدوها، والتعبيرُ عنهم بهذا العنوان دون «العابدون» للتسجيل عليهم بوَصْفِ الغواية. وفي تأخير ذِكْرِهم عن ذِكْرِ آلهتهم رمزٌ إلى أنهم يؤخَّرون في الكبكبة عنها ليشاهدوا سوءَ حالها، فينقطع رجاؤهم قبل دخول الجحيم.

وعن السديِّ أنَّ ضمير «كبكبوا» ومؤكِّده لمشركي العرب، و«الغاوون» سائرُ المشركين.

وقيل: الضميرُ للمشركين مطلقاً ويرادُ بهم التَّبَعةُ، و«الغاوون» هم القادةُ المتَّبَعُون.

وقيل: الضمير لمشركي الإنس مطلقاً، و«الغاوون» الشياطين. والكلُّ كما ترى.

ويُبْعِدُ الأخيرَ قولهُ تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ﴾ فإنَّ الظاهر أنَّ المراد منه الشياطينُ، وأنه عَطْفٌ على ما قبله، والعطفُ يقتضي المغايرةَ بالذات في الأغلب، ولا حاجةَ إلى تخريجه على الأقلِّ وجَعْلِه من باب:

إلى الملك القَرْمِ وابنِ الهمام[1]

وقيل: المراد بجنود إبليس متَّبِعوه من عصاة الثَّقَلين.

واختار بعضُ الأجلَّةِ الأولَ، وادَّعى أنه الوجهُ لأنَّ السياق والسباقَ في بيانِ سوءِ حالِ المشركين في الجحيم، وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام لقومه المشركين، فلا وجاهةَ لذكر حال قومٍ آخرين في هذا الحال، بل لا وجودَ لهم في القصة، وذِكْرُ الشياطين مع المشركين لكونهم المسوِّلين لهم عبادةَ الأصنام، ولا يخفى أن للتعميم وجهاً أيضاً من حيث إنَّ فيه مزيدَ تهويلٍ لذلك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿أَجۡمَعُونَ ۝٩٥﴾ تأكيدٌ للضمير وما عُطِفَ عليه.

وقوله سبحانه: ﴿قَالُواْ﴾ إلخ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ عمَّا قبله، كأنه لمَّا قيل: كُبْكِبَ الآلهةُ والغاوون عَبَدتُها والشياطينُ الداعون إليها، قيل: فما وقع؟

---

(١) وعجزه: وليث الكتيبة في المزدحم، وسلف ١/ ٣٤٠ و١٣/ ٨٦ برواية: القرم، بدل: النَّدب. والندب: الخفيف في الحاجة الظريف النجيب. القاموس (ندب).

فقيل: قالوا، أي: العَبدةُ الغاوون ﴿وَهُمْ﴾ أي: الغاوون ﴿فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: يخاصمون مَن معهم من الأصنام والشياطين.

والجملةُ في موضع الحال، والمراد: قالوا معترفين بخطئهم وانهماكهم في الضلالة متحسِّرين معيِّرين لأنفسهم، والحالُ أنهم بصَدَدِ مخاصمةِ مَن معهم، مخاطبين لآلهتهم حيث يجعلها الله تعالى أهلاً للخطاب:

﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ «إنْ» مخففةٌ من المثقَّلة، واسمُها ـ على ما قيل ـ ضميرُ الشأن محذوفٌ، واللامُ فارقةٌ بينها وبين النافية كما ذهب إليه البصريون، أي: إنه ـ أي: الشأنُ ـ كنَّا في ضلالٍ مبين. وذهب الكوفيون إلى أنَّ «إنْ» نافيةٌ، واللام بمعنى «إلَّا»، أي: ما كنَّا إلا في ضلالٍ واضح لا خفاء فيه. ووصفُهم له بالوضوح للمبالغة في إظهار ندمهم وتحسُّرهم، وبيانِ خطئهم في رأيهم مع وضوح الحقِّ، كما ينبئُ عنه تصديرُهم قَسَمَهم بحرف التاء المشعِرةِ بالتعجُّب على ما قيل.

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ ظرفٌ لكونهم في ضلال مبين. وقيل: لمحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ، أي: ضَلَلْنا، وقيل: للضلال المذكور وإن كان فيه ضعفٌ صناعيٌّ من حيث إنَّ المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف، ويهوِّنُ أمرَ ذلك كونُ المعمول ظرفاً. وقيل: ظرفٌ لـ «مبين».

وجوِّز أن تكون «إذ» تعليليةً، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وصيغةُ المضارع لاستحضار الصورة الماضية، أي: تالله لقد كنَّا في غاية الضلال الفاحش وقتَ تسويتِنا إياكم ـ أو: لأنَّا سوَّيْناكم ـ أيها الأصنام في استحقاق العبادة بربِّ العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلُّهم وأَعْجَزُهم.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الظاهرُ بناءً على ما تقدَّم من أنَّ الاختصام مع الأصنام والشياطين أن يكون المراد بالمجرمين الشياطينَ؛ ليكون ذلك من الاختصام معهم وإنْ لم يُورَدْ على وجه الخطاب، كما أنَّ ما تقدَّم من الاختصام مع الأصنام، وكونُ المراد بهم ذلك مرويٌّ عن مقاتل.

وفي «إرشاد العقل السليم»[١]: أنه بيانٌ لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم. والمرادُ بالمجرمين رؤساؤهم وكبراؤهم، كما في[٢] قوله تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧].

وعن السديِّ: هم الأوَّلون الذين اقتدوا بهم.

وقيل: مَن دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجنِّ والإنس. وعن ابن جريج: أنهم إبليس وابنُ آدم القاتلُ؛ لأنه أوَّلُ مَن سنَّ القتلَ والمعاصي.

والقَصْرُ قيل: بالنسبة إلى الأصنام، ولعلهم أرادوا بنفي الإضلال عنها إهانتَها بأنها لا قدرةَ لها، وفيه تأكيدٌ لكونهم في ضلال مبين، ولعل الأَوْلى كونُه قَصْراً حقيقيّاً بادِّعاء أنهم الأوحديُّون في سببيةِ الإضلال، حتى إنَّ سببيةَ غيرهم له كَلَا سببيةٍ، وهذا واضحٌ في الشياطين لأنَّ إضلال غيرهم من الكبراء ونحوهم بواسطة إضلالهم؛ لأنهم الذين يزيِّنون الباطلَ للمتبوع والتابع، ويمكن أن يعتبر في غيرهم بضربٍ من التأويل، وذلك إذا أريد بالمجرمين غيرُهم. ثم إن المشركين لا يزالون في حيرةٍ يومَ القيامة لا يدرون بم يتشبَّثون، فلا يضرُّ إسنادُهم الإضلالَ تارةً إلى شيءٍ، وأخرى إلى غيره، على أنَّ الإسناد إلى كلٍّ باعتبارٍ هذا.

وجوِّز أن يكون الاختصامُ بين العَبَدةِ بعضِهم مع بعضٍ، والخطابُ في «نسوِّيكم» للأصنام من غيرِ التزامِ القول بجَعْلِهم أهلاً له، بل هو كخطاب المضطرِّ للحَجَر والشجر، وفيه مبالغةٌ في التحسُّر والندامة، والمعنى: إنَّ العبدة مع تخاصُم بعضهم مع بعضٍ بأن يقول أحدهم للآخر: أنت مبدأ ضلالي ولولا أنت لكنتُ مؤمناً، اعترفوا بجرمهم وتعجَّبوا وبيَّنوا سببه.

وجوِّز أيضاً أن يكون من الأصنام، يُنْطِقُهم الله تعالى فيخاصمون العبدةَ، فضمير «هم» عائدٌ عليهم، والمعنى: قال العبدةُ معترفين بضلالهم متعجِّبين منه مبيِّنين سببه: إن كنَّا.. إلخ، والحالُ أنَّ الأصنام يخاصمونهم قائلين: نحن جماداتٌ متبرِّئون عن جميع المعاصي، وأنتم اتَّخذْتُمونا آلهةً فألقيتمونا في هذه الورطة.

---

(١) ٦/ ٢٥٢.

(٢) في (م): وفي، بدل: كما في، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

وهذا كلُّه على تقدير كون جملة «قالوا» مستأنفةً كما هو الظاهر. وجوِّز أن يكون «جنود إبليس» مبتدأ، وجملةُ «قالوا» إلخ خبره، وضمير «قالوا» وكذا ما بعده عائدٌ عليه.

وأنت تعلم أنه مع كونه خلافَ الظاهر لا يتسنَّى على تقديرِ أنْ يرادَ بجنود إبليس الشياطينُ لِمَا أنَّ المقول المذكور لا يصحُّ أن يكون منهم، وإذا أُريدَ بهم متَّبعوه من عصاة الثَّقَلَيْنِ عَبَدةِ الأصنام وغيرهم يَرِدُ أنَّ المقولَ المذكورَ قولُ فرقةٍ منهم وهي العبدةُ، فإسنادهُ إلى الجميع خلافُ الظاهر.

ويَبْعُدُ كلَّ البُعْدِ ـ بل لو قيل بفساده لم يَبعُدْ ـ احتمالُ كونِ كلِّ شخصٍ سواءٌ كان من عبدة الأصنام أو غيره يخاصمُ مع كلِّ مَن يصادفهُ، من غيرِ صلاحية الآخَر للاختصام، ويقول ما ذكر للأصنام لغاية الحيرة والضجرة.

نعم لو أريدَ بجنود إبليس ـ على تقديرِ كونه مبتدأً، ورجوعِ الضمائر إليه ـ الغاوون بعينهم، وتكونُ الإضافة للعهد، والتعبيرُ عنهم بهذا العنوان بعد التعبير عنهم بالعنوان السابق لتذليلهم = لم يَبْعُدْ جدًّا.

ومن الناس مَن جوَّز الابتدائية والخبريةَ المذكورتين، وفسَّر الجنودَ بالعصاة مطلقاً، وجَعَل ضمير «قالوا» لـ «الغاوون»، وضميرَ «هم» و«يختصمون» للجنود أو للأصنام. وفيه مع خروج الآية عليه عن حُسْنِ الانتظام ما لا يخفى على ذوي الأفهام.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ مرتَّبٌ على ما اعترفوا به من عظم الجناية وظهورِ الضلالة. والمراد التلهُّفُ والتأسُّفُ على فَقْدِ شفيعٍ يشفعُ لهم مما هم فيه، أو صديقٍ شفيقٍ يهمُّه ذلك.

وقد ترقَّوا ـ لمزيد انحطاط حالهم ـ في التأسُّفِ، حيث نَفَوا أولاً أن يكون لهم مَن ينفعُهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته، ونفوا ثانياً أن يكون لهم مَن يَهمُّه أمرُهم ويُشْفِقُ عليهم ويتوجَّعُ لهم وإن لم يخلِّصهم.

وأتي بالشافع في سياق النفي جمعاً، وإن كان حكمُ هذا الجمع في الاستغراق لمكان «من» الزائدةِ حُكْمَ المفرد بلا خلافٍ، إنَّما الخلاف فيما إذا لم تُزَدْ «مِن» بعدَ النفي داخلةً على الجمع، رعايةً لِمَا كانوا يأتون به في الإثبات من الجمع.

وقال في «الكشاف»: جُمِعَ الشافعُ لكثرة الشفعاء ووحِّد الصديقُ لقلَّتِه، ألا ترى أنَّ الرجل إذا امتُحِنَ بإرهاقِ ظالمٍ نهضت جماعةٌ وافرةٌ من أهل بلده رحمةً له وحسبةً وإن[1] لم تسبق له بأكثرهم معرفةٌ، وأمَّا الصديقُ الصادقُ في ودادك الذي يهمُّه ما يهمُّك فهو أعزُّ من بيض الأنوق. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع[2]. أي: فإنه يُطلَقُ عليه لِمَا أنه على زِنةِ المصدر، بخلاف الشافع.

وذكر البيضاويُّ في توحيد الصديق وجهاً آخر أيضاً، وهو أنَّ الصديق الواحدَ يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء[3]. وحاصلُه أنَّ الواحد في معنى الجمع بحسب العادة، فلذا اكتفى به لما فيه من المطابقة المعنوية، كما قيل:

والناسُ ألفٌ منهمُ كواحدٍ ... وواحدٌ كالألف إنْ أمرٌ عَنَا[4]

وقال بعضُ الكَملة: إنَّ إيراد الشافعين بصيغة الجمع لمجرَّد مصلحةِ الفاصلة، وأمَّا إيرادُ الصديق مفرداً فلأنَّ المقامَ مقامُ المفرد، ومصلحةُ الفاصلة حصلتْ قبله. وهو كما ترى.

وقال سعدي[5] أفندي: لا يبعُدُ أن يكون جمعُ الأول وإفرادُ الثاني إشارةً إلى أنه لا فرق بين الاستغراقين.

وفيه أنَّ إيثار صيغةٍ لإفادة مسألةٍ عربيةٍ ليس من دَأْبِ القرآن المجيد.

والذي أميلُ إليه أنَّ الإفراد على الأصل، والجمعُ وإن أدى مؤدَّاه على سَنَنِ ما كانوا يقولونه ويزعمونه في الدنيا من تعدُّدِ الشفعاء، ولا يضرُّ في ذلك كونُ المنفيِّ هنا أعمَّ من المثبت هناك، من حيث شمولُه للأصنام والكبراء والملائكة والأنبياء عليهم السلام كما هو المتبادرُ إلى الفهم.

---

(١) في (م): إن، والمثبت من الأصل والكشاف.
(٢) الكشاف ٣/ ١١٩.
(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢١، وما بعده من كلام الشهاب.
(٤) سلف ٧/ ٤٣٥.
(٥) في (م): سعد. وسعدي أفندي هو سعد الله بن عيسى، له حاشية على تفسير البيضاوي من أول سورة هود إلى آخر القرآن، توفي سنة(٩٤٥هـ). كشف الظنون ١/ ١٩١.

وأخرج ابنُ جريرٍ وابنُ المنذر عن عكرمةَ عن ابن جُرَيْجٍ[١] أنَّ المعنى: فما لنا من شافعين من أهل السماء، ولا صديقٍ حميم من أهل الأرض.

وزعم بعضهم أنهم عَنَوا بالشافعين هنا ما عَنَوا بالمجرمين من كبرائهم وساداتهم، وفرَّعوا النفي على قولهم: «ما أضلَّنا إلا المجرمون» فكأنهم قالوا: سادتُنا وكبراؤنا الذين أضلُّونا مجرمون معذَّبون مثلنا، فلم يقدروا على السعي في نَفْعِنا والشفاعةِ لنا.

وفي «الكشاف»: «فما لنا من شافعين» كما نرى المؤمنين لهم شفعاءُ من الملائكة والنبيِّين، «ولا صديقٍ» كما نرى لهم أصدقاء، فإنه لا يتصادقُ في الآخرة إلا المؤمنون، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. أو فما لنا من شافعين ولا صديقٍ حميم من الذين كنَّا نعدُّهم شفعاءَ وأصدقاءَ؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، وكان لهم الأصدقاءُ من شياطين الإنس، أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكةٍ علموا أنَّ الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفيَ ما يتعلَّق بهم من النفع؛ لأنَّ مالا ينفع حُكْمُه حُكْمُ المعدوم[٢]. انتهى.

والظاهرُ على هذا الأخير أنَّ الكلام كنايةٌ عن شدَّة الأمر بحيث لا ينفعُ فيه أحدٌ ولو أدنى نفعٍ، وهو وجهٌ وجيهٌ.

والوجهُ الأولُ لا يكاد يَتَسنَّى على مذهب المعتزلة الذين لا يجوِّزون الشفاعةَ في الخلاص من النار بعد دخولها أو قبله؛ لأنَّ الظاهر من قولهم: فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين: فما لنا من شافعين يخلِّصونا من النار كما نرى المؤمنين لهم شفعاءُ من الملائكة والنبيين يخلِّصونهم منها، فارتضاءُ الزمخشريِّ لهذا الوجه غريبٌ، اللَّهمَّ إلَّا أن يقال: المرادُ التشبيهُ

(١) كذا ذكر المصنف، والصواب أنهما خبران أخرجهما ابن جرير وابن المنذر: الأول عن عكرمة، والثاني ـ وهو المذكور هنا ـ عن ابن جريج. ينظر الدر المنثور ٥/ ٩١، وخبر ابن جريج في تفسير الطبري ٥/ ٩١.

(٢) الكشاف ٣/ ١١٩.

باعتبار مطلق الشفاعة، والمعتزلة يجوِّزون بعض أصنافها، كالشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة، لكنْ لا يخلو عن بُعْدٍ، واللهُ تعالى أعلم.

و«لو» في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ مستعملةٌ في التمنِّي بدليلِ نصبِ قوله سبحانه: ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ في جوابها، وأصلُها «لو» الامتناعية، وحيث إنَّ التمنِّي يكون لِمَا يَمتنِعُ أريدَ بها ذلك مجازاً مرسلاً أو استعارةً تبعيةً، ثم شاع حتى صارت كالحقيقة في ذلك. وقيل: هي حقيقةٌ فيما ذكر. وقيل: أصلُها المصدرية، وليس بشيء.

والمعنى: فليت لنا رجعةً إلى الدنيا فأنْ نكونَ من المؤمنين فلا ينالنا إذا متنا فبُعِثْنا مثلُ ما نحن فيه من العذاب الذي لا ينفع فيه أحد.

وجوِّز كونُ «لو» شرطيةً وجوابُها محذوفٌ، والتقدير: لفعلنا من الخيرات كيتَ وكيتَ، أو: لخلصْنا من العذاب، أو: لكان لنا شفعاءُ وأصدقاءُ، أو: ما أضلَّنا المجرمون. والتقديرُ الأول أَجْزَلُ، ويقدَّر المحذوفُ بعد «فنكون» إلخ لأنَّ المصدر المتحصّلَ منه معطوفٌ على «كرة»، أي: فلو أنَّ لنا كرةً فكوناً[١] من المؤمنين لفعلنا.. إلخ.

وتعقَّب شيخُ الإسلام ذلك بأنه إنما يفيدُ تحقُّقَ مضمون الجواب على تقدير تحقُّقِ كرَّتِهم وإيمانهم معاً، من غير دلالةٍ على استلزام الكرَّة للإيمان أصلاً مع أنه المقصود حتماً[٢].

وفي قوله: من غير دلالةٍ.. إلخ، بحثٌ على ما قيل، حيث يمكن أن يقال: حاصلُ الآية: إنْ تيسَّر لنا الرجعةُ والإيمانُ المتعقِّب إياها لفعلنا من عبادات أهل الإيمان ما يقصر عنه العبارة، والتزامُ ثمرات الإيمان التزامٌ للإيمان أولاً، ومقصودُهم بيانُ استلزامِ الرجعة لفعل الخيرات كلِّها، وأمَّا نفسُ الإيمان بعد هذه المشاهدة فلا يحتاج إلى البيان.

وقال بعض الناس: إن قولهم: «فنكونَ من المؤمنين» بمعنى: فنكون من

---

(١) في (م): فنكونا، وهو تصحيف.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٥٣.

المقبول إيمانُهم، وقبولُ الله تعالى إيمانَهم لا يترتَّب على رجعتهم البتةَ، بل يجوزُ أن يتخلَّف، فلا بدَّ أن يكون مرادهم: إنْ تيسَّر لنا الرجعةُ وإن قُبِلَ إيمانُنا لفعلنا.. إلخ، فليس المقصودُ الدلالةَ على استلزام الكرَّة للإيمان كما زعم شيخ الإسلام. ونوقش فيه بأنَّ تيسُّر الرجعةِ إنما يكون لرحمة الله تعالى وعفوِه، وهي تستلزمُ قبولَ إيمانهم.

والحقُّ أنه لا ينبغي الالتفاتُ إلى احتمال شرطيةِ «لو» والتكلُّفُ له، مع جزالةِ المعنى الظاهرِ المتبادر.

والكلامُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ قد تقدَّم آنفاً فلا حاجة إلى إعادته، وقد علمتَ مختارَنا في ذلك فتذكَّر فما في العهد من قِدَمٍ.

ولشيخ الإسلام[1] كلامٌ في هذه الآية لا يَخْفَى ما فيه على المتأمِّل، فتأمَّل.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ القومُ كما في «المصباح» يذكَّر ويؤنَّث، وكذلك كلُّ اسمِ جمعٍ لا واحدَ له من لَفْظِه، نحو: رَهْط ونَفَر[2]، ولذا يصغَّر على قُوَيْمة.

وقيل: هو مذكَّر، ولحقتْ فعلَه علامةُ التأنيث على إرادةِ الأمة والجماعةِ منه.

وتكذيبُهم المرسلين باعتبار إجماع الكلِّ على التوحيد وأصولِ الشرائع، التي لا تختلف باختلافِ الأزمنة والأعصار.

وجوِّز أن يراد بالمرسلين نوحٌ عليه السلام بجَعْلِ اللام للجنس، فهو نظيرُ قولك: فلانٌ يركب الدوابَّ ويلبسُ البُرودَ. وما له إلَّا دابةٌ واحدةٌ وبُرْدٌ واحد.

و«إذ» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ ظرفٌ للتكذيب على أنه عبارةٌ عن زمانٍ مديدٍ وقع فيه ما وقع من الجانبين إلى تمام الأمر، كما أنَّ تكذيبهم عبارةٌ عمَّا صدر منهم من حين ابتداءِ دعوته عليه السلام إلى انتهائها.

وزعم بعضهم أن «إذ» للتعليل، أي: كذَّبَتْ لأجْلِ أنْ قال لهم ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾

---

(١) في تفسيره ٦/ ٢٥٣.
(٢) المصباح المنير (قوم).

أي: نسيبهم، كما يقال: يا أخا العرب، ويا أخا تميم، وعلى ذلك قوله:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[(١)]

والضميرُ لقوم نوح. وقيل: هو للمرسلين، والأخوَّةُ: المجانسةُ، وهو خلافُ الظاهر.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ الله عزَّ وجلَّ حيث تعبدون غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله تعالى أرسلني لمصلحتكم ﴿أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ مشهورٌ بالأمانة فيما بينكم. وقيل: أمينٌ على أداء رسالته جلَّ شأنه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعةِ لله تعالى. وقدَّم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بالطاعة لأنَّ تقوى الله تعالى سببٌ لطاعته عليه السلام.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أنا متصدٍّ له من الدعاء والنصح ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما أطلبُ منكم على ذلك أجراً أصلاً، لا مالاً ولا غيرَه ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ فيما أتولَّاه ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فهو سبحانه الذي يؤجِرُني في ذلك تفضُّلاً منه، لا غيرُه.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تَنزُّهِه عليه السلام من الطمع، كما أنَّ نظيرتها السابقةَ لترتيب ما بعدها على كونه رسولاً من الله تعالى بما فيه نَفْعُ الدارين مع أمانته، والتكريرُ للتأكيد والتنبيهِ على أنَّ كلّاً منهما مستقلٌّ في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا؟

وقرئ: «إنْ أَجريْ» بسكون الياء[(٢)]، وهو والفتحُ لغتان مشهورتان في مثل ذلك اختلف النحاةُ في أيتهما الأصل.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي: وقد اتَّبعك، على أنَّ الجملة في موضع الحال، و«قد» لازمةٌ فيها إذا كان فعلها ماضياً، وكثيرٌ من الأجلَّة لا يوجبُ ذلك.

وقرأ عبد الله وابنُ عباس والأعمشُ وأبو حيوةَ والضحَّاك وابنُ السَّمَيْفَع وسعيد بنُ

---

(١) البيت لقريط بن أنيف، وسلف ١٠/٣٥٦.

(٢) هي قراءة حمزة والكسائي وابن كثير وشعبة ويعقوب وخلف. التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/٣٣٦.

أبي سعيد الأنصاريُّ وطلحةُ ويعقوبُ: «وأتباعُك»[١] جمعُ تابعٍ، كصاحبٍ وأصحاب. وقيل: جمع تَبيعٍ، كشريف وأشراف. وقيل: جمع تَبَعٍ، كبَطل وأبطال. وهو مرفوعٌ على الابتداء، و«الأرذلون» خبرُه، والجملةُ في موضع الحال أيضاً.

وقيل: معطوفٌ على الضمير المستتر في «نؤمن» وحَسُنَ ذلك للفصل بـ «لك»، و«الأرذلون» صفتُه. ولا يخفى أنه ركيكٌ معنًى.

وعن اليماني: «وأتباعِكَ» بالجرِّ عطفاً على الضمير في «لك»، وهو قليل، وقاسه الكوفيون، و«الأرذلون» رفعٌ بإضمارِ «هم»[٢]. وهو جمعُ الأرذل على الصحة، والرذالةُ: الخسَّةُ والدناءة.

والظاهر أنهم إنما استرذلوا المؤمنين به عليه السلامُ لسوءِ أعمالهم، يدلُّ عليه قولُه في الجواب: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: ما وظيفتي إلا اعتبارُ الظواهر وبناءُ الأحكام عليها، دون التجسُّسِ والتفتيش عن البواطن.

و«ما» استفهاميةٌ. وقال الحوفيُّ والطبرسيُّ[٣]: نافيةٌ، وعليه يكون في الكلام حذفٌ، أي: وما عِلْمي بما كانوا يعملون ثابتٌ.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي: ما محاسبتُهم على ما يعملون ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ فاعتبارُ البواطنِ من شؤونه عزَّ وجلَّ وهو المطَّلعُ عليها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: بشيءٍ من الأشياء، أو: لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك لكنكم لستم كذلك فلذا قلتم ما قلتم، و«أل» على هذا الوجه للجنس.

وقال جمعٌ: إنَّ استرذالهم إياهم لقلَّة نصيبهم من الدنيا.

وقيل: لكونهم من أهل الصناعات الدنيئة، وقد كانوا كما روي عن عكرمة حاكةً وأساكفة.

وقيل: لاتِّضاع نسبهم.

---

(١) النشر ٢/ ٣٣٥ عن يعقوب، وذكرها عن الباقين ابن جني في المحتسب ٢/ ١٣١، وأبو حيان في البحر ٧/ ٣١.
(٢) البحر ٧/ ٣١.
(٣) في مجمع البيان ١٩/ ١٦٥، وذكره عن الحوفي أبو حيان في البحر ٧/ ٣١.

ومنشأ ذلك على الجميع سخافةُ عقولهم وقصورُ أنظارهم؛ لأنَّ الفقر ليس من الرذالة في شيء:

قد يُدرِكُ المجدَ الفتى ورداؤه خلقٌ وجيبُ قميصِه مَرْقوعُ[1]

وكذا خسَّةُ الصناعة لا تزري بالشرف الأخرويِّ، ولا تلحق التقيّ نقيصة عند الله عز وجل، وقد أنشد أبو العتاهية:

وليس على عبدٍ تقيٍّ نَقيصةٌ إذا صحَّحَ التقوى وإنْ حاكَ أو حَجَمْ[2]

ومثلُها ضعةُ[3] النسب، فقد قيل:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه إذا افْتَخَروا بقيسٍ أو تميمِ[4]

وما ذكره الفقهاء في باب الكفاءة مبنيٌّ على عُرْفِ العامَّةِ لانتظام أمرِ المعاش ونحوِه، على أنه روي عن الإمام مالكٍ عَدَمُ اعتبارِ شيء من ذلك أصلاً، وأنَّ المسلمين كيفما كانوا أَكْفاءَ بعضهم لبعض.

و«أل» على هذه الأقوال للعهد.

والجواب بما ذُكر عمَّا[5] أشاروا إليه بقولهم ذلك من أنَّ إيمانهم لم يكن عن نظرٍ وبصيرةٍ وإنما كان لحظٍّ نفسانيٍّ، كحصولِ شوكةٍ بالاجتماع ينتظمون بها في سِلْكِ ذوي الشرفِ، ويُعدُّون بها في عدادهم، وحاصلهُ: وما وظيفتي إلَّا اعتبارُ الظواهر دون الشَّقِّ عن القلوب، والتفتيشِ عمَّا في السرائر، فما يضرُّني[6] عدمُ إخلاصهم في إيمانهم كما تزعمون.

(١) البيت لإبراهيم بن هرمة، وهو في ديوانه ص١٤٣ برواية: قد يدرك الشرفَ الفتى...

(٢) ديوان أبي العتاهية ص٣٤٩.

(٣) في (م): صفة.

(٤) البيت لنهار بن تَوْسِعةَ كما في الكامل ٣/ ١٠٩٧، والحلل للبطليوسي ص٢١٢، والشعر والشعراء ١/ ٥٣٧، وفيه: ... إذا هتفوا ببكرٍ أو تميم. ونسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٩٦ لعيسى بن فاتك.

(٥) قوله: عما، متعلق بخبر محذوف، والمبتدأ هو قوله: الجواب.

(٦) في الأصل: يضرُّ في.

وجوَّز أن يقال: إنَّهم لمَّا قالوا: «واتَّبعك الأرذلون» وعَنَوا: الذين لا نصيب لهم من الدنيا، أو الذين اتَّضَعتْ أنسابهم، أو كانوا من أهل الصنائع الدنيَّة[١]، تَغابَى عليه السلام عن مرادهم، وخيَّل لهم أنهم عَنَوا بالأرذلين مَن لا إخلاصَ له في العمل ولم يُؤْمِنْ عن نظرٍ وبصيرةٍ، فأجابهم بما ذُكر كأنه ما عَرَفَ من الأرذلين إلَّا ذلك. ولو جُعِل هذا نوعاً من الأسلوب الحكيم لم يَبعُدْ عندي، وفيه مِن لُطْفِ الردِّ عليهم وتقبيحِ ما هم عليه ما لا يخفى.

وزعم بعضُهم أنهم عَنَوا بالأرذلين نساءَه عليه السلام وبَنيهِ وكَنَّاتِه وبني بَنيه. واسترذالهم لضعة[٢] النسب لا يتصوَّر في جميعهم حقيقةً كما لا يخفى، فلا بدَّ عليه من اعتبارِ التغليب ونحوِه.

وقرأ الأعرج وأبو زرعةَ وعيسى بن عمر الهمذانيُّ: «يشعرون» بياء الغيبة[٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ جوابُ عمَّا أَوْهَمه كلامُهم من استدعاء طَرْدِهم وتعليقِ إيمانهم بذلك، حيث جعلوا اتِّباعَهم مانعاً عنه، وقد نُزِّلوا لذلك منزلةَ مَن يدَّعي أنه عليه السلام ممن يطردُ المؤمنين، وأنه ممن يُشْتَرَكُ معه فيه، فقدِّم المسندُ إليه وأُوْلِيَ حرفَ النفي لإفادة أنَّ ذلك ليس شأنَه بل شأنُ المخاطَبين. وجوِّز أن يكون التقديم للتقوِّي، وهو أقلُّ مؤونةً كما لا يخفى.

وقيل: إنَّهم طلبوا منه عليه السلام طردَهم فأجابهم بذلك، كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ طَرْدَ مَن آمَنَ به من الضعفاء فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الأنعام:٥٢]. وقولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ كالعلَّة له، أي: ما أنا إلَّا رسولٌ مبعوثٌ لإنذارِ المكلَّفين وزَجْرِهم عمَّا لا يرضيه سبحانه وتعالى، سواءٌ كانوا من الأشرفين أو الأرذلين، فكيف يتسنَّى لي طردُ مَن زعمتُم أنهم أرذلون. وحاصلُه: أنا مقصورٌ على إنذار المكلَّفين لا أتعدَّاه إلى طَرْدِ الأرذلين منهم.

---

(١) في (م): الدنيئة.

(٢) في (م): لعضة، وهو تصحيف.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٣١.

أو: ما عليَّ إلا إنذارُكم بالبرهان الواضح، وقد فعلتُه، وما عليَّ استرضاءُ بعضكم بطرد الآخرين، وحاصله: أنا مقصورٌ على إنذاركم لا أتعدَّاه إلى استرضائكم.

وقيل: إنَّ مجموع الجملتين جوابٌ، وإنَّ إيلاء الضميرِ حرفَ النفي يدلُّ على أنهم زعموا أنه عليه السلام موصوفٌ بصفتين: إحداهما اتِّباعُ أهوائهم بطَرْدِ المؤمنين لأجْلِ أن يؤمنوا، وثانيتُهما أنه نذيرٌ مبينٌ، فقصر الحكم على الثاني دون الأول. ولا يخلو عن بحث.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عمَّا أنت عليه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ أي: المَرميِّينَ بالحجارة، كما روي عن قتادة. وهو توعُّدٌ بالقتل، كما روي عن الحسن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدِّي أنَّ المعنى: من المشتومين[1]، على أنَّ الرجم مستعارٌ للشتم كالطعن.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنهم ـ قَاتَلَهم الله تعالى ـ قالوا ذلك في أواخِرِ الأمر، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾: استمرُّوا على تكذيبي، وأصرُّوا عليه بعد ما دعوتُهم هذه الأزمنةَ المتطاولةَ، ولم يَزِدْهم دعائي إلَّا فراراً[2].

وهذا ليس بإخبارٍ بالاستمرار على التكذيب؛ لِعِلْمِه عليه السلام أنَّ عالِمَ الغيب والشهادة أعلمُ؛ ولكنه أراد إظهارَ ما يدعو عليهم لأجْله وهو تكذيبُ الحقِّ، لا تخويفُهم له واستخفافُهم به في قولهم: «لئن لم تَنتهِ يا نوحُ لتكوننَّ من المرجومين»، تلطُّفاً في فتح باب الإجابة؛ وقيل: لدَفْعِ توهُّم الخَلْقِ فيه التجاوُزَ[3] أو الحدَّة.

وقيل: إنه خبرٌ لم يُقْصَدْ منه الإعلامُ أصلاً، وإنما أُورِدَ لغَرَضِ التحزُّنِ والتفجُّع كما في قوله:

قومي هُمُ قتلوا أميمَ أخي فلئن رَمَيتُ يُصيبُني سَهْمي[4]

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٥٥.
(٣) في(م): المتجاوز، وفي حاشية الشهاب ٧/ ٢٢: التجاري.
(٤) سلف ٤/ ١٣٦.

ويُبعِدُ ذلك في الجملة تفريعُ الدعاء عليهم بقوله تعالى: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ على ذلك، أي: احكم بيننا بما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منَّا، من الفتّاحة[١] بمعنى الحكومة. و«فتحاً» مصدر، وجوِّز أن يكون مفعولاً به على أنه بمعنى مفتوحاً. وهذه حكايةٌ إجماليةٌ لدعائه عليه السلام المفصَّلِ في سورة نوح.

﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ أي: من قَصْدِهم، أو شؤمِ أعمالهم، وفيه إشعارٌ بحلول العذاب بهم.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ على حَسَبِ دعائه عليه السلام ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩﴾ أي: المملوء بهم وبما يحتاجون إليه: حالاً كالطعام، أو مآلاً كالحيوان.

والفلكُ يستعمل واحداً وجمعاً، وحيث أتى في القرآن الكريم فاصلةً استُعْمِل مفرداً، أو غيرَ فاصلةٍ استُعمِلَ جمعاً، كما في «البحر»[٢].

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ﴾ أي: بعدَ إنجائهم، و«ثم» للتفاوتِ الرُّتْبيِّ، ولذا قال سبحانه بعدُ: (بَعْدُ). ﴿ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠﴾ أي: من قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢﴾ الكلامُ فيه نظيرُ الكلام فيما تقدَّم.

وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ بيدَ أنَّ تأنيث الفعل هنا باعتبارِ أنَّ المراد بـ «عادٍ» القبيلةُ، وهو اسمُ أبيهم الأقصى، وكثيراً ما يعبَّر عن القبيلة إذا كانت عظيمةً بالأب، وقد يعبَّر عنها ببني أو بآلٍ مضافاً إليه، فيقال: بنو فلان أو آلُ فلان.

وكذا الكلامُ في قوله سبحانه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧﴾.

---

(١) بضم الفاء وكسرها. القاموس (فتح).
(٢) ٧/ ٣٢.

وحكايةُ الأمر بالتقوى والإطاعة، ونفي سؤال الأجر في القصص الخمس، وتصديرُها بذلك؛ للتنبيه على أنَّ مَبْنَى البعثة هو الدعاءُ إلى معرفة الحقِّ والطاعةِ فيما يقرِّبُ المدعوَّ إلى الثواب، ويُبْعِدُه من العقاب، وأنَّ الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفةِ باختلاف الأزمنة والأعصار، وأنهم عليهم السلامُ منزَّهون عن المطامع الدنيوية بالكلِّية.

ولعله لم يسلك هذا المسلك في قصتي موسى وإبراهيم عليهما السلام تفنُّناً مع ذكر ما يُشْعِرُ بذلك. وقيل: إن ما ذُكر ثَمةَ أهمّ.

وكانت منازلُ عادٍ بين عُمان وحضرموت، وكانت أخصبَ البلاد وأعْمَرَها، فجعلها الله تعالى مفاوِزَ ورمالاً، ويشير إلى عمارتها قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: طريق، كما روي عن ابن عباس وقتادة.

وأخرج ابن جَريرٍ وجماعةٌ عن مجاهدٍ: أنَّ الرِّيع الفجُّ بين الجبلين[1].

وعن أبي صخر[2]: أنه الجبلُ والمكان المرتفع عن الأرض.

وعن عطاء: أنه عينُ الماء.

والأكثرون على أنه المكانُ المرتفع، وهو روايةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومنه ريعُ النبات: وهو ارتفاعُه بالزيادة والنماء.

وقرأ ابن أبي عبلة: «رَيْعٍ» بفتح الراء[3].

﴿ءَايَةً﴾ أي: عَلَماً، كما رُوي عن الحبر رضي الله عنه. وقيل: قصراً عالياً مَشِيداً كأنه عَلَمٌ، وإليه ذهب النقَّاش وغيرُه، واستَظْهره ابن المنير[4]، ويمكن حَمْلُ ما روي عن

---

(١) تفسير الطبري ١٧/٦٠٨.

(٢) هو حميد بن زياد بن أبي المخارق الخراط، مدني سكن مصر، ويقال: هو حميد بن صخر أبو مودود الخراط، توفي سنة (١٩٨هـ)، من رجال التهذيب. وكلامه في تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٧٩٣.

(٣) البحر ٧/ ٣٢، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٢١ دون نسبة. وقال ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٧: حكاه الكسائي على أنه لغة، فتح الراء.

(٤) في الانتصاف ٣/ ١٢١.

الحبر عليه، وحينئذٍ فقولُه تعالى: ﴿تَعۡبَثُونَ ۝١٢٨﴾ على معنى: تعبثون ببنائها؛ لِمَا أنَّهم لم يكونوا محتاجينَ إليها، وإنما بَنَوْها للفَخْرِ بها.

والعبثُ ما لا فائدةَ فيه حقيقةً أو حُكْماً، وقد ذُمَّ رفعُ البناء لغيرِ غَرَضٍ شرعيٍّ في شريعتنا أيضاً.

وقيل: إنَّ عبثهم في ذلك من حيث إنهم بَنَوْها ليهتدوا بها في أسفارهم، والنجومُ تُغني عنها. واعتُرِضَ بأنَّ الحاجة تدعو لذلك، لغيم مطبق أو ما يجري مجراه.

وأجيب بأنَّ الغيم نادرٌ لا سيما في ديارِ العرب، مع أنه لو احتيجَ إليها لم يُحْتَجْ إلى أنْ تُجعَلَ في كلِّ ريعٍ، فيكون بناؤها كذلك عبثاً.

وقال الفاضل اليمنيُّ: إنَّ أماكنها المرتفعةَ تغني عنها، فهي عبثٌ.

وقيل: كانوا يبنون ذلك ليُشْرِفوا على المارَّة والسابلةِ فيَسْخَروا منهم ويَعْبَثوا بهم، وروي ذلك عن الكلبيِّ والضحاك.

وعن مجاهدٍ وابن جُبير: أنَّ الآية برجُ الحمام، كانوا يبنون البروج في كلِّ ريعٍ ليلعبوا بالحمام ويَلْهُوا به.

وقيل: بيت العشَّار، يبنونه بكلِّ رأس طريقٍ فيجلسون فيه ليعشِّروا مالَ مَن يمرُّ بهم. وله نظيرٌ في بلادنا اليوم، ولا مستعانَ إلَّا بالله العليِّ العظيم.

والجملةُ في موضع الحال، وهي حالٌ مقدَّرةٌ على بعض الأقوال.

﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾ أي: تعملون ﴿مَصَانِعَ﴾ أي: مآخذَ للماء، ومجاريَ تحت الأرض، كما روي عن قتادة. وفي روايةٍ أخرى عنه: أنها بِرَكُ الماء، وعن مجاهدٍ: أنها القصورُ المَشيدة.

وقيل: الحصونُ المُحكَمةُ، وأنشدوا قول لبيد:

وتبقى جبالٌ بعدنا ومصانعُ[1]

وليس بنصٍّ في المدَّعَى.

---

(١) ديوان لبيد ص١٦٨ برواية:

بَلِينا وما تَبْلَى النجومُ الطَّوالعُ ... وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانع

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: راجينَ أنْ تَخْلُدوا في الدنيا، أو عاملينَ عملَ مَن يرجو الخلودَ فيها، فـ «لعل» على بابها من الرجاء.

وقيل: هي للتعليل، وفي قراءة عبد الله: «كي تخلدون»[١].

وقال ابن زيد: هي للاستفهام على سبيل التوبيخ والهزء بهم، أي: هل أنتم تخلدون. وكونُ «لعل» للاستفهام مذهبٌ كوفيٌّ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: كأنكم خالدون، وقرئ بذلك كما روي عن قتادة[٢]، وفي حرف أبيٍّ: «كأنكم تخلدون»[٣].

وظاهرُ ما ذُكر أنَّ «لعل» هنا للتشبيه، وحَكَى ذلك صريحاً البغويُّ عن الواقديِّ[٤]، وفي «البرهان»: هو معنًى غريبٌ لم يذكره النحاة، ووقع في «صحيح البخاريِّ» أنَّ «لعلَّ» في الآية للتشبيه[٥]. انتهى.

وقرأ قتادة: «تُخْلَدون» مبنيًّا للمفعول مخفَّفاً[٦]، ويقال: خَلَدَ الشيءُ وأَخْلَده غيرُه.

وقرأ أبيٌّ وعلقمة: «تخلَّدون» مبنيًّا للمفعول مشدَّداً[٧]، كما قال الشاعر:

هـل يَـعِـمَـنْ إلَّا سـعـيـدٌ مـخـلَّـدٌ  قـليـلُ هـمـومٍ مـا يـبـيـتُ بـأوجـالِ[٨]

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أي: أردتُم البطشَ بسوطٍ أو سيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ مسلَّطين

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨، والبحر ٧/ ٣٢، والدر المصون ٨/ ٥٣٩.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وتفسير القرطبي ١٦/ ٥٧، وهي في البحر ٧/ ٣٢ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨، والبحر ٧/ ٣٢.

(٤) في الأصل و(م): الواقدي عن البغوي، وهو سبق قلم من المصنف رحمه الله، والكلام من البرهان ٤/ ٣٩٤، وسلف ١٨/ ١٤١.

(٥) البرهان ٤/ ٣٩٤، وجاء في صحيح البخاري قبل الحديث (٤٧٦٨): قال ابن عباس: «لعلكم تخلدون»: كأنكم.

(٦) المحتسب ٢/ ١٣٠، والبحر ٧/ ٣٢، وينظر القراءات الشاذة ص١٠٧.

(٧) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٣٢.

(٨) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٧ برواية: قليل الهموم...، وقال الشارح: الأوجال جمع وَجَل، وهو الفزع.

غاشمين بلا رأفةٍ ولا قَصْدِ تأديبٍ ولا نظرٍ في العاقبة. وأوّل الشرطُ بما ذُكر ليصحَّ التسبُّبُ، وتقييدُ الجزاءِ بالحال لا يصحِّحه؛ لأنَّ المطلق ليس سبباً للمقيَّد.

وقيل: لا يضرُّ الاتحادُ لقَصْدِ المبالغة. وقيل: الجزائيةُ باعتبارِ الإعلام والإخبار. وهو كما ترى. ونظيرُ الآية قولُه:

متى تَبْعثوها تَبْعثوها دَمِيْمةً[(١)]

ودلَّ توبيخُه عليه السلام إياهم بما ذُكر على استيلاء حبِّ الدنيا والكِبْرِ على قلوبهم، حتى أخرجهم ذلك عن حدِّ العبودية.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا هذه الأفعالَ ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ فيما أَدْعوكم إليه فإنه أنفعُ لكم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: بالذي تعرفونه من النعم، فـ «ما» موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ، والعِلْمُ بمعنى المعرفة، وقولهُ تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ منزَّلٌ منزلةَ بَدَلِ البعضِ، كما ذكره غيرُ واحدٍ من أهل المعاني، ووجهُه عندهم: أنَّ المراد التنبيهُ على نِعَم الله تعالى، والمقامُ يقتضي اعتناءً بشأنه لكونه مطلوباً في نفسه، أو ذريعةً إلى غيره من الشكر بالتقوى، وقولُه سبحانَه: (أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ) إلخ أَوْفى بتأديةِ ذلك المرادِ؛ لدلالته على النعم بالتفصيل من غير إحالةٍ على علم المخاطَبين المعانِدين، فوزانُه وزانُ «وَجْهه» في: أعجبني زيدٌ وَجْهُه؛ لدخول الثاني في الأول، لأنَّ «ما تعلمونَ» يشمل الأنعامَ وما بعدها من المعطوفات، ولا يَخْفَى ما في التفصيل بعد الإجمال من المبالغة.

وفي «البحر»: أن قوله تعالى: (بِأَنْعَامٍ) على مذهبِ بعض النحويين بدلٌ من قوله سبحانه: (بِمَا تَعْلَمُونَ)، وأعيدَ العامل كقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: ٢٠-٢١] والأكثرون لا يجعلون مثلَ هذا إبدالاً، وإنما هو عندهم من تكرار الجمل وإنْ كان المعنى واحداً، ويسمَّى التتبيع، وإنما يجوزُ أنْ

---

(١) وعجزه: وتَضْرَ إذا ضرَّيتموها فتَضْرَم، والبيت لزهير، وهو في ديوانه ص١٩ برواية: ذميمة. وهما روايتان، وذميمة، أي: مذمومة. ودميمة: حقيرة. وتبعثوها، أي: تثيروها، يعني الحرب. شرح المعلقات للنحاس ١/ ١١٣، وللتبريزي ص١٤١.

يعادَ العاملُ عندهم إذا كان حرفَ جرٍّ دون ما يتعلَّق به، نحو: مررتُ بزيدٍ بأخيك[١]. انتهى. ونُقل نحوُه عن السفاقسيِّ[٢].

وقال أبو حيان[٣]: الجملة مفسِّرةٌ لِمَا قبلها ولا موضعَ لها.

وبدأ بذِكْرِ الأنعام لأنها تحصلُ بها الرياسةُ والقوةُ على العدوِّ، والغِنَى الذي لا تكملُ اللذةُ بالبنين وغيرهم في الأغلب إلا به، وهي أحبُّ الأموال إلى العرب، ثم بالبنين لأنهم مُعينوهم على الحفظ والقيام عليها، ومن ذلك يُعْلَم وجهُ قَرْنِهما.

ووَجْهُ قَرْنِ الجنات والعيون في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾ ظاهرٌ، وكذا وجهُ قَرْنِهما مع الأنعام.

وقولُه سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلخ في موضع التعليل، أي: إنِّي أخاف عليكم إنْ لم تتَّقوا وتقوموا بشكر هذه النعم ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥﴾ في الدنيا والآخرة، فإنَّ كفران النعمة مستتبِعٌ للعذاب، كما أنَّ شكرها مستلزمٌ لزيادتها؛ قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وعلّل بما ذُكر دون استلزامِ التقوى للزيادة لأنَّ زوال النعمة يُحزِنُ فوق ما تسرُّ زيادتُها، ودَرْءُ المضارِّ مقدَّمٌ على جَلْبِ المنافع.

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ۝١٣٦﴾ فإنَّا لا نرعوي عمَّا نحن عليه، قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف وعَدَم المبالاة بما خوَّفهم به عليه السلام، وعدلوا عن: أَمْ لَمْ تَعِظْ - الذي يقتضيه الظاهرُ - للمبالغة في بيان قلَّةِ اعتدادهم بوعظه عليه السلام؛ لما في كلامهم على ما في النظم الجليل من استواء وَعْظِه والعَدمِ الصِّرفِ البليغ، وهو عدمُ كونه من عِدَادِ الواعظين وجنسهم.

وقيل في وجه المبالغة: أفادت[٤] «كان» الاستمرارَ، و«الواعظين» الكمالَ،

(١) البحر ٧/ ٣٣.
(٢) نقله عنه الشهاب في الحاشية ٧/ ٢٢.
(٣) كذا ذكر المصنف، ولم نقف عليه في البحر، ولعل الصواب: أبو البقاء، كما في حاشية الشهاب ٧/ ٢٢، وهو في الإملاء ٣/ ١١٩.
(٤) في (م): إفادة.

واعتبارُهما بقرينة المقام بعد النفي، أي: سواءٌ علينا أَوَعَظْتَ أم استمرَّ انتفاء كونك من زمرة مَن يَعِظُ انتفاءً كاملاً بحيث لا يُرْجَى منك نقيضُه.

وقال في «البحر»: إنَّ المقابلة بما ذُكر لأَجْلِ الفاصلة، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف:١٩٣] وكثيراً ما يَحْسُنُ مع الفواصل ما لا يَحْسُنُ دونه[1]. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وروي عن أبي عمرو والكسائيِّ إدغامُ الظاء في التاء في «وعظت»، وبالإدغام قرأ ابن محيصن والأعمشُ، إلا أن الأعمش زاد ضمير المفعول فقرأ: «أوعظتنا» وينبغي أن يكون إخفاءً، لأنَّ الظاء مجهورةٌ مطبقةٌ والتاء مهموسةٌ منفتحةٌ، فالظاءُ أقوى منها، والإدغامُ إنما يحسُنُ في المتماثلين، أو في المتقاربَيْنِ إذا كان الأولُ أنقصَ من الثاني. وأما إدغام الأقوى في الأضعف فلا يحسُن، وإذا جاء شيءٌ من ذلك في القرآن بنقل الثقات وَجَبَ قبولُه وإن كان غيرُه أفصحَ وأَقْيَسَ[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ تعليلٌ لِمَا ادَّعوه من المساواة أي: ما هذا الذي جئتنا به إلّا عادةُ الأوَّلين، يلفِّقون مثلَه ويَدْعُون إليه، أو: ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلَّا عادةٌ قديمةٌ لم يَزَلِ الناسُ عليها، أو: ما هذا الذي نحن عليه من الدِّين إلَّا عادةُ الأوَّلين الذين تقدَّمونا من الآباء وغيرِهم ونحن بهم مقتدون.

وقرأ أبو قلابةَ والأصمعيُّ عن نافع: «خُلْقُ» بضمِّ الخاء وسكونِ اللام[3]، والمعنى عليه كما تقدَّم.

وقرأ عبد الله وعلقمةُ والحسن وأبو جعفر وأبو عمرو وابن كثير والكسائي: «خَلْقُ» بفتح الخاء وسكون اللام[4]، أي: ما هذا إلا اختلاقُ الأوَّلين وكذبُهم،

---

(١) البحر ٧/ ٣٣.
(٢) البحر ٧/ ٣٣. وذكر قراءة أبي عمرو والكسائي أيضاً القرطبي ١٦/ ٥٩.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٩، والبحر ٧/ ٣٤، والكلام منه.
(٤) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٣٥ عن أبي عمرو وابن كثير والكسائي ويعقوب وأبي جعفر، ونقلها المصنف عن البحر ٧/ ٣٣.

ويؤيِّد هذا المعنى ما رَوَى علقمةُ عن عبد الله أنه قرأ: «إلا اختلاقُ الأولين»[١] ويكونُ هذا كقول سائر الكفرة: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥]. أو: ما خَلْقُنا هذا إلَّا خَلْقُ الأوَّلين، نَحْيا كما حَيَوْا ونموتُ كما ماتوا، ومرادُهم إنكارُ البعث والحساب المفهوم من تهديدهم بالعذاب، ولعل قولَهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾ أي: على ما نحن عليه من الأعمال، أصرحُ في ذلك.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: أصرُّوا على تكذيبه عليه السلام ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بسببه بريحٍ صَرْصَرٍ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٤٠﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٤١﴾ هو اسمٌ عجميٌّ عند بعضٍ، والأكثرون على أنه عربيٌّ، وتُرِكَ صَرْفُه لأنه اسمُ قبيلة، وهو فعولٌ من الثَّمْدِ: وهو الماء القليل الذي لا مادَّة له، ومنه قيل: فلان مثمودٌ ثَمدَتْه النساءُ، أي: قَطَعْنَ مادَّة مائه لكثرة غشيانه لهنَّ، ومثمودٌ: إذا كثر عليه السؤال حتى نفدَ مادةُ ماله. أو ما يبقى في الجلد، أو ما يظهرُ في الشتاء ويذهبُ في الصيف.

وفي «القاموس»: ثمود قبيلةٌ، ويُصْرَفُ، وتُضمُّ الثاء، وقرئ به أيضاً[٢].

وفي «سبائك الذهب»[٣]: أنه في الأصل اسمٌ لأبي القبيلة، ثم نُقلَ وجُعِلَ اسماً لها.

ووجهُ تأنيث الفعل هنا نظيرُ ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾، وكذا الكلامُ في قوله سبحانه:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٤٥﴾ كالكلام فيما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦﴾ إنكارٌ لأنْ يُتْركوا فيما هم فيه

---

(١) البحر ٧/ ٣٤.

(٢) القاموس (ثمد). وذكر القراءة بضم الثاء الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤٩، عند تفسير الآية (١٧) من سورة فصلت.

(٣) سبائك الذهب في أنساب العرب للشيخ محمد أمين بن علي بن محمد سعيد السويدي البغدادي الحنفي المتوفى سنة (١٢٤٦هـ). إيضاح المكنون ٢/ ٢.

من النعمة آمنين من[1] عذاب يوم عظيم، فالاستفهامُ مثلُه في قوله تعالى السابق: (أَتَبْنُونَ) وقولِه تعالى اللاحقِ: (أَتَأْتُونَ)، وكأنَّ القوم اعتقدوا ذلك فأنكره عليه السلام عليهم.

وجوِّز أن يكون الاستفهامُ للتقرير، تذكيراً للنعمة في تخليته تعالى إياهم وأسبابَ نَفْعِهم آمنين من العدوِّ ونحوه، واستدعاءً لشكر ذلك بالإيمان. وفي «الكشف» أنَّ هذا أوفقُ في هذا المقام.

و«ما» موصولةٌ، و«ههنا» إشارةٌ إلى المكان الحاضر القريب، أي: أتتركون في الذي استقرَّ في مكانكم هذا من النعمة.

وقولُه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ بدلٌ من «ما ههنا» بإعادة الجارِّ كما قال أبو البقاء[2] وغيرُه، وفي الكلام إجمالٌ وتفصيلٌ نحو ما تقدَّم في قصة عاد.

وجوِّز أن يكون ظرفاً لـ «آمنين» الواقع حالاً، وليس بذاك.

والهضيم: الداخلُ بعضُه في بعض كأنه هُضِم، أي: شُدِخَ. وسأل عنه نافع بنُ الأزرق ابنَ عباس رضي الله عنهما، فقال له: المنضمُّ بعضُه إلى بعض. فقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعتَ قولَ امرئ القيس:

دارٌ لبيضاءِ العَوَارضِ طَفْلةٍ ... مهضومةِ الكَشْحَيْنِ ريَّا المِعْصَمِ[3]

وقال الزهريُّ: هو [الرَّخْصُ] اللطيف أول ما يخرج[4].

---

(١) في (م): عن.

(٢) في الإملاء ٤/ ١٢٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٩٣. ولم نقف على البيت في ديوان امرئ القيس، ونسب في المفضليات ص٣٤٦، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٥٠٨، ومنتهى الطلب ٢/ ٢٧٥ لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص١٩٠. والعوارض: عوارض الأسنان، وهي ما يعرض من الشفتين جميعاً، وقيل: هي مقدم الفم، والمراد أنها نقية الثغر. والطفلة: الناعمة الرَّخْصة. والمهضومة: الخميصةُ البطن. والريا: الممتلئة. شرح المفضليات للتبريزي ٣/ ١٤٤٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠، والبحر ٧/ ٣٤، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

وقال الزجَّاج: هو الذي رُطَبُه بغير نوى[1]. وروي عن الحسن.

وقيل: هو المتدلِّي لكثرة ثمره.

وقيل: هو النضيجُ من الرُّطب، وروي عن عكرمة.

وقيل: الرُّطَبُ المذنَّب، وروي عن يزيد بن أبي زياد.

فوَصْفُ الطلع بالهضيم إمَّا حقيقةٌ، أو مجازٌ وهو حقيقةٌ وصفٌ لثمره. وجَعَل بعضُهم على بعض الأقوال الطَّلعَ مجازاً عن الثمر لأَوْلِه إليه.

والنخل اسمُ جنسٍ جمعيٌّ يذكَّرُ كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] ويؤنَّثُ كما هنا، وليس ذلك لأنَّ المراد به الإناثُ؛ فإنه معلومٌ بقرينة المقام[2] ولو ذكِّر الضمير.

وإفرادُه بالذكر مع دخوله في الجنات لفَضْلِه على سائر أشجارها، أو لأن المراد بها غيره من الأشجار.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي: أَشِرِينَ بَطِرِينَ كما روي عن ابن عباس ومحمد بن العلاء. وجاء في روايةٍ أخرى عن ابن عباس تفسيرُه بنَشِطِينَ مهتمِّين. وقال أبو صالح: أي: حاذقين، وبذلك فسَّره الراغب[3]. وقال ابن زيد: أي: أقوياء.

وأنت تعلم أن هذه الجملة داخلةٌ في حيِّز الاستفهام السابق، والأوفقُ به على القول الأول القولُ الأول، وعلى القول الثاني كلٌّ من الأقوال الباقية، وكلُّها سواءٌ في ذلك، إلَّا أنه يُفْهَمُ من كلام بعضهم أنَّ الفراهة حقيقةٌ في النشاط مجازٌ في غيره، وعليه يترجَّحُ تفسيره بنَشِطِينَ إذا أُريد التذكير.

وقرأ أبو حيوة وعيسى والحسن: «تَنْحَتون» بفتح الحاء. وقرئ: «تَنْحاتون» بألفٍ بعد الحاء إشباعاً. وعن عبد الرحمن بن محمد عن أبيه أنه قرأ: «يَنْحِتون»

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦.
(٢) أي: بقرينة ذكرها في سياق الامتنان بها؛ لأنها هي المثمرة. حاشية الشهاب ٧/ ٢٣.
(٣) في مفرداته (فره).

بالياء آخِرِ الحروف وكَسْرِ الحاء. وعن أبي حيوة والحسن أيضاً أنهما قرأا بالياء التحتية وفتح الحاء[١].

وقرأ عبد الله وابن عباس وزيد بن عليٍّ والكوفيون وابنُ عامر: «فارهين» بألفٍ بعد الفاء[٢]، وقراءة الجمهور أبلغُ لِمَا ذكروا في حاذرٍ وحَذِرٍ[٣]. وقرأ مجاهد: «متفرِّهين»[٤].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ كأنه عَنَى بالخطاب جمهورَ قومه، وبالمسرفين كبراءَهم وأعلامَهم في الكفر والإضلال، وكانوا تسعةَ رهطٍ. ونسبةُ الإطاعة إلى الأمر مجازٌ وهي للآمِرِ حقيقةٌ، وفي ذلك من المبالغة ما لا يخفى، وكونُه لا يناسب المقام فيه بحثٌ.

ويجوز أن تكون الإطاعةُ مستعارةً للامتثال؛ لِمَا بينهما من الشَّبه في الإفضاء إلى فِعْلِ ما أُمر به، أو مجازاً مرسلاً عنه لِلُزومه له. ويحتمل أن يكون هناك استعارةٌ مكنية وتخييلية، وجوَّز عليه أن يكون الأمرُ واحدَ الأمور، وفيه من البعد ما فيه.

والإسرافُ: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعْلٍ يفعلُه الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أَشْهَر، والمراد به هنا زيادةُ الفساد، وقد أوضحَ ذلك على ما قيل بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ولعل المراد ذمُّهم بالضلال في أنفسهم بالكفر والمعاصي، وإضلالِهم غيرَهم بالدعوة لذلك.

وللإيماء إلى عدم اختصاص شؤم فعلهم بهم حثّاً على امتثال النهي قيل: «في الأرض» والمراد بها أرضُ ثمود، وقيل: الأرضُ كلُّها.

ولمَّا كان «يفسدون» لا ينافي إصلاحَهم أحياناً أُرْدِفَ بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ لبيانِ كمالِ إفسادهم وأنه لم يخالطه إصلاحٌ أصلاً.

---

(١) ذكر جميع هذه القراءات ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٧، وأبو حيان في البحر ٧/ ٣٥.

(٢) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٢٣٦ عن الكوفيين وابن عامر، والكلام من البحر ٧/ ٣٥.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٥٦) من هذه السورة.

(٤) البحر ٧/ ٣٥.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣﴾ أي: الذين سُحِروا كثيراً حتى غَلَبَ على عقولهم. وقيل: أي: من ذوي السَّحْر، أي: الرئة، فهو كنايةٌ عن كونه من الأناسيِّ، فقولهُ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ على هذا تأكيدٌ له، وعلى الأول هو مستأنفٌ للتعليل، أي: أنت مسحورٌ لأنك بشرٌ مثلُنا لا تَميُّزَ لك علينا، فدعواك إنما هي لخللٍ في عقلك.

﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: بعلامةٍ على صحة دعواك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾ فيها.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ أي: بعد ما أخرجها الله تعالى بدعائه.

روي أنهم اقترحوا عليه ناقةً عُشَراءَ تخرجُ من صخرةٍ عيَّنوها ثم تَلِدُ سَقْباً[1]، فقعد عليه السلام يتفكَّر[2]، فقال له جبريل عليه السلام: صلِّ ركعتين وسَلْ ربَّك. ففعل فخرجت الناقةُ وبركتْ بين أيديهم ونُتِجَتْ سَقْباً مثلَها في العظم، فعند ذلك قال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ﴾ أي: نصيبٌ مشروبٌ من الماء، كالسِّقْي والقِيْتِ للنصيب من السَّقي والقوتِ، وكان هذا الشِّربُ من عينٍ عندهم.

وفي «مجمع البيان» عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: أنَّ تلك العينَ أولُ عينٍ نَبعَتْ في الأرض، وقد فجَّرها الله عزَّ وجلَّ لصالح عليه السلام[3].

﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝١٥٥﴾ فاقتنِعوا بشِربِكم ولا تُزاحموها على شِرْبها.

وقرأ ابنُ أبي عبلةَ: «شُرب» بضم الشين فيهما[4]. واستُدلَّ بالآية على جوازِ قِسْمةِ ماءِ نحوِ الآبار على هذا الوجه.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ كضربٍ وعَقْرٍ ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥٦﴾ وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحلُّ فيه، وهو أبلغُ من عظم العذاب، وهذا من المجاز في النسبة.

وجَعْلُ «عظيم» صفةَ «عذابُ» والجرّ للمجاورة، نحو: هذا جُحْرُ ضبٍّ خربٍ، ليس بشيءٍ.

---

(١) السقب: ولد الناقة. القاموس (سقب).

(٢) في (م): يتذكر، والمثبت من الأصل والبحر ٧/ ٣٥، والكلام منه.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ١٧٤.

(٤) البحر ٧/ ٣٥.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نُسب العقر إليهم كلِّهم مع أنَّ عاقرها واحدٌ منهم ـ وهو قدار بن سالف، وكان نسَّاجاً على ما ذكره غيرُ واحد، وجاء في روايةٍ أنَّ مسطعاً ألجأها إلى مضيقٍ في شِعْبٍ، فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت، ثم ضربها قدارٌ ـ لِمَا رُوي أن عاقرها قال: لا أعقرها حتى تَرْضَوا أجمعين. فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها، فيقول: أترضَيْنَ؟ فتقول: نعم. وكذلك الصبيان، فَرَضُوا جميعاً.

وقيل: لأنَّ العقر كان بأمرهم ومعاونتهم جميعاً كما يُفْصِحُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]. وفيه بحث.

﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ خوفاً من حلول العذاب كما قال جمعٌ، وتعقِّب بأنه مردودٌ بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بعدما عَقَروها: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وأجيب بأنَّ قوله: بعدما عقروها، في حيِّز المنع؛ إذ الواوُ لا تدلُّ على الترتيب، فيجوزُ أن يريدوا: بما تَعِدُنا من المعجزة. أو الواو حاليةٌ، أي: والحالُ أنهم طلبوها من صالح ووعدوه الإيمانَ بها عند ظهورها.

مع أنه يجوز نَدَمُ بعضٍ وقولُ بعضٍ آخَرَ ذلك؛ بإسنادِ ما صدر من البعض إلى الكلِّ لعدم نهيهم عنه أو نحوِ ذلك، أو ندموا كُلُّهم أوَّلاً خوفاً ثم قَسَتْ قلوبهم وزال خوفُهم، أو على العكس.

وجوِّز أن يقال: إنهم ندموا على عَقْرِها ندمَ توبةٍ، لكنه كان عند مُعاينةِ العذاب، وعند ذلك لا ينفعُ الندم.

وقيل: لم ينفعهم ذلك لأنهم لم يتلافَوْا ما فعلوا بالإيمان المطلوب منهم.

وقيل: ندموا على ترك سَقْبِها. ولا يخفى بعدُه.

ومثلُه ما قيل: إنهم ندموا على عَقْرِها لِمَا فاتهم به من لبنها، فقد روي أنه إذا كان يومُها أَصْدَرَتْهم لبناً ما شاؤوا.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعودُ، وكان صيحةً خمدتْ لها أبدانُهم، وانشقَّتْ قلوبُهم، وماتوا عن آخرهم، وصبَّ عليهم حجارة خلال ذلك.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وكانوا من أصهاره عليه السلام ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ إنكارٌ وتوبيخ، والإتيانُ كنايةٌ عن الوَطْء، و«الذكران» جمعُ ذَكَرٍ مقابلَ الأنثى، والظاهرُ أنَّ «من العالمين» متصلٌ به، أي: أتأتون الذكران من أولاد بني آدم على فرطِ كثرتهم وتفاوُتِ أجناسهم وغَلَبةِ إناثهم على ذُكرانِهم كأنَّ الإناث قد أَعْوَزَتْكم. فالمرادُ بـ «العالمين» الناسُ؛ لأنَّ المأتيَّ الذكورُ منهم خاصةً، والقرينةُ إيقاعُ الفعل، والجمعُ بالواو والنون من غير نظرٍ إلى تغليب. وأمَّا خروج المَلَكِ والجنِّ فمن الضرورة العقلية.

ويجوز أن يكون متصلاً بـ «تأتون» أي: أتأتون من بين مَن عَداكم من العالمين الذكران لا يشارِكُكم فيه غيرُكم، فالمراد بالعالمين كلُّ مَن يتأتَّى منه الإتيانُ. والعالَمُ على هذا ما يُعلَمُ به الخالق سبحانه، والجمعُ للتغليب، وخروجُ غيره لِمَا مرَّ. ولا يضرُّ كونُ الحمار والخنزير يأتيان الذكور في أمر الاختصاص؛ للندرة، أو لإسقاطهما عن حيِّز الاعتبار.

وجوِّز أن يراد بالعالمين على الوجه الثاني الناسُ أيضاً.

وإذا قيل بشمولهم لمن تقدَّم من العالمين تفيدُ الآية أنهم أوَّلُ مَن سنَّ هذه السنَّةَ السيئةَ، كما يُفْصِحُ عنه قولهُ تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ لأَجْلِ استمتاعِكم، وكلمةُ «من» في قوله تعالى ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ للبيان إن أريد بـ «ما» جنسُ الإناث، ولعل في الكلام حينئذٍ مضافين محذوفين، أي: وتذرون إتيانَ فروجِ ما خلق لكم. أو للتبعيض إنْ أُريد بـ «ما» العضوُ المباحُ من الأزواج، ويؤيِّده قراءةُ ابن مسعود: «ما أصلح لكم ربُّكم من أزواجكم»(١) وحينئذٍ يُكتفَى بتقدير مضافٍ واحد، أي: وتذرون إتيانَ ما خَلَق. ويكون في الكلام ـ على ما قيل ـ تعريضٌ بأنَّهم كانوا يأتون نساءهم أيضاً في

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٨، والكشاف ٣/ ١٢٤.

محاشهنَّ، ولم يصرِّح بإنكاره كما صرَّح بإنكار إتيانِ الذكران؛ لأنه دونه في الإثم. وهو على المشهور عند أهل السنة حرامٌ بل كبيرةٌ، وقيل: هو مباح، وقد تقدَّم الكلام في ذلك مبسوطاً عند الكلام في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾(١) [البقرة: ٢٢٣].

وقيل: ليس في الكلام مضافٌ محذوفٌ أصلاً، والمرادُ ذمُّهم بتَرْكِ ما خَلَقَ لهم وعَدَم الالتفات إليه بوجهٍ من الوجوه، فضلاً عن الإتيان. وأنت تعلم أنَّ المعنى ظاهر(٢) على التقدير.

وقولهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ، والعادِي: المتعدِّي في ظلمه، المتجاوزُ فيه الحدَّ، ومتعلّقُه مقدَّرٌ، وهو إما عامٌّ أو خاصٌّ، أي: بل أنتم قومٌ متعدُّون متجاوِزون الحدَّ في جميع المعاصي وهذا من جملتها، أو متجاوزون عن حدِّ الشهوة حيث زدتُم على سائر الناس، بل أكثر الحيوانات.

وقيل: متجاوزون الحدَّ في الظلم حيث ظلمتُم بإتيان ما لم يُخْلَقْ للإتيان، وتَرْكِ إتيانِ ما خُلِقَ له.

وفي «البحر»: أنَّ تصدير الجملة بضمير الخطاب تعظيماً لِفعْلِهم، وتنبيهاً على أنهم مختصُّون بذلك، كأنه قيل: بل أنتم قومٌ عادون لا غيرُكم.

---

(١) جاء في حاشية (م): بَيْدَ أنِّي وقفتُ عند كتابتي في هذا الموضع على كلام العز بن عبد السلام في «أماليه» في هذا المبحث، حاصله: أنَّ حرمة إتيان الزوجة في المحلِّ المكروه ليست إجماعية، إلَّا أنَّ معظم أهل الإسلام على تحريمه كما قال الطَّرسوسيُّ، والخلافُ فيه يسيرٌ جدّاً كالذي لا عبرة به. ويُذكَرُ أن ابن عبد الحكم نَقَل حِلَّه عن الشافعي، وأنَّ الربيع قال: كَذَبَ واللهِ ابنُ عبد الحكم. وقد نصَّ الإمام على تحريمه في ستِّ كتب. ولم يُحفَظ عن مالك شيءٌ في إباحته البتة، ونَقْلُه من كتاب «السرِّ» غيرُ صحيح، بل في كتاب «البيان والتحصيل» لابن رشد الأندلسيِّ النصُّ على خلاف ذلك، وروايةُ الطحاوي عن أبي الفرج عن ابن القاسم حلَّه لا يعوَّل عليها ولا تصح. وأما إباحة زيد بن أسلم ونافعٍ لذلك فلا يؤخذ بها، فنافعٌ إمامٌ في القراءات وليس معدوداً في الفقهاء أهلِ الحَلِّ والعقد، وأما زيدٌ فصاحبُ تفسيرٍ لا يعتدُّ لخلافه، فلْيُحفظ. اهـ منه. وينظر البيان والتحصيل لابن رشد ٤/٤٤٦.

(٢) في الأصل: ظاهراً.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن توبيخنا وتقبيح أمرنا، أو عمَّا أنت عليه من دعوى الرسالةِ ودعوتِنا إلى الإيمان وإنكارِ ما أنكرْتَه من أمرنا.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧﴾ أي: من المَنْفيِّينَ من قريتنا، المعهودين. وكأنهم كانوا يُخْرِجون مَن غَضِبوا عليه بسببٍ من الأسباب ـ وقيل: بسببِ إنكارِ تلك الفاحشة ـ من بينهم على عنفٍ وسوءِ حالٍ، ولهذا هدَّدوه عليه السلام بذلك، وعَدَلوا عن: لَنُخرجَنَّكَ، الأخصَرِ إلى ما ذُكر، ولا يخفَى ما في الكلام من التأكيد.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ۝١٦٨﴾ أي: من المُبْغِضينَ غايةَ البُغْض. قال الراغب: يقال: قَلاه [يَقْلُوْه] وَيَقْلِيهِ، فَمَنْ جَعَلَه من الواو فهو من القَلْو، أي: الرَّمي، من قولهم: قَلَتِ الناقةُ براكبها قَلْواً، وقَلَوْتُ بالقُلَّةِ: إذا رميتها، فكأنَّ المَقْلوَّ يقذفهُ القلبُ مِن بُغْضِه فلا يَقْبَلُه. ومَن جَعَلَه من الياء فهو من قَلَيْتُ السَّويقَ على المقلاة. فكأنَّ شدَّة البُغْض تَقْلي الفؤادَ والكبدَ وتَشْويهما[1]. فقول أبي حيان: إنَّ قَلَى بمعنى أبْغَضَ يائيٌّ، والذي بمعنى طَبَخَ وشَوَى واويٌّ[2]، ناشٍ من قلَّةِ الاطِّلاع.

والعدولُ عن: قالي، إلى ما في النظم الجليل لأنه أبلغُ، فإنه إذا قيل: قالي، لم يُفِدْ أكثر من تَلبُّسِه بالفعل، بخلافِ قوله: «من القالين» إذ يفيدُ أنه ـ مع تلبُّسه ـ من قومٍ عُرِفوا واشْتَهَروا به، فيكون راسخَ القدم عريقَ العرق[3] فيه، وقد صرَّح بذلك ابنُ جنِّي وغيرُه.

واللام في «لعملكم» قيل: للتبيين كما في: سقياً لك، فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أعني: أعني. وقيل: هي للتقوية، ومتعلَّقُها عند مَن يرى تعلُّق حرفِ التقوية محذوفٌ، أي: إنِّي من القالين لعملكم من القالين. وقيل: هي متعلِّقة بـ «القالين» المذكورِ ويُتوسَّعُ في الظروف ما لا يتوسَّعُ في غيرها، فتقدَّمُ حيث لا يقدَّمُ غيرُها.

والمراد بعملهم إمَّا ما أنكره عليه السلام عليهم من إتيان الذكران وتَرْكِ ما خَلَق ربُّهم سبحانه لهم، وإمَّا ما يشملُ ذلك وسائرَ ما نهاهم عنه وأَمَرَهم بضدِّه من الأعمال القلبية والقالبية.

---

(١) مفردات الراغب (قلى)، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٥، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) البحر ٧/ ٣٦.

(٣) في (م): العرف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٢٥، والكلام منه.

وقابَلَ عليه السلام تهديدهم ذلك بما ذُكر تنبيهاً على عدم الاكتراث به، وأنه راغبٌ في الخلاص من سوء جوارهم لشدة بغضه لعملهم، ولذلك أَعْرضَ عن مُحاوَرَتهم وتوجَّه إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: من شؤم عملهم، أو: الذي يعملونه وعذابه الدنيويِّ.

وقيل: يحتمل أن يكون دعاءً بالنجاة من التلبُّس بمثل عملهم، وهو بالنسبة إلى الأهل دونه عليه السلام؛ إذ لا يخشى تلبُّسه بذلك لمكان العصمة.

واعتُرض بأنَّ العذاب كذلك؛ إذ لا يعذَّب مَن لم يَجْنِ، وفيه منعٌ ظاهر، كيف وقد قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقيل: قد يدعو المعصومُ بالحفظ عن الوقوع فيما عُصِمَ عنه، كما يدلُّ عليه قولُه تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وهو مسلَّمٌ، إلا أنَّ الظاهر أنَّ المراد النجاةُ مما ينالُهم بسبب عملهم من العذاب الدنيويِّ، ويؤيِّده ظاهرُ قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

والظاهرُ أنَّ المراد بأهله أهلُ بيته، وجوِّز أن يكون المراد بهم مَن تَبعَ دينَه مجازاً، فيشملُ أهلَ بيتِهِ المؤمنين وسائرَ مَن آمن به.

وقيل: لا حاجةَ إلى هذا التعميم إذ لم يؤمن به عليه السلام إلَّا أهلُ بيته.

والمراد بهذه العجوزِ امرأتهُ عليه السلام، وكانت كافرةً مائلةً إلى القوم راضيةً بفِعْلِهم. والتعبيرُ عنها بالعجوز للإيماء إلى أنه مما لا يشقُّ أمرُ هلاكها على لوط عليه السلام وسائرِ أهله بمقتضى الطبيعة البشرية.

وقيل: للإيماء إلى أنها قد عَسِيَتْ[1] في الكفر ودامتْ فيه إلى أنْ صارت عجوزاً.

والغابرُ: الباقي بعد مضيِّ مَن معه، وأنشد ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك قولَ عبيد بن الأبرص:

---

(١) عَسَا الشيخُ يعسو عَسْواً: كَبِرَ. القاموس (عسا).

ذهبوا وخلَّفني المخلِّفُ فيهم فكأنَّني في الغابرين غريبُ[1]

والمراد: فنجَّيناه وأهلَه من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلاً عند مُشارَفةِ حُلولِه بهم، إلا عجوزاً مقدَّرةً في الباقين في العذاب بعد سلامةِ مَن خرج.

وإنما اعتُبر البقاءُ في العذاب دون البقاء في الدار لِمَا رُوي أنها خرجت مع لوطٍ عليه السلام فأصابها حجرٌ في الطريق فهلكت.

وقيل: المراد: من الباقين في الدار، بناءً على أنها لهلاكها كأنها ممن بقي فيها، أو أنها خَرجَتْ ثم رَجعَتْ فهَلكَتْ كما في بعض الروايات، أو أنها لم تخرج مع لوط عليه السلام أصلاً كما في البعض الآخر منها.

وقيل: الغابر: طويلُ العمر، وكأنه إنما أُطلق عليه ذلك لبقائه مع مُضيِّ مَن كان معه. والمرادُ وصفُ العجوز بأنها طاعنةٌ في السن.

وقرأ عبد الله كما رَوَى عنه مجاهد: «وواعَدْنا أنْ نُوْتِيَه أهلَه أجمعين إلَّا عجوزاً في الغابرين»[2].

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أهلكناهم أشدَّ إهلاكٍ وأَفْظَعَه، وكان ذلك بالائتفاك[3]. والظاهرُ العطفُ على «نجينا»، والتدميرُ متراخٍ عن التنجية من مطلق العذاب، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ المراد: أَرَدْنا تَنْجِيتَه، أو: حَكَمْنا بها، أو معنى «فنجَّيناه»: فاستَجَبنا دعاءه في تَنْجِيتِه، وكلُّ ذلك خلافُ الظاهر.

وجوَّز الطيبيُّ كون «ثم» للتراخي في الرتبة.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: نوعاً من المطر غيرَ معهودٍ، فقد كان حجارةً من سجِّيلٍ، كما صرَّح به في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢].

---

(١) أخرجه الطستي كما في الدر المنثور ٥/ ٩٣، ولم نقف على البيت في ديوان عبيد بن الأبرص.

(٢) أخرجها سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/ ٩٣ بلفظ: «وواعدناه أن نؤمنه أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين».

(٣) في (م): الائتفاك. والائتفاك: الانقلاب. اللسان (أفك).

وجُمِعَ الأمران لهم زيادةً في إهانتهم. وقيل: كان الائتفاكُ لطائفةٍ والإمطارُ لأخرى منهم، وكانت هذه ـ على ما روي عن مقاتل ـ للذين كانوا خارجينَ من القرية لبعض حوائجهم، ولعله مرادُ قتادةَ بالشُّذَّاذ فيما رُوي عنه.

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ اللامُ فيه للجنس، وبه يتسنَّى وقوعُ المضاف إليه فاعلَ «ساء» بناءً على أنهما بمعنى بئس، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، وهو: مطرُهم، وإذا لم تكن «ساء» كذلك جاز كونُها للعهد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ الأيْكَة: الغيضةُ التي تُنبتُ ناعمَ الشجر، وهي غيضةٌ من ساحل البحر إلى مدينَ يسكنُها طائفةٌ، وكانوا ممن بُعث إليهم شعيبٌ عليه السلام، وكان أجنبيًّا منهم ولذلك قيل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ ولم يقل: أخوهم.

وقيل: «الأيكة»: الشجر الملتفُّ، وكان شجرُهم الدَّوم وهو المُقْلُ[1].

وعلى القولين «أصحاب الأيكة» غيرُ أهلِ مدينَ، ومن غريب النقل عن ابن عباس أنهم هم أصحابُ مدين.

وقرأ الحِرْمِيَّان وابنُ عامر: «لَيْكَةَ» بلامٍ مفتوحةٍ بعدها ياءٌ بغير ألفٍ ممنوع الصرف، هنا وفي «ص»[2]؛ قال أبو عُبيد[3]: وجَدْنا في بعض كتب التفسير أنَّ «لَيْكَةَ» اسمٌ للقرية، و«الأيكة» البلادُ كلُّها، كمكةَ وبكَّة، ورأيتها في الإمام مصحفِ عثمان رضي الله عنه في «الحجر» و«ق»: «الأيكة»، وفي «الشعراء» و«ص»: «لَيْكَةَ»، واجتَمَعَتْ مصاحفُ الأمصار كلُّها بعد ذلك ولم تختلف.

وفي «الكشاف»: مَن قرأ بالنصب، وزَعَم أنَّ «لَيْكة» بوزن لَيْلة اسم بلد، فتَوَهُّمٌ

---

(١) المُقل: ثمر شجر الدوم، يُنْضَج ويؤكل، وهو قابض بارد مقوٌّ للمعدة. والدوم: شجر عظام من الفصيلة النخيلية، يكثر في صعيد مصر وفي بلاد العرب. ينظر القاموس(مقل)، والمعجم الوسيط(دوم).

(٢) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٣٦، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٣) في الأصل و(م): عبيدة، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٨، والكشف عن وجوه القراءات لمكي بن أبي طالب ٢/ ٣٢، وإبراز المعاني لأبي شامة ص٦٢١، والبحر ٧/ ٣٧، والدر المصون ٨/ ٥٤٤، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٥، ونقله المصنف عن البحر.

قاد إليه خطُّ المصحف، حيث وُجِدَتْ مكتوبةً هنا وفي «ص» بغير ألف، وفي المصحف أشياءُ كُتبتْ على خلافِ الخطِّ المصطلح عليه، وإنما كُتبت في هاتين السورتين على حُكْمِ لَفْظِ اللّافظِ كما يَكتبُ أصحاب النحو: الآن: لان، والأُولَى: لُولَى، لبيان لَفْظِ المخفَّف، وقد كُتبت في سائر القرآن على الأصل والقصةُ واحدةٌ، على أنَّ «لَيْكة» اسمٌ لا يُعرَف[1]. انتهى.

وتعقِّب[2] بأنه دعوى من غيرِ ثبتٍ، وكفى ثبتاً للمخالف ثبوتُ القراءة في السبعة وهي متواترةٌ، كيف وقد انضمَّ إليه ما سمعتَ عن بعض كتب التفسير، وإن لم تعوِّل عليه فما روى البخاري في صحيحه: «الأيكة» و«ليكة»: الغيضة[3]. هذا وإنَّ الأسماء المرتَجَلةَ لا مَنْعَ منها.

وفي «البحر»: أنَّ كون مادة (ل ي ك) مفقودةٌ في لسان العرب، كما تشبَّثَ به مَن أنكر هذه القراءة المتواترةَ، إن صحَّ لا يضرُّ وتكونُ الكلمة عجميةً، وموادُّ كلام العجم مخالفةٌ في كثيرٍ موادَّ كلام العرب، فيكون قد اجتمع على مَنْعِ صَرْفِها العَلَميةُ والعجمةُ والتأنيثُ، وبالجملة إنكارُ الزمخشريِّ صحةَ هذه القراءة يقرُبُ من الردَّة والعياذُ بالله تعالى، وقد سبقه في ذلك المبرِّدُ وابنُ قتيبةَ والزجَّاج والفارسيُّ والنحاس[4].

وقرئ: «ليكةِ» بحَذْفِ الهمزةِ وإلقاءِ حركتها على اللام والجرِّ بالكسرة[5]، وتُكتب على حُكْم لفظِ اللّافظِ بدون همزةٍ، وعلى الأصل بالهمزة، وكذا نظائرُها.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: أتِمُّوه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي: حقوقَ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٦.

(٢) في الأصل: وقد تعقب.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، قبل حديث (٤٧٦٨)، وينظر فتح الباري ٨/ ٤٩٧.

(٤) البحر ٧/ ٣٧. وينظر معاني القرآن للزجَّاج ٤/ ٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٩-١٩٠، والحجة للفارسي ٥/ ٣٦٧-٣٦٨، وإبراز المعاني لأبي شامة ص٦٢١-٦٢٢، والكشف لمكي ٢/ ٣٢.

(٥) الكشاف ٣/ ١٢٦، والإملاء ٤/ ١٢٠، وتفسير الرازي ٢٤/ ١٦٣، وهي قراءة شاذة كما ذكر الشهاب في الحاشية ٧/ ٢٦.

الناس بالتطفيف، ولعل المبالغة المستفادةَ من التركيب متوجِّهةٌ إلى النهي، أو أنه لا يعتبر المفهومُ؛ لنحو ما قيل في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وأيًّا ما كان ففي النهي المذكور تأكيدٌ للأمر السابق عليه.

﴿وَزِنُوا﴾ الموزونات ﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ أي: بالميزان السويِّ.

وقيل: القسطاسُ: القبَّان، وروي ذلك عن الحسن.

وهو عند بعضٍ معرَّبٌ روميُّ الأصل، ومعناه: العدل، وروي ذلك عن مجاهد. وعند آخرين عربيٌّ، فقيل: هو من القِسْطِ، ووزنه فِعْلاع بتكرير العين شذوذاً؛ إذ هي لا تكرَّر وحدها مع الفصل باللام. وقيل: مِن قَسطَسَ، وهو رباعيٌّ ووزنه فِعْلال.

والمراد الأمرُ بوفاء الوزن وإتمامِه، والنهيُ عن النقص دون النهي عن الزيادة، والظاهرُ أنه لم يُنْهَ عنها ولم يُؤْمَرْ بها في الكيل والوزن، وكأنَّ ذلك دليلٌ على أنَّ مَن فَعَلَها فقد أَحْسَنَ ومَن لم يَفْعَلْها فلا عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ معنى «وزِنُوا» إلخ: وعدِّلوا أمورَكم كلَّها بميزانِ العدل الذي جَعَلَه الله تعالى لعباده. والظاهرُ - إذ عادَلَ سبحانه به «أوفوا الكيل» - ما تقدَّم.

وقرأ أكثر السبعة: «بالقُسطاس» بضم القاف(1).

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تنقصوهم شيئاً من حقوقهم أيّ حقٍّ كان، فإضافةُ «أشياء» جنسيةٌ، ويجوزُ أن تكون للاستغراق، والمراد مقابلةُ الجمع بالجمع، فيكون المعنى: لا تبخسوا أحداً شيئاً.

وجوِّز أن يكون الجمع للإشارة إلى الأنواع، فإنهم كانوا يبخسون كلَّ شيءٍ جليلاً كان أو حقيراً، وهذا تعميمٌ بعد تخصيص بعض المراد بالذكر لغاية انهماكهم فيه.

وقيل: المراد بأشيائهم الدراهمُ والدنانيرُ، وبَخْسُها بالقَطْعِ من أطرافها، ولولاه لم يُجمع.

---

(1) هي قراءة نافع وابن عامر وأبي عمرو وابن كثير وشعبة من السبعة. التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧، وقرأ بها من العشرة أبو جعفر ويعقوب.

وبَخَسَ مما يتعدَّى إلى اثنين، فالمنصوبان مفعولاه. وقيل: هو متعدٍّ لواحدٍ، فالثاني بدلُ اشتمالٍ.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق ونحوِ ذلك. والعثوُّ: الفساد أو أشدُّه، و«مفسدين» حالٌ مؤكِّدةٌ. وجوِّز أن يكون المراد: مفسدين آخرتكم، فتكون حالاً مؤسِّسةً.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: وذوي الجبلَّة، أي: الخِلْقة والطبيعة، أو: والمجبولين على أحوالهم التي بُنوا عليها، وسُبُلهم التي قُيِّضوا لسلوكها، المتقدِّمين عليكم من الأمم.

وجاء في روايةٍ عن ابن عباس: أنَّ الجبلَّة الجماعةُ إذا كانت عشرة آلافٍ. كأنها شبِّهتْ ـ على ما قيل ـ بالقطعة العظيمة من الجبل.

وقيل: هي الجماعةُ الكثيرةُ مطلقاً، كأنها شبِّهت بما ذُكر أيضاً.

وقرأ أبو حصينٍ والأعمشُ والحسنُ بخلافٍ عنه: «الجُبُلَّة» بضم الجيم والباء وشدِّ اللام[١]. وقرأ السُّلميُّ: «الجِبْلَةَ» بكسر الجيم وسكونِ الباء كالخِلْقة، وفي نسخةٍ عنه: بفتح الجيم وسكون الباء[٢]. قيل: وتشديدُ اللام في القراءتين للمبالغة.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ الكلامُ فيه نظيرُ ما تقدَّم في قصة ثمود، بيد أنه أَدْخَلَ الواو بين الجملتين هنا للدلالة على أنَّ كلًّا من التسحير والبشرية مُنافٍ للرسالة، فكيف إذا اجتمعا. وأرادوا بذلك المبالغةَ في التكذيب، ولم تدخل هناك حيث لم يُقْصَدْ إلَّا معنًى واحدٌ، وهو كونه مسحَّراً، ثم قرِّر بكونه بشراً مثلهم، كذا في «الكشاف»[٣].

وفي «الكشف» أنَّ فيه ما يلوح إلى اختصاص كلٍّ بموضعه، وأنَّ الكلام هنالك في كونه مثلَهم غيرَ ممتازٍ بما يوجب الفضيلةَ، ولهذا عقَّبوه بقولهم: «فأتِ بآيةٍ»، فدلَّ على أنهم لم يجعلوا البشرية منافيةً للنبوَّة، وإنما جعلوا الوصفَ تمهيداً

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٢، والقراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٣٨، والكلام منه.
(٢) البحر ٧/ ٣٨، والثانية في القراءات الشاذة ص١٠٧.
(٣) ٣/ ١٢٧.

للاشتراك، وأنه أَبْدَعَ في دعواه. وهاهنا ساقوا ذلك مساق ما ينافي النبوةَ، فجعلوا كلَّ واحدٍ صفةً مستقلَّةً في المنافاة ليكون أبلغَ، وجعلوا إنكار النبوَّة أمراً مفروغاً، ولذا عقَّبوه بقولهم: «وإنْ نظنُّك» إلخ.

وقال النيسابوريُّ في وجه الاختصاص: إنَّ صالحاً عليه السلام قلَّل في الخطاب فقلَّلوا في الجواب، وأكْثَرَ شعيبٌ عليه السلام في الخطاب ـ ولهذا قيل له: خطيبُ الأنبياء ـ فأكثروا في الجواب[1]. ولعله أراد أنَّ شعيباً عليه السلام بالَغَ في زَجْرهم فبالغوا في تكذيبه، ولا كذلك صالحٌ عليه السلام مع قومه. فتأمَّل.

و«إنْ» في قوله سبحانه: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ هي المخفَّفة من الثقيلة، واللامُ في «لمن» هي الفارقة. وقال الكوفيون: «إنْ» نافيةٌ، واللام بمعنى «إلا». وهو خلافٌ مشهورٌ.

أي: وإن الشأنَ نظنُّك من الكاذبين في الدعوى، أو: ما نظنُّك إلَّا من الكاذبين فيها.

ومرادُهم أنه عليه السلام ـ وحاشاه ـ راسخ القدم في الكذب في دعواه الرسالةَ، أو: فيها وفي دعوى نزولِ العذاب الذي يُشْعِرُ به الأمرُ بالتقوى من التهديد. وظاهرُ حالهم إنهم عَنَوا بالظنِّ الإدراكَ الجازم.

وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ من الاقتراح الذي تحته كلُّ الإنكار، على نحو: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال:٣٢] ولعلهم قابلوا به ما أشعر به الأمرُ بالتقوى ممَّا ذكرنا.

و«كِسَفاً» أي: قِطعاً ـ كما رُوي عن ابن عباس وقتادة ـ جمعُ كِسْفةٍ كقِطْعةٍ.

وقرأ الأكثرون: «كِسْفاً» بكَسْرِ الكاف وسكون السين[2]، وهو أيضاً جمعُ كِسْفةٍ، مثل سِدْرةٍ وسِدْرٍ، وقيل: الكِسْفُ والكِسْفَةُ كالرِّيْع والرِّيعة، وهي القطعة.

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ١٩/ ٧١.
(٢) هي قراءة الجميع عدا حفصاً. التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٠٩.

والمرادُ بالسماء إمَّا المُظِلَّةُ ـ وهو الظاهر ـ وإما السحابُ. والظاهرُ أنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لِمَا قبله، وتعلُّقه بـ «أَسْقِطْ» في غاية السقوط، وجوَّز عليه أن يراد بالسماء جهةُ العلوِّ.

وجواب «إنْ» محذوفٌ دلَّ عليه «فأَسْقِطْ»، ومَن جوَّز تقدُّم الجواب جَعَلَه الجواب.

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أي: هو تعالى أعلمُ بأعمالكم من الكفر والمعاصي، وبما تستَوْجِبون عليها من العذاب، فسيُنْزِلهُ عليكم حَسْبَما تستَوْجِبون في وقته المقدَّرِ له لا محالة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فاستمرُّوا على تكذيبه، وكذَّبوه تكذيباً بعد تكذيب.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ وذلك على ما أخرج عبد بن حميد وابنُ جرير وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس: أنَّ الله تعالى بعث عليهم حرّاً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم، فخرجوا منها هراباً إلى البرية، فبعث الله تعالى عليهم سحابةً فأظلَّتهم من الشمس، وهي الظلَّة، فوجدوا لها برداً ولذةً، فنادى بعضُهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عزَّ وجلَّ عليهم ناراً فأكلتهم جميعاً[1].

وجاء في كثيرٍ من الروايات أنَّ الله عز وجلَّ سلَّط عليهم الحرَّ سبعةَ أيامٍ ولياليهنَّ، ثم كان ما كان من الخروج إلى البرية وما بعده، وكان ذلك على نحوِ ما اقترحوه، لا سيما على القول بأنهم عَنَوا بالسماء السحابَ.

وفي إضافة العذاب إلى يوم الظلَّة دون نفسها إيذانٌ بأنَّ لهم عذاباً آخر غيرَ عذابِ الظلَّةِ، وفي ترك بيانه تعظيمٌ لأمره.

وقد أخرج ابن جرير والحاكم وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مَن حدَّثك من العلماء ما عذابُ يومِ الظلَّة فكذِّبه[2]. وكأنه أراد بذلك مجموعَ عذابِ

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٤، والمستدرك ٢/ ٥٦٨-٥٦٩، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٩٣-٩٤ وعنه نقل المصنف.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٥، والمستدرك ٢/ ٥٦٩.

الظلَّة الذي ذُكر في الخبر السابقِ، والعذابِ الآخر الذي آذَنَتْ به الإضافةُ إلى اليوم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ أي: في الشدة والهولِ، وفظاعةِ ما وقع فيه من الطامَّة والداهية التامَّة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ هذا آخر القصص السبع التي سيقَتْ لِمَا عَلِمْتَه سابقاً، ولعل الاقتصار على هذا العدد ـ على ما قيل ـ لأنه عددٌ تامٌّ، وأنا أفوِّضُ العلم بسرِّ ذلك، وكذا العلم بسرِّ ترتيب القصص على هذا الوجه، لحضرة علَّام الغيوب جلَّ شأنه.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ إلخ عَوْدٌ لِمَا في مطلع السورة الكريمة من التنويه بشأن القرآن العظيم، وردٌّ ما قال المشركون فيه، فالضميرُ راجعٌ إلى القرآن.

وقيل: هو تقريرٌ لحقِّيةِ تلك القصص، وتنبيهٌ على إعجاز القرآن ونبوَّةِ محمدٍ ﷺ، فإنَّ الإخبار عنها ممن لم يتعلَّمها لا يكون إلَّا وحياً من الله عزَّ وجلَّ، فالضميرُ لِمَا ذُكِرَ من الآيات الكريمة الناطقةِ بتلك القصص المحكية. وجوِّز أن يكون للقرآن الذي هي من جملته، والإخبارُ عن ذلك بـ «تنزيل» للمبالغة، والمراد: إنه لمنزَّلٌ من الله تعالى.

ووَصْفُه سبحانه بربوبية[1] العالمين للإيذان بأنَّ تنزيله من أحكام تربيته عزَّ وجلَّ، ورأفته بالكلِّ.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي: أنزله، على أنَّ الباء للتعدية. وقال أبو حيان وابنُ عطية: هي للمصاحبة، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ﴾[2] [المائدة: ٦١]، أي: نزل مصاحباً له.

﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ يعني جبرائيل عليه السلام، وعبَّر عنه بالرُّوح لأنه يحْيا به الخَلْقُ في باب الدِّين، أو لأنه رُوحٌ كلُّه، لا كالناس الذين في أبدانهم روحٌ.

---

(١) في الأصل: بربوبيته، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٣، والكلام منه.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٣، والبحر نقلاً عن المحرر ٧/ ٤٠.

ووُصف عليه السلام بالأمين لأنه أمينُ وَحْيِه تعالى، ومُوصِلُه إلى مَن شاء مِن عباده جلَّ شأنُه من غيرِ تغييرٍ وتحريفٍ أصلاً.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو بكر وابن عامر: «نزَّلَ به الروحَ الأمينَ» بتشديد الزاي ونَصْبِ «الروح» و«الأمين»[1]، أي: جَعَل الله تعالى الروح الأمين نازلاً به.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ متعلِّقٌ بـ «نزل» لا بـ «الأمين».

والمراد بالقلب إمَّا الروح، وهو أحدُ إطلاقاته كما قال الراغب[2]، وكونُ الإنزال عليه ـ على ما قال غيرُ واحد ـ لأنه المدرِكُ والمكلَّفُ دون الجسد.

وقد يقال: لمَّا كان له ﷺ جهتان: جهةٌ مَلَكية يستفيضُ بها، وجهةٌ بشريةٌ يفيضُ بها، جُعِلَ الإنزالُ على روحه ﷺ؛ لأنها المتَّصفةُ بالصفات الملكية التي يستفيضُ بها من الروح الأمين. وللإشارة إلى ذلك قيل: «على قلبك» دون: عليك، الأخْصَرِ.

وقيل: إنَّ هذا لأنَّ القرآن لم ينزل في الصحف كغيره من الكتب.

وإمَّا العضوُ المخصوصُ، وهو الإطلاقُ المشهور، وتخصيصهُ بالإنزال عليه، قيل: للإشارة إلى كمال تعقُّله ﷺ وفَهْمِه ذلك المنزَل، حيث لم تُعتبر واسطةٌ في وصوله إلى القلب الذي هو محلُّ العقل، كما يقتضيه ظاهرُ كثيرٍ من الآيات والأحاديث، ويشهدُ له العقلُ، على مالا يخفى على مَن كان له قلبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد.

وقد أطال في الانتصار لذلك الإمامُ في تفسيره، ورَدَّ على من ذهب إلى أنَّ الدماغ محلُّ العقل[3].

وقيل: للإشارة إلى صلاح قلبه عليه الصلاة والسلام وتقدُّسه حيث كان مَنْزِلاً لكلامه تعالى؛ ليُعْلَم منه حالُ سائر أجزائه ﷺ؛ فإنَّ القلب رئيسُ جميع الأعضاء ومَلِكُها، ومتى صَلَحَ المَلِكُ صَلَحتِ الرعيةُ، وفي الحديث: «أَلَا وإنَّ في الجسد

(١) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/٣٣٦. وهي قراءة يعقوب وخلف.
(٢) في مفرداته (قلب).
(٣) تفسير الرازي ٢٤/١٦٦-١٦٨.

مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[١].

وقد يقال: يجوزُ أن يكون التخصيصُ لأنَّ الله تعالى جَعَلَ لقلب رسوله ﷺ سمعاً مخصوصاً يسمعُ به ما ينزلُ عليه من القرآن، تمييزاً لشأنه على سائر ما يسمعه ويَعِيه، على حدِّ ما قيل وذكره النوويُّ في «شرح صحيح مسلم» في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] من أنَّ الله عزَّ وجلَّ جَعَلَ لفؤاده عليه الصلاة والسلام بصراً فرآه به سبحانه ليلةَ المعراج[٢].

وهذا كلُّه على القول بأنَّ جبرائيل عليه السلام ينزل بالألفاظ القرآنيةِ المحفوظةِ له بعد أنْ نزل القرآنُ جملةً من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزة، أو التي يحفظها من اللوح عند الأمر بالإنزال، أو التي يوحَى بها إليه، أو التي يسمعها منه سبحانه على ما قاله بعضُ أجلَّة السلف عنده، فيلقيها إلى النبيِّ ﷺ على ما هي عليه من غير تغييرٍ أصلاً. وكذا على القول بأنَّ جبرائيل عليه السلام أُلقي عليه المعاني القرآنية، وأنه عبَّر عنها بهذه الألفاظ العربية، ثم نزل بها كذلك فألقاها إلى النبيِّ ﷺ.

وأمَّا على القول بأنه عليه السلام إنما نزل بالمعاني خاصةً إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وأنه عليه الصلاة والسلام علم تلك المعانيَ وعبَّر عنها بلغةِ العرب، فقيل: إنَّ القلب بمعنى العضو المخصوص لا غير، وتخصيصهُ لأنَّ المعاني إنما تُدْرَكُ بالقوة المودَعةِ فيه. وقيل: يجوزُ أن يراد به الروحُ، وروحُه عليه الصلاة والسلام لغايةِ تقدُّسها وكمالِها في نفسها تدركُ المعانيَ من غير توسُّطِ آلةٍ.

ومن الناس مَن ذهب إلى هذا القول، وجَعَل الآيةَ دليلاً له، وهو قولٌ مرجوحٌ. ومثلهُ القولُ بأنَّ جبرائيل عليه السلام ألقي عليه المعاني فعبَّر عنها بألفاظٍ فنزل بما عبَّر هو به.

والقول الراجحُ أنَّ الألفاظ منه عزَّ وجلَّ كالمعاني لا مدخل لجبرائيل عليه السلام فيها أصلاً، وكان النبيُّ ﷺ يسمعها ويَعيها بقوًى إلهيةٍ قُدْسيةٍ لا كسماع

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ٦ نقلاً عن الواحدي.

البشر إياها منه عليه الصلاة والسلام، وتنفعلُ عند ذلك قواه البشرية، ولهذا يظهر على جسده الشريفِ ﷺ ما يظهر، ويقال لذلك: بُرَحَاء الوحي، حتى يُظَنّ في بعض الأحايين أنه أُغمي عليه عليه الصلاة والسلام.

وقد يُظَنُّ أنه ﷺ أَغْفَى، وعلى هذا يخرَّجُ ما رواه مسلم عن أنس قال: بَيْنَا رسول الله ﷺ بين أَظْهُرِنا، إذا أغفى إغفاءةً، ثم رفع رأسه متبسِّماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: «أنزل علي آنفاً سورةٌ»، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾»[(١)].

ولا يحتاجُ مَن قال: إنَّ الأشبه أنَّ القرآن كلَّه نزل في اليقظة، إلى تأويل هذا الخبر بأنه عليه الصلاة والسلام خَطَر له في تلك الإغفاءة سورةُ الكوثر التي نزلت قبلها في اليقظة، أو عُرِضَ عليه «الكوثر» الذي أنزلت فيه السورة فقرأها عليهم.

ثم إنه على ما قيل من أنَّ بعض القرآن نزل عليه عليه الصلاة والسلام وهو نائمٌ استدلالاً بهذا الخبر، يبقى ما قلناه من سماعه عليه الصلاة والسلام ما ينزل إليه ﷺ ووَعْيِه إياه بقوَى إلهيةٍ قدسيةٍ، ونومُه عليه الصلاة والسلام لا يمنع من ذلك، كيف وقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «تنام عيني ولا ينامُ قلبي»[(٢)].

وقد ذَكَر بعضُ المتصدِّرين في محافل الحكمة من المتأخِّرين في بيانِ كيفيةِ نزول الكلام وهبوطِ الوحي من عند الله تعالى بواسطة الملك على قلب النبيِّ ﷺ: أنَّ الروح الإنسانيَّ إذا تجرَّد عن البدن، وخرج عن وثاقه من بيت قالبه وموطنِ طَبْعِه مهاجراً إلى ربِّه سبحانه لمشاهدةِ آياته الكبرى، وتطهَّر عن درن المعاصي واللذات والشهواتِ والوساوسِ العاديةِ والمتعلّقات، لاح له نورُ المعرفة والإيمان بالله تعالى ومَلَكوتِه الأعلى، وهذا النورُ إذا تَأكَّدَ وتَجَوْهَرَ كان جوهراً قدسيًّا يسمَّى في لسان الحكمة النظرية بالعقل الفعَّال، وفي لسان الشريعة النبوية بالروح القدسيِّ.

---

(١) صحيح مسلم (٤٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٠٧٣)، والبخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨): (١٢٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وبهذا النور الشديد العقليِّ يتلألأ فيه أسرارُ ما في الأرض والسماء، ويتراءى منه حقائقُ الأشياء كما يتراءى بالنور الحسيِّ البَصَريِّ الأشباحُ المثاليةُ في قوة البصر إذا لم يمنع حجاب، والحجابُ هاهنا هو آثارُ الطبيعة وشواغلُ هذه الأولى. فإذا عَريَتِ النفس عن دواعي الطبيعة والاشتغالِ بما تحتها من الشهوة والغضب والحسِّ والتخيُّل، وتوجَّهتْ بوجهها شَطْرَ الحقِّ وتلقاءَ عالمَ الملكوت الأعلى، اتَّصلت بالسعادة القصوى، فلاح لها سرُّ الملكوت، وانعكس عليها قُدسُ اللاهوت، ورأت عجائبَ آيات الله تعالى الكبرى.

ثم إنَّ هذه الروحَ إذا كانت قدسيةً شديدةَ القوى، قوية الآثار لقوَّةِ اتِّصالها بما فوقها، فلا يشغلُها شأنٌ عن شأنٍ، ولا يمنعها جهة فوقها عن جهة تحتها، فتضبطُ الطرفين، وتَسعُ قوتُها الجانبين؛ لشدة تمكُّنها في الحدِّ المشترك بين الملك والملكوت، كالأرواح الضعيفة التي إذا مالت إلى جانبٍ غاب عنها الجانبُ الآخر، وإذا رَكَنتْ إلى مَشْعَرٍ من المشاعر ذهلتْ عن المَشْعَرِ الآخرَ.

وإذا توجَّهت هذه الروحُ القدسيةُ التي لا يشغلُها شأنٌ عن شأنٍ، ولا تَصْرِفُها نشأةٌ عن نشأةٍ، وتلقَّت المعارفَ الإلهية بلا تعلُّم بشريٍّ بل من الله تعالى، يتعدّى تأثيرها إلى قواها، ويتمثَّلُ لروحه البشريِّ صورةُ ما بروحه القدسيِّ، وتبرزُ منها إلى ظاهر الكون فتتمثَّلُ للحواسِّ الظاهرة، سيَّما السمع والبصر لكونهما أشرفَ الحواسِّ الظاهرةِ، فيرى ببصره شخصاً محسوساً في غاية الحُسْنِ والصَّبَاحةِ، ويسمعُ بسمعه كلاماً منظوماً في غاية الجودة والفصاحة، فالشخصُ هو المَلَكُ النازلُ بإذن الله تعالى، الحاملُ للوحي الإلهيِّ، والكلامُ هو كلام الله تعالى، وبيده لوحٌ فيه كتابٌ هو كتابُ الله تعالى.

وهذا الأمر المتمثِّلُ بما معه أو فيهِ ليس مجرَّدَ صورةٍ خياليةٍ لا وجودَ لها في خارج الذهن والتخيُّل، كما يقوله مَن لا حظَّ له من علم الباطن، ولا قدَم له في أسرار الوحي والكتاب، كبعض أتباع المشَّائين، معاذ الله تعالى عن هذه العقيدة الناشئة عن الجهل بكيفية الإنزال والتنزيل.

ثم قال: إنارة قلبية وإشارة عقلية، عليك أنْ تعلم أنَّ للملائكة ذواتٍ حقيقيةً وذواتٍ إضافيةً مضافةً إلى ما دونها إضافةَ النفس إلى البدن الكائنِ في النشأة

الآخرة، فأما ذواتُها الحقيقيةُ فإنما هي أَمْرِيَّةٌ قضائيةٌ قوليةٌ، وأما ذواتُها الإضافيةُ فإنما هي خَلْقيةٌ قَدَريةٌ تنشأ منها الملائكةُ اللَّوْحيةُ، وأعظمُهم إسرافيل عليه السلام، وهؤلاء الملائكة اللوحيةُ يأخذون الكلام الإلهيَّ والعلوم اللَّدُنية من الملائكة القَلَمية ويثبتونها في صحائف ألواحهم القدرية الكتابية.

وإنما كان يلاقي النبيُّ ﷺ في معراجه الصنفَ الأولَ من الملائكة، ويشاهدُ روحَ القُدُسِ في اليقظة، فإذا اتَّصلتِ الروحُ النبويةُ بعالَمهم عالَمِ الوحي الربانيِّ يسمعُ كلامَ الله تعالى، وهو إعلامُ الحقائق بالمكالمة الحقيقية، وهي الإفاضةُ والاستفاضةُ في مقامِ قاب قوسين أو أدنى، وهو مقامُ القُرْبِ، ومقعدُ الصِّدقِ، ومعدنُ الوحي والإلهام.

وكذا إذا عاشر النبيُّ الملائكةَ الأعْلَيْنَ يسمعُ صريفَ أقلامهم وإلقاء كلامهم، وهو كلامُ الله تعالى النازلُ في محلِّ معرفتهم، وهي ذواتُهم وعقولُهم لكونهم في مقام القرب. ثم إذا نزل عليه الصلاة والسلام إلى ساحة الملكوت السماويِّ يتمثّلُ له صورةُ ما عَقَلَه وشاهَدَه في لوح نفسه الواقعةِ في عالم الأرواح القدرية السماوية، ثم يتعدَّى منه الأثر إلى الظاهر، وحينئذٍ يقع للحواسِّ شبهُ دهشٍ ونوم؛ لِمَا أنَّ الروح القدسيةَ لضَبْطِها الجانبين تستعملُ المشاعرَ الحسِّيةَ، لكن لا في الأغراض الحيوانية بل في سبيل السلوك إلى الربِّ سبحانه، فهي تُشايعُ الروحَ في سبيل معرفته تعالى وطاعته.

فلا جَرَمَ إذا خاطبه الله تعالى خطاباً من غير حجابٍ خارجيٍّ، سواءٌ كان الخطاب بلا واسطةٍ أو بواسطةِ المَلَكِ، واطَّلع على الغيب فانْطَبَع في فصِّ نفسه النبوية نَقْشُ الملكوت وصورةُ الجبروت، تنجذبُ قوةُ الحسِّ الظاهرِ إلى فوق، ويتمثَّل لها صورةٌ غيرُ منفكَّةٍ عن معناها وروحِها الحقيقيِّ، لا كصورةِ الأحلام والخيالات العاطلة عن المعنى، فيتمثَّل لها حقيقةُ المَلَكِ بصورته المحسوسة بحسب ما يحتملها، فيرى مَلَكاً على غير صورته التي كانت له في عالم الأمر؛ لأن الأمر إذا نزل صار خَلْقاً مقدَّراً، فيرى صورته الخَلْقية القدرية، ويسمعُ كلاماً مسموعاً بعد ما كان وحياً معقولاً، أو يرى لوحاً بيده مكتوباً. فالمُوْحَى إليه يتَّصل بالمَلَكِ أولاً بروحه العقليِّ، ويتلقَّى منه المعارفَ الإلهيةَ، ويشاهدُ ببصره العقليِّ

آياتِ ربِّه الكبرى، ويسمعُ بسَمْعِه العقليِّ كلام ربِّ العالمين من الروح الأعظم. ثم إذا نزل عن هذا المقام الشامخ الإلهيِّ يتمثَّلُ له الملكُ بصورةٍ محسوسة بحسبه، ثم ينحدرُ إلى حسِّه الظاهر، ثم إلى الهواء. وهكذا الكلامُ في كلامه، فيسمع أصواتاً وحروفاً منظومةً مسموعةً يختصُّ هو بسماعها دون غيره، فيكون كلٌّ من المَلَكِ وكلامه وكتابه قد تأدَّى من غيبه إلى شهادته، ومن باطنِ سرِّه إلى مشاعره.

وهذه التأديةُ ليست من قبيل الانتقال والحركة للمَلَكِ المُوْحي من موطنه ومقامه، إذ كلٌّ له مقامٌ معلومٌ لا يتعدَّاه ولا ينتقلُ عنه، بل مرجعُ ذلك إلى انبعاثِ نفسِ(١) النبيِّ عليه الصلاة والسلام من نشأة الغيب إلى نشأة الظهور، ولهذا كان يَعْرِضُ له شبهُ الدَّهشِ والغَشْي، ثم يَرَى ويَسْمَعُ، ثم يقعُ منه الإنباءُ والإخبارُ. فهذا معنى تنزيلِ الكتاب وإنزالِ الكلام من ربِّ العالمين. انتهى.

وفيه ما تأباه الأصولُ الإسلامية مما لا يخفى عليك. وقد صرَّح غيرُ واحدٍ من المحدِّثين والمفسِّرين وغيرهم بانتقال الملك، وهو جسمٌ عندهم، ولمْ يؤوِّل أحدٌ منهم نزولَه فيما نعلم.

نعم أوَّلوا نزولَ القرآن وإنزالَه؛ قال الأصفهاني في أوائل تفسيره(٢): اتَّفق أهلُ السنةِ والجماعةِ على أنَّ كلام الله تعالى منزلٌ، واختلفوا في معنى الإنزال؛ فمنهم مَن قال: إظهار القراءة. ومنهم مَن قال: إنَّ الله تعالى أَلْهمَ كلامه جبريلَ عليه السلام وهو في السماء، وعلَّمه قراءته، ثم جبريلُ أدَّاه في الأرض، وهو يهبطُ في المكان، وفي ذلك طريقتان: إحداهما: أنَّ النبيَّ ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة المَلَكية وأخذه من جبريل عليه السلام. وثانيتُهما: أنَّ الملك انخلع إلى البَشَرية حتى يأخذه النبيُّ ﷺ منه. والأولى أصعبُ الحالين. انتهى.

وقال الطيبيُّ: لعل نزولَ القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام أنْ يتلقَّفه الملكُ تلقُّفاً روحانيّاً، أو يحفظَه من اللوح المحفوظ، فينزلَ به إلى الرسول ويُلقيه عليه.

---

(١) في (م): نفسي.
(٢) كما في الإتقان ١/١٣٨، وعنه نقل المصنف، وكذا ما سيأتي من أقوال.

وقال القطب في «حواشي الكشاف»: الإنزالُ في اللغة: الإيواء، وبمعنى تحريك الشيء من علوٍ إلى سفل، وكلاهما لا يتحقَّقان في الكلام، فهو مستعملٌ بمعنًى مجازيٍّ، فمن قال: القرآنُ معنًى قائمٌ بذاتِ الله تعالى، فإنزالهُ أنْ توجد[1] الكلمات والحروف الدالَّة على ذلك المعنَى ويثبتها في اللوح المحفوظ. ومَن قال: القرآنُ هو الألفاظُ الدالَّةُ على المعنى القائم بذاته تعالى، فإنزالهُ مجرَّدُ إثباتهِ في اللوح المحفوظ، وهذا المعنى مناسبٌ لكونه مجازاً عن أوَّل المعنيين اللغويين. ويمكن أن يكون المرادُ بإنزاله إثباته في السماء الدنيا بعد الإثبات في اللوح المحفوظ، وهذا مناسبٌ للمعنى الثاني.

والمراد بإنزالِ الكتب على الرسل أن يتلقَّفها الملكُ من الله تعالى تلقُّفاً روحانياً، أو يَحْفَظَها من اللوح المحفوظ وينزلَ بها فيُلْقيها عليهم. انتهى، وفيه بحثٌ لا يخفى.

وعندي: أنَّ إنزاله إظهارُه في عالَم الشهادة بعد أنْ كان في عالَم الغيب.

ثم إنَّ ظاهر الآية يقتضي أنَّ جميع القرآن نزل به الروحُ الأمينُ على قلبه الشريف ﷺ، وهذا ينافي ما قيل: إنَّ آخِرَ سورةِ البقرة كلَّمه الله تعالى بها ليلةَ المعراج حيث لا واسطةَ، احتجاجاً بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود: لمَّا أُسريَ برسول الله ﷺ انتهى إلى سِدْرَةِ المُنتَهَى، الحديثَ، وفيه: فأعطيَ رسول الله ﷺ الصلواتِ الخمسَ، وأُعطيَ خواتيمَ سورة البقرة، وغُفِرَ لمن لا يشركُ من أمته بالله تعالى شيئاً المقحِمات[2].

وأجيب بعد تسليم أنْ يكون ما ذُكر دليلاً لذلك: يجوزُ أن يكون قد نزل جبريل عليه السلام بما ذُكر أيضاً تأكيداً وتقريراً، أو نحو ذلك، وقد ثبت نزولهُ عليه السلام بالآية الواحدةِ مرَّتين لِمَا ذُكر.

وجوِّز أن تكون الآيةُ باعتبارِ الأغلب. واعتَبر بعضُهم كونَها كذلك لأمرٍ آخَرَ،

---

(١) في الإتقان: يوجد.

(٢) صحيح مسلم (١٧٣)، وهو عند أحمد (٣٦٦٥). والمُقْحِمات: الذنوب العظام التي تُقْحِم أصحابها في النار، أي: تُلْقيهم فيها.

وهو أنَّ من القرآن ما نزل به إسرافيلُ عليه السلام، وهو ما كان في أول النبوَّة. وفيه أنَّ ذلك لم يثبت أصلاً.

وفي «الإتقان»: أخرج الإمامُ أحمد في «تاريخه» من طريق دواد بن أبي هند عن الشعبيِّ قال: أُنزل على النبيِّ ﷺ النبوَّةُ وهو ابنُ أربعين سنةً، فقُرِنَ بنبوَّته إسرافيل عليه السلام ثلاثَ سنين، فكان يعلِّمه الكلمةَ والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلمَّا مضت ثلاثُ سنين قُرِنَ بنبوَّتِه جبريلُ عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشر سنين[1]. انتهى. وهو صريحٌ في خلاف ذلك، وإن كان فيه ما يخالفُ الصحيحَ المشهورَ من أنَّ جبريلَ عليه السلام هو الذي نزل عليه عليه الصلاة والسلام بالوحي من أول الأمر[2]، إلا أنه نزل عليه ﷺ غيرُه عليه السلام من الملائكة أيضاً ببعض الأمور، وكثيراً ما ينزلون لتشييع الآيات القرآنية مع جبريل عليه وعليهم السلام[3].

ومن الناس مَن اعتبر كونَها باعتبارِ الأغلب؛ لأنَّ إنزال جبريل عليه السلام قد لا يكون على القلب، بناءً على ما ذكره الشيخ محيي الدين قدِّس سرُّه في الباب الرابع عشر من «الفتوحات» من قوله: اعلم أنَّ المَلَكَ يأتي النبيَّ عليه الصلاة والسلام بالوحي على حالين: تارةً ينزل بالوحي على قلبه، وتارةً يأتيه في صورةٍ جسديةٍ من خارجٍ، فيُلْقي ما جاء به إلى ذلك النبيِّ على أذنه فيَسمعُه، أو يلقيه على بصره فيُبْصِرُه، فيحصلُ له من النظر ما يحصل من السمع سواء[4].

وتعقِّب بأنه لا حاجةَ إلى ما ذكر، وما نُقل عن محيي الدين قدِّسَ سرُّه لا يدلُّ

---

(١) الإتقان ١/ ١٤٣. ومن طريق الإمام أحمد أخرجه البيهقي في الدلائل ٢/ ١٣٢، وابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٧١. وجاء في جميع هذه المصادر: عشرين سنة، بدل: عشر سنين. وأخرجه أيضاً ابن سعد في الطبقات ١/ ١٩١. وصحح إسناده إلى الشعبي ابن كثير في البداية والنهاية ٤/ ١٠، والخبر بنحوه في العلل ومعرفة الرجال لأحمد ٢/ ٣٣٧.

(٢) ينظر حديث عائشة عند البخاري (٦٩٨٢). وذكر ابن سعد ١/ ١٩١ أنه ذكر خبر الشعبي للواقدي فقال: ليس يَعْرِفُ أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قُرن بالنبي ﷺ، وإن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون: لم يُقرن به غيرُ جبريلَ من حين أُنزل عليه الوحي إلى أن قبض.

(٣) ينظر ما سلف ٨/ ٦.

(٤) الفتوحات المكية ١/ ١٥٠.

على أنَّ نزول الوحي إلى كلِّ نبيٍّ يكون على هذين الحالين، فيجوزُ أن يكون نزولُ الوحي إلى نبيِّنا ﷺ على الحال الأولى فقط.

سلَّمنا دلالتَه على العموم، وأنَّ نزول الوحي إلى نبيِّنا عليه الصلاة والسلام قد يكون بتمثُّلِ الملك بناءً على بعض الأخبار الصحيحة في ذلك[1]، لكنْ لا نسلِّم أنه يدلُّ على أنَّ نزول الوحي إذا كان الموحَى قرآناً يكون على الحال الثانية.

سلَّمنا دلالته على ذلك، لكنْ لا نسلِّم صحةَ جَعْلِه مبنًى لتأويلِ الآية، وكيف يؤوَّلُ كلام الله تعالى لكلامٍ منافٍ لظاهره صَدَر من غير معصوم، ويكفي محيي الدِّين قدِّس سرُّه من علماءِ الشريعة أن يؤوِّلوا كلامه ليوافقَ كلامَ الله عزَّ وجلَّ، فيَسْلَمَ من الطعن.

ولعل مَن يؤوِّلُ في مثل ذلك يُحْسِنُ الظنَّ بمحيي الدِّين قدِّس سرُّه، ويقول: إنه لم يقل ذلك إلا لدليلٍ شرعيٍّ، فقد قال قدِّس سرُّه في الكلام على الإذن[2] من «الفتوحات»: اعلم أنِّي لم أقرِّر بحمد الله تعالى في كتابي هذا ولا غيرِه قطُّ أمراً غيرَ مشروعٍ، وما خرجتُ عن الكتاب والسنَّة في شيءٍ من تصانيفي[3].

وقال في الباب السادس والستين وثلاثِ مئة من الكتاب المذكور: جميعُ ما أتكلَّم به في مجالسي وتأليفي إنما هو من حضرة القرآن العظيم، فإنِّي أُعطيتُ مفاتيحَ العلم فيه، فلا أستمدُّ قطُّ في علمٍ من العلوم إلَّا منه، كلُّ ذلك حتى لا أخرج من مجالسة الحقِّ تعالى في مناجاته بكلامه أو بما تضمَّنه كلامُه سبحانه[4]. إلى غير ذلك، فالداعي للتأويل في الحقيقة ذلك الدليلُ، لا نفسُ كلامه قدِّس سرُّه العزيز، وهو اللائقُ بالمسلمين الكاملين.

---

(١) منها ما أخرجه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: «...وأحياناً يتمثل لي المَلَكُ رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول». وينظر ما سلف ٨/ ٤٩، و١٤/ ١٢٤-١٢٥.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: الأذان، لأنَّ كلامه ورد بنحوه في فصول الأذان والإقامة من الفتوحات.

(٣) بنحوه في الفتوحات ١/ ٤٠٤.

(٤) بنحوه في الفتوحات ٣/ ٣٣٤.

وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ متعلِّقٌ بـ «نَزَل»، أي: نزل به لتنذرهم بما في تضاعيفه من العقوبات الهائلة. وإيثارُ ما في النظم الكريم للدلالة على انتظامه ﷺ في سِلْكِ أولئك المنذِرين المشهورين في حقِّية الرسالة وتقرُّرِ العذاب المنذَرِ به.

وكذا قولُه سبحانه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ متعلِّقٌ بـ «نزل» عند جمعٍ من الأجلَّة، ويكون حينئذٍ ـ على ما قال الشهاب ـ بدلاً من «به» بإعادة العامل[١]. وتقديم «لتكون» إلخ للاعتناء بأمر الإنذار، ولئلَّا يُتوهَّم أنَّ كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين المذكورين متوقِّفٌ على كون الإنزال بلسان عربيٍّ مبين.

واستُحْسِنَ كونُ الباء للملابَسة، والجارُّ والمجرور في موضع الحال من ضمير «به»، أي: نزل به ملتبساً بلغةٍ عربيةٍ واضحةِ المعنى ظاهرةِ المدلول؛ لئلا يبقى لهم عذرٌ. وقيل: بلغةٍ مبيِّنةٍ لهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم على أنَّ «مبين» من أبان المتعدِّي، والأولُ أظهر.

وجوِّز أنْ يعلَّق الجارُّ والمجرور بـ «المنذرين»، أي: لتكون من الذين أَنذروا بلغة العرب، وهم هودٌ وصالحٌ وإسماعيلُ وشعيبٌ ومحمدٌ ﷺ، وزاد بعضهم: خالد بن سنان[٢]، وصفوان بن حنظلة[٣] عليهما السلام.

وتعقِّب[٤] بأنه يؤدِّي إلى أنَّ غاية الإنذار كونُه عليه السلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط، من هودٍ وصالحٍ وشعيبٍ عليهم السلام، ولا يَخْفَى فساده، كيف لا والطامَّةُ الكبرى في باب الإنذار ما أنذره نوح وموسى عليهما السلام، وأشدُّ الزَّواجر تأثيراً في قلوب المشركين ما أنذره إبراهيم عليه السلام؛ لانتمائهم إليه وادِّعائهم أنهم على ملَّته عليه السلام.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٧.

(٢) سلفت قصته ٧/ ١٢٧-١٢٨.

(٣) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٧/ ٢٧، والصواب: حنظلة بن صفوان كما سلف ١٧/ ٣٤٨، وكذا في التعريف والإعلام للسهيلي ص١١٢، وتاريخ ابن عساكر ١/ ١٢، والإكمال ٧/ ٥٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩١ و٣٦٩، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٨، وزاد المسير ٦/ ٩٠، وتفسير القرطبي ١٤/ ١٨١، واللسان (عنق).

(٤) المتعقِّب هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ٢٦٤.

وذكر بعضُهم أنَّ المراد على هذا الوجه: إنك أنذرتهم كما أُنذر آباؤهم الأوَّلون، وإنك لستَ بمبتدع بهذا، فكيف كذَّبوك.

والحقُّ أنَّ الوجه المذكور دون الوجهِ السابق، وأمَّا أنه فاسدٌ معنًى كما يقتضيه كلام المتعقِّب فلا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: وإنَّ ذِكْرَ القرآن لفي الكتب المتقدِّمة، على أنَّ الضمير للقرآن والكلامَ على حذفِ مضافٍ، وهذا كما يقال إنَّ فلاناً في دفتر الأمير.

وقيل: المراد: وإنَّ معناه لفي الكتب المتقدِّمة، وهو باعتبارِ الأغلب، فإنَّ التوحيد وسائرَ ما يتعلَّقُ بالذات والصفات وكثيراً من المواعظ والقصص مسطورٌ في الكتب السابقة، فلا يضرُّ أنَّ منه ما ليس في ذلك بحسب الظنِّ الغالب، كقصة الإفك، وما كان في نكاح امرأةِ زيد، وما تضمَّنه صدرُ سورة التحريم، وغيرِ ذلك.

واشتهر عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه جوَّز قراءة القرآن بالفارسية والتركية والهندية، وغيرِ ذلك من اللغات مطلقاً، استدلالاً بهذه الآية. وفي روايةٍ: تخصيصُ الجواز بالفارسية لأنها أشرفُ اللغات بعد العربية؛ لخبر: لسانُ أهلِ الجنة العربيُّ والفارسيُّ الدرِّي(١).

وفي روايةٍ أخرى: أنها إنما تجوزُ بالفارسية إذا كان ثناءً كسورة الإخلاص، أمَّا إذا كان غيرَه فلا تجوز.

وفي أخرى: أنها إنما تجوز بالفارسية في الصلاة إذا كان المصلِّي عاجزاً عن العربية وكان المقروءُ ذكراً وتنزيهاً، أمَّا القراءة بها في غير الصلاة، أو في الصلاة وكان القارئُ يُحْسِنُ العربية، أو في الصلاة وكان القارئُ عاجزاً عن العربية لكنْ كان المقروء من القصص والأوامر والنواهي، فإنها لا تجوز. وذُكر أنَّ هذا قولُ صاحبيه، وكان رضي الله عنه قد ذهب إلى خلافه ثم رجع عنه إليه، وقد صحَّح رجوعَه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقاً جمعٌ من الثقات المحقِّقين(٢).

---

(١) حديث موضوع كما سلف ١٢/ ١٨٣ والدرِّي: الفصيح. ينظر حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٣.
(٢) سلف الكلام في هذه المسألة ١٢/ ١٨١-١٨٣.

وللعلَّامة حسن الشُّرنبلالي رسالةٌ في تحقيق هذه المسألة سماها: «النفحةُ القُدْسيةُ في أحكام قراءة القرآنِ وكتابتهِ بالفارسية»[١] فَمَنْ أراد التحقيق فليرجع إليها. وكأنَّ رجوعَ الإمام عليه الرحمةُ عمَّا اشتهر عنه لضَعْفِ الاستدلال بهذه الآية عليه، كما لا يخفى على المتأمِّل.

وفي «الكشف»: أنَّ القرآن كان هو المُنْزَلُ للإعجاز، إلى آخر ما يُذْكَر في معناه، فلا شكَّ أنَّ الترجمة ليست بقرآنٍ وإنْ كان هو المعنى القائمَ بصاحبه، فلا شكَّ أنه غيرُ ممكنِ القراءة.

فإن قيل: هو المعنى المعبَّرُ عنه بأيِّ لغةٍ كان.

قلنا: لا شكَّ في اختلاف الأسامي باختلاف اللغات، وكما لا يسمَّى القرآن بالتوراة لا يسمَّى التوراةُ بالقرآن، فالأسماءُ لخصوص العبارات فيها مدخلٌ لا أنها لمجرَّدِ المعنى المشترك. اهـ.

وفيه بحث، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ [فصلت: ٤٤] يستلزمُ تسميتَه قرآناً أيضاً لو كان أعجميّاً، فليس لخصوص العبارة العربية مدخلٌ في تسميته قرآناً، والحقُّ أنَّ «قرآناً» المنكَّرَ لم يُعْهَدْ فيه نقلٌ عن المعنى اللغويِّ، فيتناولُ كلَّ مقروء، أمَّا القرآنُ باللام فالمفهومُ منه العربيُّ في عُرْفِ الشَّرْعِ، فلخصوص العبارة مدخلٌ في التسمية نظراً إليه، وقد جاء كذلك في الآية الدالَّة على وجوب القراءة، أعني قوله سبحانه: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠] وبذلك تمَّ المقصود. وجَعْلُ «مِن» فيه للتبعيض، وإرادةُ المعنى من هذا البعض، لا يخفى ما فيه.

وقيل: ضمير «إنه» عائدٌ على رسول الله ﷺ، وليس بواضح.

وقرأ الأعمش: «زُبْرِ» بسكون الباء[٢].

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ الهمزةُ للتقريرِ، أو للإنكار والنفي، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، كأنه قيل: أغَفَلوا عن ذلك ولم يكن لهم آيةً دالَّةً على أنه تنزيلُ

(١) سلف بعضٌ من كلام الشرنبلالي في هذه الرسالة ١٢/ ١٨٢.
(٢) البحر ٧/ ٤١.

ربِّ العالمين وأنه في[1] زُبُر الأوَّلين، على أنَّ «لهم» متعلِّقٌ بالكون قدِّم على اسمه وخبرِه للاهتمام، أو بمحذوفٍ هو حالٌ من «آيةً» قدِّمت عليها لكونها نكرةً و«آيةً» خبرٌ للكون قدِّم على اسمه الذي هو قولُه تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ لِمَا مرَّ مراراً من الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

والعلمُ بمعنى المعرفة، والضميرُ للقرآن، أي: أَلَمْ يكن لهم آيةً معرفةُ علماء بني إسرائيل القرآنَ بنعوته المذكورةِ في كتبهم. وعن قتادة: أنَّ الضمير للنبيِّ ﷺ.

وقيل: العلم على معناه المشهورِ، والضميرُ للحُكْم السابق في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤] إلخ، وفيه بُعْدٌ كما لا يخفى.

وذكر الثعلبيُّ[2] عن ابن عباس أنَّ أهلَ مكةَ بعثوا إلى أحبار يثربَ يسألونهم عن النبيِّ، فقالوا: هذا زمانُه، وذكروا نعتَه وخلَّطوا في أمر محمدٍ ﷺ، فنزلت الآيةُ في ذلك. وهو ظاهرٌ في أنَّ الضمير له عليه الصلاة والسلام، ويؤيِّده كونُ الآية مكيةً. وقال مقاتل: هي مدنيَّة. وعلماءُ بني إسرائيل عبدُ الله بنُ سلام ونحوُه، كما روي عن ابن عباس ومجاهد. وذلك أنَّ جماعةً منهم أسلموا ونصُّوا على مواضعَ من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول ﷺ.

وقيل: علماؤهم مَن أسلم منهم ومَن لم يُسْلِمْ.

وقيل: أنبياؤهم، فإنهم نبَّهوا على ذلك، وهو خلافُ الظاهر.

ولعل أظهرَ الأقوال كونُ المراد به معاصريه ﷺ من علماء أهل الكتابين المسلمين وغيرهم.

وقرأ ابن عامر والجحدريُّ: «تكُنْ» بالتأنيث، و«آيةٌ» بالرفع[3]، وجُعِلَتْ اسمَ «تكن» و«أنْ يعلمه» خبرها. وضعِّف بأنَّ فيه الإخبارَ عن النكرة بالمعرفة، ولا يدفعُه كونُ النكرة ذات حالٍ بناءً على أحد الاحتمالين في «لهم».

---

(١) في الأصل و(م): لفي، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٤، والكلام منه.
(٢) كما في البحر ٧/ ٤١، وعنه نقل المصنف.
(٣) التيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٣٦ عن ابن عامر. وذكرها عنهما أبو حيان في البحر ٧/ ٤١.

وجوّز أن يكون «آيةٌ» الاسمَ، و«لهم» متعلّقاً بمحذوفٍ هو الخبر، و«أن يعلمه» بدلاً من الاسم أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ.

وأن يكون الاسم ضميرَ القصة، و«لهم آيةٌ» مبتدأً وخبراً[١]، والجملة خبر «تكن»، و«أن يعلمه» بدلاً أو خبرَ مبتدأ محذوف.

وأن يكون الاسم ضمير القصة، و«آيةٌ» خبر «أن يعلمه»، والجملة خبر «تكن».

وأن تكون «تكن» تامةً، و«آيةٌ» فاعلاً، و«أن يعلمه» بدلاً أو خبراً لمحذوف، و«لهم» إما حالاً أو متعلّقاً بـ «تكن».

وقرأ ابن عباس: «تكن» بالتأنيث و«آيةً» بالنصب[٢]، كقراءة مَن قرأ: «ثم لم تكن» بالتأنيث «فتنتَهم» بالنصب «إلّا أنْ قالوا»[٣]، وكقول لبيد يصفُ العيرَ والأتان:

فمَضَى وقدَّمها وكانت عادةً ... منه إذا هي عرَّدَتْ إقدامُها[٤]

وذلك إمَّا على تأنيث الاسم لتأنيث الخبر، وإمَّا لتأويل «أنْ يعلَمه» بالمعرفة. وتأويلِ «أنْ قالوا» بالمقالة. وتأويلِ الإقدام بالتقدمة؛ ودعوى اكتسابِ التأنيث فيه من المضاف إليه ليس بشيءٍ؛ لفَقْدِ شَرْطِه المشهور[٥].

وقرأ الجحدري: «تَعْلَمَه» بالتأنيث[٦] على أنَّ المراد جماعةُ علماء بني إسرائيل.

---

(١) في(م): وخبر.
(٢) البحر ٧/ ٤١، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٤٤ عن أبي عمران الجوني وقتادة.
(٣) الآية (٢٣) من سورة الأنعام، والقراءة المذكورة هي قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم في رواية شعبة وأبي جعفر وخلف. التيسير ص١٠١-١٠٢، والنشر ٢/ ٢٥٧.
(٤) ديوان لبيد ص٣٠٦. قال الشارح: عرَّدت: حادت عن الطريق. إقدامها: تقديمها.
(٥) وهو أن يكون المضاف صالحاً للحذف وإقامة المضاف إليه مقامه، ويفهم منه ذلك المعنى، نحو: قُطِعَتْ بعضُ أصابعه، فصح تأنيث «بعض» لإضافته إلى أصابع وهو مؤنَّث؛ لصحة الاستغناء بأصابع عنه، فتقول: قطعت أصابعه. شرح الألفية لابن عقيل ٢/ ٤٩-٥٠.
(٦) القراءات الشاذة ص١٠٧، والبحر ٧/ ٤١.

وكتب في المصحف «علمؤا» بواو بين الميم والألف ووجِّه ذلك بأنه على لغةِ مَن يُميل ألفَ «علماء» إلى الواو، كما كتبوا «الصلوة» و«الزكوة» و«الربو» بالواو على تلك اللغة[1].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن كما هو بنَظْمِه الرائق المُعْجِز ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ١٩٨﴾ الذين لا يقدرون على التكلُّم بالعربية، وهو جمعُ أعجميٍّ كما في «التحرير»[2] وغيرِه، إلا أنه حُذِفَ ياءُ النَّسبِ منه تخفيفاً، ومثلُه الأشعرين جمع أشعريٍّ في قول الكميت:

ولـو جـهَّـزْتُ قـافـيـةً شَـروداً      لـقـد دَخَـلَـتْ بـيـوتَ الأشـعـرينـا[3]

وقد قرأه الحسن وابن مقسم بياء النسب على الأصل[4].

وقال ابن عطية: هو جمع أعجم، وهو الذي لا يُفْصِحُ وإن كان عربيَّ النسب، والعجميُّ هو الذي نسبتُه في العجم خلاف العرب وإن كان أفصحَ الناس[5]. انتهى.

واعترُضَ: بأنَّ أعجم مؤنَّثه عَجْماء، وأَفعلُ فَعْلاء لا يُجمَعُ جَمْعَ سلامةٍ.

وأجيبَ: بأنَّ الأعجم في الأصل البهيمةُ العجماء لعدم نُطْقِها، ثم نُقل أو تجوِّز به عمَّا ذُكر، وهو بذلك المعنى ليس له مؤنَّثٌ على فعلاء، فلذلك جُمِعَ جَمْعَ السلامة.

وتعقِّب: بأنه قد صرَّح العلَّامة محمد بن أبي بكر الرازيُّ في كتابه «غرائب القرآن»[6] بأن الأعجم هو الذي لا يُفْصِحُ، والأنثى: العجماء، ولو سلِّم أنه ليس له بذلك المعنى مؤنَّثٌ فالأصلُ مراعاة أصله.

---

(١) البحر ٧/ ٤١.

(٢) لعله التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير، لأبي عبد الله محمد بن سليمان المعروف بابن النقيب، المتوفى سنة (٦٩٨هـ). ينظر كشف الظنون ١/ ٣٥٨.

(٣) ديوان الكميت ص٤٨١، قال أبو رياش شارح القصيدة: يعني قافية أهجوكم بها. وشروداً: قد شردت أو تشرَّدت في البلاد، وأراد ببيوت الأشعرين أبا موسى الأشعري ورهطه.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٧، والمحتسب ٢/ ١٣٢، والبحر ٧/ ٤٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٣.

(٦) واسمه: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، ومؤلفه محمد بن =

وفيه: أنَّ كونَ ارتفاع المانع لعارضٍ مجوِّزاً مما صرَّح به النحاة. ثم إنَّ كون أفعل فعلاء لا يُجمَعُ جمعَ سلامةٍ مذهبُ البصريين والفرَّاءِ[1]، وغيرُه من الكوفيين يجوِّزونه، فلعل مَن قال: إنه جمعُ أعجم قاله بناءً على ذلك.

وظاهرُ الجمع المذكور يقتضي أن يكون المرادُ به العقلاء. وعن بعضهم أنه جَمْعُ أعجم مراداً به ما لا يعقِلُ من الدوابِّ العُجْم، وجُمِعَ جَمْعَ العقلاء لأنه وُصِفَ بالتنزيل عليه، وبالقراءة في قوله تعالى: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ فإنَّ الظاهر رجوعُ ضمير الفاعل إلى «بعض الأعجمين»، وهما من صفات العقلاء.

والمراد بيانُ فَرْطِ عنادِهم وشدَّةِ شكيمتهم في المكابرة،كأنه قيل: ولو نزَّلناه بهذا النظم الرائق المعجِزِ على مَن لا يقدرُ على التكلُّم بالعربية، أو على ما ليس من شأنه التكلُّمُ أصلاً من الحيوانات العُجْم، فقرأه عليهم قراءةً صحيحةً خارقةً للعادة ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء.

وقيل: المراد بالأعجمين جمعُ أعجم أعمّ من أن يكون عاقلاً أو غيره، ونقل ذلك الطبرسيُّ عن عبد الله بن مطيع، وذكر أنه روي عن ابن مسعودٍ أنه سئل عن هذه الآية وهو على بعير، فأشار إليه وقال: هذا من الأعجمين[2]. والطبري على ما في «البحر» يروي نحو هذا عن ابن مطيع[3]. والمراد أيضاً بيانُ فَرْطِ عنادهم.

وقيل: هو جمع أعجم مراداً به ما لا يعقل، وضمير الفاعل في «قرأه» للنبيِّ ﷺ، وضمير «عليهم» لبعض الأعجمين، وكذا ضمير «كانوا»، والمعنى: لو نزَّلنا القرآن على بعض البهائم، فقرأه محمد ﷺ على أولئك البهائم، ما كانوا - أي: أولئك البهائم - مؤمنين به، فكذلك هؤلاء لأنهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً. ولا يخفى ما فيه.

---

= أبي بكر الرازي هو صاحب مختار الصحاح، المتوفى سنة(٦٦٦هـ)، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٢٧.

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٢٧، ونقل أبو حيان في البحر ٧/ ٤٢ عن الفراء: الأعجمين جمع أعجم أو أعجمي على حذف ياء النسب، كما قالوا: الأشعرين.

(٢) مجمع البيان ١٩/ ١٨٤-١٨٥.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٧، والبحر ٧/ ٤١.

وقيل: المراد: ولو نزَّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم، فقرأه عليهم[1]، ما كانوا به مؤمنين لعدم فَهْمِهم ما فيه، وأخرج ذلك عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة[2]، وهو بعيدٌ عمَّا يقتضيه مقامُ بيانِ تماديهم في المكابرة والعناد.

واستند بعضُهم بالآية عليه في مَنْعِ أَخْذِ العربية في مفهوم القرآن؛ إذ لا يتصوَّر على تقديرِ أَخْذِها فيه تنزيلُه بلغة العجم؛ إذ يستلزم ذلك كونَ الشيءِ الواحد عربياً وعجمياً، وهو محال.

وأجيب بأنَّ ضمير «نزلناه» ليس راجعاً إلى القرآن المخصوص المأخوذِ في مفهومه العربيةُ، بل إلى مطلق القرآن، ويرادُ منه ما يُقرأ أعمّ من أن يكون عربيًّا أو غيرَه، وهذا نحوُ رجوع الضمير للعامِّ في ضمن الخاصِّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ الآية [فاطر: ١١] فإنَّ ضمير «عمره» راجعٌ إلى شخصٍ بدون وَصْفِه بمعمَّر؛ إذ لا يتصوَّر نقصُ عمرِ المعمَّر كما لا يخفى.

وقال بعضهم في الجواب: إنَّ الكلام على حَذفِ مضافٍ، والمراد: ولو نزَّلنا معناه بلغة العجم على بعض الأعجمين، فتدبَّر.

وفي لفظ «بعض» على كلِّ الأقوال إشارةٌ إلى كون ذلك المفروضِ تنزيلهُ عليه واحداً من عرض تلك الطائفة كائناً مَن كان.

و«به» متعلِّقٌ بـ «مؤمنين»، ولعل تقديمه عليه للاهتمام وتوافُقِ رؤوس الآي.

والضميرُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ على ما يقتضيه انتظامُ الضمائر السابقة واللاحقة في سلكٍ واحدٍ للقرآن، وإليه ذهب الرمَّانيُّ[3] وغيرُه، والمعنى على ما قيل: مثلَ ذلك السَّلْكِ[4] البديع المذكور سلكناه، أي: أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارجٌ عن

(١) أي: على العرب.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٧٦، وتفسير الطبري ١٧/ ٦٤٧، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٩٥، ولفظه: لو أنزله الله أعجميًّا كانوا أخسَّ الناس به؛ لأنهم لا يعرفون العجمية.

(٣) كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤، والبحر ٧/ ٤٢.

(٤) في الأصل: المسلك، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود، والكلام منه.

القوى البشرية، وقد انضمَّ إليه علمُ أهل الكتابين بشأنه، وبشارةُ الكتب المنزلةِ بإنزاله، فقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسوقةٌ لبيان أنهم لا يتأثَّرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به، بل يستمرُّون على ما هم عليه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ المُلْجِئَ إلى الإيمان به، وحينئذٍ لا ينفعُهم ذلك.

والمراد بـ «المجرمين» المشركون الذين عادت عليهم الضمائر من «لهم» و«عليهم» و«كانوا»، وعدل عن ضميرهم إلى ما ذكر تأكيداً لذمِّهم.

وقال الزمخشريُّ[1] في معنى ذلك: أي: مثلَ هذا السلكِ[2] سلكناه في قلوبهم، وهكذا مكَّنَّاه وقرَّرناه فيها، وعلى مِثْلِ هذه الحالِ وهذه الصفةِ من الكفر به والتكذيبِ له وضعناه فيها، فكيفما[3] فُعِلَ بهم وصُنِعَ، وعلى أيِّ وجهٍ دبِّر أمرُهم، فلا سبيلَ إلى أنْ يتغيَّروا عمَّا هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]. وموقعُ قوله تعالى: (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ) إلخ ممَّا قبله موقع الموضِّح والملخِّص؛ لأنه مسوقٌ لثباته مكذَّباً مجحوداً في قلوبهم، فأتبع ما يقرِّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً، أي: سلكناه فيها غيرَ مؤمَنٍ به. اهـ.

وتعقِّب بأنَّ الأول هو الأنسبُ بمقام بيان غايةِ عنادِهم ومكابرتهم مع تعاضُدِ أدلَّةِ الإيمانِ، وتَناجُدِ مبادي الهداية والإرشاد، وانقطاعِ أعذارهم بالكلِّية.

وقد يقال: إنَّ هذا التفسير أوفقُ بتسليته ﷺ التي هي كالمَبْنَى لهذه السورة الكريمة، وبها صدِّرت حيث قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] كأنه جلَّ وعلا بعد أن ذكر فَرْطَ عنادهم وشدَّةَ شكيمتهم في المكابرة، وهو[4] تفسيرٌ واضحٌ في نفسه، فهو عندي أولى مما تقدم.

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٢٩.
(٢) في الأصل: المسلك.
(٣) في (م): فكيف ما.
(٤) جاء فوقها في الأصل تضبيب، ولعلها إشارة إلى وجود سقط في الكلام. ينظر تفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٥، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٨.

وفي «المطلع» أنَّ الضمير للتكذيب والكفرِ المدلولِ عليه بقوله تعالى: (مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ)، وبه قال يحيى بن سلام، وروي عن ابن عباس والحسن، والمعنى: وكذلك سَلَكْنا التكذيبَ بالقرآن والكفرَ به في قلوب مشركي مكةَ ومكَّنّاه فيها، وقوله تعالى: (لَا يُؤْمِنُونَ) إلخ واقعٌ موقعَ الإيضاح لذلك. ولا يظهرُ على هذا الوجه كونُه حالاً، ولا أرى لهذا المعنى كثرةَ بُعْدٍ عن قولِ مَن قال: أي: على مثل هذا السَّلكِ سلكنا القرآن، وعلى مثل هذه الحالِ وهذه الصفةِ من الكفر به والتكذيب له وضعناه في قلوبهم. وحاصلُ الأول: كذلك سَلَكْنا التكذيب بالقرآن في قلوبهم. وحاصل هذا: وكذلك سَلَكْنا القرآن بصفةِ التكذيب به في قلوبهم فتأمل.

وجوَّز جَعْلُ الضمير للبرهان الدالِّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية: ١٩٧]، وهو بعيدٌ لفظاً ومعنًى.

هذا وذهب بعضُهم إلى أنَّ المراد بالمجرمين غيرُ الكفرة المتقدِّمين الذين عادت عليهم الضمائر، وهم مشركو مكة من المعاصرين لهم وممن يأتي بعدهم، و«ذلك» إشارةٌ إلى السَّلْكِ في قلوب أولئك المشركين، أي: مثلَ ذلك السَّلكِ في قلوب مشركي مكةَ سلكناه في قلوب المجرمين غيرِهم؛ لاشتراكهم في الوصف، وقولُه سبحانه: (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ) إلخ بيانٌ لحال المشركين المتقدِّمين الذين اعتُبروا في جانب المشبَّهِ به، أو إيضاحٌ لحال المجرمين وبيانٌ لِمَا يقتضيه التشبيهُ، وهو كما ترى.

ونَقَل في «البحر» عن ابن عطية: أنه أريد مجرمي كلِّ أمةٍ، أي: إنَّ سنَّةَ الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، فلا ينفعهم الإيمانُ بعد تلبُّس العذابِ بهم، وهذا على جهة المثال لقريش، أي: هؤلاء كذلك. وكشف الغيب بما تضمَّنته الآية يومَ بدر[1]. انتهى.

وكأنه جَعَل ضمير «سلكناه» لمطلَقِ الكفر لا للكفر بالقرآن، وضمير «به» لله تعالى أو لما أُمروا بالإيمان به [لا][2] للقرآن، وإلَّا فلا يكاد يتسنَّى ذلك، وعلى كلِّ حالٍ لا ينبغي أن يعوَّل عليه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤، والبحر ٧/ ٤٢.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ أي: العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ أي: بإتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ أي: تحسُّراً على ما فات من الإيمان، وتَمنِّياً للإمهال لتلافي ما فرَّطوه: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ أي: مؤخَّرون.

والفاء في الموضعين عاطفةٌ، وهي كما يدلُّ عليه كلام «الكشاف»[1] للتعقيب الرُّتبيِّ دون الوجوديِّ، كأنه قيل: حتى تكون[2] رؤيتهم للعذاب الأليم فما هو أشدُّ منها وهو مفاجأتُه، فما هو أشدُّ منه وهو سؤالهم النَّظِرة[3]، نظير ما في قولك: إنْ أسأتَ مَقتَكَ الصالحون فمَقتَكَ الله تعالى، فلا يَرِدُ أنَّ البَغْتَ من غير شعورٍ لا يصحُّ تعقُّبه للرؤية في الوجود.

وقال سريُّ الدين المصريُّ عليه الرحمةُ في توجيه ما تدلُّ عليه الفاءُ من التعقيب: إنَّ رؤية العذاب تكون تارةً بعد تقدُّم أماراته وظهورِ مقدِّماته ومشاهدةِ علاماته، وأخرى بغتةً لا يتقدَّمها شيءٌ من ذلك، فكانت رؤيتُهم العذابَ محتاجةً إلى التفسير، فعطف عليها بالفاء التفسيرية قوله تعالى: «يأتيهم بغتة»، وصحَّ بينهما معنى التعقيبِ لأنَّ مرتبة المفسِّر في الذِّكر أن يقع بعد المفسَّر كما فُعل في التفصيل بالقياس إلى الإجمال، كما يُستفاد من تحقيقات الشريف في «شرح المفتاح».

ويمكنُ أن تكونَ الآيةُ من باب القَلْبِ كما هو أحدُ الوجوه في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] للمبالغة في مفاجأةِ رؤيتهم العذابَ، حتى كأنهم رأوه قبل المفاجأة، والمعنى: حتى يأتيهم العذاب الأليم بغتةً فيروه. انتهى.

وجعلها بعضُهم للتفصيل، واعتَرَضَ على ما قال صاحب «الكشاف» بأنَّ العذاب الأليم منطوٍ على شدَّة البَغْتِ، فلا يصحُّ الترتيبُ والتعقيبُ الرتبي، وهو وهمٌ كما لا يخفى.

---

(١) ٣/ ١٢٩.
(٢) في (م): يكون، والمثبت من الأصل والكشاف.
(٣) النَّظِرة: التأخير في الأمر. القاموس (نظر).

والظاهر أنَّ جملة «وهم لا يشعرون» حالٌ مؤكِّدةٌ لِمَا يفيده «بغتةً»، فإنها كما قال الراغب: مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب[١].

ثم إنَّ هذه الرؤيةَ وما بعدها إنْ كانت في الدنيا كما قيل فإتيانُ العذاب الأليم فيها بغتةً مما لا خفاءَ فيه؛ لأنه قد يفاجئهم فيها ما لم يكن يمرُّ بخاطرهم على حين غفلة، وإن كانت في الآخرة فوجهُ إتيانه فيها بغتةً ـ على ما زعمه بعضهم ـ أنَّ المراد به أن يأتيهم من غير استعدادٍ له وانتظارٍ، فافهم.

واختار بعضهم أنَّ ذلك أعمُّ من أن يكون في الدنيا أو في الآخرة.

وقرأ الحسن وعيسى: «فتأتيهم» بتاء التأنيث[٢]، وخرَّج ذلك الزمخشريُّ على أنَّ الضمير للساعة[٣]. وأبو حيان عن أنه للعذاب بتأويل العقوبة[٤].

وقال أبو الفضل الرازي[٥]: للعذاب، وأنِّثَ لاشتماله على الساعة فاكتسى منها التأنيث، وذلك لأنهم كانوا يسألون عذابَ القيامةِ تكذيباً بها. انتهى.

وهو في غاية الغرابة، وكأنه اعتبر إضافةَ العذاب إلى الساعة معنًى، بناءً على أنَّ المراد بزَعْمِه: حتى يروا عذابَ الساعةِ الأليم، وقال باكتسائه التأنيثَ منها بسبب إضافته إليها؛ لأنَّ الإضافة إلى المؤنث قد تكسي المضافَ المذكَّر التأنيث، كما في قوله:

كما شَرِقتْ صَدْرُ القناة من الدم[٦]

ولم أرَ أحداً سبقه إلى ذلك.

---

(١) مفردات الراغب (بغت).
(٢) المحتسب ٢/ ١٣٣، والكشاف ٣/ ١٢٩، والبحر ٧/ ٤٢. ووقع في الأصل و(م): تأتيهم.
(٣) الكشاف ٣/ ١٢٩.
(٤) البحر ٧/ ٤٢.
(٥) كما في البحر ٧/ ٤٣.
(٦) وصدره: وتَشْرَقَ بالقولِ الذي قد أَذَعْتَه، والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٧٣، والكتاب ١/ ٥٢، وسلف ٤/ ٣٦٦.

وقرأ الحسن: «بَغَتَةً» بالتحريك[١]. وفي حرف أبيٍّ رضي الله عنه: «ويروه بغتة»[٢].

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤﴾ أي: يطلبونه قبل أوانه، وذلك قولُهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولُهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠] ونحوهما.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أي: فأخبِرْ ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ أي: مدَّةً من الزمان، بطولِ الأعمار وطيبِ المعاش، أو: عمر الدنيا، على ما روي عن عكرمة. وعبَّر عن ذلك بما ذُكر إشارةً إلى قلَّته.

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦﴾ أي: الذي[٣] كانوا يُوْعَدونه من العذاب ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي: أيَّ شيءٍ، أو: أيَّ غناءٍ[٤] أغنى عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ أي: كونُهم ممتَّعين ذلك التمتيعَ المديد، على أنَّ «ما» مصدرية كما هو الأَوْلَى، أو: الذي كانوا يمتَّعونه من متاع الحياة الدنيا، على أنها موصولةٌ حُذِفَ عائدُها. وأيّاً ما كان فالاستفهام للنفي والإنكار.

وقيل: «ما» نافية، أي: لم يُغْنِ عنهم ذلك في دَفْعِ العذاب أو تخفيفِه. والأولُ أَوْلَى لكونه أوْفَقَ لصورة الاستخبار، وأدلَّ على انتفاء الإغناء على أبلغ وجهٍ وآكَدِهِ.

وفي رَبْطِ النَّظْمِ الكريم ثلاثةُ أوجُهٍ كما في «الكشاف»:

الأول: أن قوله سبحانه: (أَفَرَءَيْتَ) إلخ متصلٌ بقوله تعالى: (هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ)، وقوله جلَّ وعلا: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) معترضٌ للتبكيت، وإنكارِ أنْ يَستعجِلَ العذابَ مَن هو مُعْرَّضٌ لعذابٍ يسألُ فيه النَّظِرةَ والإمهالَ طرفةَ عينٍ فلا يُجابُ إليها[٥].

والمعنى على هذا كما في «الكشف»: أنه لمَّا ذكر أنهم لا يؤمنون دون

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٣.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٩.

(٣) في(م): الذين، وهو خطأ.

(٤) في تفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٦ (والكلام منه): إغناء.

(٥) الكشاف ٣/ ١٣٠.

مشاهدةِ العذاب، قال سبحانه: إنَّ هذا العذابَ الموعودَ وإنْ تأخَّر أياماً قلائلَ فهو لاحقٌ بهم لا محالةَ، وهنالك لا ينفعُهم ما كانوا فيه من الاغترار المُثْمِرِ لعَدَمِ الإيمان، وأصلُ النظم الكريم: لا يؤمنون حتى يروا العذاب وكيتَ وكيتَ، فإنْ متَّعناهم سنين ثم جاءهم هذا العذابُ الموعود فأيَّ شيءٍ أو فأيَّ غناءٍ يُغني عنهم تمتيعُهم تلك الأيامَ القلائلَ، فجيء بفعل الرؤية والاستفهام ليكون في معنى: أَخْبِرْ، إفادةً لمعنى التعجُّب والإنكار، وأنَّ مِن حقِّ هذه القصة أنْ يُخْبَرَ بها كلُّ أحدٍ حتى يَتَعجَّب. ووسَّط «أفبعذابنا يستعجلون» للتبكيت، والهمزةُ فيه للإنكار، وجيءَ بالفاء دلالةً على ترتُّبه على السابق، كأنه لمَّا وُصِفَ العذاب قيل: أيَستعجِلُ هذا العذابَ عاقلٌ؟!

وفي «الإرشاد» اختيارُ أنَّ قوله تعالى: (أَفَرَءَيْتَ) متصلٌ بقوله سبحانه: (هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ)، وجعل الفاء لترتيب الاستخبار على ذلك القول، وهي متقدِّمةٌ على الهمزة معنًى، وتأخيرُها عنها صورة لاقتضاءِ الهمزةِ الصدارةَ، وأنَّ «أفبعذابنا يستعجلون» معترضٌ للتوبيخ والتبكيت، وجعل الفاء فيه للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الأليم فيستعجلون بعذابنا، وبينهما من التنافي ما لا يَخْفَى على أحدٍ، أو: أيغفلون عن ذلك مع تحقُّقِه وتقرُّرِه فيستعجلون.. إلخ[1].

وصاحب «الكشف» بعد أن قرَّر كما ذكرنا، قال: إنَّ العطف على مقدَّرٍ في هذا الوجهِ لا وَجْهَ له. ولعل المُنْصِفَ يقول: لكلٍّ وجهةٌ.

والثاني: أن قوله تعالى: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) كلامٌ يوبَّخون به يومَ القيامة عند قولهم فيه: «هل نحن منظرون» حُكي لنا لطفاً، و«يستعجلون» عليه في معنى: استعجلتم[2]؛ إذ كذلك يقال لهم ذلك اليوم، وكأنَّ أمر الترتيب أو العطفِ على مقدَّرٍ، وارتباط «أفرأيت» إلخ بقولهم: «هل نحن منظرون» على نحو ما تقدَّم في الوجه السابق.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٦٦.
(٢) بنحوه في الكشاف ٣/ ١٣٠.

والثالث: أنَّ قوله تعالى: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) متصلٌ بما بعده غيرُ مترتِّبٍ على ما قبله، وذلك أنَّ استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غيرُ كائنٍ ولا لاحِقٍ بهم، وأنهم ممتَّعون بأعمارٍ طوال في سلامةٍ وأمْنٍ، فقال عزَّ وجل: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) أشراً وبطراً واستهزاءً، واتكالاً على الأمل الطويل، ثم قال سبحانه: هَبْ أنَّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيدُ بعد ذلك ما ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم وطِيبِ معايشهم[1].

وعلى هذا يكون «فبعذابنا» إلخ عطفاً على مقدَّرٍ بلا خلافٍ، نحو: أيستهزؤون فبعذابنا يستعجلون، وقولهُ تعالى: (أَفَرَءَيْتَ) إلخ تعجُّباً من حالهم مترتِّباً على الاستهزاء والاستعجال، والكلامُ نظيرُ ما تقول لمخاطبك: هل تغترُّ بكثرة العشائر والأموال، فاحسب أنها بلغت فوق ما تؤمِّلُ أليس بعده الموتُ وتَرْكُهما على حسرة؟ وهذا الوجهُ أظهر من الوجه الذي قبله.

وأيّاً ما كان فقولُه سبحانه: «بعذابنا» متعلِّقٌ بـ «يستعجلون» قدِّم عليه للإيذان بأنَّ مَصَبَّ الإنكار والتوبيخ كونُ المستعجَلِ به عذابَه جلَّ جلالُه، مع ما فيه ـ على ما قيل ـ من رعاية الفواصل.

وقرئ: «يُمْتَعون» من الإمتاع[2].

وفي الآية موعظةٌ عظيمةٌ لمن له قلبٌ؛ روي عن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنَّى لقاءه، فقال له: عِظْني، فلم يَزِدْه على تلاوةِ هذه الآية، فقال ميمون: لقد وَعَظْتَ فأَبْلَغْتَ.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ من القرى المهلَكةِ ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ قد أُنذروا أهلها إلزاماً للحجة. والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً مقدَّماً، و«منذرون» مبتدأ. والجملة في موضع الحال من «قرية»، قاله أبو حيان ثم قال: الأَعْرَبُ أن يكون «لها» في موضع الحال، وارتفع «منذرون» بالجارِّ والمجرور، أي: إلا كائناً

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٤.

لها منذرون، فيكون من مجيء الحال مفرداً لا جملةً، ومجيءُ الحال من المنفيِّ كقولك: ما مررتُ بأحدٍ إلا قائماً، فصيحٌ[١]. انتهى.

وفي الوجهين مجيءُ الحال من النكرة، وحسَّن ذلك ـ على ما قيل ـ عمومُها؛ لوقوعها في حيِّز النفي مع زيادةِ «مِن» قبلها، وكأنَّ هذا القائل جَعَلَ العموم مسوِّغاً لمجيءِ الحال قياساً على جَعْلِهم إياه مسوِّغاً للابتداء بالنكرة لاشتراك العلة.

وذهب الزمخشريُّ إلى أنَّ «لها منذرون» جملةٌ في موضع الصفة لـ «قرية»[٢].

ولم يجوِّز أبو حيان كونَ الجملة الواقعة بعد «إلا» صفةً، ثم قال: مذهبُ الجمهور أنه لا تجيءُ الصفة بعد «إلا» معتمدةً على أداة الاستثناء، نحو: ما جاءني أحدٌ إلا راكبٌ، وإذا سُمع خرِّج على البدل، أي: إلَّا رجلٌ راكبٌ، ويدلُّ على صحةِ هذا المذهب أنَّ العرب تقول: ما مررتُ بأحدٍ إلّا قائماً، ولا يُحفَظُ من كلامها: ما مررتُ بأحدٍ إلاَّ قائمٍ، فلو كانت الجملة في موضع الصفة للنكرة لورد المفردُ بعد «إلا» صفةً لها، فإن كانت الصفة غيرَ معتمدةٍ على الأداة جاءت الصفة بعد «إلا»، نحو: ما جاءني أحدٌ إلا زيدٌ خيرٌ من عمرو، فإنَّ التقدير: ما جاءني أحدٌ خيرٌ من عمرو إلا زيدٌ[٣]. انتهى فتذكَّر.

وأيّاً ما كان فضميرُ «لها» للقرية التي هي ـ لِمَا سمعت ـ في معنى الجمع، فكأنه قيل: وما أهلكنا القرى إلَّا لها منذورن، على [أنَّ][٤] معنى أنَّ للكلِّ منذرين أعمّ من أن يكون لكلِّ قريةٍ منها منذرٌ واحدٌ أو أكثر.

وقوله تعالى: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ منصوبٌ على الحال من الضمير في «منذرون» عند الكسائيِّ، وعلى المصدر عند الزجّاج[٥]. فعلى الحال إمَّا أن يقدَّر: ذوي ذكرى، أو يقدَّر: مذكِّرين، أو يبقى على ظاهره اعتباراً للمبالغة. وعلى المصدر فالعامل

---

(١) البحر ٧/ ٤٤.
(٢) الكشاف ٣/ ١٣٠.
(٣) البحر ٧/ ٤٤.
(٤) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ١٣٢.
(٥) في معاني القرآن ٤/ ١٠٢، ونقله المصنف عنه وعن الكسائي بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٤٤.

«منذرون»؛ لأنه في معنى: مذكِّرون، فكأنه قيل: مذكِّرون ذكرى، أي: تذكرة.

وأجاز الزمخشريُّ أن يكون مفعولاً له، على معنى أنهم ينذرون لأجْلِ الموعظة والتذكرة.

وأن يكون مرفوعاً على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ بمعنى: هذه ذكرى، والجملةُ اعتراضيةٌ.

أو صفةٌ بمعنى: منذرون ذوو ذكرى، أو: مذكِّرون[1]، أو جُعلوا نفسَ الذكرى مبالغةً؛ لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها.

وجوَّز أيضاً أن يكون متعلِّقاً بـ «أهلكنا» على أنه مفعولٌ له، والمعنى: ما أهلكنا من قريةٍ ظالمين إلَّا بعدما ألزمناهم الحجةَ بإرسال المنذرين إليهم ليكونَ إهلاكُهم تذكرةً وعبرةً لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم، ثم قال: وهذا هو الوجهُ المعوَّلُ عليه[2].

وبيَّن ذلك في «الكشف» بقوله: لأنه وعيدٌ للمستهزئين، وبأنهم يستحقُّون أن يُجعلوا نكالاً وعبرةً لغيرهم كالأمم السوالف، حيث فَعَلوا مثل فِعْلِهم من الاستهزاء والتكذيب، فجُوزوا بما جُوزوا، وحينئذ يتلائم الكلام. انتهى.

وتعقِّب[3] بأنَّ مذهب الجمهور أنَّ ما قبلَ «إلا» لا يعملُ فيما بعدها إلا أن يكون مستثنًى، أو مستثنًى منه، أو تابعاً له غيرَ معتمدٍ على الأداة، والمفعولُ له ليس واحداً من هذه الثلاثة، فلا يجوز أن يتعلق بـ «أهلكنا». ويتخرَّج جوازُ ذلك على مذهب الكسائيِّ والأخفش وإن كانا لم ينصبا على المفعول له هنا، وكأنَّ ذلك لِمَا في نَصْبِه عليه من التكلُّف، وأمرُ الالتئام سهلٌ كما لا يخفى.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ أي: ليس شأنُنا أن يَصْدُرَ عنَّا بمقتضَى الحكمة ما هو في صورة الظلم لو صَدَرَ من غيرنا، بأنْ نهلك أحداً قبل إنذاره، أو بأنْ نعاقب مَن

---

(١) في الأصل و(م): مذكرين، والصواب ما أثبتناه، وهو على وقوع المصدر موقع اسم الفاعل كما ذكر السمين في الدر ٨/ ٥٦١.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٠.

(٣) المتعقب هو أبو حيان في البحر ٧/ ٤٤.

لم يظلم. ولإرادة نفي أن يكون ذلك من شأنه عزَّ شأنهُ قال: (وَمَا كُنَّا) دون: وما نظلم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلخ [الآية: ١٩٢]، وهو ردٌّ لقول مشركي قريشٍ: إنَّ لمحمدٍ ﷺ تابعاً من الجنِّ يخبرهُ كما تُخْبِرُ الكهنةُ، وإنَّ القرآن مما ألقاه إليه عليه الصلاة والسلام. والتعبيرُ بالتفعيل لأنَّ النزول لو وقع لكان بالاستراق التدريجيِّ.

وقرأ الحسن وابن السميفع: «الشياطونَ»(١)، فقال أبو حاتم(٢): هو غلطٌ من الحسن أو عليه. وقال النحاس: هو غلطٌ عند جميع النحويين(٣). وقال المهدويُّ: هو غيرُ جائزٍ في العربية. وقال الفرَّاء: غَلِطَ الشيخ، ظنَّ أنها النون التي على هجاءَيْن(٤).

وقال النضر بن شميل: إنْ جاز أن يُحتجَّ بقول العجَّاج ورؤبةَ فهلَّا جاز أن يُحتجَّ بقول الحسن وصاحبه، مع أنَّا نعلمُ أنهما لم يقرأا به إلَّا وقد سَمِعا فيه.

وقال يونس بن حبيب: سمعتُ أعرابيّاً يقول: دخلتُ بساتينَ من ورائها بساتون. فقلت: ما أَشْبهَ هذا بقراءة الحسن! انتهى.

ووجِّهت هذه القراءة بأنه لمّا كان آخرُه كآخِرِ يبرين وفلسطين، وقد قيل فيهما: يبرون وفِلَسْطون، أُجري فيه نحو ما أجري فيهما، فقيل: الشياطون؛ وحقُّه على هذا على ما في «الكشاف» أن يُشتقَّ من الشيطوطة، وهي الهلاك(٥).

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٤، والكشاف ٣/ ١٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥، والقراءات الشاذة ص١٠٨، والمحتسب ٢/ ١٣٣، والبحر ٧/ ٤٦.

(٢) كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥، والبحر ٧/ ٤٦، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من أقوال.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٤.

(٤) الكشاف ٣/ ١٣١، والبحر ٧/ ٤٦، والدر المصون ٨/ ٥٦٢، والعبارة في معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٢٨٥: وجاء عن الحسن: «الشياطون» وكأنه مِن غَلَطِ الشيخ ظن أنه بمنزلة المسلمين والمسلمون.

(٥) الكشاف ٣/ ١٣١، ويبرين ويقال: أبرين: قرية كثيرة النخل بالبحرين. معجم البلدان (أبرين) و(يبرين).

وفي «البحر» نقلاً عن بعضهم: إن كان اشتقاقه من شاط ـ أي: احترق ـ يشيطُ شوطةً، كان لقراءتهما وجهٌ. قيل: ووجهُها أنَّ بناء المبالغة منه شيَّاط، وجمعه الشيَّاطون، فخفَّفا الياء، وقد رُوي عنهما التشديد، وقرأ به غيرُهما[1].

وقال بعض: إنه جمعُ شِياط مصدر شاط، كخاط خِياطاً، كأنهما رَدَّا الوصف إلى المصدر بمعناه مبالغةً ثم جمعا. والكلُّ كما ترى.

وقال صاحب «الكشف»: لا وجهَ لتصحيح هذه القراءة البتة. وقد أطنب ابن جنِّي في تصحيحها ثم قال: وعلى كلِّ حال فالشياطون غلط[2].

وأبو حيان لا يرضى بكونه غلطاً، ويقول: قرأ به الحسن وابن السَّمَيْفَع والأعمشُ، ولا يمكن أن يقال: غلطوا؛ لأنهم من العلم ونَقْلِ القرآن بمكانٍ[3]، والله تعالى أعلم.

والذي أراه أنه متى صحَّ رفعُ هذه القراءة إلى هؤلاء الأجلَّةِ لزم توجيهُها، فإنهم لا يقرؤون إلا عن روايةٍ كغيرهم من القرَّاء في جميع ما يقرؤونه عندنا. وزعم المعتزلة أنَّ بعض القراءات بالرأي.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أي: وما يصحُّ وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ أي: وما يقدرون على ذلك أصلاً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين ﴿عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لِمَا يتكلَّم به الملائكةُ عليهم السلام في السماء ﴿لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ أي: ممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكَّنين، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٨-٩] والمرادُ تعليلُ ما تقدَّم على أبلغ وجهٍ؛ لأنهم إذا كانوا ممنوعين عن سماع ما تتكلَّم به الملائكة في السماء، كانوا ممنوعين من أَخْذِ القرآن المجيد من اللوح المحفوظ، أو من بيت العزَّة، أو من سماعه إذ يُظْهِرُه الله عزَّ وجلَّ لمن شاء في سمائه، من بابِ أَوْلَى.

---

(١) البحر ٧/ ٤٦.
(٢) المحتسب ٢/ ١٣٣.
(٣) البحر ٧/ ٤٦.

وقيل: المعنى: إنهم لمعزولون عن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام، لأنه مشروطٌ بالمشاركة في صفات الذات وقبولِ فيضان الحقِّ، والانتقاشِ بالصور الملكوتية، ونفوسُهم خبيثةٌ ظلمانيةٌ شرِّيرةٌ بالذات لا تقبلُ ذلك، والقرآنُ الكريم مشتملٌ على حقائقَ ومغيَّباتٍ لا يمكنُ تلقِّيها إلا من الملائكة عليهم السلام.

وتعقِّب بأنه إن أراد أن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام مطلقاً مشروطٌ بصفاتٍ هم متَّصفون بنقائضها، فهو غيرُ مسلَّم، كيف وقد ثبت أنَّ الشياطين كانوا يَسْتَرِقون السمع، وظاهرُ الآيات أنهم إلى اليومَ يَسْتَرِقُونه ويَخْطَفون الخطفةَ فيتبعهم شهابٌ ثاقب.

وأيضاً لو كان ما ذكر شرطاً للسمع وهو منتفٍ فيهم، فأيُّ فائدةٍ للحرس، ومَنْعِهم عن السمع بالرجوم؟!

وأيضاً لو صحَّ ما ذكر لَمْ يتأتَّ لهم سماعُ القرآن العظيم من الملائكة عليهم السلام سواءٌ كان مشتملاً على الحقائق والمغيَّبات أم لا، فما فائدة في قوله: والقرآن مشتمل.. إلخ، إلى غير ذلك.

وإنْ أراد أنَّ السمع لكلام الملائكة عليهم السلام إذا كان وحياً منزلاً على الأنبياء عليهم السلام مشروطٌ بما ذكر، فهو مع كونه خلافَ ظاهر الكلام غيرُ مسلَّم أيضاً، كيف وقد ثبت أنَّ جبريل عليه السلام حين ينزل بالقرآن ينزل معه رَصَدٌ حِفْظاً للوحي من الشيطان[1]، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۞ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

وأيضاً ظاهرُ العزل عن السمع يقتضي أنهم كانوا ممكَّنين منه قبلُ ثم مُنعوا عنه، فيلزمُ على ما ذكر أنهم كانوا يسمعون الوحي من قبلُ مع أنَّ نفوسهم خبيثةٌ ظلمانيةٌ شريرةٌ بالذات، فيَبْطُلُ كونُ المشاركة المذكورة شرطاً للسمع، فإن ادَّعى أنَّ الشرط كان موجوداً إذ ذاك ثم فُقِدَ، والتَزَمَ القول بجواز تغيُّرِ ما بالذات، فهو مما لم يَقُمْ عليه دليلٌ. وقياسُ جميع الشياطين على إبليس عليه اللعنةُ مما لا يخفى حالُه، فتدبر.

(١) ينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٢٧) من سورة الجن.

وبالجملة الذي أميلُ إليه في معنى الآية ما ذكرتُه أوّلاً، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يتعلّق بذلك.

وجوّز كونُ ضمير «إنهم» للمشركين، والمراد: إنهم لا يصغون للحقِّ لعنادهم، وفي الآية شمة من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وهو بعيدٌ جدّاً.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ خوطب به النبيُّ ﷺ مع استحالة صدور المنهيِّ عنه عليه الصلاة والسلام تهييجاً وحثّاً لازدياد الإخلاص، فهو كنايةٌ عن: أَخْلِصْ في التوحيد حتى لا ترى معه عزَّ وجلَّ سواه. وفيه لطفٌ لسائر المكلَّفين ببيان أنَّ الإشراك من القبح والسوء بحيث يُنْهَى عنه مَن لم يُمْكِنْ صدورُه عنه، فكيف بِمَن عَدَاه؟ وكأنَّ الفاء فصيحةٌ، أي: إذا علمت ما ذُكر فلا تَدْعُ مع الله إلهاً آخَرَ.

﴿وَأَنذِرْ﴾ العذابَ الذي يستتبعه الشركُ والمعاصي ﴿عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أي: ذوي القرابة القريبة، أو الذين هم أكثر قرباً إليك من غيرهم.

والعشيرة على ما قال الجوهريُّ: رَهْطُ الرجل الأَدْنَوْنَ[(١)]. وقال الراغب: هم أهلُ الرجل الذين يتكثَّرُ بهم، أي: يصيرون له بمنزلةِ العدد الكامل، وهو العشرة[(٢)].

واشتهر أن طبقات الأنساب ستٌّ:

الأولى: الشَّعْبُ بفتح الشين، وهو النَّسبُ الأبعد كعدنان.

الثانية: القبيلةُ، وهي ما انقسم فيه الشعب كربيعة ومضر.

الثالثة: العِمَارةُ بكسر العين، وهي ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة.

الرابعة: البطنُ، وهو ما انقسم فيه أنسابُ العمارة، كبني عبد مناف وبني مخزوم.

---

(١) كذا نقل المصنف عن الجوهري، والذي في الصحاح (عشر): العشيرة: القبيلة. وما ذكره المصنف قاله الجوهري في العترة والفصيلة كما في الصحاح (عتر) و(فصل). وفي اللسان (عشر): عشيرة الرجل: بنو أبيه الأدنون، وقيل: قبيلته. ومثله في التاج (عشر).

(٢) مفردات الراغب (عشر).

الخامسة: الفَخِذُ، وهو ما انقسم فيه أنسابُ البطن، كبني هاشم وبني أمية.

السادسة: الفصيلة، وهي ما انقسم فيه أنسابُ الفخذ، كبني العباس وبني عبد المطلب[١]، وليس دون الفصيلة إلَّا الرجلُ وولده.

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبيِّ عن أبيه تقديمَ الشَّعْبِ، ثم القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العِمَارة، ثم الفَخِذ[٢]، فأقام الفصيلة مقام العمارة في ذكرها بعد القبيلة، والعمارةَ مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ، ولم يَحْكِ ما يخالفُه، ولم يذكر في الترتيبين العشيرة.

وفي «البحر» أنها تحت الفخذ فوق الفصيلة[٣]. والظاهرُ أنَّ ذلك على الترتيب الأول.

وحَكَى بعضُهم بعد أن نقل الترتيبَ المذكور عن النوويِّ عليه الرحمةُ أنه قال في «تحرير التنبيه»: وزاد بعضُهم العشيرة قبل الفصيلة.

ويُفْهَمُ من كلام البعض أنَّ العشيرة إذا وُصفَتْ بالأقرب اتَّحدتْ مع الفصيلة التي هي سادسةُ الطبقات، وأنت تعلم أنَّ الأقربية إذا كانت مأخوذةً في مفهومها كما يُفهم من كلام الجوهري[٤] تستغني دعوى الاتِّحاد عن الوصف المذكور.

وفي «كلِّيات» أبي البقاء: كلُّ جماعةٍ كثيرةٍ من الناس يرجعون إلى أبٍ مشهورٍ بأمرٍ زائدٍ فهو شعبٌ كعدنان، ودونه القبيلةُ وهي ما انقسمتْ فيها أنسابُ الشعب كربيعة ومضر، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها أنسابُ القبيلة كقريش وكنانة، ثم

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص٥٣١-٥٣٢، وفيه: وبني أبي طالب، وهو أنسب بالسياق من: بني عبد المطلب.

(٢) كذا نقل المصنف عن الصحاح (شعب)، والذي في الغريب المصنف ١/ ٥٤ عن ابن الكلبي عن أبيه: الشعب أكثر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ. وكذا نقله عن أبي عبيد عن ابن الكلبي الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ٤٤٢، ومثله عن ابن الكلبي في أدب الكاتب ص١٧٥، وأمالي القالي ١/ ٢١. وقال ابن قتيبة: وقال غيره: الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة.

(٣) البحر ٧/ ٤٦.

(٤) سلفت الإشارة إلى أن هذا الكلام ليس للجوهري، وأنه مذكور في اللسان والتاج (شعب).

البطن وهي ما انقسمت فيها أنسابُ العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم، ثم الفَخِذُ وهي ما انقسمت فيها أنساب البطن كبني هاشم وبني أمية، ثم العشيرة وهي ما انقسمت فيها أنسابُ الفخذ كبني العباس وبني أبي طالب. والحيُّ يَصْدُقُ على الكلِّ؛ لأنه للجماعة المتنازلين بِمَرْبَع منهم(١). انتهى.

ولم يذكر فيه الفصيلة، وكأنه يذهبُ إلى اتِّحادها بالعشيرة.

ووجهُ تخصيص عشيرته ﷺ الأقربينَ بالذِّكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام دَفْعُ توهُّمِ المحاباة، وأنَّ الاهتمام بشأنهم أهمُّ، وأنَّ البداءة تكونُ بِمَن يلي ثم مَن بَعْدَه كما قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وفي كيفية الإنذار أخبارٌ كثيرة، منها ما أخرجه البخاريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا نزلت: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ) صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفَا فجَعَلَ ينادي: «يا بني فِهْرٍ، يا بني عديٍّ» لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أنْ يَخْرجَ أَرْسلَ رسولاً لِيَنْظُرَ ما هو، فجاء أبو لهب وقريشٌ، فقال: «أرأيتَكم لو أَخْبَرْتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تُريدُ أنْ تُغِيرَ عليكم أكُنْتُم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: نعم ما جرَّبْنا عليك إلَّا صدقاً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد» فقال أبو لهب: تبًّا لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا!؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾(٢).

ومنها ما أخرجه أحمد وجماعةٌ عن أبي هريرة قال: لمَّا نزلت: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ) دعا رسولُ الله ﷺ قريشاً وعَمَّ وخَصَّ، فقال: «يا معشر قريش، أنقِذوا أنفسكم من النار فإنِّي لا أملكُ لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني كعب بن لؤيٍّ أنقذوا أنفسَكم من النار فإنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني قصيٍّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني عَبْدِ مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنِّي لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، يا فاطمةُ بنت محمدٍ

(١) الكليات ص٥٢٤.
(٢) صحيح البخاري (٤٧٧٠)، وهو عند مسلم (٢٠٨).

أنقذي نفسَكِ من النار فإني لا أملك لك ضرّاً ولا نفعاً، ألا إنَّ لكم رحماً وسَأَبُلُّها بِبَلَالِها»[١].

وجاء في بعض الروايات: أنه ﷺ لمَّا نزلت الآيةُ جَمَعَ عليه الصلاة والسلام بني هاشم فأجلسهم على الباب، وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت ثم اطَّلع عليهم فأنذرهم[٢].

وجاء في بعضٍ آخَر منها أنه عليه الصلاة والسلام أمَرَ عليًّا كرم الله تعالى وجهه أن يصنع طعاماً ويجمعَ له بني عبد المطلب، ففعل وجَمَعَهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، فبعد أن أكلوا أراد ﷺ أن يكلِّمهم، بَدَرَه أبو لهب إلى الكلام، فقال: لقد سَحَرَكم صاحبكم. فتفرَّقوا، ثم دعاهم من الغد إلى مثل ذلك، ثم بَدَرَهم بالكلام فقال: يا بني عبد المطلب إنِّي أنا النذيرُ إليكم من الله تعالى والبشيرُ، قد جئتُكم بما لم يَجِئْ به أحدٌ، جئتكم بالدنيا والآخرة، فأَسْلِموا تَسْلَموا، وأطيعوا تهتدوا»[٣].

إلى غير ذلك من الأخبار والروايات، وإذا صحَّ الكلُّ فطريقُ الجمع أن يقال بتعدُّد الإنذار.

ومن الروايات ما يتمسَّكُ به الشيعةُ فيما يدَّعونه في أمرِ الخلافة، وهو مؤوَّلٌ أو ضعيفٌ أو موضوعٌ.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ورَهْطَكَ منهم المُخْلَصين ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ أمرٌ له ﷺ بالتواضُع على سبيل الاستعارة التبعية أو التمثيلية، أو

---

(١) مسند أحمد (٨٤٠٢) و(٨٧٢٦)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٠٤). وأخرجه بنحوه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦). قوله: ببلالها، قال النووي في شرح صحيح مسلم ٣/ ٨٠: ضبطناه بفتح الباء الثانية وكسرها، والبلال الماء، ومعنى الحديث: سأصِلُها، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة، ومنه: بلُّوا أرحامكم، أي: صِلُوها.

(٢) قطعة من خبر طويل أخرجه الطبراني في الكبير (٧٨٩٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٦: فيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك.

(٣) أخرجه مطولاً ابن إسحاق في السير والمغازي ص١٤٥، والطبري ١٧/ ٦٦١-٦٦٣، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٢٦، والبيهقي في الدلائل ٢/ ١٧٩ من حديث علي رضي الله عنه.

المجاز المرسل وعلاقتُه اللزوم. ويستعمل في التكبُّر رَفْعُ الجناح، وعلى ذلك جاء قولُ الشاعر:

وأنت الشهير بخفْضِ الجناح فلا تكُ في رفعه أجدلا[1]

و«من» قيل: بيانية؛ لأنَّ «مَن اتَّبع» في أصل معناه أعمُّ ممن اتَّبع لدينٍ أو غيره، ففيه إبهامٌ، وبذِكرِ المؤمنين المرادِ بهم المتَّبِعون للدِّين زال ذلك.

وقيل: للتبعيض، بناءً على شيوع مَن اتَّبع فيمَن اتَّبع للدِّين، وحَمْلِ المؤمنين على مَن صدَّق باللسان ولو نفاقاً، ولا شكَّ أنَّ المتَّبعين للدِّين بعضُ المؤمنين بهذا المعنى، وجوِّز أن يُحمل على مَن شارف وإن لم يؤمن، ولا شكَّ أيضاً أنَّ المتَّبِعين المذكورين بعضُهم.

وفي الآية على القولين أمرٌ بالتواضُع لمن اتَّبع للدين.

وقال بعضهم على تقدير كونها بيانيةً: إن «المؤمنين» يرادُ بهم الذين لم يؤمنوا بعدُ وشارَفوا لأَنْ يؤمنوا كالمؤلَّفة مجازٌ باعتبار الأَوْل، وكان «مَن اتَّبعك» شائعاً فيمَن آمَنَ حقيقةً ومَن آمَنَ مجازاً، فبيَّن بقوله تعالى: «من المؤمنين» أنَّ المراد بهم: المُشارِفون، أي: تَواضَعْ للمشارفين استمالةً وتأليفاً. وعلى تقدير كونها تبعيضيةً يراد بالمؤمنين: الذين قالوا آمنَّا، وهم صنفان: صنفٌ صَدَّقَ واتَّبع، وصنفٌ ما وُجِدَ منهم إلَّا التصديق، فقيل: «من المؤمنين» وأريد بعضُ الذين صدَّقوا واتَّبعوا، أي: تَواضَعْ لبعض المؤمنين، وهم الذين اتَّبعوك محبةً ومودةً.

وعلى هذا يكون الذين أُمر ﷺ بالتواضُع لهم على تقدير البيان غيرَ الذين[2] أُمر عليه الصلاة والسلام بالتواضُع لهم على تقدير التبعيض.

وقال بعض الأَجِلَّة: الاتِّباع والإيمانُ توأمان؛ إذ المتبادرُ من اتِّباعه عليه الصلاة والسلام اتِّباعُه الدينيُّ، وكذا المتبادرُ من الإيمان الإيمانُ الحقيقيُّ، وذكر «من المؤمنين» لإفادة التعميم كذِكْرِ: «يطير بجناحيه» بعد «طائر» في قوله تعالى:

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣١، والبحر ٧/ ٤٦.

(٢) في (م): الذي.

﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام:٣٨] وتفيدُ الآية الأمرَ بالتواضع لكلِّ مَن آمَنَ من عشيرته ﷺ وغيرهم.

وقال الطيبيُّ: الأَجْرَى[1] على أفانين البلاغة أن يُحمَلَ الكلام على أسلوبِ وَضْعِ المُظْهَرِ موضعَ المضمَرِ، وأنَّ الأصل: وأنذر عشيرتك الأقربين، واخْفِضْ جناحك لمن اتَّبعك منهم، فعدل إلى المؤمنين ليعمَّ ويؤذِنَ أنَّ صفةَ الإيمان هي التي يستحقُّ أن يُكْرَم صاحبُها ويتواضع لأَجْلِها مَن اتَّصف بها سواءٌ كان من عشيرتك أو غيرهم.

وليس هذا بالبعيد، لكنِّي أختارُ كونَ «من» بيانيةً، وأنَّ عموم «مَن اتَّبعك» باعتبارِ أصل معناه. وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ بدأ ﷺ بأهل بيته وفصيلته، فشقَّ ذلك على المسلمين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾ الظاهر أنَّ الضمير المرفوع في «عصوك» عائدٌ على مَن أنذر ﷺ بإنذارهم وهم العشيرة، أي: فإنْ عَصَوْك ولم يتَّبعوك بعد إنذارهم فقل: إنِّي بريءٌ من عملكم، أو: الذي تعملونه، من دعائكم مع الله تعالى إلهاً آخر. وجوِّز أن يكون عائداً على الكفار المفهوم من السياق.

وقيل: هو عائدٌ على مَن اتَّبع من المؤمنين، أي: فإن عَصَوْكَ يا محمدُ في الأحكام وفروع الإسلام بعد تصديقك والإيمان بك وتواضُعِكَ لهم، فقل: إني بريءٌ مما تعملون من المعاصي، أي: أَظْهِرْ عَدَمَ رضاك بذلك وإنكارَه عليهم. وذُكِرَ على هذا أنه ﷺ لو أُمر بالبراءة منهم ما بقي شفيعاً للعصاة يوم القيامة.

والآيةُ على غير هذا القول منسوخةٌ؛ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال: أمره سبحانه بهذا ثم نَسَخَه فأمره بجهادهم[3]. وفي «البحر»: هذه موادَعةٌ، نسختها آيةُ السيف[4].

---

(١) في (م): الإجراء.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٦٥، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٩٨.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٢٧.

(٤) البحر ٧/ ٤٧.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ فهو سبحانه يقهرُ مَن يعصيك منهم ومِن غيرِهم بعزَّته، وينصرُك برحمته. وتقديمُ وصفِ العزةِ قيل: لأنه أوفقُ بمقام التسلِّي عن المشاقِّ اللَّاحقةِ من القوم إليه ﷺ. وجوِّز أن يكون ذلك لأنَّ العزة كالعلَّة المصحِّحةِ للتوكُّل، والرحمة كالعلَّة الداعية إليه.

وفسَّره غيرُ واحدٍ بتفويض الرجل أمرَه إلى مَن يملكُ أمرَه ويَقْدِرُ على أن ينفعه ويضرَّه، وقالوا: المتوكِّلُ مَن إن دَهَمَه أمرٌ لم يحاول دفعَه عن نفسه بما هو معصيةٌ لله تعالى. وذكر بعضُهم أنَّ هذا مِن أحَطِّ مراتب التوكُّل وأدناها.

ونقل عن بعض العارفين أنه فيما بين الناس على ثلاث درجاتٍ:

الأولى: التوكُّل مع الطلب ومُعاطاةِ السبب على نية شغل النفس ونَفْعِ الخَلْقِ وتَرْكِ الدعوى.

والثانية: التوكُّل مع إسقاط الطلب وغضِّ العين عن السبب اجتهاداً في تصحيح التوكُّل، وَقَمْعِ تشرُّفِ النفس تفرُّغاً إلى حِفْظِ الواجبات.

والثالثة: التوكُّل مع معرفة التوكُّلِ النازعة إلى الخلاص من علَّة التوكُّل، وذلك أنْ يعلمَ أنّ الله تعالى لم يترك أمراً مهمَلاً، بل فرغ من الأشياء كلِّها وقدَّرها، وشأنُهُ سبحانه سوقُ المقادير إلى المواقيت، فالمتوكِّلُ مَن أراح نفسه من كدِّ النظر ومطالعةِ السبب سكوناً إلى ما سبق من القسمة، مع استواء الحالين، وهو أن يعلم أنَّ الطلب لا ينفع والتوكُّلَ لا يمنع. ومتى طالع بتوكُّله عوضاً كان توكُّله مدخولاً وقَصْدُه معلولاً، وإذا خلص من رقِّ الأسباب، ولم يلاحظْ في توكُّله سوى خالصِ حقِّ الله تعالى، كفاه الله تعالى كلَّ مهمٍّ.

وبيَّن العلَّامةُ الطيبيُّ أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ إلخ إشارةٌ إلى المراتب الثلاث بما فيه خفاء.

وفي مصاحف أهل المدينة والشام: ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ بالفاء، وبه قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفر وشيبة[1]، وخرِّج على الإبدال من جواب الشرط. وجَعَلَ في

(١) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٦ عن نافع وابن عامر وأبي جعفر، وذكرها عنهم وعن شيبة أبو حيان في البحر ٧/ ٤٧.

«الكشاف» الفاءَ للعطف، وما بعده معطوفاً على «فقل» أو «فلا تدع»[١]. وما ذُكر أوّلاً أظهر.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي: إلى الصلاة ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أي: ويرى سبحانه تغيُّرك من حالٍ كالجلوس والسجود إلى آخَرَ كالقيام. ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أي: فيما بين المصلِّين إذا أَمَمْتَهم، وعبَّر عنهم بالساجدين لأنَّ السجود حالةُ مزيدِ قُرْبِ العبد من ربِّه عزَّ وجلَّ، وهو أفضلُ الأركان على ما نصَّ عليه جمعٌ من الأئمة، وتفسيرُ هذه الجملة بما ذُكر مرويٌّ عن ابن عباس وجماعةٍ من المفسِّرين، إلَّا أنَّ منهم مَن قال: المراد: حين تقومُ إلى الصلاة بالناس جماعةً.

وقيل: المعنى: يراك حين تقومُ للتهجُّد، ويرى تقلُّبك، أي: ذهابك ومجيئك فيما بين المتهجِّدين؛ لتتصفَّح أحوالهم وتطَّلع عليهم من حيث لا يشعرون، وتستَبْطِنَ سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم، كما رُوي أنه لمَّا نُسخ فرضُ قيام الليل طاف ﷺ تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت النحل لِمَا سمع لها من دندنتهم بذِكْرِ الله تعالى والتلاوةِ[٢].

وعن مجاهدٍ أنَّ المراد بقوله سبحانه: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تقلُّبَ بَصَره عليه الصلاة والسلام فيمَن يصلِّي خَلْفَه، فإنه ﷺ كان يرى مِن خَلْفِه. ففي «صحيح البخاريِّ» عن أنس قال: أُقيمت الصلاة، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم وتراصُّوا، فإني أراكم من وراء ظهري»[٣].

وفي رواية أبي داود عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «اسْتَوُوا اسْتَوُوا، والذي نفسي بيده إنِّي لأراكم مِن خَلْفي كما أراكم من بين يديَّ»[٤].

ولا يَخْفَى بُعْدُ حَمْلِ ما في الآيةِ على ما ذُكر.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٢.

(٢) ذكره البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩.

(٣) صحيح البخاري (٧١٨)، وهو عند أحمد (١٢٠١١)، ومسلم (٤٣٤).

(٤) لم نقف عليه، وأخرجه النسائي في المجتبى ٢/ ٩١ بهذا اللفظ من حديث أنس رضي الله عنه.

وقيل: المراد بـ «الساجدين»: المؤمنون، والمعنى: يراك حين تقوم لأداء الرسالة، ويرى تقلُّبك وتردُّدك فيما بين المؤمنين أو معهم فيما فيه إعلانُ أمرِ الله تعالى وإعلاءُ كلمته سبحانه. وتفسيرُ «الساجدين» بالمؤمنين مرويٌّ عن ابن عباس وقتادةَ، إلَّا أنَّ كون المعنى ما ذُكر لا يخلو عن خفاء.

وعن ابن جبير: أنَّ المراد بهم الأنبياءُ عليهم السلام، والمعنى: ويرى تقلُّبَكَ كما يتقلَّبُ غيرُكَ من الأنبياء عليهم السلام في تبليغ ما أُمروا بتبليغه. وهو كما ترى، وتفسيرُ «الساجدين» بالأنبياء رواه جماعةٌ منهم الطبرانيُّ والبزَّارُ وأبو نعيم عن ابن عباس أيضاً، إلَّا أنه رضي الله عنه فسَّر التقلُّبَ فيهم بالتنقُّل في أصلابهم حتى ولدته أمُّه عليه الصلاة والسلام[1].

وجوِّز على حَمْلِ التقلُّبِ على التنقُّل في الأصلاب أن يراد بالساجدين المؤمنون.

واستُدلَّ بالآية على إيمان أبويه ﷺ كما ذهب إليه كثيرٌ من أجلَّة أهل السنَّة، وأنا أخشى الكفرَ على مَن يقول فيهما رضي الله عنهما ـ على رَغْمِ أنفِ عليٍّ القاري وأضرابه ـ بضدِّ ذلك[2]، إلَّا أنِّي لا أقولُ بحجِّيةِ الآيةِ على هذا المطلب.

ورؤيةُ الله تعالى انكشافٌ لائقٌ بشأنه عزَّ شأنهُ غيرُ الانكشاف العِلْميِّ، ويتعلَّق بالموجود والمعدوم الخارجيِّ عند العارفين، وقالوا: إنَّ رؤية الله تعالى للمعدوم نظيرُ رؤية الشخص القيامةَ ونحوها في المنام. وكثيرٌ من المتكلِّمين أنكروا تعلُّقها بالمعدوم، ومنهم مَن أَرْجَعها إلى صفة العلم، وتحقيقُ ذلك في محلِّه.

وفي وَصْفِه تعالى برؤيته حالَه ﷺ التي بها يستأهلُ ولايَته بعد وَصْفِه بما تقدَّم تحقيقٌ للتوكُّل، وتَوْطينٌ لقلبه الشريف ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليه.

وقرأ جناح بن حبيش: «ويقلِّبك» مضارع قلَّب مشدَّداً[3]. وخرَّج ذلك أبو حيان

---

(١) المعجم الكبير (١٢٠٢١)، ومسند البزار (٢٢٤٢- كشف)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١٧)، وأخرجه أيضاً ابن سعد ١/ ٢٥، وابن أبي حاتم ٢٨٢٨/٩. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨٦/٧: رواه البزار والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح غير شبيب بن بشر، وهو ثقة.

(٢) سلف الكلام في هذه المسألة ٢/ ٤١٥-٤١٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٤٧/٧.

على العطف على «يراك»[١]، وجوّز العطف على «تقوم». وفي الكلام على هذه القراءة إشارةٌ إلى وقوع تقلُّبه ﷺ في الساجدين على وجه الكمال، وكمالُ التقلُّب في الصلاة كونُه بخشوعٍ يغفلُ معه عمَّا سوى الله تعالى.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بكلِّ ما يصحُّ تعلُّقُ السمع به، ويندرجُ فيه ما يقوله ﷺ. ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ بكلِّ ما يصحُّ تعلُّق العلم به، ويندرجُ فيه ما يعملهُ أو يَنْوِيه عليه الصلاة والسلام.

وفي الجملة الاسمية إشارةٌ إلى أنه سبحانه متَّصفٌ بما ذكر أزلاً وأبداً، ولا توقُّفَ لذلك على وجود المسموعات والمعلومات في الخارج. والحصرُ فيها حقيقيٌّ، أي: هو تعالى كذلك لا غيرُه سبحانه وتعالى.

وكأنَّ الجملة متعلِّقة بالجملتين الواقعتين في حيِّز الجزاء جيء بها للتحريض على القول السابق والتوكُّل. وجوّز أن تكون متعلِّقةً بما في حيِّز الصلة، والمراد منها التحريضُ على إيقاع الأقوال والأفعال التي في الصلاة على أكمل وجهٍ، فتأمَّل.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ إلخ مسوقٌ لبيان استحالةِ تنزُّلِ الشياطين على رسول الله ﷺ بعد بيان امتناع تنزُّلهم بالقرآن. وهذه الجملةُ وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلخ [الآية: ١٩٢] وقولُه سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ إلخ [الآية: ٢١٠] أخواتٌ، وفرِّق بينهنَّ بآياتٍ ليست في معناهنَّ ليرجعَ إلى المجيء بهنَّ وتَطْريةِ ذِكْرِ ما فيهنَّ كرَّةً بعد كَرَّةٍ، فيدل بذلك على أنَّ المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدَّت عنايةُ الله تعالى بها، ومثاله أن يحدِّث الرجلُ بحديث وفي صدره اهتمامٌ بشيءٍ منه وفَضْلُ عنايةٍ، فتراه يُعيد ذِكْرَه ولا ينفكُّ عن الرجوع إليه.

والاستفهامُ للتقرير، و«على مَن» متعلِّقٌ بـ «تنزَّل» قدِّم عليه لصدارة المجرور، وتقديمُ الجارِّ لا يضرُّ كما بيِّن في النحو.

---

(١) البحر ٧/ ٤٧.

وقال الزمخشريُّ[(١)] في ذلك: إنَّ «مَن» متضمِّنةٌ معنى الاستفهام، وليس معنى التضمُّنِ أنَّ الاسم دلَّ على معنيين معاً: معنى الاسم ومعنى الحرف، وإنما معناه أنَّ الأصل: أَمَن، فحذف حرفُ الاستفهام واستمرَّ الاستعمالُ على حَذْفِه كما حُذِفَ من «هل»، والأصل: أَهَل، كما قال:

سائِلْ فوارسَ يربوعٍ بشدَّتنا أَهَلْ رَأَوْنا بسَفْحِ القاعِ ذي الأكمِ[(٢)]

فإذا أَدْخَلْتَ حرفَ الجرِّ على «مَن» فقدِّر الهمزةَ قبل حرف الجرِّ في ضميرك، كأنك تقول: أَعَلى مَن تنزَّلُ الشياطين، كقولك: أَعَلى زيدٍ مررت. اهـ.

وتعقَّبه صاحب «الفرائد» بقوله: يُشْكِلُ ما ذَكَر بقولهم: من أين أنت؟ ومن أين جئت؟ وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس:١٨] وقولهم[(٣)]: فيمَ وبمَ وممَّ وحتَّام، ونحوها.

وأجاب صاحب «الكشف» بأنه لا إشكال في نحو: مِن أين أنت؟ لأنَّ التقدير: أَمِنَ البصرةِ أم من الكوفة، مثلاً، ولا يَخْفَى أنه لا يحتاج - على ما حقَّقه النحاة - إلى جميع ذلك.

وجملة «على مَن تنزَّلُ» إلخ في موضع نَصْبٍ بـ «أنبّئكم» لأنه معلَّقٌ بالاستفهام، وهي إمّا سادَّةٌ مسدَّ المفعول الثاني إن قدَّرتَ الفعل متعدِّياً لاثنين، ومسدَّ مفعولين إن قدَّرته متعدِّياً لثلاثة، والمراد: هل أُعْلِمُكم جوابَ هذا الاستفهام، أعني: «على مَن تنزَّلُ الشياطين». وأصل «تَنزَّلُ»: تتنزَّلُ فحذف إحدى التاءين.

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٣٢.

(٢) البيت لزيد الخيل الطائي، وهو في ديوانه ص١٠٠، والمقتضب ١/ ٤٤، والخصائص ٢/ ٤٦٣، وأمالي ابن الشجري ١/ ١٦٣، والمغني ص٤٦٠، والخزانة ١١/ ٢٦١. والبيت من أبيات قالها الشاعر في إغارة أغارها على بني يربوع، ويربوع أبو حيٍّ من تميم، والباء بمعنى «عن»، والشَّدة بفتح الشين: الحملة، وروي بكسرها. والقاع: المستوي من الأرض. والأكَم جمع أَكَمة، وهي ما ارتفع من الأرض. شرح شواهد المغني للبغدادي ٦/ ٧٢. ويروى: بسفح القُف، وهو ما ارتفع من الأرض في صلابة كما قال ابن الشجري.

(٣) في (م): وقوله.

والكلام على معنى القول عند أبي حيان، كأنه قيل: قل يا محمد: هل أنبئكم على مَن تنزَّلُ الشياطين[١].

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أي: كثيرِ الإفك، وهو الكذب ﴿أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ كثيرِ الإثم. و«كلّ» للتكثير، وجوِّز أن تكون للإحاطة، ولا بُعْدَ في تنزُّلها على كلِّ كاملٍ في الإفك والإثم كالكهنة، نحو: شقّ بنِ رهم بن نذير، وسطيح بن ربيعة بن عدي[٢].

والمراد ـ بواسطة التخصيص في معرض البيان، أو السياقِ، أو مفهومِ المخالفة عند القائل به ـ قَصْرُ تنزُّلهم على كلِّ مَن اتَّصفَ بما ذُكر من الصفات، وتخصيصٌ له بهم لا يتخطَّاهم إلى غيرهم. وحيث كانت ساحةُ رسول الله ﷺ منزَّهةً عن أن يحومَ حولها شائبةُ شيءٍ من تلك الأوصاف، اتَّضح استحالةُ تنزُّلِهم عليه عليه الصلاة والسلام.

﴿يُلْقُونَ﴾ أي: الأفَّاكون ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ أي: سَمْعَهم إلى الشياطين، وإلقاءُ السمع مجازٌ عن شدة الإصغاء للتلقِّي، فكأنه قيل: يُصْغون أشدَّ إصغاءٍ إلى الشياطين فيتلقَّون منهم ما يتلقَّون.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أي: الأفاكين ﴿كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ فيما يقولونه من الأقاويل. والأكثريةُ باعتبار أقوالهم، على معنى أنَّ هؤلاء قلَّما يَصْدُقون في أقوالهم، وإنما هم في أكثرها كاذبون، ومآلُه: وأكثرُ أقوالهم كاذبةٌ، لا باعتبار ذواتهم حتى يلزمَ من نسبة الكذب إلى أكثرهم كونُ أقلِّهم صادقين على الإطلاق، ويُلتزمُ لذلك كونُ الأكثر بمعنى الكلّ. وليس معنى الأفَّاكِ مَن لا ينطقُ إلا بالإفك حتى يمتنعَ منه الصدقُ، بل مَن يُكثر الإفك، فلا ينافيه أن يَصْدُقَ نادراً في بعض الأحايين.

وجوِّز أن يكون السمع بمعنى المسموع، وإلقاؤه مجازٌ عن ذِكْرِه أن[٣] يلقي

---

(١) البحر ٧/ ٤٧-٤٨.

(٢) اسم سطيح هو: ربيع بن ربيعة بن مسعود، وشق هو ابن صعب بن يشكر بن رُهْم بن أَفْرك، ويقال إن خالد بن عبد الله القسري كان من سلالته، وذكر السهيلي أن شقًّا وسهيلاً ولدا في يوم واحد، وكان يومَ ماتت طريفة بنت الخير الحميرية، ويقال: إنها تَفَلَتْ في فم كلٍّ منهما، فورث الكهانة عنها. البداية والنهاية ٣/ ١١٧-١١٨.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: أي. ينظر تفسير أبي السعود ٦/ ٢٦٩.

الأفَّاكون إلى الناس المسموعَ من الشياطين، وأكثرُهم كاذبون فيما يَحْكُون عن الشياطين، ولم يَرْتَضِه بعضُهم لبُعْدِه، أو لقلَّة جَدْوَاه على ما قيل.

واختُلف في سبب كون أكثر أقوالهم كاذبةً؛ فقيل: هو بعد البعثة كونهم يتلقَّون منهم ظنوناً وأماراتٍ؛ إذ ليس لهم من علم الغيب نصيبٌ، وهم محجوبون عن خبر السماء، ولعدم صفاء نفوسهم قلَّما تَصْدُقُ ظنونُهم، ومع ذلك يَضُم الأفَّاكون إليها لعدم وفائها بمرادهم على حَسَب تخيُّلاتهم أشياءَ لا يطابقُ أكثرها الواقع. وقبل البعثة إذ كانوا غيرَ محجوبين عن خبر السماء، وكانوا يسمعون من الملائكة عليهم السلام ما يسمعونه من الأخبار الغيبية، يحتمل أن يكون كثرةَ غَلَطِ الأفَّاكين في الفهم لقصور فهمهم عنهم. ويحتمل أن يكون ضمَّهم إلى ما يفهمونه من الحقِّ أشياءَ من عند أنفسهم لا يطابقُ أكثرها الواقع، ويحتمل أن يكون كثرةَ غلطِ الشياطين الذين يوحون إليهم في الفهم عن الملائكة عليهم السلام؛ لقصور فهمهم عنهم، ويحتمل أن يكون ضمَّ الشياطين إلى ما يفهمونه من الحقِّ من الملائكة عليهم السلام أشياءَ من عند أنفسهم لا يطابق أكثرُها الواقعَ، ويحتمل أن يكون مجموعَ ما ذكر.

وقيل: هو قبل البعثة يحتمل أن يكون أحدَ هذه الأمور، وأما بعد البعثة فهو كثرةُ خَلْطِهم الكذبَ فيما تَخْطَفُه الشياطين عند استراقهم السمعَ من الملائكة ويُلقونه إليهم.

فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ وابن مردويه عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سأل أناسٌ النبيَّ ﷺ عن الكهَّان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء» فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدِّثون أحياناً بالشيء يكون حقًّا. قال: «تلك الكلمة من الحقِّ[1] يحفظها الجنيُّ فيقذفها في أذن وليِّه، فيَخْلِطون فيها أكثر من مئة كذبة»[2].

---

(١) جاء في هامش الأصل: وفي رواية: من الجن بجيم ونون، وهي رواية صحيحة. اهـ منه. وفي حاشية (م): وررواية من الجن بجيم ونون بدله رواية صحيحة. اهـ منه. ووردت هذه الرواية عند مسلم (٢٢٢٨): (١٢٣).

(٢) صحيح البخاري (٥٧٦٢)، وصحيح مسلم (٢٢٢٨): (١٢٢)، وفيهما: يخطفها، بدل: يحفظها. قال ابن حجر في الفتح: ١٠/ ٢١٩: يخطفها بخاء معجمة وطاء مفتوحة وقد تكسر =

وقيل: هو قبل البعثة وبعدها كثرةُ خَلْطِ الأفَّاكين الكَذِبَ فيما يتلقَّوْنَه من الشياطين؛ أمَّا كثرتُه قبل البعثة فلظاهر الخبر المذكور، وأما كثرتُه بعد البعثة فلِمَا أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في هذه الآية: كانت الشياطين تصعدُ إلى السماء فتستمعُ، ثم تنزل إلى الكهنة فتخبرُهم، فتحدِّثُ الكهنةُ بما أنزلت به الشياطين من السمع، وتخلط به الكهنةُ كذباً كثيراً فيحدِّثون به الناس، فأمَّا ما كان من سمع السماء فيكون حقًّا، وأمَّا ما خلطوه به من الكذب فيكون كذباً[١].

ولا يَخفَى أنَّ القول بأنَّ الشياطين بعد البعثة يُلْقُون ما يَسْتَرِقونه من السمع إلى الكهنة غيرُ مُجْمَعٍ عليه، ومِن القائلين به مَن يجوِّز أن يكون ضمير «يُلقون» في الآية راجعاً إلى الشياطين، والمعنى: يُلقي الشياطينُ المسموعَ من الملأ الأعلى قبل أن يُرجَموا من بعض المغيبات إلى أوليائهم، وأكثرُهم كاذبون فيما يُوحون به إليهم، إذ لا يُسْمِعونهم على نحو ما تكلَّمت به الملائكة عليهم السلام، لشرارتهم أو لقصور فَهْمِهم أو ضبطِهم أو إفهامهم.

وقيل: المعنى عليه: يُنْصِتُ الشياطين ويستمعون إلى الملأ الأعلى قبل الرجم، وأكثرُهم كاذبون فيما يوحون به إلى أوليائهم بعدُ؛ لشرارتهم أو لأنهم لا يَسمعون في أنفسهم أو لا يُسمعون أولياءهم بعد ذلك السمع[٢] كلام الملائكة عليهم السلام على وجهه.

وجملة «يلقون» على تقدير كون الضمير للأفَّاكين صفةٌ لـ «كلّ أفَّاك» لأنه في معنى الجمع، سواءٌ أريد بإلقاء السمع الإصغاءُ إلى الشياطين، أو إلقاءُ المسموع إلى الناس.

---

= بعدها فاء، ومعناه الأخذ بسرعة، وفي رواية الكُشْمِيهَني: «يحفظها» بتقديم الفاء بعدها ظاء معجمة، والأول هو المعروف، والله أعلم.

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٧٨، وتفسير الطبري ١٧/ ٦٧١، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٠-٢٨٣١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٩٩، وعنه نقل المصنف، وهو عند عبد الرزاق والطبري مختصر.

(٢) في الأصل: التسمع.

وجوِّز أن تكون استئنافاً إخباراً بحالهم على كِلَا التقديرين، لِمَا أنَّ كلًّا من تلقِّيهم من الشياطين وإلقائهم إلى الناس يكونُ بعد التنزُّل، واستُظهر تقدير المبتدأ على هذا. وأن تكون استئنافاً مبنيًّا على السؤال، كأنه قيل: ما يفعلون عند تنزُّل الشياطين، أو: ما يفعلون بعد تنزلهم؟ فقيل: يُلْقُون إليهم أسماعَهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم، أو: يلقون ما يسمعونه منهم إلى الناس.

وجوِّز أن تكون حالاً منتظرةً على التقديرين أيضاً.

وهي على تقدير كون الضمير للشياطين، والمعنى ما سمعتَ أولاً، قيل: تحتملُ أن تكون استئنافاً مبيِّناً للغرض من التنزُّل مبنيًّا على السؤال عنه، كأنه قيل: لِم تنزلُ عليهم؟ فقيل: يُلقون إليهم ما سمعوه. وأن تكون حالاً منتظرةً من ضمير الشياطين، أي: تنزَّلُ على كلِّ أفاكٍ أثيم مُلْقينَ ما يسمعونه من الملأ الأعلى إليهم.

وعلى ذلك التقدير، والمعنى ما سمعت ثانياً، قيل: لا يجوز أن تكون استئنافاً نظير ما ذكر آنفاً، ولا أن تكون حالاً أيضاً؛ لأن إلقاء السمع بمعنى الإنصاتِ مقدَّمٌ على التنزُّل المذكورِ، فكيف يكون غرضاً منه أو حالاً مقارِنةً أو منتظرةً؟ ويتعيَّنُ كونُها استئنافاً للإخبار بحالهم.

وتعقِّب بأنه غير سديدٍ؛ لأنَّ ذِكْرَ حالِهم السابقةِ على تنزُّلهم المذكورِ قبله غيرُ خليقٍ بجزالة التنزيل، ومن هنا قيل: إنَّ جَعْلَ الضمير للشياطين وحَمْلَ إلقاء السمع على إنصاتهم وتسمُّعهم إلى الملأ الأعلى مما لا سبيلَ إليه. وفيه نظر.

وجملة «هم[1] كاذبون» استئنافيةٌ، أو تَحتَمِلُ الاستئنافيةَ والحاليةَ.

هذا، واعلم أنَّ ها هنا إشكالاً وارداً على بعض الاحتمالات في الآية؛ لأنها عليه تفيدُ أنَّ الشياطين يسمعون من الملائكة عليهم السلام ما يسمعونه ويلقونه إلى الأفَّاكين، وقد تقدَّم ما يدلُّ على منعهم عن السمع، أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢].

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والمقصود: أكثرهم، وينظر البحر ٧/٤٨.

وأجيبَ بأنَّ المراد بالسمع فيما تقدَّم السمعُ المعتدُّ به، وفيما ها هنا السمعُ في الجملة، ويراد به الخطفةُ المذكورةُ في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] والكلمةُ المذكورةُ في خبر الصحيحين وابنِ مردويه السابقِ آنفاً.

واعتُرِضَ بأنَّ مَن خَطِفَ لا يبقى حيًّا إلى أن يوصِلَ ما خطفه إلى وليِّه؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] فإنَّ ظاهره أنه يهلك بالشهاب الذي لحقه.

وأجيب بأنَّ نفي بقائه حيًّا غيرُ مسلَّم، ولا نسلِّم أنَّ الآية ظاهرةٌ فيما ذكر؛ إذ ليس فيها أكثرُ من إتْباع الشهاب الثاقب إياه، وهو يحتملُ الزَّجْرَ كما يحتملُ الإهلاك، فليُرَدْ إتباعه للزَّجر مع بقائه حيًّا، فإنَّ الخبر المذكور يقتضي بقاءه كذلك. وجاء عن ابن عباس أنَّ الشياطين كانوا لا يُحجَبون عن السماوات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها، فيُلْقون إلى الكهنة، فلمَّا ولد عيسى عليه السلام مُنعوا من ثلاث سماوات، فلمَّا وُلد محمدٌ ﷺ منعوا من السماوات كلِّها، فما منهم من أحدٍ يريد اسْتِراقَ السمع إلا رُمي بشهابٍ - وهو الشعلة من النار - فلا يخطئ أبداً، فمنهم مَن يقتلُه، ومنهم مَن يُحْرِقُ وجهَه، ومنهم مَن يَخْبلُه فيصير غولاً يُضِلُّ الناسَ في البراري(١).

وقيل: إنَّ المراد بالسمع فيما تقدَّم سمعُ الوحي، وفيما هنا سمعُ المغيبات غيرِه، وهم غيرُ ممنوعينَ عنه قبل البعثة وبعدها. وهذا مأخوذٌ من كلام عبد الرحمن بن خلدون في «مقدِّمة» تاريخه التي لم يُنْسَجْ على منوالها - وإن كان للطعن فيها مجالٌ - قال: إنَّ الآيات إنما دلَّتْ على منع الشياطين من نوعٍ واحدٍ من أخبار السماء، وهو ما يتعلَّقُ بخبر البعثة، ولم يُمنعوا ممَّا سوى ذلك(٢). بل ربما يقال: إنَّ في كلامه بعدُ إشعاراً ما بأنَّ المنع إنما كان بين يدي النبوَّة فقط، لا قبلَ ذلك ولا بعدَه(٣).

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥-٤٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون ١/ ١٤٣.

(٣) المصدر السابق، وفيه: وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه، وهذا هو الظاهر.

ولا يَخْفَى أنَّ الظواهر تشهدُ بمنعهم مطلقاً إلى يوم القيامة، بل قد يُدَّعى أنَّ في الآيات ما يدلُّ على أنَّ حِفْظَ السماء بالكواكب لم يحدث وإن خلقها لذلك، وهو ظاهرٌ في أنهم كانوا ممنوعين أيضاً قبل ولادته ﷺ من خبر السماء. ويُشْكِلُ هذا على ظاهر العزل، إلَّا أن يُدَّعَى أنَّ المنع قبلُ لم يكن بمثابة المنع بعدُ، فالعزلُ عمَّا كان بجعل(١) المنع شديداً بالنسبة إليه.

وفي «اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر» لمولانا عبد الوهاب الشعرانيِّ عليه الرحمة: الصحيحُ أنَّ الشياطين ممنوعون من السمع منذُ بعث رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة، وبتقدير استراقهم فلا يَتَوصَّلون إلى الإنس ليخبروهم بما استرقوه، بل تُحرِقهم الشهبُ وتُفنيهم. انتهى.

قيل: ويلزم القائلين بهذا حملُ ما في خبر الصحيحين على كهَّانٍ كانوا قبل البعثة وقد أدركهم السائلون، وهو الذي يقتضيه كلام القاضي أيضاً، فقد نقل النوويُّ عنه في «شرحه صحيح مسلم» أنه قال: كانت الكهانةُ في العرب ثلاثةَ أضرُبٍ؛ أحدها: أن يكون للإنسان وليٌّ من الجنِّ يخبره بما يسترقُه من السمع من السماء، وهذا القسمُ بطلَ من حين بُعث نبيُّنا ﷺ(٢)، إلى آخر ما قال، وهو ظاهرُ كلام البوصيريِّ حيث يقول:

بعث الله عند مبعثه الشُّهـ ... ـبَ حراساً وضاق عنها الفضاءُ
تطردُ الجنَّ عن مقاعدَ للسَّمْـ ... ـع كما يَطْرُدُ الذئابَ الرعاءُ
فمحتْ آيةَ الكهانةِ آيا ... تٌ من الوحي ما لهنَّ انمحاءُ

وقد قيل في الجواب عن الإشكال نحوُ هذا، وهو أنَّ تنزُّلَ الشياطين وإلقاءَهم ما يسمعونه من السماء إلى أوليائهم حَسْبَما تفيده الآيةُ المذكورة في أحد محاملها إنما كان قبل البعثة، حيث لم يكن حينئذٍ منعٌ، أو كان لكنه لم يكن شديداً. والمنع من السمع الذي يفيده قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الآية: ٢١٢] إنما كان بعد البعثة، وكان على أتمِّ وجه.

---

(١) في (م): يجعل.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤/ ٢٢٣، والقاضي هو عياض وكلامه في كتابه إكمال المعلم بفوائد مسلم ٧/ ١٥٣.

وهذا مشكلٌ عندي بابن الصياد وما كان منه، فإنهم عَدُّوه من الكهَّان، وقد صحَّ أنه قال للنبيِّ عليه الصلاة والسلام حين سأله عن أمره: يأتيني صادقٌ وكاذبٌ. وأنَّ النبيَّ ﷺ امتحَنه، فأضمَر له آية «الدخان» - وهي قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية: ١٠] - وقال ﷺ: «خَبَأْتُ لكَ خبأ» فقال ابن الصياد: هو الدُّخُّ، أي: الدخان، وهي لغةٌ فيه كما ذهب إليه الجمهور، فقال له النبيُّ ﷺ: «اخْسَأ فلن تَعْدُوَ قَدْرَكَ»[(١)].

وقد قال القاضي كما نقل النوويُّ عنه أيضاً: أصحُّ الأقوال أنه لم يهتدِ من الآية التي أضمرها النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلَّا لهذا اللفظِ الناقص، على عادة الكهَّان إذا ألقَى الشيطان إليهم بقَدْرِ ما يَخْطَفُ قبل أن يدركه الشهابُ، ويدلُّ عليه قوله ﷺ: «اخسأ فلن تَعْدُوَ قَدْرَكَ» أي: القَدْرَ الذي يدركُه الكهَّان من الاهتداء إلى بعض الشيء، وما لا يبينُ منه حقيقتُه، ولا يصلُ به إلى بيانٍ وتحقيقِ أمور الغيب[(٢)].

وقد يقال في دَفْعِ هذا الإشكال: إنَّ ابن الصياد كان من الضرب الثاني من الكهَّان، وهم الذين تُخبرهم الشياطين بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خَفِيَ عنهم ممَّا قَرُبَ أو بَعُدَ، والصحيحُ جوازُ وجودهم بعد البعثة، خلافاً للمعتزلة وبعضِ المتكلِّمين حيث قالوا باستحالة وجود هذا الضرب، وكذا الضربُ السابق آنفاً[(٣)].

وأنه يحتمل أن يكون النبيُّ ﷺ قد أسرَّ إلى بعض أصحابه الذين كانوا معه ما أَضْمَره، أو كانت سورةُ الدخان مكتوبةً في يده ﷺ، أو كَتَبَ الآيةَ وحدها في يده عليه الصلاة والسلام.

وكلا القولين الأخيرين حكاهما الداوديُّ عن بعض العلماء كما في «شرح صحيح مسلم»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٣٦٠)، والبخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٨/ ٤٩، وكلام القاضي عياض في إكمال المعلم ٨/ ٤٧٢.
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤/ ٢٢٣، وإكمال المعلم ٧/ ١٥٣.
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١٨/ ٤٩، ونقله النووي عن الداودي بواسطة القاضي عياض، وهو في إكمال المعلم ٨/ ٤٧١ عن الداودي من قوله.

وأيًّا ما كان يكون ابن الصياد قد أخبر بأمرٍ طارئ تطّلعُ عليه الشياطين بدون استراق السمع من السماء، وليس ذلك من الاطّلاع على ما في القلب في شيء، ومع ذلك لم يُخْبِرْ به تامًّا، بل أخبر به على نحوِ إخبارِ الكهّان السابقين على زمن البعثة، الذين هم من الضرب الأول في النقص.

ولعل مراد القاضي بقوله: إنه لم يهتد من الآية التي أضمرها ﷺ إلّا لهذا اللفظِ الناقص على عادة الكهّان إذا ألقى الشيطان إليهم بقَدْرِ ما يَخْطَفُ.. إلخ. تشبيهُ حاله مع أنه من الضرب الثاني بحالِ مَن تقدّمه من الكهّان الذين هم من الضرب الأول، وإلا لأشْكَلَ كلامُه هذا مع ما نقلناه عنه أولاً كما لا يخفى، وكأنه يقول برَجْمِ المسترِقينَ للسمع قبل البعثة أيضاً، إلّا أنه لم يكن بمثابةِ ما كان بعد البعثة، وقد ذهب إلى هذا جمع من المحدِّثين.

ومن الناس مَن قال: إنَّ الشيطان إذا خَطِفَ الخَطْفَةَ فأتْبَعَه شهابٌ ثاقبٌ، ألْقَى ما يَخْطَفُه إلى مَن تحته قبل أن يدركه الشهاب، ثم إنَّ مَن تحته يُوْصِلُ ذلك إلى الكاهن. ولا يكاد يصحُّ ذلك.

وقيل: إنَّ ما يلقيه الشياطين إلى الكهنة بعد البعثة هو ما يَسمعونه من الملائكة عليهم السلام في العَنان، وهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، وما هم ممنوعون عنه هو السمعُ من الملائكة عليهم السلام في السماء، وهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

واستدلَّ لذلك بما أخرجه البخاريُّ وابنُ المنذر عن عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قال: «الملائكةُ تَحدَّثُ في العَنان ـ والعَنانُ الغمام ـ بالأمر في الأرض، فيسمعُ الشيطانُ الكلمةَ فيُقِرُّها في أذن الكاهن كما تُقَرُّ القارورة، فيزيدون معها مئةَ كذبةٍ»[1].

(١) صحيح البخاري (٣٢٨٨)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٩٩. وهو عند البخاري معلق، قال الحافظ في الفتح ٦/ ٣٤٢: وصله أبو نعيم في المستخرج. اهـ. وقد أخرجه البخاري متصلاً بنحوه (٣٢١٠). وقوله: «كما تقر القارورة» أي: كما يسمع صوت الزجاجة إذا حلت على شيء أو ألقي فيها شيء. أو المعنى: أنه يكون لما يلقيه الجني إلى الكاهن حسٌّ كحسِّ القارورة إذا حركت باليد أو على الصفا. وقال الخطابي: المعنى أنه يُطْبِقُ به كما يطبق رأس القارورة برأس الوعاء الذي يُفْرَغ فيه منها ما فيها.

ولا يخفَى أنه ليس في الخبر تعرُّضٌ للسمع من الملائكة عليهم السلام في السماء بالمعنى المعروف، لا نفياً ولا إثباتاً.

وقد يُختار القولُ بأنَّ الشياطين إنما مُنعوا بعد البعثة عن سمع ما يعتدُّ به من علم الغيب من ملائكة السماء أو العنان، ومَن خَطِفَ خَطْفةً يعتدُّ بها من ذلك أتبعه الشهاب وأهلكه، ولم يَدَعْه يوْصِلُها بوجهٍ من الوجوه إلى الكهنة، وأمّا سمعُ ما لا يعتدُّ به فقد يقع لهم ويُوْصِلُونه إلى الكهنة، فيخلطون به من الكذب ما يخلطون، فحيث حُكم عليهم بالعزل عن السمع أريد بالسمع السمعُ الكاملُ المعتدُّ به، وحيث حُكِمَ عليهم بإلقاء السمع أريدَ بالسمع السمعُ في الجملة، وأدنى ما يَصْدُقُ عليه أنه سمعٌ، والظاهر أنَّ ما حصل لابن الصياد كان من هذا السمع، ولا يكاد يُعْدَلُ عن ذلك ويقال: إنه كان من الضرب الثاني للكهانة، إلَّا إنْ ثبت أحدُ الشقوق الثلاثة، وفي ثبوت ذلك كلامٌ، نعم قولُه ﷺ: «خَبَأْتُ» ظاهرٌ في أنَّ هناك ما يُخْبَأ في كفٍّ أو كمٍّ أو نحوهما، والآية ما لم تُكتب لا تكونُ كذلك، ولهذا احتاج القائلون بأنه ﷺ إنَّما أَضمر له الآيةَ في قلبه إلى تأويل «خَبَأْتُ» بـ : أَضْمَرْتُ.

ويمكن أن يقال على بُعْدٍ: إنَّ الشياطين قد مُنعوا بعد البعثة عن السمع مطلقاً بالشهب المحرقةِ لهم، وإرجاعُ ضمير «يُلْقون» إلى الشياطين ضعيفٌ؛ لأنَّ المقام في بيانِ مَن يتنزَّلون عليه لا بيانِ حالهم. أو إلقاءُ سمعهم بمعنى إصغائهم إلى الملأ الأعلى، و«أكثرهم» بمعنى: كلّهم، والتعبير به للإشارة إلى أنَّ الأكثرية المذكورةَ كافيةٌ في المقصود، والمرادُ: يصغون ليسمعوا فلا يَسْمعون، إلا أنه أقيم «وأكثرهم كاذبون» مقامَ: لا يَسْمعون. أو إلقاءُ السمع بمعنى إلقاءِ ما يسمعه الناس من الأفَّاكين إليهم، ولا يلزمُ من ذلك أن يكونوا سمعوه من الملائكة عليهم السلام؛ إذ يجوز أن يكونوا اخترعوه من عند أنفسهم ظنًّا وتخميناً وأَلْقَوْه على أوليائهم، ولا يَبعُدُ صدقُهم في بعضه، والأمرُ في تسميته مسموعاً هيِّنٌ، وما ورد في حديث الصحيحين وابنِ مردويه محمولٌ على ما كان قبل البعثة، ويقال: إنهم كانوا يسمعون في الجملة، وقد يُحمل ما في الآية على ذلك، وإليه ذهب بعضهم. وحَمْلُ خَطْفِ الكلمة فيه على حَدْسِها بواسطة بعض الأوضاع الفلكية ونحوِ ذلك ليجوز

اعتبارُ كونه بعد البعثة، ممَّا لا أظنُّ أحداً يرتضيه، وليس في قصة ابن الصياد ما هو نصٌّ في أنَّ ما قاله كان عن سمعٍ من الملائكة عليهم السلام ألقاه الشيطان إليه، وكأنِّي بك تستبعدُ تحدُّثَ الملائكة عليهم السلام في السماء بما أضمره ﷺ، وصعودَ الشياطين حين السؤالِ من غير ريثٍ، واستراقَهم ونزولَهم في أسرع وقتٍ بما أجاب به ابنُ الصياد، وما هو إلا ضربٌ من ضروب الكهانة.

وتحقيقُ أمرها على ما ذكره الفاضل عبد الرحمن بن خلدون[1]: أنَّ للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ عن البشرية إلى الروحانية التي فوقها، ويحصلُ من ذلك لمحةٌ للبشر من صنف الأتقياء بما فُطروا عليه من ذلك، ولا يحتاجون فيه إلى اكتسابٍ ولا استعانةٍ بشيءٍ من المدارك، ولا من التصوُّرات، ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركةً، ولا بأمرٍ من الأمور.

ويعطي التقسيم العقليُّ أنَّ هاهنا صنفاً آخَرَ من البشر ناقصاً عن رتبة هذا الصنف نقصانَ الضدِّ عن ضدِّه الكاملِ، وهو صنفٌ من البشر مفطورٌ على أن تتحرَّك قوَّتُه العقليةُ حركتَها الفكريةَ بالإرادة عندما يبعثها[2] النزوع لذلك وهي ناقصةٌ عنه[3]، فيتشبَّثُ لإعمال الحيلة بأمورٍ جزئيةٍ محسوسةٍ أو متخيَّلةٍ، كالأجسام الشفافة، وعظامِ الحيوان، وسَجْعِ الكلام، وما سنح من طيرٍ أو حيوانٍ، ويُديمُ ذلك الإحساس والتخيُّل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده، ويكون كالمُشيعِ له، وهذه القوةُ التي هي مبدأ في هذا الصنف لذلك الإدراك هي الكهانةُ.

ولكون هذه النفوسِ مفطورةً على النقص والقصورِ عن الكمال كان إداركُها الجزئياتِ أكثرَ من إدراكها الكلِّيات، وتكون مشتغلةً بها غافلةً عن الكلِّيات، ولذلك كثيراً ما تكون المتخيلة[4] فيهم في غاية القوة، وتكون الجزئيات عندها حاضرةً عتيدةً، وهي لها كالمرآة تنظر فيها دائماً، ولا يقوَى الكاهنُ على الكمال في إدراك المعقولات؛ لأنَّ نقصانه فطريٌّ ووحيه شيطانيٌّ.

(١) في مقدمته ١/ ١٤١.
(٢) في الأصل و(م): يتبعها، والمثبت من المقدمة.
(٣) بعدها في المقدمة: بالجبلَّة.
(٤) في المقدمة: المخيلة.

وأرفعُ أحوال هذا الصِّنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السَّجْعُ والمُوازَنةُ ليشتغل به عن الحواسِّ، ويَقْوَى في الجملة على ذلك الانسلاخ الناقص، فيهجس في قلبه من تلك الحركة والذي يُشيعُها من ذلك الأجنبيِّ ما يُقْذَفُ على لسانه، وربما صَدَقَ ووافَقَ الحقَّ، وربما كَذَبَ لأنه يتمِّم أمر نَقْصِهِ بأجنبيٍّ عن ذات المدارك ومُباينٍ لها غيرِ ملائم، فيَعْرِضُ له الصدقُ والكذب جميعاً، ويكون غيرَ موثوقٍ به، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزَعْمِه، وتمويهاً على السائلين.

ولمَّا كان انسلاخُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام عن البشرية واتِّصالُهُ بالملأ الأعلى من غير مُشيعٍ ولا استعانةٍ بأجنبيٍّ كان صادقاً في جميع ما يأتي به، وكان الصدقُ من خواصِّ النبوَّةِ، ولهذا قال ﷺ لابن الصياد حين سأله كاشفاً عن حاله بقوله عليه الصلاة والسلام: «كيف يأتيك هذا الأمر؟» فقال: يأتيني صادق وكاذب: «خُلِّطَ عليك الأمرُ»(١)، يريدُ عليه الصلاة والسلام نفيَ النبوَّة عنه بالإشارة إلى أنها مما لا يعتبر فيه الكذبُ بحالٍ.

وإنما قيل: أرفعُ أحوال هذا الصنف السجعُ؛ لأنَّ مُعِينَ السَّجْعِ أخفُّ من سائر المُعِينات من المرئيَّات والمسموعات، وتدلُّ خفَّةُ المعينِ على قُرْبِ ذلك الانسلاخِ والاتِّصالِ، والبُعْدِ فيه عن العجز في الجملة.

ولا انحصارَ لعلوم الكهَّان فيما يكون من الشياطين، بل كما تكون من الشياطين تكونُ من أنفسهم، بانسلاخها انسلاخاً غيرَ تامٍّ واتِّصالِها في الجملة بواسطة بعض الأسباب بعالَمٍ لا تُحجب عنه الحوادث المستقبلة وغيرُها، فانقطاعُ خبر السماء بعد البعثة عن الشياطين بالرجم إن سلِّم، لا يدلُّ على انقطاع الكهانة.

ثم إنَّ هؤلاء الكهَّانَ إذا عاصروا زمن النبوَّة فإنهم عارفون بصدق النبيِّ ودلالةِ معجزته؛ لأنَّ لهم بعضَ الوجدان من أمر النبوة، ولا يصدُّهم عن الإيمان ويدعوهم إلى العناد إلا وساوسُ المطامع بحصول النبوَّة لهم، كما وقع لأميةَ بن أبي الصلت؛ فإنه كان يطمع أن يكون نبيًّا، وكذا وقع لابن الصياد ومسيلمة وغيرهما.

---

(١) قطعة من حديث ابن عمر الذي سلف ص٣١٤ من هذا الجزء.

وربما تنقطعُ تلك الأمانيُّ فيؤمنون أحسنَ إيمانٍ، كما وقع لطليحةَ الأسدي وقارب بن الأسود(١)، وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار ما يشهد بحُسْنِ الإيمان.

وذَكَر في بيانِ استعداد بعض الأشخاص ـ أعم من أن يكونوا كهاناً أو غيرَهم ـ للإخبار بالأمور الغيبية قبل ظهورها كلاماً طويلاً، حاصلهُ: أنَ النفس الإنسانية ذاتُ روحانيةٍ، ولها بذاتها الإدراكُ من غير واسطة، لكنها محجوبةٌ عنه بالانغماس في البدن والحواسِّ وشواغلها؛ لأن الحواسَّ أبداً جاذبةٌ لها إلى الظاهر بما فُطرت عليه من الإدراك الجسماني، وربما تنغمسُ عن الظاهر إلى الباطن فيرتفعُ حجابُ البدن لحظةً؛ إما بالخاصِّية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم، أو بالخاصية(٢) الموجودة في بعض الأشخاص كالكهنة أهلِ السَّجع، وأهل الطَّرْقِ بالحصى والنَّوى، والناظرين في الأجسام الشفَّافة من المرايا والمياه وقلوبِ الحيوانات وأكبادها وعظامها، وقد يلحق بهم المجانين، أو بالرياضة الدينية مثل أهل الكشف من الصوفية، أو السحريةِ مثل أهل الكشف من الجوكية(٣)، فتلتفتُ حينئذٍ إلى الذوات التي فوقها من الملأ الأعلى لِمَا بَيْنَ أُفقِها وأُفقِهم من الاتصال في الوجود، وتلك الذواتُ إدراكٌ محضٌ وعقولٌ بالفعل، وفيها صورُ الموجودات وحقائقُها كما قرِّر في محلِّه، فيتجلَّى فيها شيءٌ من تلك الصور وتقتبس منها علماً(٤)، وربما وقعت تلك الصورُ المدركة إلى الخيال فيصرفُها(٥) في القوالب المعتادة(٦)، ثم تراجع الحسَّ بما أدركت إما مجرَّداً أو في قوالبه فتخبر به. انتهى.

ولا يخفى أنَّ فيه ذهاباً إلى ما يقوله الفلاسفة في الملأ الأعلى، وكثيراً ما يسمُّونه عالم المجرَّدات، وقد يسمُّونه عالمَ العقول، وهي محصورةٌ في المشهور

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وهو خطأ، والصواب: سواد بن قارب كما في المقدمة، وقارب بن الأسود صحابي آخر ولا علاقة له بالكهانة، ينظر الإصابة ٤/ ٢٩٤، و٨/ ١٢٤.

(٢) في الأصل و(م): بالخاصة، في الموضعين، والمثبت من المقدمة ١/ ١٤٨.

(٣) الجوكية: طائفة من رهبان الهنود.

(٤) في المقدمة: علوماً.

(٥) في الأصل: فيصير، وفي المقدمة: فتصرفه.

(٦) في (م): المتعادة، وهو تصحيف.

عنهم في عشرة، ولا دليل لهم على هذا الحصر، ولذا قال بعضُ متأخِّريهم بأنها لا تكاد تُحصى. وللمتكلِّمين والمحقِّقين من السَّلَف في ذلك كلامٌ لا يتَّسع هذا الموضعُ لذكره.

وأنا أقول، ولا ينكرُه إلَّا جَهُول: لله عزَّ وجل خواصُّ في الأزمنة والأمكنةِ والأشخاص، ولا يبعدُ ـ بعد انقطاعِ خبر السماء عن الشياطين بالرَّجم ـ أن يجعل لبعض النفوس الإنسانية خاصية التكلُّم بما يَصْدُقُ كلًّا أو بعضاً، مع اطِّلاعٍ وكشفٍ يفيد العلمَ بما أخبر به، أو بدون ذلك بأنْ يُنْطِقَه سبحانه بشيءٍ فيتكلَّم به من غير علم بالمخبَرِ به ويوافقُ الواقع.

وقد اتَّفق لي ذلك وعمري نحو خمس سنين، وذلك أنِّي رجعتُ من الكتَّاب إلى البيت وشرعتُ ألعبُ فيه على عادة الأطفال، فنهتْني والدتي رحمها الله تعالى عن ذلك، وأمرتْني بالنوم لأستيقظ صباحاً فأَذْهَبَ إلى الكتَّاب، فقلتُ لها: غداً يُقتَلُ الوزير ولا أَذهبُ إلى الكتَّاب، وهو ممَّا لا يكاد يمرُّ بفكرٍ، فلم تلتفت إلى ذلك وأَنامتْني، فلمَّا أصبحتُ تأهَّبْتُ للذهاب، فجاء ابنُ أختٍ لها وأسرَّ إليها كلاماً لم أسمعه، فتغيَّر حالُها ومنعتني عن الذهاب ولا أدري لِمَ ذلك، فأردتُ الخروجَ إلى الدرب لألعب مع أمثالي فمنعتني أيضاً، فقعدتْ وهي مضطربةُ البال تطلبُ أحداً يخبرها عن حال والدي عليه الرحمةُ، حيث ذهب قبيل طلوع الشمس إلى المدرسة، فخرجتُ إلى الدرب على حين غفلةٍ منها، فوجدتُ الناسَ بينَ راكضٍ ومُسْرِعٍ يتحدَّثون بأنَّ الوزير قتله بعضُ خدمه وهو في صلاة الفجر، فرجعتُ إليها مسرعاً مسروراً بصِدْقِ كلامي، وكنتُ قد أُنسِيْتُه ولم يخطر ببالي حتى سمعتُ الناس يتحدَّثون بذلك.

وفي «اليواقيت والجواهر» للشعرانيِّ عليه الرحمة في بحث الفرق بين المعجزة والكهانة: أنَّ الكهانة كلماتٌ تجري على لسان الكاهن ربَّما تُوافِقُ وربَّما تُخالِفُ، وفيه شمةٌ مما ذكرنا.

هذا ـ والله تعالى أعلم ـ والظاهرُ على ما قيل أنَّ قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ إلخ كلامٌ مسوقٌ منه تعالى لبيانِ تنزيهِ النبيِّ ﷺ عن أن يكون ـ وحاشاه ـ ممن تَنَزَّلُ عليه الشياطين، وإبطالٌ لقولهم في القرآن: إنه من قَبيل ما يُلْقَى إلى الكهنة.

وفي «البحر» ما هو ظاهرٌ في أنه على معنى القول، أي: قل يا محمدُ هل أنبِّئكم.. إلخ[1]، وهو مسوقٌ للتنزيه والإبطال المذكورَيْن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ مسوقٌ لتنزيهه عليه الصلاة والسلام أيضاً عن أن يكون ـ وحاشاه ـ من الشعراء، وإبطالُ زَعْمِ الكفرة أنَّ القرآن من قبيل الشعر.

والمتبادرُ منه: الكلامُ المنظومُ المقفَّى، ولذلك قال كثيرٌ من المفسرين: إنهم رَمَوْه عليه الصلاة والسلام بكونه آتياً بشعرٍ منظومٍ مقفَّى، حتى تأوَّلوا عليه ما جاء في القرآن مما يكون موزوناً بأدنى تصرُّفٍ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٣] ويكون بهذا الاعتبار شطراً من الطويل، وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧٦] ويكون من المديد[2]، وكقوله عز وجل: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ويكون من البسيط، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] ويكون من الوافر، وقوله جل وعلا: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ويكون من الكامل. إلى غير ذلك مما استخرجوه منه من سائر البحور. وقد استخرجوا منه ما يشبه البيتَ التامَّ[3]، كقوله تعالى: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وتعقِّب ذلك بأنهم لم يقصدوا هذا المقصد فيما رَمَوْه به ﷺ؛ إذ لا يخفى على الأغبياء من العجم فضلاً عن بُلَغاءِ العرب أنَّ القرآن الذي جاء به ﷺ ليس على أساليب الشعر، وهم ما قالوا فيه عليه الصلاة والسلام شاعر إلَّا لمَّا جاءهم بالقرآن، واستخراجُ ما ذكر ونحوهِ منه ليس إلَّا لمزيدِ فصاحته وسلاسته، ولم يؤتَ به لقَصْدِ النظم. ولو اعتُبِرَ في كون الكلام شعراً إمكانُ استخراج كلامٍ منظومٍ منه لكان كثيرٌ من الأطفال شعراء، فإنَّ كثيراً من كلامهم يمكن فيه ذلك، والظاهرُ أنهم إنما قصدوا رميه ﷺ بأنه ـ وحاشاه ثم حاشاه ـ يأتي بكلامٍ مخيَّلٍ لا حقيقةَ له، ولمَّا كان ذلك غالباً في الشعراء الذين يأتون بالمنظوم من الكلام عبَّروا عنه عليه الصلاة والسلام بشاعرٍ، وعمَّا جاء به بالشعر.

---

(١) البحر ٧/ ٤٧-٤٨، وقال أبو حيان: وهذا استفهامُ توقيف وتقرير.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: من الخفيف.

(٣) ويكون من البحر الوافر. مفتاح العلوم للسكاكي ص٥٩٩.

ومعنى الآية: والشعراءُ يُجاريهم ويَسْلكُ مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالُّون عن السَّنن، الحائرون فيما يأتون وما يَذَرون، ولا يستمرُّون على وتيرةٍ واحدةٍ في الأفعال والأقوال والأحوال، لا غيرُهم من أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحقِّ الثابتين عليه. والحصرُ مستفادٌ من بناء «يتَّبعهم» إلخ على الشعراء عند الزمخشريِّ، كما قرَّره في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[1] [المزمل: ٢٠]. ومَن لا يرى الحصر في مثل هذا التركيب يأخذه من الوصف المناسب، أعني أنَّ الغواية جُعِلَتْ علَّةً للاتِّباع فإذا انتفت انْتَفَى.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ استشهادٌ على أنّ الشعراء إنما يتَّبعُهم الغاوون، وتقريرٌ له. والخطابُ لكلِّ مَن تتأتَّى منه الرؤيةُ؛ للإشارة إلى أنَّ حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا يختصُّ برؤيته راءٍ دون راءٍ.

وضميرُ الجمع للشعراء، أي: ألم تَرَ أنَّ الشعراء في كلِّ وادٍ من أودية القيل والقال، وفي كلِّ شِعْبٍ من شعاب الوهم والخيال، وفي كلِّ مسلكٍ من مسالك الغيِّ والضلال، يهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيلٍ معيَّنٍ من السُّبل، بل يتحيَّرون في سباسب الغواية والسفاهة، ويتيهون في تيهِ الصَّلفِ والوقاحة، ديدنُهم تمزيقُ الأعراض المحميَّة، والقَدْحُ في الأنساب الطاهرة السَّنِيَّةِ، والنسيبُ بالحُرَم[2]، والغَزَلُ والابتهارُ[3]، والتردُّدُ بين طرفي الإفراط والتفريط في المدح والهجاء.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ من الأفاعيل غيرَ مكترثين بما يستتبعه من اللوم، فكيف يُتوهَّمُ أن يتَّبعهم في مسلكهم ذلك ويلحقَ بهم ويَنْتظِمَ في سلكهم مَن تنزَّهتْ ساحتُه عن أن يحوم حولها شائبةُ الاتِّصافِ بشيءٍ من الأمور المذكورة، واتَّصَفَ بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلَّقَ بمكارِمِ الأخلاق الجميلة، وحاز جميع

---

(١) الكشاف ١/ ١٨٧ و٤/ ١٧٨-١٧٩.

(٢) النسيب: ذكر محاسن الحسان، وإظهار التعشُّق والهيام بها. والحُرَم: جمع حُرمة، وهي المرأة المحرَّمة على غير زوجها. حاشية الشهاب ٧/ ٣٠.

(٣) الابتهار: الكذب بادِّعاء الوصول إلى المحبوبة. حاشية الشهاب ٧/ ٣٠.

الكمالات القُدْسيةِ، وفاز بجُمْلةِ المَلَكاتِ السَّنِيَّةِ الإنسية، مستقرًّا على أَقْوَم منهاجٍ، مستمرًّا على صراطٍ مستقيم لا يرى له العقلُ السليم مِن هاجٍ، ناطقاً بكلِّ أمرٍ رشيدٍ، داعياً إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد، مؤيَّداً بمعجزاتٍ قاهرةٍ، وآياتٍ ظاهرةٍ، مشحونةٍ بفنون الحِكَم الباهرة، وصنوفِ المعارف الزاهرة[1]، مستقلَّةٍ بنَظْمٍ رائقٍ وأسلوبٍ فائق أَعْجَزَ كلَّ مِنْطيقٍ ماهرٍ، وبكَّتَ كلَّ مُفلِقٍ ساحرٍ.

هذا وقد قيل في تنزيهه ﷺ عن أن يكون من الشعراء: إنَّ أتباع الشعراء الغاوون، وأتباعُه عليه الصلاة والسلام ليسوا كذلك.

وتعقِّب بأنه لا ريبَ في أنَّ تعليلَ عَدَم كونه ﷺ منهم بكونِ أتباعه عليه الصلاة والسلام غيرَ غاوين مما لا يليقُ بشأنه العَالي.

وقيل: ضمير الجمع للغاوين. وتعقِّب بأنَّ المحدَّث عنهم الشعراء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الغاوين هم الرواة الذين يحفظون شعر الشعراء ويروونه عنهم مبتهجين به. وفي روايةٍ أخرى عنه: أنهم الذين يستحسنون أشعارهم وإن لم يحفظوها.

وعن مجاهد وقتادة: أنهم الشياطين.

وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّ الآية نزلت في شعراء المشركين: عبد الله بن الزِّبَعْرَى، وهبيرة بن وهب المخزوميّ، ومسافع بنِ عبد مناف، وأبو عَزَّةَ الجمحي، وأمية بن أبي الصلت، قالوا: نحن نقول مثل قول محمدٍ، وكانوا يَهْجُونه ويجتمع إليهم الأعرابُ من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم، وهم الغاوون الذين يتَّبعونهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضاً أنه قال: تَهاجَى رجلان على عَهْدِ رسول الله ﷺ، أحدُهما من الأنصار والآخرُ من قومٍ آخَرين، وكان مع كلٍّ واحدٍ منهما غُواةٌ من قومه وهم السفهاء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ الآيات[2]. وفي القلب من صحّةِ الخبر شيءٌ، والظاهرُ من السياق أنها

---

(١) في الأصل و(م): الباهرة، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٧٠، والكلام منه.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٧٤-٦٧٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٣، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٩٩.

نزلت للردِّ على الكفرة الذين قالوا في القرآن ما قالوا.

وقرأ عيسى بن عمر: «والشعراءَ» بالنصب على الاشتغال[١].

وقرأ السلميُّ، والحسنُ بخلافٍ عنه: «يَتْبعُهم» مخفَّفاً[٢]. وقرأ الحسن، وعبدُ الوارث عن أبي عمرو: «يتَّبِعْهم» بالتشديد وتسكين العين تخفيفاً[٣]، وقد قالوا: عَضْد بسكون الضاد، فغيَّروا الضمةَ واقعةً بعد الفتحة، فلَأَنْ يغيِّروها واقعةً بعد الكسرة أَوْلَى.

وروى هارونُ فتحَ العين عن بعضهم[٤]، واستشكله أبو حيان[٥]. وقيل: إنه للتخفيف أيضاً، واختيارُه على السكون لحصول الغرض به، مع أن فيه مراعاةَ الأصل في الجملة؛ لِمَا بين الحركتين من المشاركة الجنسية، ولا كذلك ما بين الضمِّ والسكون، وهو غريب كما لا يخفى.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ استثناءٌ للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكْثِرون ذِكْرَ الله عزَّ وجلَّ، ويكونُ أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله سبحانه وتعالى، والحثِّ على الطاعة والحكمة والموعظة، والزهدِ في الدنيا، والترهيبِ عن الرُّكون إليها، والاغترارِ بزخارفها، والافتتانِ بملاذِّها الفانية، والترغيبِ فيما عند الله تعالى، ونَشْر محاسن رسوله ﷺ ومَدْحِه، وذِكْرِ معجزاته ليتغلغل حبُّه في سويداء قلوب السامعين، وتزدادَ رغباتُهم في اتِّباعه، ونَشْرِ مدائح آله وأصحابه وصُلَحاءِ أمته لنحو ذلك، ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجوٌ وقع بطريق الانتصار ممن هجاهم من غير اعتداءٍ ولا زيادةٍ، كما يشير إليه قراءةُ بعضهم: «وانتصروا بمثل ما ظلموا»[٦].

وقيل: المراد بالمستَثْنَيْنَ شعراءُ المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٨، والكشاف ٣/ ١٣٣، والبحر ٧/ ٤٨.
(٢) البحر ٧/ ٤٨، وهي قراءة نافع كما في التيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٤.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٨.
(٤) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٨-٤٩.
(٥) في البحر ٧/ ٤٩.
(٦) أخرجها ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٦ عن قتادة.

ويكافحون هُجاةَ المشركين، واستُدلَّ لذلك بما أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة: أنَّ هذه الآية نزلت في رَهْطٍ من الأنصار هاجَوْا عن رسول الله ﷺ، منهم: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت[١]. وعن السدِّي نحوه.

وبما أخرج جماعةٌ عن أبي حسن سالم البرَّاد أنه قال: لمَّا نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ الآيةَ، جاء عبدُ الله بنُ رواحةَ وحسانُ بنُ ثابتٍ وكعب بنُ مالكٍ وهم يبكون، فقالوا: يا رسول الله، لقد أنزل الله تعالى هذه الآية وهو يعلم أنَّا شعراءُ، هَلَكْنا. فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ، فدعاهم رسول الله ﷺ فتلاها عليهم[٢].

وأنت تعلمُ أنَّ العبرة لعموم اللَّفظِ لا لخصوص السبب. وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى آخر الصفات، فقال: هم أبو بكر وعمرُ وعليٌّ وعبد الله بن رواحة[٣]. ولعله من باب الاقتصار على بعض ما يدلُّ عليه اللفظُ فقد جاء عنه في بعض الروايات ما يُشْعِرُ بالعموم.

هذا واستُدلَّ بالآية على ذمِّ الشعر والمبالغةِ في المدح والهَجْوِ وغيرهما من فنونه، وجوازِه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق، وجوازِ الهَجْوِ لمن ظُلم انتصاراً، كذا قيل.

واعلم أنَّ الشعر بابٌ من الكلام حَسَنُه حَسَنٌ وقبيحُه قبيحٌ، وفي الحديث: «إنَّ من الشعر لحكمة»[٤]. وقد سمع رسول الله ﷺ الشعرَ وأجاز عليه، وقال عليه الصلاة والسلام لحسان رضي الله عنه: «اهجهم - يعني المشركين - فإنَّ روح القدس

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٥، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١٠٠. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٧٨، والطبري ١٧/ ٦٧٩، دون قوله: منهم كعب...

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٥١٨-٥١٩، والطبري ١٧/ ٦٧٨، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٤-٢٨٣٥.

(٣) تاريخ ابن عساكر ٢٨/ ٩٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٩٩.

(٤) أخرجه أحمد (٢١١٥٤)، والبخاري (٦١٤٥) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

سيُعِينُكَ»(١) . وفي روايةٍ: «اهجُهم وجبريلُ معك»(٢) .

وأخرج ابن سعد عن ابن بُريدةَ أنَّ جبريل عليه السلام أعان حساناً على مدحته النبيَّ ﷺ بسبعين بيتاً(٣) .

وأخرج أحمد والبخاريُّ في «التاريخ» وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك أنه قال للنبيِّ ﷺ: إنَّ الله تعالى أنزل في الشعراء ما أَنزل، فكيف تَرى فيه؟ فقال: «إنَّ المؤمنَ يُجاهِدُ بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لَكأنَّ ما تَرْمُونَهم به نَضْحُ النَّبْلِ»(٤) .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين قال: [قال] رسول الله ﷺ ليلةً وهم في سفر: «أين حسان بنُ ثابت؟» فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: خُذْ، فجعل يُنْشِدُه ويُصغي إليه حتى فرغ من نشيده، فقال رسول الله ﷺ: «لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبل»(٥) .

ويُروى عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﵂: أنَّ النبيَّ ﷺ بنى لحسان بن ثابتٍ منبراً في المسجد ينشد عليه الشعر(٦) .

وأخرج الديلميُّ عن ابن مسعود ﵁ مرفوعاً: «الشعراءُ الذين يموتون في الإسلام يأمرُهم الله تعالى أن يقولوا شعراً يتغنَّى به الحورُ العين لأزواجهنَّ في الجنة، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثُّبور في النار»(٧) .

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٩٤ من حديث عائشة ﵂، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٧-٢٩٨ من حديث جابر ﵁.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٢٣)، ومسلم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب ﵁.

(٣) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٢٦ (طبعة الخانجي).

(٤) مسند أحمد (٢٧١٧٤)، والتاريخ الكبير ٥/ ٣٠٤-٣٠٥، وعزاه لأبي يعلى وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٩٩، ورواه عن أبي يعلى ابن حبان (٤٧٠٧). وأخرج مسلم (٢٤٩٠) من حديث عائشة ﵂: «اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليهم من رشق النبل».

(٥) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٢٥-٣٢٦ (طبعة الخانجي)، وما بين حاصرتين منه.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٨٤٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٧) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣٦٢، وذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٣٨٨ وقال: وفيه لاحق بن الحصين. اهـ. وذكره أيضاً الفتني في تذكرة الموضوعات ص٦٨ وقال: فيه لاحق بن الحصين كذاب وضَّاع.

وقد أنشد كلٌّ من الخلفاء الراشدين ﷺ أجمعين الشعرَ، وكذا كثيرٌ من الصحابة ﷺ، فمِن شعر أبي بكر ﷺ[(١)]:

أَمِنْ طَيْفِ سَلْمَى بالبطاح الدَّمائثِ[(٢)] ... أَرِقْتَ وأمرٍ في العشيرة حادثِ
تَرى من لؤيٍّ فرقةً لا يَصُدُّها ... عن الكفر تذكيرٌ ولا بعثُ باعثِ
رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذَّبوا ... عليه وقالوا لستَ فينا بماكثِ
ولمَّا دعوناهم إلى الحقِّ أدبروا ... وهرُّوا هريرَ المُجْحَراتِ اللَّوَاهثِ[(٣)]
فكم قد مثلنا[(٤)] فيهمُ بَقَرابةٍ ... وتَرْكُ التُّقَى شيءٌ لهم غيرُ كارِثِ[(٥)]
فإنْ يَرْجِعوا عن كُفْرِهم وعُقوقهم ... فما طيِّباتُ الحِلِّ مثلُ الخبائثِ
وإنْ يركبوا طغيانَهم وضلالَهم ... فليس عذابُ الله عنهم بلابِثِ
ونحن أناسٌ من ذؤابة غالبٍ ... لنا العزُّ منها في الفروع الأثائثِ[(٦)]
فأُولي بربِّ الراقصات عشيةً ... حَرَاجيجُ تَخْدِي في السَّريح الرَّثَائِثِ[(٧)]
كأُدْمِ ظباءٍ حول مكَّة عكَّفٍ ... يَرِدْنَ حياضَ البئر ذاتِ النَّبائثِ[(٨)]

---

(١) كما في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٩٢، والعمدة لابن رشيق ١/ ٣٢. وقال ابن إسحاق: وأكثر أهل العلم ينكر هذه القصيدة لأبي بكر.
(٢) الدمائث: الرمال اللينة. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٢/ ٢٧، وعنه نقلنا جميع ما سيأتي من شرح الغريب.
(٣) قوله: وهروا...، أي: وثبوا كما تثب الكلاب. والمجحرات: الكلاب التي أُجْحِرت وألجئت إلى مواضعها. واللواهث: التي أخرجت ألسنتها وتابعت أنفاسها.
(٤) كذا في الأصل و(م)، وفي المصادر: متتنا، قال أبو ذر: متتنا، أي: اتَّصلنا.
(٥) أي: غير مُحْزِن.
(٦) الفروع الأثائث: هي الكثيرة المجتمعة.
(٧) قوله: أُولي، معناه: أَحْلِف وأُقسم. والراقصات: الإبل، والرقص ضربٌ من المشي. وحراجيج، أي: طوال، واحدها: حرجوج، ومن رواه: عناجيج، فهي الحسان. وتَخْدي: تسرع. وقوله: في السريح، السريح: قطع جلود تربط على أخفافها مخافة أن تصيبها الحجارة. والرثائث: البالية الخلقة.
(٨) قوله: كأدم ظباء، الأُدْمُ من الظباء: السُّمْرُ الظهورِ، البيضُ البطون. وعكَّف: مقيمة. والنبائث: جمع نبيثة، وهي تراب يخرج من البئر إذا نُقِبت.

لئن لم يُفيقوا عاجلاً من ضلالهم ... ولستُ إذا آليتُ يوماً[1] بحانثِ
لَتبتدرنَّهم غارةٌ ذاتُ مَصْدَقٍ ... تُحرِّمُ أطهارَ النساءِ الطَّوامثِ[2]
تغادرُ قتلى تَعْصِبُ[3] الطيرُ حولَهم ... ولا تَرْأَفُ الكفارَ رَأْفَ ابنِ حارثِ
فأَبْلِغْ بني سهم لديك رسالةً ... وكلَّ كفورٍ يبتغي الشرَّ باحثِ
فإن تَشْعَثوا[4] عِرْضي على سوء رأيكم ... فإنِّيَ من أعراضكم غيرُ شاعثِ

ومن شِعرِ عمر رضي الله عنه، وكان من أَنْقَدِ أهلِ زمانه للشعر وأَنفَذِهم فيه معرفةً:

تَوعَّدني كعبٌ ثلاثاً يعدُّها ... ولا شَكَّ أنَّ القول ما قاله كعبُ
وما بيَ خوفُ الموتِ إنِّي لميتٌ ... ولكن خوف الذنب يتبعُه الذنب[5]

وقوله، ويُروَى للأعور الشَّنِّيِّ[6]:

هوِّنْ عليك فإنَّ الأمور ... بكفِّ الإله مقاديرُها
فليس بآتيك مَنْهِيُّها ... ولا قاصرٌ عنك مأمورُها[7]

ومنه ـ وقد لبس بُرْداً جديداً فنظر الناس إليه ـ ويُروَى لورقة بن نوفل من أبيات:

لا شيء ممَّا ترى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويَفْنَى المالُ والولدُ

---

(١) في المصادر: قولاً.

(٢) جمع طامث، وهي الحائض.

(٣) أي: تجتمع.

(٤) تشعثوا: تغيروا وتفرَّقوا.

(٥) العمدة ١/ ٣٤، ووردا ضمن قصة جرت بين كعب الأحبار وعمر رضي الله عنه، كما أخرج ابن شبَّة في تاريخ المدينة ٣/ ٨٩١-٨٩٢. وفيه: ولكنما في الذنب يتبعه الذنب.

(٦) في الأصل و(م): الثني، والصواب ما أثبتناه، والأعور الشَّنِّي هو بشر بن منقذ أحد بني شَنّ بن أفصى بن عبد القيس، ويكنى أبا منقذ، وكان مع عليٍّ رضي الله عنه يوم الجمل. الشعر والشعراء ٢/ ٦٣٩، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٤٥، واللآلي ٢/ ٨٢٧.

(٧) العمدة ١/ ٣٣، وعنه نقل المصنف. وذكرهما أبو عبيد في الأمثال ص١٩٣ وقال: وهذا الشعر نرويه عن عمر أنه تمثَّل به على المنبر. وعزاه للأعور الشَّنِّي سيبويه في الكتاب ١/ ٦٣-٦٤، والبصري في الحماسة ٢/ ٢، والبكري في فصل المقال ص٢٨٦. وورد البيتان ضمن خبر أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص١٥٨ منسوبين لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

لم تُغنِ عن هرمزٍ يوماً خزائنهُ ... والخلد حاوَلَه عادٌ فما خَلَدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والإنسُ والجنُّ فيما بينها تَرِدُ
حوضٌ هنالك موروِدٌ بلا كذبٍ ... لابدَّ من وِرْدِه يوماً كما وَرَدوا[(١)]

ومن شعر عثمان رضي الله عنه:

غِنَى النفسِ يُغْني النفسَ حتى يكفَّها ... وإنْ عضَّها حتى يضرَّ بها الفقرُ[(٢)]

ومن شعر عليٍّ كرم الله تعالى وجهه ـ وكان مجوِّداً حتى قيل: إنه أشعرُ الخلفاء رضي الله عنهم ـ يذكر همدان ونصرهم إياه في صفين:

ولمَّا رأيتُ الخيلَ تَزْحَمُ بالقنا ... نواصيُّها حمرُ النحورِ دَوَامي
وأَعْرضَ نقعٌ في السماء كأنه ... عجاجةُ دَجْنٍ ملبَّسٍ بقَتَامِ
ونادى ابنُ هند في الكلاع وحمير ... وكندة في لخم وحيٍّ جذامِ
تيمَّمتُ همدانَ الذين همُ همُ ... إذا ناب دهرٌ جُنَّتي وسهامي
فجاوبني من خيل همدان عصبةٌ ... فوارسُ من همدانَ غيرُ لئامِ
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشربِ مدامِ
فلو كنتُ بوَّاباً على باب جنةٍ ... لقلتُ لهمدانَ ادخلوا بسلامِ[(٣)]

وقد جمعوا ما نسب إليه رضي الله عنه من الشعر في ديوان كبير ولا يصح منه إلا اليسير.

ومن شعر ابنه الحسن رضي الله عنهما وقد خرج على أصحابه مختضباً:

نسوِّد أعلاها وتأبى أصولُها ... فليت الذي يَسْوَدُّ منها هو الأصلُ[(٤)]

ومن شعر الحسين رضي الله عنه وقد عاتبه أخوه الحسن رضي الله عنه في امرأته:

---

(١) العمدة ١/ ٣٣-٣٤، وبهجة المجالس لابن عبد البر ٢/ ٣٤٠.

(٢) العمدة ١/ ٣٤، وزهر الآداب للقيرواني ١/ ٣٩.

(٣) العمدة ١/ ٣٤، والديوان المنسوب لعلي رضي الله عنه ص١١٣. وجاء بدل: تزحم، في العمدة: ترجم، وفي الديوان: تقرع، وفيه: وأقبل رهج في السماء كأنه. . .

(٤) العمدة ١/ ٣٥. وأخرج صدره عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ابنُ أبي شيبة ٨/ ٨٣٤، وابن حبان في الثقات ٣/ ٢٨٠. وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٨٥ وقال: وهو بيت محفوظ له (أي: لعقبة)، ثم ذكر عجزه برواية: ولا خير في الأعلى إذ فسد الأصل.

لَعَمْرُكَ إنَّني لَأُحِبُّ داراً تَحُلُّ بها سُكينةُ والرَّبابُ
أحبُّهما وأبذلُ جُلَّ مالي وليس لِلائمي عندي عتابُ(١)

ومن شعر فاطمة رضي الله عنها قالته يومَ وفاةِ أبيها عليه الصلاة والسلام:

ماذا على مَن شَمَّ تربةَ أحمدٍ أنْ لا يشمَّ مدى الزمانِ غَوَاليا
صُبَّتْ عليَّ مصائبٌ لو أنها صبَّتْ على الأيام صِرْنَ لياليا(٢)

ومن شعر العباس رضي الله عنه يوم حنين يفتخر بثبوته مع رسول الله ﷺ:

ألَا هل أتَى عِرسي(٣) مَكَرِّي ومَوْقفي بوادي حُنَينٍ والأسنَّةُ تُشْرَعُ
وقَوْلي إذا ما النفسُ جاشت لها قَدي وهامٌ تَدَهْدَى والسواعدُ تُقْطَعُ
وكيف رَدَدْتُ الخيلَ وهي مغيرةٌ بزوراءَ تُعطي باليدين وتَمنَعُ
نَصَرْنا رسول الله في الحرب سبعةً وقد فرَّ مَن قد فرَّ عنه فأقْشَعوا(٤)

ومن شعر ابنه عبد الله رضي الله عنهما:

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجَعَتِ الفتى وأَعْملَ فِكْرَ الليلِ والليلُ عاكرُ
وباكَرَني في حاجةٍ لم يَجِدْ لها سوايَ ولا مِن نكبةِ الدهر ناصرُ
فَرَجْتُ بمالي همَّه من مقامه وزايَلَه همٌّ طَروقٌ مُسامِرُ
وكان له فضلٌ عليَّ بظنِّه بيَ الخيرَ إنِّي للَّذي ظنَّ شاكرُ(٥)

وهلمَّ جرًّا إلى حيث شئتَ، وليس من بني عبد المطلب ـ كما قيل ـ رجالاً ولا نساءً مَن لم يقل الشعر، حاشا النبيَّ ﷺ؛ ليكون ذلك أبلغَ في أمره عليه الصلاة والسلام.

---

(١) الأغاني ١٦/ ١٣٦، والعمدة ١/ ٣٥-٣٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٣٤، وقال الذهبي: وهو مما ينسب لعائشة ولا يصح. والثاني منهما ذكره المرزباني في معجم الشعراء ص٤٠٣ عن أبي منصور الباخرزي، واسمه محمد بن إبراهيم.
(٣) العِرس: امرأة الرجل. القاموس (عرس).
(٤) العمدة ١/ ٣٦، والاستيعاب ٦/ ٨، والبيت الأخير في أسد الغابة ١/ ١٨٩.
(٥) العمدة ١/ ٣٦-٣٧، والعقد الفريد ١/ ٢٣٠، وتاريخ ابن عساكر ٤/ ٣٦٦. وجاء في العقد وتاريخ ابن عساكر: وزايله الهم الطروق المساورُ.

ولأجلَّة التابعين ومَن بعدهم من أئمة الدين وفقهاء المسلمين شعرٌ كثيرٌ أيضاً، ومن ذلك قولُ الشافعيِّ رضي الله عنه:

ومُتْعِبِ العيس مرتاحٌ إلى بلدٍ ... والموتُ يطلبه في ذلك البلدِ
وضاحكٍ والمنايا فوق هامته ... لو كان يعلمُ غيباً مات من كمد
مَن كان لم يؤتَ علماً في بقاء غدٍ ... فما يفكِّر في رزقٍ لبَعْدِ غَدِ[(١)]

والاستقصاءُ في هذا الباب يحتاجُ إلى إفراده بكتابٍ، وفيما ذُكر كفايةٌ.

وقد مدحه أيضاً غيرُ واحدٍ من الأجلَّة، فعن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعريِّ: مُرْ مَن قِبَلَكَ بتعلُّم الشعر، فإنه يدلُّ على معالي الأخلاق، وصوابِ الرأي، ومعرفةِ الأنساب.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: الشعرُ ميزانُ العقول.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إذا قرأتُم شيئاً من كتاب الله تعالى فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب فإنَّ الشعر ديوان العرب[(٢)].

وما أخرجه أحمد وابن أبي شيبة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بينما نحن نسيرُ مع رسول الله ﷺ إذ عَرَضَ شاعرٌ يُنْشِدُ، فقال النبيُّ ﷺ: «لأَنْ يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً خيرٌ من أن يمتلئ شعراً»[(٣)]، حمله الشافعيُّ[(٤)] عليه الرحمةُ على الشعر المشتملِ على الفحش.

ورُوي نحوُه عن عائشةَ رضي الله عنها، فقد أخرج الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابن عباس عن عائشة أنه بلغها أنَّ أبا هريرة يروي عن رسول الله ﷺ: «لأَنْ يمتلئ جوفُ أحدكم» الحديثَ، فقالت: رحم الله تعالى أبا هريرةَ، إنما قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحاً خيرٌ له من أنْ يمتلئ شعراً من

---

(١) العمدة ١/ ٤٠، وفيه: ماذا تفكُّره لرزق بعد غدِ.

(٢) ذكر هذه الأخبار ابن رشيق في العمدة ١/ ٢٨ و٣٠، وخبر عليٍّ فيه بلفظ: الشعر ميزان القول، وفي رواية: ميزان القوم.

(٣) مسند أحمد (١١٠٥٧)، ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٧٢٠، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٢٥٩).

(٤) كما في الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ٢/ ٢٠٤، وعنه نقل المصنف.

الشعر الذي هُجيتُ به»[1]، يعني نفسَه الشريفةَ عليه الصلاة والسلام. ذَكَر ذلك المرشديُّ[2] في «فتاواه» نقلاً عن كتاب «بستان الزاهدين».

ولا يخفَى أنه يُبعِدُ الحملَ المذكور التعبيرُ بـ «يمتلئ»، فإنَّ الكثير والقليل مما فيه فحشٌ أو هجوٌ لسيِّد الخَلْق ﷺ سواءٌ، وما أحسنَ قول الماورديِّ[3]: الشعرُ في كلام العرب مستحبٌّ ومباحٌ ومحظورٌ، فالمستحبُّ ما حذَّر من الدنيا ورغَّب في الآخرة وحثَّ على مكارم الأخلاق، والمباحُ ما سَلِمَ من فحشٍ أو كذبٍ، والمحظور نوعان: كذبٌ وفحشٌ، وهما جرحٌ في قائله، وأما مُنْشِدُه فإن حكاه اضطراراً لم يكن جرحاً، أو اختياراً جرح.

وتبعه على ذلك الرُّوْيانيُّ، وجَعَلَ الرويانيُّ ما فيه الهجوُ لمسلم سواءٌ كان بصدقٍ أو كذبٍ من المحظور أيضاً، ووافقه جماعةٌ، إلا أنَّ إثم الصادق أخفُّ من إثم الكاذب كما قال القَمُوليُّ[4]. وإثم الحاكي على ما قال الرافعيُّ دون إثم المُنْشِدِ.

وقال الأذرعيُّ: ليس هذا على إطلاقه، بل إذا استوى الحاكي والمنشدُ، أمَّا إذا أنشده ولم يُذِعْه فأذاعه الحاكي فإثمه أشدُّ بلا شكٍّ.

---

(١) ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ٥٥٨ من طريق أبي يوسف القاضي عن الكلبي به. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٣١ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يَرِيه خير له من أن يمتلئ شعراً هجيت به» والكلبي متروك، وروى البخارى عن سفيان: قال لي الكلبي: كلُّ ما حدَّثتك عن أبي صالح فهو كذب. وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه أحمد (٧٨٧٤)، والبخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧) بمثل حديث أبي سعيد السالف.

(٢) هو: عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد، أبو الوجاهة العمري، المعروف بالمرشدي الحنفي، مفتي الحرم المكي، توفي مقتولاً سنة (١٠٣٧هـ). خلاصة الأثر ٢/ ٣٦٩.

(٣) كما في الزواجر ٢/ ٢٠٤، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من أقوال.

(٤) هو: أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكيِّ بن ياسين، أبو العباس نجم الدين، له: البحر المحيط في شرح الوسيط، وشرح مقدمة ابن الحاجب، وله تكملة على تفسير الفخر الرازي، توفي سنة (٧٢٧هـ). طبقات الشافعية ٩/ ٣٠، وطبقات المفسرين للأدنهوي ص٢٦٨. وكلامه من كتابه جواهر البحر كما في الزواجر ٢/ ٢٠٢.

واحتُرِز بقيد المسلم عمَّا فيه الهجوُ لكافرٍ؛ فإنَّ فيه تفصيلاً، وفصَّل بعضُهم ما فيه الهجوُ لمسلمٍ أيضاً، وذلك أنَّ كثيراً من العلماء أطلقوا جوازَ هجوِ الكافر استدلالاً بأمره ﷺ حسَّاناً ونحوَه بهجوِ المشركين. وقال بعضهم: محلُّ ذلك الكفارُ على العموم، وكذا المعيَّنُ الحربيُّ ميتاً كان أو حيًّا حيث لم يكن له قريبٌ معصومٌ يتأذَّى به، وأما الذمِّي أو المعاهَدُ أو الحربيُّ الذي له قريبٌ ذمِّيٌّ أو مسلمٌ يتأذَّى به، فلا يجوزُ هجوه كما قال الأذرعيُّ وابن العماد وغيرُهما، وقالوا: إنَّ هجوَ حسان وإن كان في معيَّنٍ لكنه في حربيٍّ، وعلى التنزُّل فهو ذبٌّ عن رسول الله ﷺ، فيكون من القُرَبِ فضلاً عن المباحات.

وألحق الغزاليُّ[1] وتبعه جمعٌ المبتدعَ بالحربيِّ، فيجوز هَجْوُه ببدعته، لكنْ لمقصدٍ شرعيٍّ كالتحذير من جهته.

وجوَّز ابنُ العماد هَجْوَ المرتدِّ دون تارك الصلاة والزاني المحصَن. وما قاله في المرتدِّ واضحٌ لأنه كالحربيِّ بل أقبح، وفي الأخيرين محلُّه حيث لم يتجاهَرْ[2]، أمَّا المتجاهِرُ بفسقه فيجوزُ هَجْوُه بما تجاهَرَ به فقط؛ لجواز غيبته بذلك فقط.

وقال البلقينيُّ: الأرجحُ تحريمُ هَجْوِ المتَجاهر المذكورِ لا لقَصْدِ[3] زَجْرِه؛ لأنه قد يتوبُ وتبقى وصمةُ الشعر السائر عليه، ولا كذلك الكافرُ إذا أسلم.

وردَّ بأنَّ مجاهرته بالمعصية وعدمَ مبالاته بالناس وكلامهم فيه صيَّراه غير محترمٍ ولا مراعًى، فهو المهدِرُ لحرمة نفسه بالنسبة لِمَا تَجاهَر به، فلَمْ يبالِ ببقاء تلك الوصمة عليه.

نعم لو قيل بحرمة إنشاده بعد التوبة إذا كان يتأذَّى به هو أو قريبُه المسلم أو الذميُّ، أو بعد موته إذا كان يتأذَّى به مَن ذُكر لم يَبْعُدْ.

وذَكَر جماعةٌ أنَّ من جملة المحظور أيضاً ما فيه تشبيبٌ بغلامٍ ولو غيرَ معيَّنٍ مع ذِكرِ أنه يعشقُه، أو بامرأةٍ أجنبيةٍ معيَّنةٍ وإن لم يذكرها بفحشٍ، أو بامرأةٍ مبهمةٍ مع

---

(١) في الإحياء ٢/ ٢٨٢، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في الزواجر ٢/ ٢٠٣.

(٢) في الزواجر: يتجاهرا.

(٣) في الزواجر: إلا لقصد.

ذِكْرِها بالفحش، ولم يفرِّقوا بين إنشاء ذلك وإنشاده. واعتبر بعضُهم التعيينَ في الغلام كالمرأة، فلا يحرمُ التشبيب بمبهَمٍ؛ قال الأذرعيُّ: وهو الأقربُ، والأول ضعيفٌ جدّاً.

وقال أيضاً: يجب القطعُ بأنه إذا شبَّب بحليلته ولم يذكر سوى المحبةِ والشوقِ، أو ذكر شيئاً من التشبيهات الظاهرة، أنه لا يضرُّ، وكذا إذا ذكر امرأةً مجهولةً ولم يذكر سوءاً.

وفي «الإحياء»[(١)]: في حرمةِ التشبيب بنحو وَصْفِ الخدود والأصداغ وسائر أوصاف النساء نظرٌ، والصحيحُ أنه لا يحرُمُ نَظْمُه ولا إنشادُه بصوتٍ وغيرِ صوتٍ[(٢)]، وعلى المستمع أن [لا] ينزله على امرأةٍ معيَّنةٍ، فإنْ نزَّله على حليلته جاز، أو على غيرها فهو العاصي بالتنزيل، ومَن هذا وصفُه فينبغي أن يجتنب السماع.

وذكر بعضُ الفضلاء أنَّ ما يحرُم إنشاؤه قد لا تحرُم روايتهُ، فإنَّ المغازيَ رُوي فيها قصائدُ الكفار الذين هاجَوا فيها الصحابةَ ﷺ، ولم ينكر ذلك أحدٌ، وقد روي أنه ﷺ أذن في الشعر الذي تقاوَلَتْ به الشعراءُ في يوم[(٣)] بدر وأُحُد وغيرهما، إلا قصيدةَ ابن أبي الصلت الحائية[(٤)]. انتهى.

قال الأذرعيُّ: ولا شكَّ في هذا إذا لم يكن فيه فحشٌ ولا أذًى لحيٍّ أو ميتٍ من المسلمين، ولم تَدْعُ حاجةٌ إليه، وقد ذَمَّ العلماء جريراً والفرزدقَ في

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٨٢، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في الزواجر ٢/ ٢٠١، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.
(٢) في الإحياء: بلحن وغير لحن.
(٣) في (م): يومي، والمثبت من الأصل والزواجر ٢/ ٢٠٢.
(٤) أخرجه أبو يعلى (٦٠٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: رخَّص رسول الله ﷺ في شعر الجاهلية إلا قصيدة أمية بن أبي الصلت في أهل بدر، وقصيدة الأعشى في ذكر عامر وعلقمة. وفي إسناده أبو بكر الهذلي، قال عنه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٠٩: يروي عن الأثبات الأشياء الموضوعات. وقصيدة أمية الحائية هي التي رثى بها من قتل من المشركين ببدر، فكان من رؤوسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وهما ابنا خاله. الخزانة ١/ ٢٥١.

تَهاجِيهما ولم يذمُّوا مَن اسْتَشْهَد بذلك على إعرابٍ وغيرِه من علم اللسان، ويجب حَمْلُ كلام الأئمة على غير ذلك مما هو عادةُ أهل اللعب والبطالة، وعلى إنشاد شعر شعراء العصر إذا كان إنشاؤه حراماً؛ إذ ليس فيه إلا أذًى أو وقيعةٌ في الأحياء، أو إساءة الأحياء في أمواتهم، أو ذكرُ مساوي الأموات، وغير ذلك، وليس مما يُحتجُّ به في اللغة ولا غيرها، فلم يبق إلا اللعبُ بالأعراض.

وزاد بعضٌ حرمةَ شعرٍ فيه تعريضٌ، وجَعَلَ التعريضَ في الهجو كالتصريح، وله وجهٌ وجيه.

وقال آخر: إنَّ ما فيه فخرٌ مذمومٌ، وقليلُه ككثيرِه، والحقُّ أنَّ ذلك إن تضمَّن غرضاً شرعيًّا فلا بأس به، وللسلف شعرٌ كثيرٌ من ذلك، وقد تقدَّم لك بعضٌ منه.

وحمل الأكثرون الخبرَ السابق على ما إذا غلب عليه الشعرُ ومَلَكَ نفسَه، حتى اشتغل به عن القرآن والفقه ونحوِهما، ولذلك ذكر الامتلاء، والحاصل أنَّ المذموم امتلاءُ القلب من الشعر بحيث لا يتَّسع لغيره، ولا يلتفتُ إليه.

وليس في الخبر ذمُّ إنشائه ولا إنشاده لحاجةٍ شرعيةٍ وإلَّا لوقع التعارُضُ بينه وبين الأخبار الصحيحة الدالَّة على حِلِّ ذلك، وهي أكثر من أن تُحْصَى، وأبعدُ من أن تقبل التأويل كما لا يخفى، وما رُوي عن الإمام الشافعيِّ من قوله:

ولولا الشعرُ بالعلماء يزري ... لكنتُ اليومَ أَشْعَرَ من لبيدِ(١)

محمولٌ على نحو ما حَمَلَ الأكثرون الخبرَ عليه، وإلا فما قاله شعرٌ، وفي معناه قولُ شيخنا علاء الدين علي أفندي تغمَّده الله تعالى برحمته مخاطباً خاتمةَ الوزراء في الزوراء دواد باشا من أبيات:

ولو لداعيه يرضى الشعر منقبةً ... لقُمْتُ ما بين مُنْشِيهِ ومُنْشِدِه

هذا وسيأتي إن شاء الله تعالى كلامٌ يتعلَّق بهذا البحث أيضاً عند الكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى﴾ [يس: ٦٩].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٢.

ومن اللطائف أنَّ سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق:

فَبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعاتٍ وبتُّ أفضُّ أغلاقَ الختام

فقال له: قد وجب عليكَ الحدّ. فقال: يا أمير المؤمنين، قد درأ الله تعالى عني الحدَّ بقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾(١).

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ؛ لِمَا في «سيعلم» من تهويل متعلّقه، وفي «الذين ظلموا» من الإطلاق والتعميم، وقد كان السلف الصالحُ يتواعظون بها، وختم بها أبو بكرٍ رضي الله عنه وصيَّته حين عهد لعمر رضي الله عنه، وذلك أنه أمر عثمان رضي الله عنه أن يكتب في مرض موته حينئذٍ: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عَهِدَ به أبو بكر بن أبي قُحافةَ عند آخرِ عَهْدِه بالدنيا وأولِ عَهْدِه بالآخرة، في الحال التي يؤمنُ فيها الكافرُ ويتَّقي فيها الفاجرُ، ويَصْدُقُ فيها الكاذب، أنِّي قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب، فإنْ يعدل فذاك ظنِّي به ورجائي فيه، وإن يَجُرْ ويبدِّل فلا عِلْمَ لي بالغيب، والخيرَ أردتُ، ولكلِّ امرئ ما اكتسب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(٢).

وتفسير الظلم بالكفر وإن كان شائعاً في عدَّة مواضعَ من القرآن الكريم إلَّا أنَّ الأنسب على ما قيل هنا الإطلاقُ؛ لمكان قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾.

وقال الطيبيُّ: سياقُ الآية بعد ذكر المشركين الذين آذوا رسول الله ﷺ، وما لقي منهم من الشدائد كما مرَّ من أول السورة، يؤيِّد تفسيرَ الظلم بالكفر.

وروى محيي السنَّةِ: «الذين ظلموا»: أشركوا وهَجَوا رسول الله ﷺ(٣).

وقرأ ابن عباس، وابن أرقم عن الحسن: «أيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتون» بالفاء والتاء الفوقية(٤)، من الانفلات بمعنى النجاة، والمعنى: إن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى، وسيعلمون أنْ ليس لهم وجهٌ من وجوه الانفلات.

---

(١) الأغاني ٢١/ ٣٧٣، والكشاف ٣/ ١٣٣.

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ٢/ ٦٧٢، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣٦-٢٨٣٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٠٥.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٤٩، والكلام منه.

و«سيعلم» هنا معلَّقة، و«أيَّ» استفهام مضافٌ إلى «منقلب»، والناصبُ له «ينقلبون»، والجملة سادَّةٌ مسدَّ المفعولين، كذا في «البحر»[١]. وقال أبو البقاء: (أَيَّ مُنقَلَبٍ) مصدرٌ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، والعاملُ (يَنقَلِبُونَ) أي: ينقلبون انقلاباً أيَّ منقلبٍ، ولا يعملُ فيه (يَعْلَمُ) لأنَّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله[٢].

وتعقِّب[٣] بأنه تخليط؛ لأنَّ (أيًّا) إذا وصف بها لم تكن استفهاماً، وقد صرَّحوا بأنَّ الموصوف بها قسيمُ الاستفهامية، وتحقيقُ انقسام (أيّ) يُطلب من كتب النحو، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما قيل في بعض الآيات من باب الإشارة: ﴿طسٓمٓ﴾ قال الجنيد: الطاءُ طَرَبُ التائبين في ميدان الرحمة، والسينُ سرورُ العارفين في ميدان الوصلة، والميم مقامُ المحبِّين في ميدان القربة.

وقيل: الطاءُ طهارةُ القدم من الحدثان، والسين سناءُ صفاتِه تعالى التي تكشفُ في مرايا البرهان، والميم مَجْدُه سبحانه الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان.

وقيل: الطاءُ طهارةُ قلبِ نبيِّه ﷺ عن تعلُّقات الكونين، والسينُ سيادتهُ ﷺ على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، والميم مشاهدتهُ عليه الصلاةُ والسلام جمالَ ربِّ العالمين.

وقيل: الطاءُ شجرة طُوبَى، والسينُ سِدْرةُ المنتهى، والميمُ محمدٌ ﷺ. وقيل غيرُ ذلك.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى كمال شفقته ﷺ على أمته، وأنَّ الحرص على إيمان الكافر لا يمنع سوابقَ الحُكْم.

---

(١) ٧/ ٤٩.
(٢) الإملاء ٤/ ١٢٥.
(٣) المتعقب هو أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إلى آخر القصة، فيه إشارةٌ إلى حُسْنِ التعاضُدِ في المصالح الدينية، والتلطُّفِ بالضالِّ في إلزامه بالحجج القطعية، وأنه لا ينبغي عدمُ الاحتفال بمن ربَّيته صغيراً، ثم رأيته وقد مَنَحه الله تعالى ما مَنَحه من فضله كبيراً.

وقال بعضهم: إن فيه إشارةً إلى ما في الأنفس، وجَعَلَ موسى إشارةً إلى موسى القلب، وفرعونَ إشارةً إلى فرعون النفس، وقومَه إشارةً إلى الصفات النفسانية، وبني إسرائيل إشارةً إلى الصفات الروحانية، والفَعْلَةَ إشارةً إلى قتل قبطيِّ الشهوة، والعصا إشارةً إلى عصا الذِّكر، أعني: لا إله إلا الله، واليدَ إشارةً إلى يد القدرةِ، وكونَها بيضاء إشارةً إلى كونها مؤيَّدةً بالتأييد الإلهي، والناظرين إشارةً إلى أرباب الكشف الذين ينظرون بنور الله تعالى، والسَّحرةَ إشارةً إلى الأوصاف البشرية والأخلاق الرديَّة، والناسَ إشارةً إلى الصفات الناسوتية، والأجرَ إشارةً إلى الحظوظ الحيوانية، والحبالَ إشارةً إلى حبال الحيل، والعصيَّ إشارةً إلى عصيِّ التمويهات والمخيّلات، والمدائن إشارةً إلى أطوار النفس، وهكذا.

وعلى هذا الطريق سلكوا في الإشارة في سائر القصص، فجعلوا إبراهيم إشارةً إلى القلب، وأباه وقومَه إشارةً إلى الروح وما يتولَّد منها، والأصنامَ إشارةً إلى ما يلائم الطباع من العُلْويَّات والسُّفْليات، وهكذا مما لا يخفى على مَن له قلب أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد.

وللشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في هذه القصص كلامٌ عجيبٌ مَن أراده فليطلبه في كتبه، وهو قدِّس سرُّه ممن ذهب إلى أنَّ خطيئة إبراهيم عليه السلام التي أرادها بقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ كانت إضافةَ المرض إلى نفسه في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقد ذكر قدِّس سرُّه أنه اجتمع مع إبراهيم عليه السلام فسأله عن مراده بها فأجابه بما ذُكر. وقال في باب أسرار الزكاة من «الفتوحات»: إنَّ قول الرسول: «إن أجري إلا على ربِّ العالمين» لا يقدحُ في كمال عبوديته، فإنَّ قوله ذلك لأنْ يُعْلِمَ أنَّ كلَّ عملٍ خالصٍ يطلب الأجر بذاته، وذلك لا يُخْرِجُ العبدَ عن أوصاف العبودية، فإنَّ العبد في صورة الأجير وليس

بأجيرٍ حقيقةً، إذ لا يستأجِرُ السيدُ عبدَه بل يَسْتأجِرُ الأجنبيَّ وإنما العملُ نفسُه يقتضي الأجرة، وهو لا يأخذها وإنما يأخذها العامل وهو العبدُ، فهو قابضُ الأجرة من الله تعالى، فأشْبَهَ الأجيرَ في قبض الأجرة وخالفه بالاستئجار[١]. اهـ.

وحقَّق أيضاً ذلك في الباب السادس عشر والثلاث مئة من «الفتوحات»[٢].

وذكر في الباب السابع عشر والأربع مئة منها أنَّ أجر كلِّ نبيٍّ يكون على قَدْرِ ما ناله من المشقَّة الحاصلة له من المخالفين[٣].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه ليس للشيطان قوةُ حَمْلِ القرآن؛ لأنه خُلِقَ من نارٍ وليس لها قوةُ حَمْلِ النور، ألا ترى أنَّ نار الجحيم كيف تستغيثُ عند مرور المؤمن عليها، وتقول: «جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورُك لَهبي»[٤]؟ ولنحو ذلك ليس له قوةٌ على سمعه، وهذا بالنسبة إلى أول مراتب ظهوره، فلا يَرِدُ أنه يلزم على ما ذُكر أن الشياطين لا يسمعون آيات القرآن إذا تلوناها ولا يحفظونها، وليس كذلك. نعم ذُكر أنهم لا يقدرون أن يسمعوا آية الكرسيِّ وآخر «البقرة»، وذلك لخاصيةٍ فيهما.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فيه إشارة إلى أنَّ النسب إذا لم ينضمَّ إليه الإيمانُ لا ينفع شيئاً، ولمَّا كان حجابُ القرابة كثيفاً أُمر ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هم أهلُ النسب المعنويِّ الذي هو أقرب من النسب الصُّوري، كما أشار إليه ابنُ الفارض قدِّس سرُّه بقوله:

نَسَبٌ أقربُ في شَرْعِ الهوى ... بيننا من نَسَبٍ من أَبَوَي[٥]

وأنا أَحْمَدُ الله تعالى كما هو أهلُه على أنْ جَعَلني من الفائزين بالنسبين، حيث

---

(١) بنحوه في الفتوحات ١/ ٥٧٥.
(٢) الفتوحات ٣/ ٦٣.
(٣) الفتوحات ٤/ ٢٣.
(٤) سلف ١٦/ ١٤٩.
(٥) ديوان ابن الفارض ص١٩.

وَهَبَ لي الإيمان، وجعلني من ذرِّية سيد الكونين ﷺ، فها أنا من جهةِ أمِّ أبي من ذرِّية الحسن، ومن جهة أبي من ولد الحسين رضي الله عنهما:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى نوراً ومن فَلَق الصباح عمودا

والله عزَّ وجل هو وليُّ الإحسان المتفضِّل بصنوف النعم على نوع الإنسان، والصلاةُ والسلامُ على سيد العالمين وآله وصحبه أجمعين.